شؤون فلسطينية

٣٤

حزيران (يونيو) ١٩٧٤

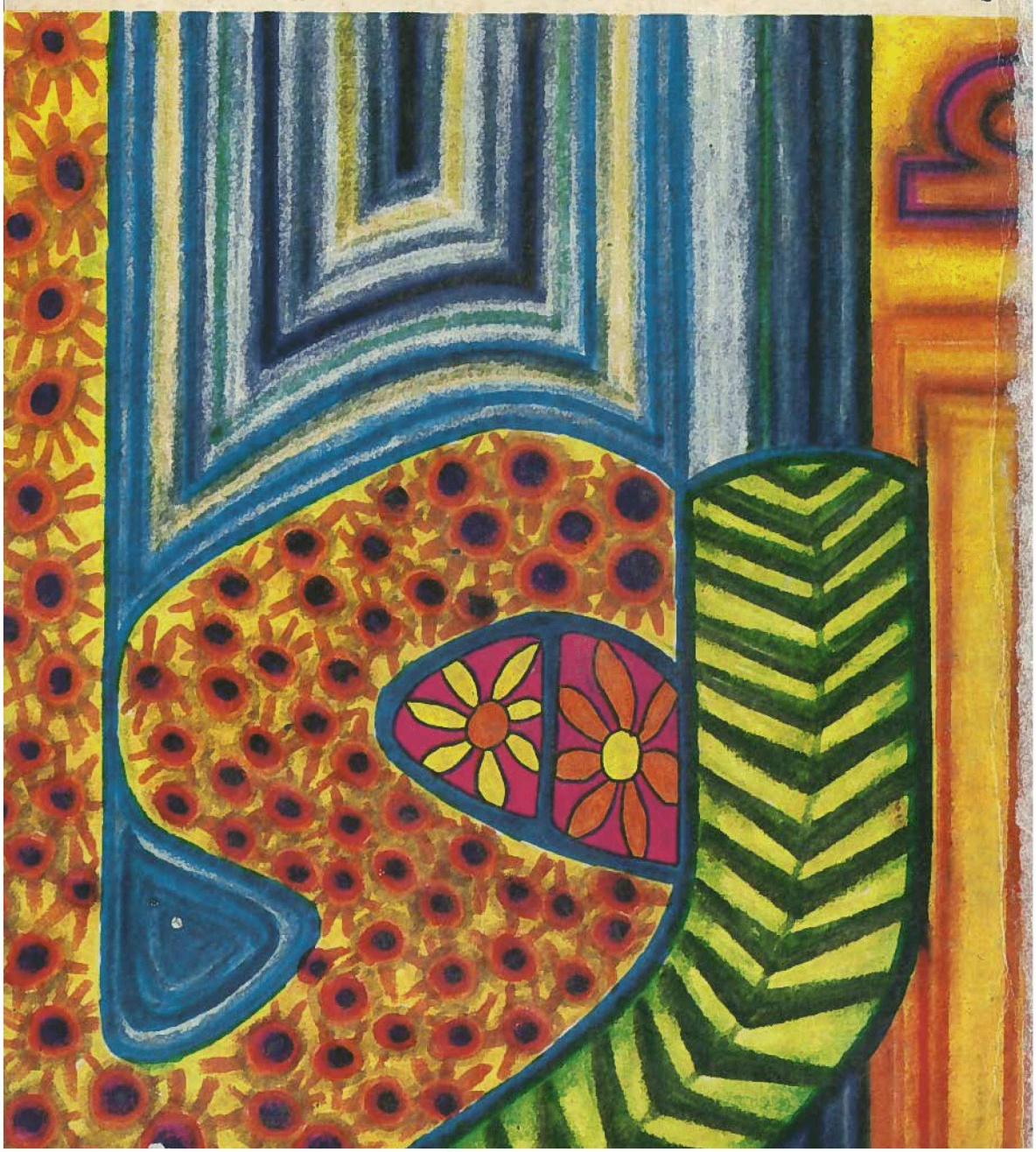

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٣٤ — حزيران (يونيو) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين.

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ،
ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ،
برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤١/٢ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٩٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف : لوحة « اريحا »

المحتويات

صفحة ٤ **شؤون فلسطينية** ، الدكتور انيس صايغ .

٥ **حساب النفس وخداع النفس** ، محمود درويش .

١٥ **النزاع الاقليمي في مرآة الوفاق الدولي** ، الدكتور أسعد عبد الرحمن .

٣٠ **الوضع القانوني للسكان العرب في المناطق المحتلة** ، صبري جريس .

٤٦ **الاقتصاد الاسرائيلي : تفسير** ، الدكتور ابراهيم م. عويس .

٦٦ **مرحلة الانتقال في الادب الاسرائيلي المعاصر** ، الدكتور رشاد الشامي .

٧٨ **اللغة ، الشجر ، الدم** ، علي الخليلي .

٨٠ **بيت الجنون : مسرحية فلسطينية رائدة** ، ريتا عوض .

٨٩ **كندا بين العرب واسرائيل** ، الدكتور طارق يوسف اسماعيل .

٩٥ **الهستدروت والمجتمع الاسرائيلي** ، انطوان منصور .

١٠٨ **بين الوفاق والانفراج** ، اسحق الخطيب .

١٢٣ **مناقشات** ، حسين ابو النمل .

١٣٦ **مراجعات** : تفسير الشائام هاوس ، الدكتور وليم سليمان . اسرائيل : واقع جغرافي ، عبدالله ابو عياش . رسائل حاييم وايزمان (الجزء الرابع)، نجدة فتحي صفوة . سفر بين الينابيع ، ماجد صالح السامرائي .

١٥٣ **الفلسطينيون كما يبدون في الذهنية الاسرائيلية** ، عبد الحفيظ محارب .

١٧٦ **ثقافة** ، الياس خوري .

١٩٢ **رسالة من الارض المحتلة** ، ج. هـ. جانسن .

١٩٥ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، عصام سخنيني . (٢) القضية الفلسطينية دوليا ، صادق جلال العظم . (٣) المناطق المحتلة ، عبد الحفيظ محارب . (٤) اسرائيليات ، هاني العبدالله . (٥) القضية الفلسطينية عسكريا ، المقدم الهيثم الايوبي . ملحق عسكريا : تقرير حول سعي اسرائيل لاستخدام طائرة الهليكوبتر « كوبرا » ، هشام عبدالله . جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٤/١٦ — ١٩٧٤/٥/١٤ ، غـــازي خورشيد .

شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

الملايين من ابناء الثورة الفلسطينية ومؤيديها واصدقائها في الوطن العربي وفي العالم أجمع ينتظرون ، في هذه الايام الاخيرة من مايو ، انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني ، بترقب وبتتبع وباهتمام ، اكثر من اية اجتماعات سابقة عقدها المجلس المذكور منذ انشائه قبل ثماني سنوات . ويقترن هذا الاهتمام الشديد ، عند الملايين ، بأمل كبير بان يعبر المجلس العتيد عن رغبة الجماهير الفلسطينية والعربية واصدقائها باتخاذ موقف واحد ، تجاه المسائل المطروحة للنقاش ، التي تدور حول واقع العمل الفلسطيني ومستقبله ، تلتقي فيه الافكار المختلفة وتلتزم به التنظيمات ، ويكون في النهاية اعلانا حاسما وصريحا وتعبيرا صادقا عن وحدة الثورة الفلسطينية ، بأهدافها وبايمانها وبعزمها الاكيد على المضي بالثورة حتى النصر .

وقد كان مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، ومن ضمنه « شؤون فلسطينية » ، يعطي موضوع التقريب بين الاراء الفلسطينية اهتماما خاصا جسده في مشاريع ونشاطات وانتاجات كثيرة . وقد نشر المركز عدة دراسات ، تحليلية ووثائقية ، حول واقع المقاومة الفلسطينية (منها « المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني » باشراف د. نبيل علي شعث، و« دليل حركة المقاومة الفلسطينية » لغازي خورشيد ، و« اهداف حركة المقاومة الفلسطينية تجاه اليهود »، و « الوثائق الاساسية لحركة المقاومة الفلسطينية المسلحة » لليلى سليم القاضي) . وفي الوقت نفسه نشرت شؤون فلسطينية عشرات المقالات في الموضوع ، بحيث لا يكاد يخلو عدد واحد من بحث او نقاش على الاقل حول الوضع الراهن للعمل الفلسطيني . وقام المركز بترجمة ندوتين كبيرتين عقدتهما الشؤون ونشرتهما ، لقادة المقاومة الفلسطينية ، الى اللغة الانجليزية ونشرهما في كتابين (« فلسطين تحيا » و « القادة الفلسطينيون يتناقشون في التحديات الجديدة للمقاومة ») . والواقع ان القاسم المشترك بين جميع هذه البحوث والندوات والمقالات والكتب ، التي أعدها المركز ونشرها حول الواقع الراهن للعمل الفلسطيني ، هو ابراز النقاط التي تلتقي عندها المنظمات الفلسطينية ، وتبيان الاهداف الواحدة والقناعات المشتركة . فالثورة الفلسطينية ، كما فهمتها وتفهمها كتابات مركز الابحاث وشؤون فلسطينية ، وكما قدمتها وتقدمها للعالم ، هي ثورة واحدة ، متينة في تماسكها وصلبة في وحدتها ، مهما تعددت الاجتهادات ومهما بدا التباعد احيانا بين وجهات النظر . ولعل جو المجلس الوطني العتيد ، ونقاشاته وابحاثه وقراراته ، تكون تأكيدا جديدا على هذه الحقيقة البارزة .

عند نهاية الحرب التي لا نهاية لها
وعند بداية السلام الذي لا بداية له

حساب النفس
وخداع النفس

محمود درويش

● قد يكون من الصعب التوصل الى قناعة عامة بأن المشروع الصهيوني على أرض فلسطين قد دخل مرحلة بداية النهاية .

ولكن ، ليس من الصعب القول ان التجربة ، ذات الجوهر الواحد في هذا المشروع تواجه بعد الحرب الاخيرة ، أخطر مفترق طرق في تاريخ اسرائيل .

وبعيدا عن تفاصيل الصراع والحيرة داخل اسرائيل ، فان الازمة الاسرائيلية ، كما يبدو في هذه المرحلة ، تنبع من صعوبة الاختيار الذي يفرضه مفترق الطرق الغامض الذي أوصلت الطريقة العسكرية المجتمع الاسرائيلي اليه .

ولا تعود صعوبة الاختيار الى تردد الاهداف الصهيونية وحيرتها ، فهي واضحة لاصحابها ، ولكنها تعود الى اعادة حساب القدرة على تحقيق هذه الاهداف وتطبيقها . ان اسرائيل لم تتغير ، وجوهرها الصهيوني لم يطرأ عليه اي تعديل . ولكن مناخ المنطقة هو الذي تغير وفرض على الاسرائيليين ضرورة البحث عن نوع من التغيير في أساليبهم .

لقد دخل المشروع الصهيوني العام الاول من ربع القرن الثاني . كان عيدهم الاخير أكثر الاعياد حزنا . ذرفوا من الدموع أكثر مما كانوا يذرفون في ذكرى أيام السبي ، حتى كادت هذه الدموع تغرق المراقبين العرب وتجعلهم يحسبون الزمن الباقي من عمر اسرائيل بالايام والساعات .

فهل تشعر اسرائيل بأنها مهزومة فعلا ؟ .

ان حساب الهزيمة ، في العقلية والنفسية الاسرائيلية ، يختلف عن الحساب المعتاد . ان مجرد كونهم لم ينتصروا في الحرب الاخيرة يخلخل قناعتهم ، ويدفعهم الى الادراك بأنهم قابلون للهزيمة . أي : أن عدم انتصارهم هو بداية هزيمتهم . ولعلهم قد افاقوا على هذه الحقيقة بشكل مفاجيء جعلهم يتحسسون جلودهم وعقولهم . لقد ماتت فيهم قناعة الصخر ، وولدت فيهم أسئلة كان يجب عليهم ان يطرحوها منذ زمن طويل . ان كل ما كانوا يدعونه من حق كان يدعم بشرعية القوة حتى تحولت هذه القوة الى الاداة الوحيدة لصياغة المجتمع الاسرائيلي ووقايته . وحين تعرضت هذه القوة — الناموس الى خدش ، وجد الاسرائيليون أن كل دعائمهم ومحاكماتهم الفكرية والاجتماعية قابلة للانهيار . حتى أن « الحق » على فلسطين الذي خاضوا تحت لوائه أربع حروب ليس حقا ممتنعا عن الطعن والشك فيه .

واذا كان من الصعب الاجماع على القول ان اسرائيل دخلت مرحلة بداية النهاية ، بتصدع القاعدة الاساسية للزمن الاسرائيلي ، وهي قاعدة الامن التي شكل الايمان المطلق باستحالة خلخلتها جوهر التجربة الاسرائيلية طيلة ربع القرن الفائت ، فانه ليس صعبا بالمقدار ذاته القول ان هذه المرحلة هي مرحلة الدخول في نهاية البداية الاسرائيلية كما صيغت حتى الان .

ان الكثيرين من المفكرين والمثقفين الاسرائيليين قد توصلوا الى القناعة بأن اسرائيل القوية قد انتهت . وان استمرار تجربة شرعية العنف التي خلقت حتمية الحرب الدائمة ستحفر قبر المشروع الصهيوني حتى لو انتصرت اسرائيل . « انتصار آخر كهذا ، وذموت » .

لقد وصف أحد الكتاب الاسرائيليين البارزين ، عاموس كينان ، ما يجري في الحياة الاسرائيلية ، منذ حرب تشرين حتى الان ، بأنه عملية حساب حقيقي مع النفس ، لم يحدث لها مثيل منذ ست وعشرين سنة . ولخص ما يجري بأنه شهادة على التدهور التدريجي الاكيد لكل البناء الذي أقامه مؤسسو الدولة عام ١٩٤٨ . ونقل عن شخصية اسرائيلية بارزة شاركت في كل المعارك السياسية الدولية التي سبقت قيام اسرائيل قولها : « ان دولة اسرائيل السابقة ، الدولة التي أنشئت عام ١٩٤٨ غير موجودة الان. لقد انتهت » [يديعوت احرونوت ٧٤/٤/٢٤] .

ووصف المعلق السياسي البارز في صحيفة « يديعوت أحرونوت » أرئيل غيناي العام السادس والعشرين من عمر اسرائيل ، بأنه نقطة تحول . وأجرى مقارنة سريعة بين هذا العام والعام السابق قائلا : « في العيد الماضي كان الاسرائيليون هم الذين ضربوا الفدائيين في قلب بيروت . أما اليوم فان الفدائيين هم الذين يضربون كريات شمونة . وقبل سنة كانت تفصلنا عن مصر قناة السويس . وكنا نعتبر الانسحاب من خط القنال كارثة . واليوم نعرف انه لا وجود لسد منيع ». [٧٤/٤/٢٤] .

وحذر الجنرال المتقاعد متتياهو بيلد من الانتصارات العسكرية التكتيكية ، وقال في مقال بصحيفة « معريب » ان الانتصار التكتيكي قد لا يخدم هدف الحرب . وعدم تحقيق هدف الحرب معناه الهزيمة .

واستخلص الجنرال من انتصار اسرائيل في حرب حزيران العبرة التالية : « ان العبرة السياسية الكبرى من حرب الايام الستة هي أنه قد آن الاوان بأن تبادر اسرائيل الى معركة سياسية كبيرة ومتعددة الجوانب من أجل السلام ، وهي تحمل ورقة مساومة ذات أهمية نادرة وهي المناطق المحتلة . ولكن قيادة اسرائيل السياسية قد بذلت جهودا لتشويه الصورة العسكرية لتبرر التوسع الاقليمي » . [٧٤/٤/٢٤] .

وحدد متتياهو بيلد التحدي الكبير الذي تواجهه السياسة الاسرائيلية للخروج من المأزق ، بضرورة وضع استراتيجية تدمج معطيات « حرب الاستقلال » مع امكانيات الدولة في تحقيق الهدف القومي وهو : ضمان قيام دولة اسرائيل والحيلولة دون المس بحدودها .

ان « حساب النفس » الذي انتجه «الزلزال» يصل الى كل المفاهيم والقيم الصهيونية الاسرائيلية . وهذه المراجعة الشاملة تنطلق من ادراك ان عدم النصر هو مقدمة الهزيمة . أو من أن المزيد من النصر العسكري ، في حال تحققه ، سيعطي مردود هزيمة ، لانه لن يكون قادرا على تحقيق هدف الحرب وهو التوصل الى السلام .

وتقود خلاصة هذه المراجعات أصحاب الاسئلة الى الشك بسلامة الطريق الذي

قطعته تجربة المشروع الصهيوني على المشروع ذاته . وثمة شبه اجماع حول ضرورة البحث عن طريق اخر لانقاذ المشروع من الفساد، ولصيانة الفكرة الصهيونية من الاسئلة التي تصيب جوهر الايديولوجيا الصهيونية .

ولعل أخطر ما أسفرت عنه هزة المجتمع الاسرائيلي بعد الحرب هو الوقيعة بين جيل من الشباب ، هم بناة اسرائيل في المستقبل ، وبين الفكرة الصهيونية من جهة ، وبينهم وبين « الحق » على أرض فلسطين من جهة ثانية .

صرخ عاموس كينان : هل توجد في حياتنا أهداف أخرى ، غير الاهداف الاقليمية وغير الاهداف العسكرية ؟ ، داعيا للخروج من أزمة الثقة الى صياغة حلم اسرائيلي جديد ، بعد انتهاء الحلم اليهودي القديم بالعودة الى « أرض الميعاد » .

البحث عن حلم جديد ، هو أحد المساعي المضنية التي يبذلها شباب اسرائيليون اكتشفوا أنهم خلقوا من أجل الحرب ، ولكن ، ماهو هذا الحلم الجديد ؟. لم يتمكن الحائرون الاسرائيليون من الاجابة عن هذا السؤال . ولكن مجرد طرح بعض الاسئلة يتمتع ، أحيانا ، بأهمية تفوق حكمة الاجوبة .

ولم يجد الشاعر ديدي منوسي مخرجا من منطقة الزلزال المتحركة الا بالتعلق بالثابت من جمال الطبيعة . لم يجد شيئا صالحا للدفاع والتمجيد في عيد المشروع الصهيوني السادس والعشرين :

« اذا كانوا قد انتزعوا منك البراءة
وفرح الايمان
واذا كانت الازهار الحمراء
لا تذكرك الا بالنار والخطر الذي لا نهاية له
فلا تستسلم
ولا تتنازل عن الربيع الرائع
الذي لا يعادله شيء
لا الوضع ولا النظام .
واذهب لتسكر من عبير البرتقال
لانه بدون هذا الحل المؤقت
سيكون مقضيا علينا » .

ويبدو أن اي حل ، ضمن الالتزام الصهيوني ، سيبقى حلا مؤقتا . حتى الازهار لا يذكر لونها الا بالنار والخطر الذي لا نهاية له .

لقد وصفت البروفيسورة رفقه شاتس اوبنهايمر ما يجري في اسرائيل بأنه أزمة روحية تجتاحنا بعد ست وعشرين سنة من قيام دولة اسرائيل . وردت مصدر هذه الازمة الى غياب السلام . ولكن هل سعت السياسة الاسرائيلية سعيا صادقا لتحقيق السلام ؟ ومن الافضل طرح السؤال بصيغة مختلفة : هل يتوافق جوهر المشروع الاسرائيلي ، وهو تطبيق الصهيونية ، مع السلام ؟

ان العلاقة المتنافرة بين هذين الجوهرين قد أوصلت كثيرا من الشباب الاسرائيليين الى أزمة الثقة بالفكرة الصهيونية . ومن هنا لم يكن الشاعر وحده هو الهارب من

الواقع الى أحضان الطبيعة الرومانسية . فالحاجة الى حلم جديد بعد مخاطر تطبيق الحلم القديم تأخذ في الفكر الاسرائيلي شكلا رومانسيا من البحث ، يشكل منهج البروفيسورة رفقه أحد مظاهره .

تقول في ندوة عقدتها صحيفة « معريب » [٧٤/٤/٢٤] في ذكرى قيام اسرائيل : « ان القضية الاساسية بالنسبة لنا هي تحقيق الصهيونية . والمسألة العينية هي ازمة الثقة بالمشروع الصهيوني ، والشك بقدرتنا على القيام بعبء استقلالنا . كل ذلك بسبب ضياع الطريق في الحروب المتكررة . وهنالك اليوم من يدعو الى الابطاء الصهيوني ويحاكم الميل الايتوبيا والحلم » .

ولكن هل يقدم اللجوء الى الحلم حلا لازمة الثقة ، أو هل تختلف صورة التطبيق الاسرائيلي عن محتوى الحلم الصهيوني ؟ . وهل يمكن تطبيق الحلم الصهيوني بشكل يقي الاسرائيليين من حتمية الحروب ؟ .

ان الاستاذة ترفض الحس التاريخي الذي يتمتع به البروفيسور يعقوب تلمون ، الذي يدعو دائما الى استخلاص العبر من تجارب شعوب اخرى عبر التاريخ ، أوصلتها أخطاؤها الى النهاية بسبب اسرافها في السعي لتحقيق مطامح لا تتسع لها قدراتها الوطنية . وترى ان اسرائيل تواجه ، في هذه المرحلة ، اختيار احدى الامكانيتين : اما وقف المد الصهيوني والرضوخ لحكم العالم . واما استمرار الكفاح مع الاحتفاظ بالمناطق المحتلة . اي : استمرار الحرب .

ولكن تحقيق المطلب الصهيوني معناه التنازل عن مطلب السلام ؟ هكذا سئلت الاستاذة ، فأجابت بالدعوة للعودة الى الايتوبيا « يجب ألا نخجل من ذلك . فبدون هذا الحلم نخسر أحد أهم الاسس في هويتنا اليهودية ، وليس في الصهيونية فحسب » .

ولكن ، مرة اخرى ، الا تعرض هذه النزعة اسرائيل الى الخطر ؟. اليس الوقوف ضد تيار التاريخ انتحارا ؟ وما هي عناصر الحلم الجديد ، ان لم تكن اعادة ترتيب العناصر ذاتها التي أدى تطبيقها الى أزمة الثقة بين الاسرائيلي وبين الحلم المحقق !

ان التخلص من مساوىء تحقيق الحلم الصهيوني ، حتى ينحصر في الاعتراض التفصيلي على طريقة التطبيق ، ينقل التجربة من خطأ الى خطأ افدح . ولا يبدو ان الاسرائيليين قادرون على التغلغل في ظاهرة أزمة الثقة الى جوهرها . فليس الخطأ في جسد الحلم ، بقدر ما هو في الحلم ذاته .

قضيتهم الاساسية جميعا هي : كيف نحقق الصهيونية ؟ ان المعتدلين ينسبون أسباب الوصول الى الباب المسدود بتجاوزات التطبيق الاسرائيلي للصهيونية ، والتمادي في درجة الظلم الذي لحق بالشعب العربي من جراء هذا التطبيق .

ولكن ، هل يمكن العثور على وسيلة لتطبيق الصهيونية دون ان يكون الظلم نصيب العرب ؟

ليس بوسع أصحاب الفكرة الصهيونية ، بعد الان ، ان يستخدموا الذريعة القوية القائمة على أن الاباء لم يحسبوا حساب وجود شعب آخر على أرض فلسطين . وان أزمة الثقة الان بين بعض الشباب الاسرائيليين وبين الارض الفلسطينية يعود الى اصطدام علاقة الاسرائيلي بالارض بعلاقة شعب اخر بهذه الارض ، وخروج هذه العلاقة من دائرة الشكوى القانونية الى الممارسة العملية والاستعداد للموت في سبيل ترسيخها . هذا هو جوهر الصراع الدائر ، فكيف تكتمل عملية تحقيق الفكرة

الصهيونية وصيانتها من أزمة الشك ، من جهة ومحاولة تجربة السلام من جهة اخرى ؟

ان الحرب التي صاغت الشخصية الاسرائيلية ، وخلقت قاعدة مادية للاستقلال اليهودي على أرض فلسطين ، هي نفسها التي تكررت وقادت الاسرائيلي الى الاوهام ، ثم قادته الى المأزق التاريخي ، فصار يشكو منها حين لم تعد قادرة على الاستمرار في صياغته . فهل تخلصه محاولة السير في طريق غير الحرب من عذاب الحرب ، أم تخلصه مما أعادت عليه الحرب من مكاسب ؟

ان الصهيونية الاسرائيلية تشكو من الاستمرار في دفع ثمن الحرب ، ولكنها تطالب بالاحتفاظ بثمار الحرب ، وعلى رأسها الارض الفلسطينية .

وان اغلبية الاسرائيليين لم تتوصل الى استحالة الاحتفاظ بهذه المعادلة : تطبيق الصهيونية وتطبيق السلام . وليست فكرة « الصهيونية العمودية » بدلا من « الصهيونية الافقية » التي نادى بها أريه اليعاف الا مظهرا من مظاهر الاعتقاد الصهيوني الليبرالي الشائع بالقدرة على الاحتفاظ بهذه المعادلة .

يقول البروفيسور الاسرائيلي برينكر : « لا يوجد سبب للقول انه عندما نتنازل عن حلم اسرائيل الكاملة في حدودها الطبيعية ، فان الامر يعني تنازلا عن الحلم الصهيوني او تنازلا عن ايتوبيا المجتمع الاسرائيلي » . ولكن الدكتور يقع في شرك المنطق حين يسأل : وماذا بشأن الهجرة ؟. فيقول : « من المحظور علينا ان نتنازل عن حلم الهجرة . ان كل مبرر قيام دولة اسرائيل يقوم على الهجرة .. انها مرتبطة بحق الهجرة . ان هجرة اليهود الحرة الى اسرائيل ليست موضوع مساومة ، حتى لو كان ذلك من أجل تحقيق سلام حقيقي . وهذا يعني انه اذا كان الخيار هو الحرب ضد العرب حول الهجرة ، فاني أؤيد الحرب ضد العرب » .

من هنا ، يكون « التنازل » الصهيوني عن بعض المصالح في بعض المراحل شرعية صهيونية لمصلحة الصهيونية وليس تخليا عنها . ومن هنا أيضا يكون البحث عن حلم جديد اعادة لترتيب عناصر الحلم القديم بما يتلاءم مع المرحلة الجديدة .

ولكن ، هل يشتمل هذا التحايل على التاريخ اجابة على الاسئلة الصعبة التي طرحتها أزمة الثقة الناجمة عن ظاهرة اللانصر التي صدمت الاسرائيليين ؟ وهل بوسع الليبراليين الاسرائيليين أن يرمموا شظايا « الحق » الاسرائيلي الذي فجرته أسئلة الشباب ؟

لننظر أولا الى بعض هذه الاسئلة ، كما نشرتها صحيفة « معريب » [٧٤/٣/٢٤] :

« هل يوجد لمبررات الحق التاريخي أية قيمة . أم انها مجرد حيلة سياسية ؟.

ان حقنا على أرض اسرائيل يتناقض مع التطلعات القومية للوجود الفلسطيني . كيف يمكن حل هذه القضية ؟

هل يمكن أن يكون المبرر الاقتصادي سببا للتوسع الاقليمي ؟ وهل علينا الاعتماد على القوة ام على المبرر التاريخي ؟.

هل حقنا الادبي النابع من محاولة القضاء علينا في الحرب العالمية الثانية يعطينا الحق في اقامة دولة مستقلة لليهود ؟.

ما هو حق اسرائيل التاريخي في منطقة الساحل التي لم يسكنها اليهود في التاريخ القديم ؟.

هل البقاء لمدة خمس وعشرين سنة في مكان ما يمنحنا الحق التاريخي لملكية هـذا المكان ؟. والا فما هي المقاييس التي يتقرر بموجبها الحق التاريخي على مستوطنة ما ؟».

كانت قوة الردع الاسرائيلية قد ردعت العقلية الاسرائيلية العادية على طرح مثل هذه الاسئلة ، وكان الاحتكام الى الحق الذي تخلقه القوة هو الاجابة الجاهزة لانهـا « لم تخطىء محاكمتها » . وكان مصطلح « لا خيار » ، الـذي استخدمته السلطـة الاسرائيلية قبل كل حرب ، شائع المفعول بشكل يعفي العقل من حركته . وأهم من ذلك: كان الذهاب الى الحروب السابقة ذهابا الى الحل المؤقت لمشاكل اسرائيل الداخلية . وعشية حرب تشرين اعلن رئيس اركان الجيش الاسرائيلي أنه اذا اندلعت حرب جديدة، فستكون « حرب الحساب مع العرب » . ولم يخطر ببال الاسرائيليين أنها ستكون حرب حساب الاسرائيلي مع مؤسسته العسكرية والسياسية ، ومع فكرته التي حارب تحت لوائها دون أن يناقشها .

وان مناقشة الفكرة الصهيونية ، كما نرى من اسئلة الطلبة وبعض الجنود ، قد ارتقت الى درجة الشك بشرعية الوجود الاسرائيلي « والحق اليهودي » على أرض فلسطين ، وهي الحلقة الجوهرية في أزمة الثقة وفي الازمة الروحية .

وكان المكاتب بوعز عفرون أجرأ من اقتحم المحراب الصهيوني في مناقشة الطريقة التي تطرح بها الصهيونية حقها على فلسطين ، وتشر كل الدعاوي الصهيونية الكلاسيكية واحدة واحدة . ولاحظ ان الشك بشرعية اسرائيل جاء في الذكرى السادسة والعشرين لتأسيسها ، ولكنه « رافق المشروع منذ البداية » . ونفى في مقاله المنشور في صحيفة « يديعوت أحرونوت » [٧٤/٤/٢٤] أن تكون أسباب الشكوك بالشرعية الاسرائيلية ناتجة عن نقص في التثقيف . وقال ان مثل هذه الشكوك ما كانت لتثور ، منذ البداية، لو ان فلسطين كانت كما صورها الصهاينة الاوربيون الاوائل بأنها « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » .

ومع ذلك ، فان الكثيرين من الصهيونيين قد خدعوا أنفسهم بأن هذه الارض خالية من السكان « ولكن كل خطوة خطوها في البلاد اصطدمت بواقع ان تلك الفرضية كانت وهما » . وكل مبنى الاستيطان العبري قد صمم وفقا لواقع الصدام مع العرب . وهذا ما حدث : ان شعبا محبا للسلام ولا يحب العنف بطبيعته ، قد تحول الى واحد من اكثر الامم عسكرية في العالم ، لان هذه البلاد لم تكن بدون شعب . وحدث أيضا أنه بعد كل صدام عبري عنيف وموجع مع الشعب الذي سكن هذه البلاد قبله ، ومع اخوته الذين يحيطون به ، ثار الشك في قلوب الشباب وغير الشباب بمدى شرعية كياننا هنا » .

يصطاد بوعز عفرون جوهر المسألة الذي يتجاهله كثير من المفكرين الاسرائيليين في معالجتهم أزمة الشك بالفكرة الصهيونية لدى شباب اسرائيليين ، وهو دور صراع الحق العربي في بعث هذا الشك ، وصعوبة انضباط التطبيق الصهيوني ومحاولة السلام في معادلة واحدة .

ان غياب العربي من الحلم الصهيوني ، وحضوره المقاتل خلال محاولة تطبيق هذا الحلم هما اللذان تتمحور حولهما المشكلة ، وان هذه المسافة الشاسـعة بين الحلم الصهيوني والوجود العربي هي التي أولدت أفدح ما يواجه القضية اليهودية من مخاطر، ونقلت اليهودي الذي عوض عن « ضياعه في المكان » ابداعا في الزمان ، من مكانه المسالم الى مكانه العدواني ، وصرف طاقاته في تشكيل شخصية جديدة في عصر انحسار مثل هذه الشخصية الاسبارطية عن مسرح صراع الجدارات في هذا الزمن . « لقد

جئنا متأخرين » هكذا صرخ البروفيسور تلمون ذو الحساسية البالغة تجـــاه دروس التـــاريخ .

ولكن الشك الذي « رافق المشروع من البداية » كان بحاجة الى مناخ للتبلور يستكمل فيه شرعية الاعلان . فقد كان نشازا في جو ما قدمته القوة العسكرية من براهين مضادة خلقت ، طيلة ربع قرن كامل ، انتعاشا متصاعدا وازدهارا مسكرا لشرعية الامر الواقع ولا محدودية العدوان والاستهتار بالطرف المضاد من قوى الصراع . أي ، كان حياء الشك بحاجة الى قوة خارجية تكسر القناعات السائدة . وهذا ما حدث في حرب تشرين التي لم تقنع الاسرائيليين بقابليتهم الطبيعية للهزيمة فحسب ، ولكنها أقنعتهم بأن هذه الحرب ليست آخر الحروب التي يليها السلام . أقنعتهم ان السلام ـــ على الشروط الاسرائيلية ـــ أكثر من بعيد ، ولكنه مستحيل .

واستقر في الادراك الاسرائيلي العادي السبب الحقيقي للحروب المستمرة ، فليست « عدالة » الصهيونية هي التي تتطلب هذا الثمن الدموي ، ولكن ظلمها لشعب آخـــر هو الذي خلق حالة الحرب الدائمة ، فكانت الحرب نسفا للادعاء الصهيوني بـــأن فلسطين أرض بلا شعب ، والا فلماذا تشن كل هذه الحروب ؟.

وقد عدد الكاتب بوعز عفرون سقوط القناعات والحجج الصهيونية حول الشرعيـــة الاسرائيلية في فلسطين ، وأولها : الحجة الهرتسيلة الشائعة حول « ضائقة اليهود » والتي تتلخص في ان اليهود أقلية مطاردة لانها لا تملك أرضا لها وحقا في تشكيل أكثرية قومية في مكان ما . ويقول عفرون ردا على هذه الحجة ، انها كافية لتأسيس المطالبة بأرض ـــ ولكنها غير كافية لانتزاع هذه الارض من شعب اخر وتشريده بين الامم .

الحجة الثانية هي أن اليهود باستيطانهم هذه البلاد يعودون بالتقدم والثقافة علـــى سكانها . ويرد الكاتب بقوله : ولكن ذلك يشترط موافقة السكان الاصليين على قبول هذه العطايا !

الحجة الثالثة ، هي أن اليهود هم سكان البلاد القدامى ، وان الثقافة الوحيدة التي ازدهرت هنا كانت ثقافة يهودية .

ويقول الكاتب ان هذه الذريعة تشكل سابقة خطيرة لا تستطيع أسرة الشعـــوب الموافقة عليها ، ففي مجرى التطور التاريخي استبدلت شعوب كثيرة أماكنها ، فهل يحق لكل شعب المطالبة بأرضه السابقة وطرد أصحابها الحاليين بالقوة ! اذن ، بوسع العرب ان يقولوا انهم انشأوا في أسبانيا حضارة كبرى ، وعلى أساس ذلك فمن حقهم المطالبة بانتزاع أسبانيا من سكانها .

الحجة الرابعة هي أن الشعوب مدينة لليهود بدين اخلاقي كبير ، وعليها أن تمنحها أراضي .

ويرد الكاتب قائلا ان الذين لاحقوا اليهود هم الاوربيون ، فلماذا يمارس الاوربيون هذا الكرم على حساب شعب لم يلحق بنا الاذى !

ويناقش بوعز عفرون محاولات الصهيونية التغلب على ضعف هذه الحجج بشتى الاجتهادات لافتعال قاعدة للشرعية الاسرائيلية ، منها نشوء شعب عبري جديد ، ومنها وعد بلفور الذي « وضع قاعدة لمكانتنا القانونية في البلاد » ولكنه يرفض هذا الادعاء ، لانه ليس من حق دولة مستعمرة مثل بريطانيا ان تمنح مثل هذا الحق .

ولا يبقى من المحاكمات الفكرية الا الذريعة الرسمية السائدة وهي ذريعة القوة ، التي مثلها الجنرال ديان في مرحلة ما قبل حرب تشرين ، وهي تعتمد على الاعتراف الصريح

بأنه لا أساس للعدل والحق الاخلاقي في الاستيطان الصهيوني في فلسطين . لقد كان هذا الاستيطان ، منذ البداية ، عمل عنف ونهب وسلب ، « فهذه هي الطريق المعتادة لخلق شعب جديد » .

وتعتمد هذه الحجة على القول بأن مصائر الشعوب لا يحددها العدل والحقـــوق الاخلاقية بل « الدم والحديد » وخلق الامور الواقعة . وما عدا ذلك من الذرائع الاخلاقية والقيم الانسانية ليست الا ستارا من دخان .

ان هذه النظرة الصريحة في المرافعة عن الشرعية الاسرائيلية تضع كل شيء على ميزان العنف والقوة . ويبدو ان اغلبية الاسرائيليين كانت أسيرة هذه المرافعة طيلة ازدهار حق العنف في تجربة ربع القرن الاول ، بدليل ان ما دفعهم الى اعادة النظر بخطورتها هو اختلال ميزان العدل الدموي بعد حرب تشرين .

ويلاحظ الكاتب عفرون ان هذه النظرة تنسف القاعدة الاخلاقية لاسرائيل ، وتعطي مبررا مقنعا لاعمال العنف المضاد . فاذا كان هذا هو ميزان الحق ، فكيف تندد بالعنف المضاد ؟ ولكن خطورتها على الاسرائيليين أنفسهم تكمن في انها تدفعهم الى التساؤل عن جدوى التضحية من أجل هذه البلاد ؟ طالما انهم يعرفون ان لا حق لهم فيها الا بالقـــوة ؟ .

يقول الكاتب : « ان وضع كل شيء على ميزان القوة يعني الاعتراض على اعترافنا الذاتي بحقنا . ومن هنا ينبع اعتراض على قوة صمودنا الاخلاقية . فمن يعتقد ان حقه في هذه البلاد ليس الا حق القوة ، كيف يشعر فعلا بأنها بلاده ؟ كيف يستطيع أن يحبها بدون قلب ؟ كيف يضحي في سبيلها . واكثر من ذلك : اذا كان كل شيء يتوقف على القوة والمنفعة الشخصية ، فلماذا لا يسلك كل شخص وفقا لذلك في سلوكه اليومي ؟ ان هذه النظرة تقود الى التفتت والانانية ، وهذا ما ظهرت بوادره الاولى في الحرب الاخيرة » .

من أين يأتي الحق اذن ؟

ان الكاتب الاسرائيلي بوعز عفرون لا يعترض على « الحق » الاسرائيلي في فلسطين ، رغم صعوبة البرهنة . ولكنه يعترض على الطريقة الصهيونية الرسمية والشاملة التي يبرر بها هذا « الحق » . انه يبحث عن حق اكثر حقا ، اكثر صمودا امام المحاكمات الفكرية والعلمية ، واكثر اقناعا .

ويعترف بأنه من الصعب العثور على حق حقيقي ومقنع للشعب اليهودي في فلسطين « ولكن من الممكن ايجاد تأسيس لحق الشعب الاسرائيلي في اسرائيل » .

ويعتمد في ذلك على عنصر الزمن الذي انضج واقع « نشوء هوية قومية فريدة في نوعها . صحيح ، اننا يهود ، ولكننا اسرائيليون أيضا . وهذا ليس الشيء نفسه تماما» .

لعله يريد القول ان للاسرائيليين الذين نشأوا في فلسطين حقا في هذه البلاد بسبب تبلور طابع وطني خاص بهم ، ولكن ليس لليهود في العالم مثل هذا الحق . « نحن هنا لان هذه البلاد بلادنا ، لان لنا علاقة غير مشروطة بها ، مهما كانت الاسباب التي دفـــعت بآبائنا للمجيء هنا » .

كان من السهل على عفرون ان يسقط المرافعة الصهيونية التقليدية (الحق التاريخي) والسياسية الحالية (حق القوة) في أرض فلسطين . ولكن لم يجد السهولة ذاتها في محاولته صياغة حق حقيقي اسرائيلي ، لانه اعتمد على منجزات ما رفضه قبل قليل « مهما كانت الاسباب التي دفعت بآبائنا للمجيء » .

ولان عفرون يتمتع بحس أخلاقي واضح ، فقد رأى ان ينفي صفة السلب عن بدايات الاستيطان اليهودي في فلسطين ، ليعثر على رقعة أخلاقية للحق الذي يدافع عنه « لقد تم الاستيطان اليهودي بالطرق السلمية وليس عن طريق السلب . لقد تم شراء الارض لا انتزاعها . أما نهب الارض فقد بدأ بعد حرب التحرير » .

ولعل الكاتب لا يعير اهتماما للجوهر الواحد في عمليتي الاستيلاء على الارض ، فالوطن لا يشترى . ولعله أيضا بحاجة الى المغالطة ليعثر على تلك الرقعة الاخلاقية من ارض الحق . ولكنه مع ذلك يعترف بصعوبة تأسيس الحق . « كل من يعيش هنا من حقه ان يحيا » ويشترط ذلك « بشرط الا ينزع هذا الحق عن الآخرين » .

● ماذا بعد عملية « حساب النفس » التي تجتاح المجتمع الاسرائيلي بعد مرور ربع قرن من خداع النفس ؟

ماذا بعد وصول حتمية الحرب الدائمة وقدرتها على خلـــق « الامر الواقع » الذي يؤسس قاعدة اوسع للحق .. الى الباب المسدود ؟

« انتصرت اسرائيل في ثلاث حروب ، وانتصرت تقريبا في الرابعة ، ومع ذلك لم يتم احراز أي تقدم نحو السلام . وهذا الامر كان يجب ان يقنع اكثر الناس تشككا بأنه لا أمل في اجبار العرب على التسليم بكيان اسرائيل بالانتصارات العسكرية ، والاستنتاج الوحيد من هذا الوضع هو أنه لا بد من بذل محاولة جادة للتوصل الى التفاهم معهم بالوسائل السياسية والنفسانية » (ناحوم غولدمان) . و« حان الوقت للتفكير بمستقبلنا ووقف الحروب » (موشه كول) .. و« بما اننا لا نستطيع اخضاع العرب ، وبما انهم لا يستطيعون هزمنا ، فلنجرب الوسائل السياسية » (يهودا شعاري) . « حرب تشرين اكدت انه لا يمكن تحقيق سلام حقيقي على الطريقة الاسرائيلية » (برينكر) .

هنالك شبه اجماع على أنه ليس بوسع اسرائيل ان تفرض ارادتها على العرب ، وبالتالي ليس بوسعها فرض السلام . وهذا الاجماع الذي استقطبته حرب تشرين ، يقود اسرائيل الى مفترق طرق ، فالاستمرار في الحرب الدائمة كحل وحيد للمشكلة « هو تدمير احد الطرفين ، ومعنى ذلك نهاية الدولة اليهودية مهما طال الوقت اللازم كي يحقق العرب هدفهم » كما يقول غولدمان .

ويرى البروفيسور تلمون ان استمرار التجربة الصهيونية على الطريقـــة السابقة سيؤدي الى سقوط الصهيونية ذاتها : « اذا استؤصلت جهود السلام ، فلن نخرج من الازمة أقوياء . سيزداد الحصار . وستقع الحروب بين فترة واخرى . وتزيد عزلتنا . كل ذلك سيؤدي الى سقوط الصهيونية حتى لو كانت حدودنا تمتد مـــن النيل الـــى الفرات » . ويضيف : « دون سلام لن يكون لنا وجود » .

مرة أخرى ، ماذا بعد تجربة الحرب الدائمة التي لم تحل مشكلة ؟

من الصعب التكهن بوجهة سير المرحلة الجديدة من تجربة المشروع الصهيوني . ان الاسرائيليين يحـــاولون التكيف مع معطيات المرحلة الجديدة ، ويمضـــون في تطبيق الصهيونية على ضوء امكانيات هذه المرحلة . ان انقاذ الايديولوجية الصهيونية هو أحد المهام الرئيسية في نشاطهم . وستكون محاولتهم الدخول في تجربة السلام ـــ اذا حدث ذلك ـــ أحد أشكال المحاولات لانقاذ الصهيونية وتوطيدها . فالسلام ، الآن ، كما يبدو لبعض المفكرين الصهيونيين ليس تنازلا عن الاهداف الصهيونية ، ولكنه حاجة لاستكمال بناء الصهيونية،وانقاذ المشروع الاسرائيلي من المأزق التاريخي الذي قادتهم الحرب اليه.

وعبّر غولدمان عن ذلك بقوله : « ان امكانيات اسرائيل ستكون أسوأ في المستقبل او

بعد حروب أخرى . وذلك لسبب بسيط هو انه اذا هزمت اسرائيل ، فقد يكون معنى ذلك نهاية الدولة ، في حين أن انتصارا اسرائيليا لن يؤدي الى سلام أفضل » .

ان استمرار الحروب الدائمة سيزيد من شدة المأزق التاريخي : الهزيمة معناها تدمير المشروع الصهيوني ، والانتصار معناه ابقاء المجتمع الاسرائيلي في حالة الحرب التي تزيد من اصرار العرب على مواجهة التحدي ، وهكذا تستمر الحلقة المفرغة . ومعناه تعمق التفتت الداخلي وازدياد أزمة الثقة بين الاسرائيلي والمؤسسة والفكرة الصهيونية . ويصرخ كاتب : « الا توجد في حياتنا أهداف غير اقليمية وغير عسكرية » ؟

ولكن السؤال الصعب هو : هل تحل تجربة السلام ــ اذا خاضتها اسرائيل ــ مأزقها التاريخي ؟ او هل يستطيع سلاح السلام تحقيق ما عجز عنه سلاح الحرب طيلة ربع القرن الماضي ؟

ان أشد الاسرائيليين تفاؤلا لا يرى امكانية حقيقية للسلام ، ولكنهم يأملون في ان تكون التسويات الجزئية والاتفاقيات المحتملة حلقة في عملية صنع السلام التدريجي . « نحن بحاجة الى تسوية ، على الرغم من عدم قدرتنا الآن الوصول الى السلام ، لانه ليس بمقدورنا فرض السلام على العرب » (البروفيسور شلومو افنيري) . ويضيف : « اذا تمكنا من التوصل الى سلام ممكن ، واذا ما وصلنا الى وضع يستمر عشر او خمس عشرة سنة دون حرب ، عندها يوجد احتمال للتوصل الى السلام المنشود » .

ولكن السؤال يبقى قائما : هل تنسجم أهداف تحقيق المشروع الصهيوني ، مع المطالبة بالسلام ؟

ان الاجابة الاسرائيلية شديدة الغموض ، وليس البحث عن « حلم جديد » للنشاط الصهيوني الا أحد أشكال هذا الغموض الناتج عن حيرة الاسرائيليين أمام واقع لم يحسبوا له حسابا .

لقد أقاموا ربع قرن من التأسيس على حد السيف . وعندما تعرض هذا السيف للخدش تراءى لهم أن المؤسسة آيلة للسقوط ، فهل يستطيع سيف السلام أن ينشىء أعمدة أرسخ للهيكل الصهيوني ؟ وهل سيكون هذا السلام شكلا آخر من اشكال الصراع الطويل بين الصهيونية وحركة التحرر العربية ؟ أم ان المحاولة كلها لا تعدو كونها هدنة مؤقتة ستختل باختلال موازين القوى ؟

ان حق الاجابة على هذه الاسئلة ليس اسرائيليا بقدر ما هو عربي .

ولكن من الواضح ان مفترق الطرق الذي تواجهه تجربة المشروع الصهيوني أخطر تحد واجهته في تاريخها .

انها تقف الآن عند نهاية الحرب التي لا نهاية لها، وعند بداية السلام الذي لا بداية له.

النزاع الاقليمي في مرآة الوفاق الدولي

الدكتور أسعد عبد الرحمن

لو كان « تشارلز ديكنز » ــ الروائي البريطاني المعروف ــ ما يزال حيا لربما ردد عن هذا العصر ، عصر « الوفاق الدولي » ، عبارته الشهيرة « هذا افضل الاوقات، هذا اسوأ الاوقات » التي سبق له وان قالها قبل قرابة المئتي عام(١). وبقدر ما تصيب هذه العبارة كبد الحقيقة ، اذا ما سيقت في معرض وصف كنه عصر « الوفاق الدولي » ، فانها أيضا تلخص ، بايجاز بليغ ، السبب الابرز في الجدل ، المستمر الصاخب المتناقض، الدائر حول ما يسميه البعض « نعمة » الوفاق الدولي وما يعتبره البعض الاخر « نقمة » الصيغة الجديدة المهيمنة على شبكة العلاقات الدولية .

الوفاق في زوبعة الاهواء السياسية الذاتية :

وما كان لهذا الجدل ان يضير احدا لو انه بقي في اطار المناقشة النظرية الفلسفية وضمن خط الرياضة الفكرية الثقافية أو لو انه اقتصر على الحوار السياسي الهادىء البعيد عن التزوير . الا أن تجاوز ذلك كله عن طريق « لوي ذراع » الحقائق ونزع صفتي الموضوعية « والبراءة » ــ اذا ما جاز التعبير ــ عن مسار البحث والمقصد الخاصين بالحوار ، أدى الى حالة من التشويش الفكري لم يعد معه التحاور القائم جاريا من أجل خدمة هدف بناء ، بقدر ما اصبح سلاحا غير نظيف تشهره بعض الاطراف المتنازعة ضمن نطاق « الحرب الباردة » الجارية في منطقتنا وخارجها من جهة ، وسلاحا موظفا في خدمة الابتذال السياسي الشائع في فكر وممارسة الكثيرين هذه الايام ، من جهة ثانية .

فقد فسر البعض ما أصبح يعرف بظاهرة « الوفاق الدولي » على انها « مؤامرة » تم ، وفقا لها ، اقتسام العالم ضمن تنازلات متبادلة (محددة ، سرية وحاسمة) بين الدولتين الاعظم . كما أصر بعض من هذا البعض على ضم الصين الشعبية طرفا أصيلا ، أساسيا او ثانويا ، في ذلك الاتفاق ــ المؤامرة . ومنهم من صور الظاهرة على انها « ثلاجة العملاقين » التي تم فيها حفظ كافة النزاعات المحلية الاقليمية بحيث أصبح مستحيلا معه على الدول الصغيرة « تسخين » صراعاتها وحسم تناقضاتها .

واذا ما انتقلنا من العام الى الخاص ، وجدنا ان الاسواق السياسية الشرق اوسطية طفحت ، ربما أكثر من غيرها في مناطق العالم الاخرى ، بالذرائع التي تم « تعليبها » خصيصا في « مصانع » الاعلام الرسمي لاكثر من دولة عربية . وقد صبت جميع هذه الذرائع في مجرى واحد مؤداه ان الاتحاد السوفياتي ــ وهو الخاضع الراكع

---

* هذا هو الجزء الاول من دراسة مطولة استهدفت فحص حقيقة معادلة الوفاق الدولي تمهيدا لجزء ثان يرسم صورة النزاع الشرق اوسطي كما انعكس على مرآة الوفاق اثناء حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ مع اهتمام خاص بالظاهرة « الكيسنجرية » وحركتها في المنطقة خلال الحرب وبعدها .

في هيكل « الوفاق الدولي » ــ نذر التضحية بالحقوق العربية علـــى مذبح « الانتهاز الدولي » قربانا منه عن مصالحه الخاصة . وعليه ، مارس الاتحاد السوفياتي ضغطا تمثل ــ هكذا تتتابع « حقائق » هذا المنطق ــ في حجبه السلاح المتقدم عن هذه الدولة العربية او تلك منعا منه لكل جهد يهدف الى ترجمة ارادة القتال المبلورة لدى بعـــض الحكام العرب !!.

وعندما ثبت لاحقا ، باندلاع الحرب العربية ــ الاسرائيلية الرابعة ، ان التردد في القتال لم يكن ناجما عن سلاح سوفياتي (اتضح انه متوافر بنوعية متطورة وبكثافة) او عن قرار سياسي سوفياتي موهوم ملتزم بالتسوية السلمية طريقا اوحدا لحل النزاع (مع ان الاتحاد السوفياتي اكد علنا ، اكثر من مرة ، قبل الحرب انه يؤيد اعتماد الدول العربية « أية أشكال للنضال من أجل تحرير اراضيها »)(٢)، عندما ثبت ذلك كله وثبت معه ان التهم الملصقة بالوفاق الدولي وبالاتحاد السوفياتي انما نجمت عن غزل خفي كان جاريا آنذاك وفشل بعدئذ في تحريك قلب الولايات المتحدة ، بـــرزت في السوق السياسية العربية ذرائع جديدة معدة في مصانع الاعلام الرسمي العربي ذاتهـــا ، وملخصها ان حرب تشرين الاول تمت رغم ارادة الدولتين العظميين ، مع غمز صريح من قناة الاتحاد السوفياتي بشكل خاص(٣).

واذا كانت الذرائع والتهم والتشويهات المتعمدة المشار اليها اعلاه مجرد «مقتضيات» بدهية تفرضها طبيعة الصراع السياسي او حلقات في سلسلة « القواعد » المعترف بها في مجال « اللعبة السياسية » ــ الدولية والمحلية على حد سواء ــ فان اقصى ما تطمح اليه هذه الدراسة هو : **اولا** : تعرية ابرز المرتكزات التي يتكىء عليها البعض كلمـــا شهروا سلاح التشويه ذاك ، **وثانيا** : القاء خيوط ضوء قد تساعد على ازالة الظلال التي تلف بعض جوانب مدلولات « الوفاق الدولي » كصيغة من صيغ العلاقات الدولية بشكل عام ، وكأسلوب للتعامل بين الدولتين الاعظم بشكل خاص . واذا كان مفترضا للهدف الاول ان يتحقق في سياق البحث وضمن استنتاجات سطوره ، فان محـــاولة تحقيق الهدف الثاني مهمة يمكن لنا المباشرة في انجازها حالا .

المعنى الدقيق ــ البسيط للوفاق : ما هو ؟

على أن الاتجار بتفسيرات ذاتية حول « الوفاق الدولي » وتلبيسه اثوابا تتناسب مع هوى أو هدف سياسي معين ، وان كانا اسلوبين يفسران الخطأ المقصود والتشويه المتعمد والغموض المنتهز من قبل البعض ، فانهما لا يقدمان تفسيرا يشمـــل ايضاح اسباب الخطأ والتشويه غير المقصودين والغموض الذي يلف ، بالطبيعة والاصل ، تعبير Détente (الاصل الانجليزي لعبارة « الوفاق الدولي ») . ذلك التعبير الذي شاعت له ترجمة خاطئة (من الانجليزية الى الانجليزية ، ومن الانجليزية الى العربية ــ على حد سواء) أدت الى حرف معناه عن مدلولاته الحقيقية وسهلت مهمة من شاء الاستفادة من الخطأ الشائع ذاك لخدمة اغراضه السياسية الخاصة .

ففي حين ارتأى البعض تفسير الكلمة (Détente) على أساس انهـــا تعني تقـــاربا (Rapprochement) او معالجة « لعوارض التوتر دون أي تغيير حقيقي في اسبابها »(٤)، راجت ، بالعربية ، عبارة « الوفاق الدولي » على حساب غيرها من العبارات المترجمة الاخرى بالرغم من كونها ترجمة خاطئة لكلمة (Détente) . اذ ان هذه الاخـــيرة تعني « ارخاء للتوتر » ــ (Relaxtion of Tension) او « انهاء لتوتـــر بين دولتين او اكثـــر واستئنافا للعلاقات العادية بينهما »(٥)، في حين تعني كلمة « الوفاق » ــ في العلاقات الدبلوماسية ــ « الاتفاق في الرأي والعمل »(٦). هذا اذا ما استثنينا اشكالا اخرى من

الفهم الذاتي الذي اختزل معنى (Détente) وساواه بالتجارة بين الدولتين الاعظم تارة وبحقوق الانسان ، او الهجرة او الحد من السلاح او غير ذلك من المعاني الضيقة تارة أخرى(٧) .

اذن فما يشار اليه بعبارة « الوفـاق الدولي » ما هو ، في الحقيقـة وفي الترجمة الدقيقة للكلمة الاصلية ، الا « ارخاء » او « انهاء » للتوتر في العلاقات بين الدولتين الاعظم وغيرهما من الدول الاخرى . واذا كان هذا الشرح الموجز يقدم الاطار الخارجي لمعنى « الوفاق الدولي » فان صورته الكاملة ، بمعالمها الرئيسية وتقاطيعها الجزئية ، ستتضح ـــ تدريجا ـــ عبر مسار هذا البحث .

الوفاق القديم : ما هو ؟

والوفاق بمعناه البسيط والدقيق هذا ليس بالظاهرة الجديدة تماما . اذ ان الجهود الخاصة لتدليك العلاقات المتشنجة بين الدولتين الاعظم بدأت ، على وجه التقريب ، منذ منتصف الخمسينات بفضل مبادرات صدرت عن جهتين بارزتين :

ـــ جهود الاتحاد السوفياتي الاولية في اعقاب وفاة ستالين في العام ١٩٥٣ وما تلاها من تكريس رسمي لتلك الجهود تحت شعار « التعايش السلمي » . وقد تبنى المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي في العام ١٩٥٦ هذا الشعار وجعل منه حجر الزاوية في بناء السياسة الخارجية للدولة .

ـــ مبادرات الدول المتحررة النامية التي بدأت رحلتها الانفراجية ، داخل أعماق غابة العلاقات الدولية السائدة آنذاك ، مستقلة قطـار « عدم الانحياز » ـــ و« الحيـاد الايجابي » لاحقا ـــ من محطة « مؤتمر باندونج » في العام ١٩٥٥ .

الا ان بقايا المرحلة المكارثية في الولايات المتحدة الاميركية ، واصرار « جون فوستر دالاس » على رفع علم « من ليس معنا فهو ضدنا » على سارية « البيت الابيض » الاميركي ، وتطوع او تورط الرئيس ايزنهاور في تسجيل « تركة » الاستعمار القديم في « دائرة طابو » الامبريالية الجديدة وفقا لوثيقة « فراغ ايزنهاور » في العام ١٩٥٧ ، كانت جميعا بمثابة وضع عصي اميركية في دواليب عربة الانفراج الدولي الذي حاولت الدولة الاشتراكية الاولى والدول المتحررة النامية تسييرها على قضبان شبكة خطوط العلاقات الدولية*.

غير أن انتخاب جون كينيدي رئيسا جديدا للولايات المتحدة منذ مطلع العام ١٩٦١ ، وعبرة أزمة الصواريخ الشهيرة في العام ١٩٦٢ وما تلاها من ترتيبات تم الاتفاق عليها بين الجبارين بهدف « التعامل مع الازمات (Management of Crisis) ومن ضمنها انشاء « الخط الحار » بين الكرملين والبيت الابيض » جاءت كلها لتساعد في خلق أجواء بشرت بانفراج حقيقي تنقشع معه الغيوم التي كانت قد لبدت سماء العلاقات بين البلدين في الماضي . وقد تم ، في هذه الفترة ، التوقيع على اتفاقية حظر التجارب الجزئية (النووية) في العام ١٩٦٣ كما تم لقاء قمة ناجح بين كينيدي وخروتشيف في اعقاب اشتراك الاخير في أعمال الدورة الخاصة للامم المتحدة في العام ذاته . هذا وقد بادر الاتحاد السوفياتي ـــ في رسالة بعثها نيكيتا خروتشيف في ١٩٦٣/١٢/٣١ الـى جميع زعماء العالم ـــ بتوجيه دعوة الى جميع الدول لعقد « اتفاق او معاهدة دولية تتعهد فيها الدول بعدم

---

* هذا على الرغم من ان هذه الفترة شهدت اجتماعات على مستوى القمة بين بولغانين وايزنهاور في جنيف (١٩٥٥) ، وايزنهاور وخروتشيف في كل من كامب ديفيد (١٩٥٩) ، وباريس (١٩٦٠) . انظر
Keesings Archives 1973, p. 26003.

اللجوء الى القوة في سبيل حل الخلافات الاقليمية او النزاعات المتعلقة بالحدود »(٨).

ومع اغتيال كينيدي في نهاية العام ١٩٦٣ وسقوط زعامة خروتشيف في العام ١٩٦٤ ، أفرغت الرياح من اشرعة سفينة الانفراج الدولي بسبب السياسة المتعنتة المتشددة التي مارسها ليندون جونسون ، الرئيس الاميركي الجديد(٩)، وما تبعها ، في الجهة الاخرى ، من سياسة متصلبة منعزلة عن العالم اثر نجاح بعض قوى الجيش والامن والحزب في الاتحاد السوفياتي في « فرملة » سياسة « التخلص من آثار الستالينية » التي كانت ، في اندفاعها الشديد ، قد بدأت تتسارع بشكل مثل خطرا على التوازن العام في الداخل والخارج . ومما يجدر ذكره في هذا المجال ان قمة سياسة « الفرملة » تلك جاءت مع اعادة الاعتبار لستالين في عيده التسعين في ١٩٦٩/١٢/٢١ واعادة تشييد تمثاله على قبره في حزيران — يونيو ١٩٧٠(١٠).

لهذا كان أمرا طبيعيا ، والمؤثرات والتطورات فاعلة وجارية علـــى ذلك النحو في النظامين العملاقين ، ان يشهد العالم تسخينا لصراعهما الذي تحلق ، هذه المرة ، حول فيتنام بشكل خاص . وهكذا اسدلت الستارة على مرحلة الانفراج تلك بانتظار ظروف مؤاتية وزعامات جديدة تتولى مهمة اذابة الصقيع الذي جمد دماء الانفراج في عروق العلاقات المتشنجة بين الجبارين*.

الوفاق الجديد : ما هو ؟

ومع ان التمخضات التي أدت الى ولادة « الوفاق الجديد » غير معزولة عن مجمل التطورات التي سبقتها ، وبخاصة في فترة التقوقع السوفياتي والهجوم الجونسوني الاميركي اللذين تلازما طوال معظم سنوات النصف الثاني من الستينات ، فان بالامكان الاشارة الى العام ١٩٦٩ على انه النقطة الزمنية التي شهدت البداية الحقيقية للانعطاف الحاسم باتجاه هذه المرحلة من الوفاق الجديد(١١).

ويمتاز وجه هذا الوفاق عن سابقه بقسماته ومعالمه المحددة التي يمكن تبينها بوضوح في الاتفاقات الرسمية المعلنة . كما انه وفاق متعدد الرؤوس لا يقتصر على الاتحـــاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية بل يتعداهما ليشمل الصين الشعبية التي طالما حاول « الدركي » الاميركي حصارها ضمن نطاق « السور الصيني العظيم » سياسيا وثقافيا ودبلوماسيا واقتصاديا وعسكريا .

وعلى الرغم من أهمية العوامل الفردية الذاتية التي أسهمت في انضاج ثمرة الوفاق تلك ، فان وراء سياسات « ارخاء التوتر » التي اعتمدت من قبل الدول المعنية ، عوامل موضوعية تتصل بمختلف مناحي النشاطات الرئيسية ضمن مجتمعات تلك الدول . وفيما يلي استعراض موجز لهذه العوامل .

الوفاق : لماذا ؟

وتبرز في هذا المجال ملاحظتان عامتان اساسيتان :

الاولى : ان الدول الكبرى (وعلى وجـــه الخصوص الولايات المتحدة والاتحـــاد السوفياتي والصين الشعبية) وصلت في وقت متقارب ، وتحت وطأة ظروف متنوعة ،

---

* على ان هذا لا يعني حدوث انقطاع تام بين الدولتين الاعظم . فبالاضافة الى العلاقات الرسمية العادية، تم الاتفاق بينهما ، في العام ١٩٦٧ ، على اتفاقية الفضاء الخارجي بالاضافة الى الاتصالات التي تلت الحرب العربية — الاسرائيلية الثالثة واجتماع جونسون — كوسيجين في « جلاسبورو » في العام ١٩٦٧ . انظـــر : Ian Smart, «The Super-Powers and the Middle East,» *The World Today* (London: RIIA, Vol. 30, No. 1, Jan. 1974,) pp. 9-10.

الى حالة ملل وارهاق من العلاقات السابقة مما حفزها الى البحث عن صيغة هدنة تريحها مدة قد تطول أو تقصر .

والثانية : قيام توازن في القوى الاستراتيجية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ـ سواء كدولتين منفردتين أم كزعيمتين تقودان معسكرين متصارعين ـ مما أدى الى الغاء كل امكانية لانتصار احداهما على الاخرى انتصارا حاسما عن طريق استخدام القوة مما حتم عليهما ، بالتالي ، اعادة ترتيب اوضاعهما وعلاقاتهما وفقا للتطورات الجديدة . وتجدر الاشارة في هذا المجال ، الى ما اكده الرئيس ريتشارد نيكسون نفسه من ان التفوق الاميركي الحاسم في الاسلحة الاستراتيجية الذي كان قائما من (١٩٥٠ ـ ١٩٦٦) انتهى الى تفوق بسيط بين (١٩٦٧ ـ ١٩٦٩) والى توازن ثابت منذ العام ١٩٦٩(١٢).

أما **الاسباب الخاصة التي حدت بالولايات المتحدة** الى اعتماد سياسة الانفراج الجديد فنابعة بالاساس من شعور بضرورة « التوجه الى الداخل » لحل المشاكل شبه المستعصية التي تنتصب أمامها(١٣). وهذا التوجه لم يأت اعتباطا بل بفعل ضغوطات داخلية لها وزنها وشأنها :

● فالراي العام الاميركي ، خاصة في اعقاب فشل الهجمة الجونسونية في فيتنام وازدياد تورط الولايات المتحدة هناك الى درجة خطيرة مست مصالح ومشاعر كل عائلة اميركية بشكل مباشر او غير مباشر ، أصبح متشددا ازاء كل سياسة لا تخفف من التزامات البلاد في الخارج ناهيك عن السياسات التي تدعو الى استمرار او زيادة تلك الالتزامات(١٤).

● واذا كان « المزاج الاميركي العام » السائر باتجاه تقليص الوجود العسكري للولايات المتحدة في الخارج ينال استحسان وموافقة القوى والقواعد الشعبية اللبرالية من انصار « الانعزالية التقدمية » فانه ، أيضا ، يرضي القوى والجماهير المحافظة القلقة على ميزان المدفوعات الاميركي(١٥).

● كما يجدر التنويه ، باستمرار ، بأهمية القوى التجارية الاميركية الضاغطة باتجاه تحقيق الوفاق ودعمه سعيا وراء فتح اسواق الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية امام التجارة الاميركية(١٦).

● كذلك فان القوى الصهيونية ، التي لا يخفى على احد قوة جبروتها في الولايات المتحدة ، مهتمة بالوفاق لانه يزودها بسلاح اضافي تستخدمه سلبيا (بمعنى التهديد بمعارضة الجهود الداعية الى الوفاق ما لم تتحقق أهدافها الخاصة) من خلال الضغط على « البيت الابيض » ليضغط بدوره على « الكرملين » من اجل فتح ابواب الاتحاد السوفياتي لهجرة مواطنيه اليهود الى اسرائيل(١٧).

● وأخيرا وليس آخرا ، جاءت قضية « ووترجيت » وغيرها من الفضائح وما نجم عنها جميعا من تدهور في شعبية الرئيس نيكسون وضعف مركزه ، لتدفعه بتسارع اكبر باتجاه انجاح سياسة الانفراج كدليل على استمرار وثبات انجازاته الخارجية التي رفعت شعبيته ، في فترة من الفترات ، الى احدى أعلى القمم المعروفة في تاريخ الولايات المتحدة . وبعبارة أخرى فان هذه الانجازات والرهان على استمرارها وتنميتها تشكل الجزء الاساسي من « الرأسمال السياسي » الذي يمتلكه الرئيس نيكسون للدفاع عن نفسه كلما ضاق نطاق حبل « الووترجيت » حول عنقه(١٨).

أما **أسباب الاتحاد السوفياتي الخاصة** التي تجعله متحمسا للوفاق فانها تدفعه باستمرار وقوة نحو « التوجه الى الخارج » لحل المشاكل التي يعاني منها :

● فهموم الاتحاد السوفياتي ، وعلى رأسها الاعباء المالية ــ العسكرية الهائلة التي يتحملها ، على الجبهة الغربية (المانيه الغربية على وجه الخصوص) لا حل لهـــا الا بالتوجه الى الخارج .. الى الولايات المتحدة تحديدا(١٩). ومما لا شك فيه ان الزعماء السوفيات وجدوا فرصة سانحة وتشجيعا كبيرا في سياسة ويلي برانت ، المستشار الالماني الغربي ، المعروفة باسم (Ostopolitik)الهادفة الى تقليل التوتر بين بلاده والدول الشيوعية(٢٠).

● كما ان مخاوف الاتحاد السوفياتي ، بتكاليفها السياسية ــ المالية ــ العسكرية الباهظة ، على الجبهة الشرقية وتناغمها المحتمل مع مخاطر الجبهة الغربية عبر تفاهم صيني ــ اميركي ، شكلت عاملا ثانيا جعل الكرملين يتوجه الى الخارج .. وتحديدا الى الولايات المتحدة(٢١).

● كذلك يجب اعطاء اهمية خاصة للمصالح الاقتصادية التي تشكل « طاقة دفع » كبيرة تحرك الاتحاد السوفياتي باتجاه الغرب اجمالا والولايات المتحدة بشكل خاص . وهذه المصالح ثلاثية الجوانب : افتقار السوفيات الى تكنولوجيا الغرب ، واحتياجهم الى استيراد رأس المال الغربي من اجل استثمارات بعيدة المدى لاستخراج الثروات الطبيعية في سيبيريه وغيرها ، بالاضافة الى رغبته في استئناف وتنمية العلاقات التجارية العادية بين البلدين كما كانت عليه في الفترة ١٩٣٥ ــ ١٩٥١(٢٢). هذه العلاقات التي غالبا ما يساء فهم المقصود منها نتيجة الاشارة اليها بعبارة « رغبة الاتحاد السوفياتي في تلقي معاملة الدولة الاكثر تفضيلا Most-Favored-Nation (MFN) من الولايات المتحدة » مع ان ذلك لا يعني ، في الحقيقة ، « امتيازا » او « معروفا » او « دعما « خاصا يبتغيه الاتحاد السوفياتي(٢٣). فكل ما في الامر هو ان ذلك التعبير يطلـــق على العلاقـــات الاقتصادية **العادية** ، وعليه ، بدلا من القول بأن الولايـــات المتحدة تفرض **مقاطعـــة** اقتصادية على دولة ما ، يقال انها لا تعاملها معاملـــة الدول الاكثر تفضيلا (MFN). ورغبة الاتحاد السوفياتي في اعادة العلاقات التجارية العادية نابعة من انتهاء « الحرب الباردة » التي « أوجبت » في الماضي فرض المقاطعة الاقتصادية عليه من جهة ، وناجمة عن حاجته الى استيراد الحبوب والبضائع الاستهلاكية والى تنميـــة اسواق بضائعه لتعديل ميزان مدفوعاته التجاري من جهة ثانية(٢٤).

● واخيرا يحلو لبعض المصادر الغربية أن ترجع سياسة الانفتـــاح الخارجي التي ينتهجها الاتحاد السوفياتي الى رغبته في تجنب الانفتاح الداخلي الذي ــ كما يقال ــ انهته الزعامة الجديدة عندما أطاحت بزعامة نيكيتا خروتشيف وسياساته منذ العـــام ١٩٦٤ . ويفسر البعض حماس الزعامة الحالية لانجاح سياســة الوفاق الى وجود تيارين : احدهما متصلب ضد كل انفتاح على العالم الغربي ، والآخر يراهن على ذلك الانفتاح اسلوبا لحل المشاكل الداخلية . وانه من الطبيعي الافتراض ان كل فشل يصيب سياسة التيار الثاني يؤدي بالضرورة الى تدعيم سلطة التيار المتشدد(٢٥).

اما **الاسباب الخاصة التي حدت بالصين الشعبية** الى الالتحاق بقافلة الانفراج الدولي فيمكن تلخيصها على النحو التالي :

● فشل سياسة الولايات المتحدة التي فعلت المستحيل ، منذ انتصار الثورة الصينية في العام ١٩٤٩ وحتى نهاية الستينات ، لمحاصرة « السرطان الاصفر » تمهيدا للقضاء عليه . وقد أعقب ذلك الفشل تغير في السياسة الاميركية باتجاه الانفتاح على دول العالم الشيوعي ومن ضمنها الصين . وطبعا ، كان يهم الصين الشعبية أن تنطلـــق خارج حدودها لتثبت وجودها في أماكن ومناطق لم يكن متيسرا لها أن تكون فيها لولا نجاحها في الغاء الفيتو الاميركي .

● واذا كان ما أشير اليه أعلاه هو « الاعتبار الاميركي » الذي دفع الصين حثيثا نحو تقبل وتبني الانفراج في علاقاتها مع ألد اعداء الامس ــ الولايات المتحدة ، فان العلاقات البالغة التردي مع أقرب حلفاء الامس ــ الاتحاد السوفياتي ، ولدت مخاوف حقيقية لبكين وشكلت « الاعتبار السوفياتي » الذي حفزها الى الاقتراب أكثر من الولايات المتحدة . هذا كله بالاضافة الى « الاعتبار الياباني » الذي شغل حيزا ليس بالقليل في مخاوف وحسابات الصين الشعبية بعد تنامي قوة اليابان ووزنها الدوليين(٢٦).

المرتكزات النظرية للوفاق : ما هي ؟

وتتحلق هذه المرتكزات ، سوفياتيا وصينيا*، حول مبدأ « التعايش السلمي » . وقد تكرس هذا المبدأ عمادا للسياسة الخارجية السوفياتية في المؤتمر العشرين للحزب السوفياتي كما تأكد ، بعد ذلك ، في جميع المناسبات والمؤتمرات الحزبية وغير الحزبية . وبالامكان ــ تجنبا للتكرار وابتعادا عن الغوص في التفاصيل التاريخية ــ تلخيص القواعد الاساسية للموقف السوفياتي ، كما وردت في خطاب الرئيس نيكولاي بودجورني في حفل استقبال الرئيس الاميركي نيكسون في ٢٢ أيار ــ مايو ١٩٧٢ ، على النحو التالي :

« الاتحاد السوفياتي ، ومعه بلدان المجموعة الاشتراكية وجميع قوى السلام الاخرى ، يسارعون دوما الى الدفاع عن السلام ومن أجل تخليص الاجيال الحاضرة والمستقبلية من تهديد الحرب ومن كوارث النزاع النووي ومن اجل القضاء على مكامن الحرب .

اننا نقف مع تحول جذري باتجاه ارخاء التوترات القائمة في جميع قارات العالم ، ومن اجل تحرير الشعوب من عبء (التسلح) الثقيل ، ومن أجل تسوية سياسية سلمية للمشاكل عن طريق المفاوضات **مع الاخذ بعين الاعتبار أماني (طموحات) وارادة الشعوب وحقها الطبيعي في تقرير مصائرها دون تدخل او ضغط من الخارج.**

ومنذ السنوات الاولى للدولة السوفياتية الفتية ، تيقن مؤسسها ف. ا. لينين من الحاجة الموضوعية والامكانية (الفعلية لتحقيق) تعايش سلمي بين دول النظم الاجتماعية المختلفة . واليوم ، كما في الماضي ، الاتحاد السوفياتي مستعد لتطوير وتعميق علاقات التعاون التجاري والروابط ذات الفائدة المشتركة مع دول ذات نظم اجتماعية مختلفة ... والاتحاد السوفياتي يعتبر انه ممكن ومرغوب فيه (العمل من أجل) اقامة علاقات ليست جيدة فحسب بل وصديقة بين اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والولايات المتحدة ، **وبالتاكيد ، ليس على حساب بلدان او شعوب (طرف ثالث)** ... وعلى (الاتحاد السوفياتي) والولايات المتحدة ، التصرف بطريقة تبعد خطر حرب كونية ، وتزيل آثار الحرب الباردة من العلاقات السوفياتية ــ الاميركية تؤدي الى تخليص علاقاتهما ، قدر ما هو ممكن ، من كل ما عقدها وازعجها في الماضي وحتى في الحاضر .

... اننا نتابع (سعينا) من وجهة النظر (القائلة) بأن المحادثات السوفياتية ــ الاميركية ، ستساعد في حل المشاكل العالمية الملحة لصالح الشعبين السوفياتي والاميركي (ولصالح) **شعوب جميع البلدان** ، ولمصلحة السلام العالمي »(٢٧).

ومع ان الموقف السوفياتي المعبر عنه في مبدأ « التعايش السلمي » موقف تم تبنيه والاعلان عنه والسعي اليه ــ سوفياتيا ــ منذ مدة طويلة ، فانه بقي ، الى حد بعيد ،

---

* لاسباب تتعلق بتشابه الحيثيات النظرية الخاصة بالربط بين مبدأ « التعايش السلمي » والوفاق الدولي **أولا** ، وبثانوية دور الصين الشعبية في النزاع الشرق أوسطي **ثانيا** ، ولكون مستوى تقارب الصين مع الولايات المتحدة دون مستوى الانفراج بين الاخيرة والاتحاد السوفياتي **ثالثا** ، وكي لا يثقل على القارىء بتفاصيل غير ذات تماس واضح بموضوعنا **رابعا** ، آثرنا قصر البحث في هذا القسم من الدراسة على الوفاق كما تجلى في العلاقات السوفياتية ــ الاميركية .

حبرا على ورق بسبب معاناة الولايات المتحدة ـــ في فترة من الفترات ـــ من تصور ذاتي افترضت معه انها ـــ اذا جاز التعبير ـــ « النبي المسلح » الذي يصنـــع لهذا العالم مبادئه وأخلاقياته وحدود سلوكه من جهة ، ويتعهد الحفاظ عليها ، وتثبيتها ، ونشرها وتمزيق كل معارضة لها بحد السيف كلما اقتضت « الضرورة » ذلك من جهة ثانية .

ومع أن رياح الظروف الموضوعية داخل الولايات المتحدة أصبحت مؤاتية لقبـــول سياسة « التعايش السلمي » السوفياتية بعد ازمة كوبه في العام ١٩٦٢ ، أصرت الادارة الجونسونية آنذاك على السباحة عكس التيار . وكان ريتشارد نيكسون ، في حدود معلوماتنا ، أول زعيم سياسي اميركي رأى حتمية الانفراج ودعا اليه بقوة . بل انه ذهب الى حد رسم خطة سياسة خارجية جديدة للولايات المتحدة مثلت مـــا يمكن اعتباره سياسة « رئيس الظل » الخارجية . فقد نشر نيكسون ، في تشرين الاول ـــ اكتوبر ١٩٦٧ ، مقالة وضع فيها الاساس النظري الاميركي لبناء « الوفاق الدولي » الذي تولى ، شخصيا ، مسؤولية الاسهام في تشييده بعدما تربع على قمة هرم السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة في العام ١٩٦٩ .

يصف نيكسون ـــ في تلك المقالة ـــ الولايات المتحدة بالدولـــة « المنهكة بالحرب ، المخذولة (بسبب) الحلفاء ، المخيبة الآمال (بنتائج) مساعداتها والفاقدة الشجاعة (بسبب) أزماتها المحلية »(٢٨) ويتنبأ بأن أول آثار حرب فيتنام سيكون موجة انعزالية تجعل الرأي العام والكونغرس « غير ميالين » لتدخلات مشابهة ، وبالتالي ، فان « على الامم الاخرى ان تعترف بأن دور الولايات المتحدة كرجل بوليس عالمي من المحتمل (له) أن يكون محدودا في المستقبل »(٢٩) . ويضيف نيكسون انه اذا ما تدخلت الولايات المتحدة فان ذلك سيكون بعد ان تقوم الدول في منطقة ما بتوحيد جهودها لحماية نفسها (مـــع ضمانة اميركية بتوفير كل ما يلزم من مساعدات غير مباشرة) ، وبعد أن تبادر جميعها ـــ في حال فشل مساعيها الذاتية ـــ الى طلب المساعدة الاميركية المباشرة(٣٠) . كما طالب نيكسون ـــ في المقالة ذاتها ـــ بضرورة « تقليل عدد المناسبات التي يتوجب (فيها) على الدول النووية اتخاذ قرار بالتدخل (في النزاعات الاقليمية) الى الحد الادنى » وذلك كي يمكن تجنب حرب عالمية جديدة بين الدول الكبرى(٣١) . هذا وقد خص نيكسون ـــ في مقالته ـــ الصين الشعبية باهتمامه مؤكدا استحالة تركها « خارج مجتمع الامم » ، داعيا الى « محاصرة (تأثيراتها) دون عزلها »(٣٢) . كما حث نيكسون ـــ في نهاية المقالة ـــ الدول الكبرى الثلاث (الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية) التي تتنافس على « العالم الثالث » الى الانفتاح على بعضها بعضا قطعا للطريق على كل ما من شأنه تهديد السلام العالمي(٣٣) .

على صعيد آخر ، تظهر هذه الافكار بشكل اكثر تبلورا وتكتسب قوة مادية كبيرة في التقرير الذي قدمه نيكسون ، بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية ، للكونغرس في مطلع العام ١٩٧٠ والذي استهدف منه وضع « منهج جديد في السياسة الخارجية ليتلاءم مع عصر جديد في العلاقات الدولية »(٣٤) . وهذا المنهج ـــ كما يوضح الرئيس نيكسون ـــ قائم على ثلاثة أعمدة رئيسية : الشراكة (Partnership) والقـــوة (Strength) والتفاوض (Negotiations) (٣٥) .

وتنبع هذه المنطلقات الثلاثة من الخطة السياسية التي رسمها نيكسون في العـــام ١٩٦٧ والتي أصبحت تعـــرف ، منذ القى خطابـــه في قاعـــدة جزيرة جوام (Guam) العسكرية في المحيـــط الهادي بتاريـــخ ١٩٦٩/٧/٢٥ ، باسم « مبـــدأ نيكســـون » (The Nixon Doctrine) (٣٦) . ويحث هذا المبدأ حلفاء الولايات المتحدة على تولي شؤون دفاعهم بأنفسهم وتشكيل توازن محلي في القوى بدلا مـــن دفع القوات الاميركية الـــى

التدخل في النزاعات الاقليمية طالما انـــه بالامكان تلافي ذلك*. وعليه ، يدعو « مبدأ نيكسون » الى تقليل الاعتماد على « الروابط المؤسسية »(Institutional Connections) لصالح العلاقات الثنائية على أساس تعهد الولايات المتحـدة بالتصدي ، منفردة لو اقتضى الامر ، للاتحاد السوفياتي(٣٧). وفي حديثه عن مبدئه (مبدأ نيكسون) يقول الرئيس الاميركي :

« مغزاه المركزي ان الولايات المتحدة ستشارك في الدفاع عن (والاسهام في) تطوير حلفائها واصدقائها . ولكن اميركا لا تستطيع ولن تتصور (تضع) **جميع** الخطط ، وترسم **جميع** البرامج ، وتنفذ **جميع** القرارات ، وتتعهد بالدفاع عن **جميع** الامم الحرة في العالم . سنساعد حيث يكون هناك فارق حقيقي ولمصلحتنا ... لسنا منغمسين (ذوي علاقة) في (شؤون العالم) لان لدينا التزامات . لنا التزامات لاننا منغمسون (ذوو علاقة). **مصالحنا يجب ان تصوغ التزاماتنا وليس العكس** »(٣٨).

وقد أثبتت الوقائع اللاحقة ان صياغة هذه القواعد وتبنيها علنا ، لم يكونا ــ بالنسبة لادارة نيكسون ــ نوعا من الترف الفكري اللفظي الدعاوي بقدر ما كانا محاولة للتواؤم مع الظروف المادية الضاغطة داخل الولايات المتحـدة وخارجها . فقد قـاد الرئيس نيكسون بلاده ، فعلا ، من « فترة مواجهة » الى « عصر مفاوضات » كما سبق له وان وعد في مطلع العام ١٩٦٩(٣٩). واشتهرت رئاسته الاولى بأنها « فترة الدبلوماسـية السرية وسياسة القمة »(٤٠) التي تغيرت معها في السنوات الاربع الاولى ــ من مطلع ١٩٦٩ الى مطلع ١٩٧٢ على وجه الخصوص ــ الخارطة السياسية العالمية واطـل بسببها العالمان ــ الشرقي والغربي ــ على بعضهما بعضا من شرفات انفراجهما الاولي، متحادثين بألفة ، تمهيدا لتزاورهما الوشيك على أعلى مستويات القمة ترسيخا لانفراج أمتن وأقوى قادم .

وهكذا تم بناء الجسور بين المعسكرين (أم ترى يجدر بنا ان نقـول المعسـكرات الثلاثة ؟). فنتيجة «للانفجار التفاوضي» ــ حسب تعبير رينشارد جاردنر(٤١)ــ تم توقيع عدة اتفاقيات وانجاز جملة صفقات : اتفاقية موسكو ــ بون في العام ١٩٧٠ ، واتفاقية برلين ، واجتماع بريجنيف وويلي برانت ، وزيارة كيسنجر السرية للصين الشعبية ، وقبول الاخيرة في الامم المتحدة وطرد نظام فرموزا من مجلس الامن ، والاتفاقات العديدة بين الدولتين الاعظم حول الاسلحة الاستراتيجية المدمرة ، وتحسين « الخط الساخن » بينهما ، واتفاقية الحلفاء وموسكو على برلين في العام ١٩٧١(٤٢)، بالاضافة الى ازدياد حجم التجارة بين العملاقين من حوالي ٢٠٠ مليون دولار في ١٩٧١ الى ٦٤٢ مليون دولار في ١٩٧٢ (والى ١٤٤ بليون دولار في العام ١٩٧٣)(٤٣) بعد ان كان حجمها ، في سنوات الحرب الباردة ، قريبا من الصفر(٤٤).

كل هذه الخطوات العملية ، مكنت نيكسون من القول ــ في تقريره للكونغرس قبيل

---

* ويعتقد الاستاذ برهان دجاني ، ومعه مطلق الحق في ذلك ، ان « مبدأ نيكسون » هو ما كان يسمى « مبدأ مكنمارا » . والاشارة هنا عائدة الى ما اعلنه روبرت مكنمارا ، وزير الدفاع الاميركـي الاسبق في مونتريال في العام ١٩٦٦ ، من ان « سياسة الولايات المتحدة تقوم على تشجيع تلـك الدول التي تستطيع (ويجب عليها) ان تساهم في المسؤولية الدولية للمحافظة على السلام والتوصل الى تعاون عام مثمر معها ». ذلك لان الولايات المتحدة لم تعد مستعدة او قادرة على الرد بنفسها على كل ما يقع في العالم وما نجم عن ذلك من ضرورة اعتمادها على « القوة الرادعة المحلية » او على مساعدة « دولة صديقة » تقوم بوظيفة خط دفاعي امامي دون انجرار البيت الابيض الى « التدخل المباشر » . انظر **الكتاب السنوي** للاعوام ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ (بيروت : مؤسسة الدراسات) في الصفحات ٢٤٣ ، ٦٩٢ و xii على التوالي .

بدء زيارته الى الصين الشعبية في مطلع ١٩٧٢ ــ ان العام « ١٩٧١ كان عام المنعطف » في العلاقات الدولية(٤٥) .كما واضاف ان سياسته الخارجية الداعية الى مزيد من الانفتاح نابعة من خمسة متغيرات حاسمة : استعادة اوروبه واليابان لقوتهما الاقتصادية ولحيويتهما السياسية ، ظهور « العالم الثالث » الى الوجود ، تفتت وحدة الكتلة الشيوعية ، نهاية التفوق الاميركي في القوة الاستراتيجية وقيام توازن مع قدرات الاتحاد السوفياتي في هذا المجال بالاضافة خامسا الى التيار الانعزالي داخل الولايات المتحدة ذاتها . وفي الوقت الذي أبرز فيه نيكسون ان صداقات « الدولة الاقوى في العالم » هي صداقات « دائمة » ، شدد على ان عداوات الولايات المتحدة ليست « دائمة » . كما اكد الرئيس الاميركي على ضرورة استمرار الدور القيادي لبلاده في العالم ، داعيا الى اعتماد اسلوب « ضبط النفس ... والتفاوض وليس المجابهة » اذ ان نقاط الاختلاف بين الدولتين الاعظم ، حول مواضيع كثيرة ، ما تزال قائمة(٤٦) .

على انه لا غنى لكل بحث يريد الغوص في الاعماق وصولا الى كنه ما يعرف باسم « الوفاق الدولي » ويستهدف التقاط حقيقة معانيه وانعكاساتها على الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، لا غنى له عن درس الوثائق الاحدث الخاصة بوفاق الكبار **اولا** : لاهميتها ، **وثانيا** : لكونها شكلت « عظمة التناحر » في الحوار الحاد الذي دار في الماضي ولا يزال دائرا ، وان بصوت خفيض ، حتى الان والمرشح للظهور بشكل عنيف في المستقبل القريب ، بين انصار الوفاق في جهة ، ومعارضيه ومتعمدي اساءة فهمه ، من جهة ثانية .

هذه الوثائق تتعلق بالزيارتين اللتين قام بهما الرئيس نيكسون للصين الشعبية في شباط ــ فبراير ١٩٧٢ وللاتحاد السوفياتي في ايار ــ مايو من العام ذاته ، وبالزيارة التي قام بها برجنيف للولايات المتحدة في حزيران ــ يونيو ١٩٧٣*. ولعل الوثيقة الاهم، بهذا الصدد ، هي تلك المعنونة : « المبادىء الاساسية للعلاقات بين الولايات المتحدة الاميركية واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » والموقعة من قبل نيكسون وبرجنيف يوم ٢٩ ايار ــ مايو ١٩٧٢(٤٧). ومع ان هذه الوثيقة تتألف من مقدمة واثنتي عشرة نقطة فان خمسا منها فقط (الاولى والثانية والثالثة والحادية عشرة والثانية عشرة) بالاضافة الى المقدمة ، لها علاقة بما نحن بصدده . وأبرز الاستنتاجات الممكن استخلاصها من هذه النقاط هي :

١ ــ تبرز المقدمة محدودية الهدف الذي تسعى اليه الدولتان وذلك بالقول ان دورهما هو « المساعدة في تقليص التوترات في العالم» .وهكذا نرى انهما لا تذهبان في طموحاتهما ابعد من حدود ما يسمح به الواقع اذ انهما ، مرة ثانية ، تودان « المساعدة في تقليص التوترات » ولا تدعيان نجاحهما في « الغاء التوترات في العالم » كما حصلا للبعض ان يستنتج أو يشيع .

---

* لاسباب سبق ذكرها يقتصر البحث على دراسة « الوفاق » كما تجلى في العلاقات السوفياتية ــ الاميركية. وبأمكان من شاء التفاصيل « الصينية » الخاصة بالموضوع ، مراجعة « بيان شنغهاي » الصادر في ١٩٧٢/٢/٢٧ مع انتهاء زيارة الرئيس نيكسون للصين الشعبية . وأهم ما ورد في هذه الوثيقة ، التركيز الواضح جدا والمتعمد على ابراز نقاط الخلاف ، في بداية البيان ونهايته على حد سواء ، مع الاشارة الى اتفاق الطرفين على العمل لتخفيف التوتر في علاقاتهما وتقليل مخاطر المواجهة العسكرية دون ان يكون ذلك على حساب اطراف ثالثة مع التأكيد على التزام الطرفين بمبدأ « التعايش السلمي » . أنظر النص الكامل للبيان في مجلة : *Current History* (September, 1972), pp. 131-2.

٢ ــ تؤكد المقدمة والنقطة الحادية عشرة ان تقارب الدولتين العظميين يتم « دون الاضرار ببلدان (طرف ثالث) بأي شكل من الاشكال » وانه ــ أي التقارب ــ « ليس موجها ضد بلدان (فريق) ثالث او مصالحها » .

٣ ــ تؤكد الدولتان ، كما ورد في النقطة الاولى ، على انه « في العصر النووي لا مناص لهما في ادارتهما علاقاتهما المشتركة من اعتماد قاعدة التعايش السلمي » ، القاعدة القديمة قدم اول سياسة خارجية لينينية أو قدم بداية « دخول » الاتحاد السوفياتي للمنطقة الشرق اوسطية منذ قرابة العشرين عاما عندما تم تكريسها نهائيا كأساس لعلاقات الكرملين الخارجية منذ العام ١٩٥٦ .

٤ ــ تنص النقطة الثانية التي كانت مثار جدل واستغلال كبيرين ، وبالحرف الواحد ، على ما يلي :

« تولي الولايات المتحدة الاميركية واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية (مسألة) منع تطور حالات قادرة على التسبب في تفاقم خطر في علاقاتهما أهمية كبيرة . وعليه ، ستفعلان أقصى ما في استطاعتهما لتجنب مجابهات عسكرية ولمنع نشوب حرب نووية ، وستمارسان دوما ضبطا (للنفس) في علاقاتهما المشتركة ، وستكونان على استعداد للتفاوض وتسوية الخلافات بالوسائل السلمية . وسيجري التباحث والتفاوض في المسائل الرئيسية بروح تبادل وتساهل مشترك وفائدة مشتركة .

ويعترف الطرفان ان الجهود لتحقيق مكاسب (فوائد) من جانب واحد على حساب الاخر ، مباشرة او غير مباشرة ، هي (محاولات) غير منسجمة مع هذه الاهداف . (وان الشروط) الضرورية للحفاظ على وتقوية العلاقات السلمية بين الولايات المتحدة الاميركية (والاتحاد السوفياتي) هي الاعتراف بالمصالح الامنية الخاصة بالطرفين على اساس مبدأ المساواة ونبذ استخدام القوة او التهديد بها » .

وما تضمنه الجزء الذي يهمنا في النقطة الثالثة هو شبه تكرار لبعض ما ورد في النقطة الثانية .

أما النقطة الثانية عشرة ــ وكأنما أريد بها ازالة كل سوء فهم قد يظلل صورة المعاني الواردة في النقطة الثانية ــ فتقول بالحرف الواحد :

« المبادىء الاساسية المبينة سبقا لا تؤثر (سلبا) في أي من الالتزامات تجاه بلدان اخرى سبق ان اخذتها على عاتقها ، قبلا ، الولايات المتحدة او اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » .

الوفاق : خلاصات عامة

اذن ، بعيدا عن الجدل المتشنج الدائر وتلخيصا ، لدراسات ومقالات رزينة (وغير رصينة) كثيرة ، واستنباطا لحقيقة ما تعنيه الخطابات والوثائق السياسية، وكشفا لمدى « حرارة » الزيارات والعناقات الدبلوماسية بين زعماء العالم الكبار ، بامكاننا ان نقدم عصارة ما يعرف « بالوفاق الدولي » على شكل استنتاجات عامة مختزلة فيما يلي :

أولا : الوفاق وصف يطلق على محاولة تطبيق « منهج توازن القوى التقليدي »(٤٨) من أجل ترتيب العلاقات الدولية ضمن معادلة جديدة قررتها ضغوط متغيرات حاسمة طرأت على الصعيدين الدولي والمحلي خاصة منذ العام ١٩٦٩(٤٩). وقد استندت هذه المعادلة الجديدة الى « قاعدة غير عقائدية للعلاقات » بين الدول الكبرى(٥٠).

ثانيا : حيث ان تعبير «الوفاق» يعني في اللغة العربية «الاتفاق في الرأي والعمل»(٥١) فانه ، بالضرورة تعبير خاطىء عن حقيقة المدى الذي وصل اليه الانفراج والتقارب بين الدول الكبرى . فما هو قائم ، فعلا ، بين هذه الدول ــ حسب ما نأمل ان يكون البحث قد اوضحه ــ ليس أكثر من « ارخاء للتوتر » او اتفاق على « تقليص التوتر » فيما

بينها . وعلى هذا الاساس فان اسم المعادلة الجديدة كما يرد عادة باللغة الانجليزية — (Détente) بمعنى « نهاية توتر بين دولتين او اكثر واستئناف العلاقات العادية »(٥٢) بينها هو تعبير أقرب الى الصواب . وعلى أية حال فان المعادلة الجديدة ليست ، قطعا ، ما يحاول البعض تصويرها به عندما يحملونها معنى الـ — (Entente) أي « الائتلاف ، التآلف ، التفاهم » بين الدول . وهم اذ يتبنون معنى كهذا انما يقربون الانفراج القائم حاليا ، بأسلوب ذاتي وبهدف خدمة اغراضهم السياسية الخاصة ، من معنى الاتفاق — المؤامرة . هذا على الرغم من حرص الاطراف — كما ثبت في متن البحث — على التأكيد بأن التحسن في العلاقات بين الدول الكبرى لا يأتي على حساب أطراف ثالثة تماما مثلما انه لا يمثل انهاء للخلافات بينها او الغاء للالتزامات التي سبق لهذه الدول وان تعهدت بها لحلفائها واصدقائها .

ثالثا : اذن ، فالتنافس بين الدولتين الاعظم (وغيرهما) قائم من منطلق كونهما « في الوقت الذي هما فيه غير ساعيتين للحرب النووية فانهما تريدان ان توسعا نفوذهما . ولان الحرب النووية غير محتملة فان كل شيء قابل للتفاوض»(٥٤) . كذلك فان « استخدام القوة الجزئي ... (وارد) ليس لانه حق وعادل بل لانه يفيد في الميزان العام »(٥٥) . من هنا ، فان لكلا الدولتين (وغيرهما) استراتيجيتها وتكتيكها الخاصين في الدفاع عن مصالحها وكسب معركة التنافس الدائرة بينها .

رابعا : لا يجوز ، من الناحية العلمية ، القبول بتلك المحاولة التي تختزل ظاهرة « الوفاق الدولي » وتساويها بجانبها الاميركي — « مبدأ نيكسون » — فحسب . وغالبا ما تنتقل هذه المحاولة بعد « تثبيت » هذا الخطأ الى « تثبيت » خطيئة مؤداها ان الوفاق مؤامرة او انه صيغة اميركية تم « تمريرها » لخداع الاتحاد السوفياتي والصين بهدف « اقناعهما » بعدم تقديم مساعدات لحركات التحرر الوطني في العالم* . واذا كان هذا كله غير جائز من الناحية العلمية ، واذا كان لا بد من تحديد الطرف « المنتصر » في الصيغة الجديدة (مع ان كل طرف يحاول شد الانتصار الى جانبه عن طريق كسب « معارك التنافس » المضمنة في معادلة الوفاق) ، فانه لاقرب الى الحقيقة القول بان « المنتصر » الاول ليس احدا سوى الاتحاد السوفياتي . فهذا الاخير هو الذي رفع شعار « التعايش السلمي » منذ بداية « ثورة اكتوبر » وهو الذي حاول تطبيقه مجددا وبحماسة منذ ١٩٥٦ ، في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة أسيرة لمنطق « الحرب الباردة » — الساخنة أحيانا — سواء بصيغتها « الدلاسية » في الخمسينات ام « الجونسونية » في الستينات .

خامسا : « توحي الشواهد بأن القوتين الاعظم ، مهما كانت رغبتهما في السلام ، ستستمران في (تفضيل) ضمان تغطية ... الصراعات ... بالوكالة على ان تعانيا من أي تدمير (او ايذاء) لسمعتيهما وتأثيريهما الدوليين . (وهذا الوضع مستمر) طالما ان الأمم الاصغر تستمر في لعب دورها ضمن ذلك الوضع »(٥٦) . بل أكثر من ذلك فان « مبدأ نيكسون » — والشيء ذاته يمكن ان يقال عن سياسة الاتحاد السوفياتي الملتزمة بالحلفاء والاصدقاء — ما هو الا « برنامج لاحلال قوة (بدلا عن قوة) وليس فك التحام حقيقي »(٥٧) .

---

* وقد المحت الى ذلك — بالاضافة الى تصريحات قوى يمينية عديدة — مجموعة MERIP اليسارية وان كانت هذه المجموعة لم تحدد فيما اذا كانت تعتقد ان « النية الاميركية » هذه قد « مررت » على الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية أم لا . انظر :
Middle East Research and Information Project - MERIP, «Nixon's Strategy in the Middle East,» *MERIP REPORTS* (No.13, November 1972), p. 3.

سادسا : ولهذا فان القول بأن صيغة « الوفاق الدولي » تتيح للقوى المحلية المتصارعة فرصة أوسع لتحسين مواقعها ولتحقيق أهدافها قول أقرب بكثير الى الحقيقة من الزعم بأنها « دورق » اعتقل فيه « السمك » ــ الوطني والتقدمي ، السياسي والمسلح ــ بعد ان كان يسبح في «البحيرات الثورية الدافئة» التي ازدهرت طيلة فترة «الحرب الباردة» .

... وبعد ،

فان كل شيء يعتمد على مدى قدرة الحركات الثورية المحلية ــ او القوى الرجعية المحلية ــ على الاستفادة من الهامش الصدامي غير الضيق الذي تتيحه معادلة « الوفاق الدولي » . وعلى مدى استفادة هذه القوة او تلك من ذلك الهامش ، وعليه فقط ، يعتمد أي قرار علمي لحسم ما اذا كانت تلك المعادلة قد جاءت ــ ولنستخدم عبارة تشارلز ديكنز مرة ثانية ــ تعبيرا عن « أفضل الاوقات » او « أسوأ الاوقات » بالنسبة الى اماني الشعوب وثوراتها .

---

١ ــ الفكرة مستعارة من مقالة لريتشارد جاردنر مع ملاحظة لجوئنا ، عند نقل العبارة المشار اليها الى اللغة العربية ، الى ترجمتها وفقا لمعناها الحقيقي وليس لحرفية كلماتها . أنظر :
Richard N. Gardner, «The Hard Road To World Order », *Foreign Affairs*, 52 (No. 3, April 1974), p. 556.

٢ ــ أنظر على سبيل المثال لا الحصر ، ولاهميته الخاصة ، البيان المشترك الصادر عن محادثات موسكو بين الزعماء السوفيات وحافظ اسماعيل ، مستشار الرئيس السادات لشؤون الامن القومي ، كما نشر في صحيفة **الاهرام** ، شبه الرسمية آنذاك ، بتاريخ ١٩٧٣/٢/١١ في الصفحة الاولى .

٣ ــ انظر خطاب الرئيس السادات حول ذلك كما ورد في **الاهرام** بتاريخ ١٩٧٤/٤/٤ ، ص٣ .

٤ ــ أنظر :
Marshall D. Shulman, « Toward A Western Philosophy of Coexistence, » *Foreign Affairs*, 52 (No. 1, October 1973), p. 35.

٥ ــ **المصدر ذاته** . ومما يجدر ذكره هنا ان المعنى المحدد اعلاه هو التعبير المعتمد في وثيقتي « المبادىء الاساسية للعلاقات بين الولايات المتحدة الاميركية واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » و « البيان المشترك » الموقعتين من قبل ليونيد بريجنيف ، الزعيم السوفياتي والرئيس ريتشارد نيكسون مع انتهاء زيارة الأخير لموسكو يوم ٢٩ ايار (مايو) ١٩٧٢ . أنظر :
United States Information Service, *President Nixon in Moscow : A Summary of Major Statements and Agreements During President Richard Nixon's Visit to the Soviet Union, May 22-30, 1972*, pp. 16 and 19.

٦ ــ أنظر معجم **الرائد** .

٧ ــ أنظر :
Stephen S. Rosenfeld, «Pluralism and Policy», *Foreign Affairs*, 52 (No. 2, January 1974), p. 267.

٨ ــ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤** (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٦٤) ص ، ٢٧٨ .

٩ ــ ويصف الاستاذ برهان دجاني السياسة الاميركية في الفترة ما بين ازمة كوبه وحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بانها الفترة التي دخلت فيها الولايات المتحدة « مرحلة الدولة المأخوذة بقوتها » . أنظر : برهان دجاني ، « مقدمة » **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٨** (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١) ، ص xxxiii . ايضا راجع :
Geoffrey Kemp, *Arms and Security: The Egypt-Israel Case* (London: The Institute for Strategic Studies, 1968), p. 26.

١٠ ــ حول التصلب السوفياتي في تلك الفترة ، انظر :
Wolfgang Leonhard, « The Domestic Politics of the New Soviet Foreign Policy, » *Foreign Affairs*, 52 (No. 1, October 1973), p. 62-66.
ايضا راجع
Shulman, *op. cit.*, pp. 42-43.

١١ ــ أنظر :
Leonhard, «The Domestic Poli-

tics of the New Soviet Foreign Policy», *op. cit.*, p. 66.

أيضا راجع :

Z. «The Year of Europe?», *Foreign Affairs*, 52 (No. 2, January 1974), pp. 243-4.

كذلك أنظر :

Andrew J. Pierre, «Can Europe's Security Be «Decoupled» from America?», *Foreign Affairs*, 51 (No. 4, July 1973), pp. 761-77.

١٢ ــ تأكد ذلك في تقريري الرئيس نيكسون للكونغرس الاميركي حول السياسة الخارجية للولايات المتحدة . أنظر :

Richard Nixon, *United States Foreign Policy for the 1970's : A New Strategy for Peace* (Report by the President to the Congress, February 18, 1970), p. 7; and R. Nixon, *United States Foreign Policy for the 1970's: The Emerging Structure of Peace* (Report to the Congress, February 9, 1972), p. 7.

١٣ ــ التعبير وارد في المقالة التالية :

Neville Brown, «After the Summit: Shifts in the Superpower Balance», *New Middle East* (No. 46, July 1972), p. 15.

١٤ ــ حول اتجاهات الرأي العام الاميركي ونمو ظاهرة « الانعزالية التقدمية » ، راجع :

Roger E. Kanet, «Soviet-American Relations : A Year of Détente?», *Current History*, October 1972, p. 156; Rosenfeld, «Pluralism and Policy,» *op. cit.*, p. 269; Kemp, *op. cit.*, p. 25; and Z, «The Year of Europe?», *op. cit.*, p. 243.

١٥ ــ انظر :

Zbigniew Brzezinski, « U.S. Foreign Policy : The Search for Focus, » *Foreign Affairs*, 51 (July 1973, No. 4), p. 716.

١٦ ــ أنظر :

Theodore C. Sorensen, « Most - Favored — Nations and Less — Favored — Nations,» *Foreign Affairs*, 52 (No. 2, January 1974), p. 286.

١٧ ــ **المصدر ذاته** . ايضا :

Rosenfeld, *op. cit.*, p. 268.

١٨ ــ أنظر ما كتبه موشيه كارمل في صحيفة **دافار** الاسرائيلية كما وردت في **نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية** (نشرة م.د.ف) ، عدد ١٩ ، تاريخ ١٩٧٣/١٠/١ بالاضافة الى ما كتبه عاموس بيرلماتور في صحيفة **هآرتس** الاسرائيلية في **المصدر السابق** ، عدد ٢١ ، تاريخ ١٩٧٣/١١/١٦ ، ص ٦٥٩ ــ ٦٦٠ .

١٩ ــ أنظر :

Sorensen, «Most-Favored - Nations and Less-Favored-Nations,» *op. cit.*, p. 280.

٢٠ ــ حول هذا ، راجع المقالين التاليين :

Charles Gati and Tony Trister,, «The Diplomacy of Detente : Soviet Efforts in West Europe,» *Current History* (October 1972), p. 160; and Martin Van Creveld, «The Future of Detente,» *The Jerusalem Post Magazine* (November 9, 1973), p. 7.

٢١ ــ حول هذه المخاوف ، انظر :

Time magzine, January 1, 1973, p. 14; Shulman, «Toward A Western Philosophy of Coexistence», *op. cit.*, pp. 43-46; and Sorensen, *loc. cit.*

٢٢ ــ فيما يتعلق بالمصالح الاقتصادية الكامنة وراء سعي الاتحاد السوفياتي وراء سياسة الوفاق ، أنظر :

Leonhard, *op. cit.*, pp. 66-67; Shulman, *op. cit.*, pp. 38 and 43-46; and Creveld, *loc cit.*

٢٣ ــ Sorensen, «Most - Favored - Nations and Less - Favored - Nations,» *op. cit.*, p. 266.

٢٤ ــ حول هذا ، راجع :

Kanet, «Soviet - American Relations: A Year of Détente?», *op. cit.*, p. 157; Shulman, «Toward A Western Philosophy of Coexistence», *op. cit.*, p. 38; and Sorensen, «Most-Favored-Nations and Less - Favored - Nations», *op. cit.*, p. 280.

٢٥ ــ راجع :

Leonhard, «The Domestic Politics of the New Soviet Foreign Policy », *op. cit.*, pp. 69-70, 72; and Sorensen, «Most - Favored - Nations and Less - Favored - Nations, » *loc. cit.*

٢٦ ــ حول الاعتبارين « السوفياتي » و«الياباني» اللذين كانا وراء رغبة الصين الشعبية في دخول معادلة الوفاق الجديدة ، أنظر :

Franz Michael, «The New United States - China Policy, » *Current History* (September 1972), p. 127; and *Time* (January 1, 1973), p. 14.

٢٧ ــ كما ورد في

United States Information Service, *President Nixon in Moscow*, pp. 1-2.

٢٨ ــ Richard Nixon, «Asia After Viet

Nam,» *Foreign Affairs*, 46 (No. 1, October 1967), pp. 123-4.

٢٩ — **المصدر السابق** ، ص ١١٣ — ١١٤ .

٣٠ — **المصدر السابق** ، ص ١١٤ .

٣١ — **المصدر ذاته** .

٣٢ — **المصدر السابق** ، ص ١٢١ — ١٢٣ .

٣٣ — **المصدر السابق** ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

٣٤ — الاشارة هنا الى تقرير الرئيس نيكسون المقدم للكونغرس والمشار اليه سابقا تحت عنوان :

Nixon, *United States Foreign Policy for the 1970's: A New Strategy for Peace*, February 1970, p. 5.

٣٥ — **المصدر ذاته** .

٣٦ — **المصدر السابق** ، ص ٧ .

٣٧ — Z. «The Year of Europe?», *op. cit.*, pp. 243-4.

٣٨ — Nixon, *A New Strategy for Peace*, p. 6.

٣٩ — تقرير الرئيس نيكسون للكونغرس في شباط (فبراير) ١٩٧٢ المشار اليه سابقا تحت عنوان:
Nixon, *U.S. Foreign Policy for the 1970's : The Emerging Structure of Peace*, p. 17.

٤٠ — جيمس راستون ، « ينتظرون كيسنجر » ، صحيفة **هآرتس** الاسرائيلية ، ١٩٧٣/٨/٢٧ ، ص ١٢ .

٤١ — Gardner, «The Hard Road to World Order,» *loc. cit.*

٤٢ — يمكن ، من أجل مزيد من التفصيل حول هذه الصفقات والاتفاقيات مراجعة :
Leonhard, «The Domestic Politics of the New Soviet Foreign Policy», *op. cit.*, pp. 59 and 66-69; and Nixon, *The Emerging Structure of Peace*, p. 8.

ايضا انظر :
Keesings Contemporary Archives: 1971-72; pp. 24765A, 25045A, 35309-35316.

٤٣ — Shulman, «Toward a Western Philosophy of Coexistence», *op. cit.*, p. 38.

٤٤ — Raymond Vernon, «Apparatchiks and Entrepreneurs U. S. - Soviet Economic Relations,» *Foreign Affairs*, 52 (No. 2., January 1974), p. 249.

٤٥ — Nixon, *The Emerging Structure of Peace*, p. 7.

٤٦ — **المصدر السابق** ، ص ٧ و١٠ .

٤٧ — كل الاشارات التالية الى مضمون الوثيقة مستقاة من النص الرسمي كما ورد في الكراس:
United States Information Service, *President Nixon in Moscow*, pp. 16-18.

٤٨ — انظر :
Brzezinski, «U.S. Foreign Policy: The Search for Focus», *op. cit.*, p. 715.

٤٩ — راجع تقريري نيكسون (المشار اليهما اعلاه) المقدمين الى الكونغرس في العامين ١٩٧٠ و١٩٧٢ في الصفحات ٥ و٧ على التوالي .
ايضا أنظر :
Brzezinski, «U.S. Foreign Policy: The Search for Focus,» *op. cit.*, p. 715.

٥٠ — انظر المقالة الخاصة بنيكسون وكيسنجر :
Time Staff, «Nixon and Kissinger: Triumph and Trial,» *Time*, January 1, 1973, p. 14.

٥١ — انظر معجم **الرائد** .

٥٢ — انظر **المعجم القانوني** .

٥٣ — **المصدر السابق** .

٥٤ — جورج سوفير ، « رجل العام » ، **لوبوان** *(Le Point)* عدد ٦٧ ، تاريخ ١٩٧١/١٢/٣١ ، ص ١٩ .

٥٥ — Adam Watson, «The Man of the Temporary Expedient,» *The Spectator* (London: November 3, 1973), p. 563.

٥٦ — The Insight Team, *Insight on the Middle East War* (London: André Deutsch Limited, 1974), p. 238.

٥٧ — Earl C. Ravenal, «The Case for Strategic Disengagement,» *Foreign Affairs*, 51 (No. 3, April 1973), p. 508.

الوضع القانوني للسكان العرب في المناطق المحتلة

صبري جريس

تنشر « شؤون فلسطينية » نص المذكرة التي قدمها الاستاذ صبري جريس ، رئيس قسم الدراسات الاسرائيلية في مركز الابحاث ، الى المؤتمر الثاني للحقـــوقيين الفلسطينيين المنعقد في الجزائر في الاسبوع الاخير من ايار (مايو) .

ا ـــ مقدمة

تكشف الاوضاع القانونية التي يخضع لها السكان العرب في المناطق المحتلة ، ان كانت تلك التي احتلت سنة ١٩٤٨ او خلال حزيران ١٩٦٧، عن احدى النواحي الرئيسية للفكر الصهيوني في تعامله مع العرب ، حيث تعبر أحسن تعبير عن المواقف والاجراءات التي اتبعها الكيان الصهيوني عندما وجد نفسه مضطرا للتعامل عن كثب ، ومن خلال موقع السلطة ، مع سكان عرب يخضعون لحكمه . ان الحركة الصهيونية لم تتصف ، منذ بدايتها ، بأتباع سياسة واضحة ، يمكن فهمها ، في موقفها من العرب ، بل أن الكثيرين من آبائها ومفكريها وزعمائها لم يعر القضية العربية اي وزن او اهتمام ، رغم أنها طرحت ، على أية حال ، العديد من المشاريع وقدمت كثيرا من الخطط والاراء لتنظيم علاقاتها بالعرب ، خصوصا بعد اعلان وعد بلفور ثم فرض الانتداب البريطاني علـى فلسطين ، مع ان الطابع الغالب لكل تلك المواقف كان عفويتها وآنيتها ، وفي احيـــان كثيرة ـــ عدم صدقها . هذا في الوقت الذي كان فيه جوهر السياسة الصهيونية ينحصر عمليا في تقوية الوجود الصهيوني في فلسطين ودعمه ، خصوصا بخـــلق الحقائق ، الواحدة تلو الاخرى ، في مختلف المجالات .

ويبدو ، من ناحية اخرى ، انه لم تكن لدى القيادات الصهيونية خطة او تصـــور واضحان لطبيعة علاقات الكيان الصهيوني بالعرب ، ومن ضمنهم عرب فلسطين ، حتى بعد اقامة الدولة الصهيونية . وبقي هذا النهج قائما حتى جاءت احداث ١٩٤٨ لتريح الصهيونيين ، وبسرعة مذهلة ، من كابوس وجود الاكثرية العربية في فلسطين ، وتمكنهم من اقامة دولة ذات أكثرية يهودية على جزء من البلد ، مع أقلية من السكان العرب بقيت تعيش داخله .

ان بقاء تلك الاقلية العربية داخل اسرائيل ، بعد اقامتها ، لم يسمح للســـلطات الاسرائيلية بالاستمرار في اتباع سياسة النعامة التي كانت الزعامة الصهيونية تلجـــأ اليها ، من حين لاخر ، في مواقفها من العرب . كذلك فأن وجود تلك الاقلية ، واضطرار النظام الاسرائيلي الى التعامل معها كجزء من السكان الخاضعين لسلطته ، اجبراه في النهاية على تحديد موقفه منها في معظم نواحيه . ولكن قبل الانتقال الى التفاصيل لا بد من الاشارة الى أن تلك المواقف تأثرت بعدة عوامل ، منها ما يتعلق بطبيعة الكيـــان الصهيوني نفسه ومنها ما يتعلق بالاوضاع السياسية التي وجدت اسرائيل نفسهـــا تواجهها من حين لاخر .

ان الكيان الصهيوني في فلسطين ، الذي اتخذ طابع دولة على جزء من البلد سنة ١٩٤٨ ، كان قد اتخذ قبل ذلك التاريخ بفترة غير قصيرة صفات النظام متعدد الاحزاب ،

التي يحرص كل منها على الاشتراك في اللعبة الديموقراطية الكلاسيكية ، من خلال احترام حقوق مناوئيه السياسيين ، حفاظا على مصلحته ومصلحة النظام بأسره . كذلك فان عجز أي حزب من الاحزاب الصهيونية في فلسطين ، ومن ثم في اسرائيل ، على الانفراد بالحكم وحده ، لان أيا منها لم يكن مرة يتمتع بالاكثرية المطلقة او النسبية ، دفع هذه الاحزاب الى البحث عن طريقة تتقاسم بها الحكم فيما بينها من جهة ، مما أدى الى قيام نظام حكم ديموقراطي تقليدي في اسرائيل ، يرتكز على حرية الاحزاب الصهيونية ، ويستمد قوته من الانتخابات العامة ، ويمارس الحكم باشراف مجلس نواب منتخب .

أما تأثير الاوضاع السياسية عامة والاطماع الاسرائيلية خاصة على الاوضاع القانونية للسكان العرب في اسرائيل والمناطق المحتلة فواضح للغاية . لقد توجهت اسرائيل خلال مراحل حربها مع العرب سنة ١٩٤٨ ، وبعد ذلك ، الى ضم كل الاراضي التي احتلتها يومها ، بما في ذلك تلك التي كانت خارج حدود الدولة اليهودية حسب قرارات التقسيم لسنة ١٩٤٧ ومنها تلك التي كان العرب يسكنونها بكثافة ، كمنطقة الجليل ، او تلك التي ضمت اليها بعد اتفاق الهدنة الاسرائيلية ــ الاردنية سنة ١٩٤٩ ، كمنطقة المثلث ، معتبرة تلك المناطق جزءا لا يتجزأ من اراضيها ، ولهذا اتخذت كل الخطوات الضرورية ، القانونية والعملية ، لتصنيف سكان تلك المناطق العرب كمواطنين في الدولة الصهيونية ، رسميا على الاقل . أما بالنسبة للمناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، والتي لم تساعد الظروف السياسية والموضوعية اسرائيل على ضمها اليها ، فأن الوضع يختلف ، حيث لا تزال تلك المناطق تصنف وفقا للقانون الاسرائيلي كمناطق محتلة ، او ، اذا اردنا استعمال التعبير الاسرائيلي الرسمي : « مناطق محتفظ بها » ، ويفترض ان يخضع سكانها للتعليمات التي تنص عليها المعاهدات الدولية السارية المفعول في مثل هذه الحالات . ولكن يشذ عن هذه الحالة وضع مدينة القدس التي اعلنت اسرائيل عن ضمها اليها ، مع بعض ضواحيها ، بعد فترة وجيزة من احتلالها .

بناء على ما تقدم نرى ان هناك ثلاثة اوضاع قانونية منفردة تتعلق بالسكان العرب في اسرائيل والمناطق المحتلة ، اولها ذلك الوضع الذي ينطبق على السكان العرب في اسرائيل وثانيها ذلك الوضع السائد في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ عدا مدينة القدس ، وثالثها الوضع الخاص بالقدس وحدها . وفيما يلي نعرض كل واحد من هذه الاوضاع الثلاثة على حدة .

٢ ــ الوضع القانوني للسكان العرب في اسرائيل

يعتبر السكان العرب في اسرائيل ، رسميا على الاقل ، مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات مع السكان اليهود . والسلطات الاسرائيلية ، التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وان كانت تعترف بهذه المساواة وتمارسها في مجالات عديدة ، منها مثلا تلك المتعلقة بالقضايا المدنية او القضايا الجزائية البحتة او العلاقات بين الافراد ، فانها تغير موقفها بشكل واضح عندما يتعلق الامر بالمسائل التي تمس « المصالح الحيوية » الاسرائيلية ، كحقوق المواطنة او قضايا الامن والاستيطان الصهيوني ، حيث تلجأ الى التمييز ضد « المواطنين » العرب ، قانونا وممارسة ، بشكل مفضوح يغلف عادة بصياغات قانونية مفذلكة ومعقدة ، واحيانا يظهر بصورة واضحة للغاية .

ان التمييز قانونا ضد السكان العرب ينحصر ، كما أشرنا ، في النواحي التي تعتقد السلطات الاسرائيلية انها تمس طابع اسرائيل الصهيوني ، وهو أحيانا مفهوم واسع للغاية يؤثر على اوضاع العرب وشؤون معيشتهم اليومية . أما اول هذه المجالات فهو

ذلك المتعلق بحقوق العرب في السكن والمواطنة في اسرائيل . فقانون العودة لسنة ٥٧١٠ ــ ١٩٥٠(١) ينص ، مثلا ، على أنه يحق لكل يهودي ان يهاجر الى اسرائيل ، عدا عن حالات استثنائية قليلة نص عليها القانون(٢)، وبهذا يحجب ضمنا هذا الحق عن غير اليهودي ، بما في ذلك العربي الفلسطيني ، حتى وأن كان قد ولد في ذلك الجزء من فلسطين الذي أقيمت اسرائيل عليه . وهذا القانون وان جاء تعبيرا عن أحد المواقف الصهيونية الرئيسية الداعية الى هجرة اليهود الى فلسطين لاقامة دولة يهودية في البلد، فانه في الوقت نفسه يعتبر تجسيدا لموقف صهيوني آخر يرفض اعادة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم ويحصر حق سكن تلك المناطق التي انتزعت منهم في اليهود دون غيرهم. وفي مرحلة لاحقة عدل قانون العودة بشكل منحت معه ايضا الامتيازات العائدة لليهودي بموجبه الى غير اليهود المتزوجين من يهود والى ابنائهم واحفادهم وازواجهم ايضا(٣). ولكن ابعاد قانون العودة لم تقف عند هذا الحد ، اذ أن السلطات الاسرائيلية أصدرت بعد ذلك قانون الجنسية لسنة ٥٧١٢ ــ ١٩٥٢(٤) ليكون مكملا له ، والذي لم يخل ايضا من تمييز ضد العرب ، اذ انه يحتوي على تعليمات ينبغي تنفيذها وشروط ينبغي استيفاؤها لمنح الجنسية الاسرائيلية لليهودي تختلف عن تلك المطلوبة بالنسبة للعربي . فبينما ينص القانون على أن كل مهاجر يهودي الى اسرائيل ، بمقتضى قانون العودة ،يكون تلقائيا اسرائيلي الجنسية(٥)، وهي الامتيازات التي منحت فيما بعد الى غير اليهود المتزوجين من يهود ، كما أشرنا ، نرى ان القانون نفسه يحتوي على تعليمات اخرى تتعلق بحقوق الجنسية العائدة للعرب ، حيث ينبغي ان تتوفر في العربي الفلسطيني الشروط التالية لكي يحصل على الجنسية الاسرائيلية : (أ) في يوم ١/٣/ ١٩٥٢ كان مسجلا قاطنا بموجب مرسوم تسجيل السكان لسنة ١٩٤٩ ، (ب) في يوم بدء العمل بقانون الجنسية ، اي ١٩٥٢/٧/١٤ ، كان قاطنا في اسرائيل ، (ج) من يوم انشاء اسرائيل ، اي ١٩٤٨/٥/١٥ ، الى يوم بدء العمل بقانون الجنسية ، اي ١٩٥٢/٧/١٤ ، كان في اسرائيل او في اراض صارت اراضي اسرائيلية بعد اقامة الدولة(٦). ولقد اتضح فيما بعد ، عند التطبيق ، ان الهدف من ادخال هذه التعليمات الى قانون الجنسية كان حرمان أكبر عدد ممكن من العرب الذين بقوا في اسرائيل بعد ١٩٤٨ من الحصول على الجنسية الاسرائيلية ، حيث امتنعت السلطات الاسرائيلية عن منح الجنسية ، استنادا للبند (ج) المذكور ، لكل عربي كان قد ترك محل اقامته الدائم ، ولو ليوم واحد ولاي سبب كان ، متوجها الى أية دولة من الدول العربية المجاورة لفلسطين وحتى وان تم ذلك قبل ان يحتل الجيش الاسرائيلي المناطق العربية ، او قبل ضم تلك المناطق الى اسرائيل ، وهذا على الرغم من أن مثل هذا العمل كان يعتبر في حينه عملا شرعيا(٧).

لقد مست تلك التعليمات بعدد غير قليل من العرب الذين يعيشون في اسرائيل ، يقال انه يبلغ نحو ربعهم (٨)، الذين اسقط حقهم في الجنسية الاسرائيلية بموجبها ، فاعتبروا من « سكان » اسرائيل وليس من « مواطنيها » . ولكن مع مرور الزمن ، فقدت تلك التعليمات الكثير من حدتها نتيجة لعوامل عديدة ، منها ان النظام الاسرائيلي، المتعدد الاحزاب ، والذي كان يعقد الانتخابات العامة في البلد من حين لاخر ، كان يمنح حق التصويت تقريبا لكل عربي ، لكي يستطيع الحزب الحاكم والمتعاونون معه الحصول على أكبر عدد ممكن من أصوات العرب ، مما يؤكد حقوق العرب الذين يشتركون في الانتخابات في الحصول على الجنسية ، رغم التعليمات المشار اليها . كذلك فان المحكمة العليا الاسرائيلية ، وفي الحالات القليلة التي بحثت فيها حقوق الجنسية العائدة للسكان العرب ، قد فسرت قانون الجنسية تفسيرا « ليبراليا » يفهم منه انه يحق لكل عربي ، كان قاطنا في المناطق التي احتلتها اسرائيل او تلك التي ضمت اليها فيما بعد ،

الحصول على الجنسية الاسرائيلية ، اذا كان من سكان تلك المناطق الدائمين ، حتى وان كان قد ترك محل اقامته لفترة ما وزار أية دولة من الدول العربية المجاورة(٩) .كذلك سهلت السلطات الاسرائيلية على السكان العرب ، الذين كانت قد اسقطت حقوقهم الاصلية في الجنسية ، الحصول عليها عن طريق التجنس(١٠) .ولكن على الرغم من كل التسهيلات فأن تلك التعليمات ، التي يعتبر مجرد وجودها رمزا لسياسة اسرائيلية صنف العربي بموجبها ، وفي احسن الحالات ، مواطنا من الدرجة الثانية ، لا تزال قائمة ، وذلك في نفس الوقت الذي منح فيه الكنيست (البرلمان) الاسرائيلي الحكومة حق منح الجنسية الاسرائيلية لكل يهودي في العالم ، اذا ما أعلن عن رغبته في الهجرة الى اسرائيل(١١)، وحتى وان كان يتمتع بحقوق المواطنة في دولته ، لكي تستطيع السلطات الاسرائيلية ان تدعي لنفسها الحق في التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى والضغط عليها لاخراج سكانها اليهود منها ، تمهيدا لقدومهم الى اسرائيل .

ان الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية للمس بحقوق العرب في المواطنة ، سعيا وراء تقليص « الوجود » العربي في اسرائيل لم تقف عند قانوني العودة والجنسية وانما تطورت مؤخرا واضيف اليها اجراء اخر، يكشف عن طبيعة الكيان الصهيوني . لقد لاحظت السلطات الاسرائيلية ، مع مرور الوقت ، ان نسبة التكاثر الطبيعي بين سكان اسرائيل العرب تفوق تلك القائمة بين اليهود ، بحيث بقي السكان العرب يشكلون ما يزيد على عشر السكان في اسرائيل ، منذ اقامتها وحتى اليوم ، رغم ارتفاع عدد المهاجرين اليهود القادمين الى البلد ، وهو ما اعتبرته بعض الدوائر الاسرائيلية « خطرا » على الكيان الصهيوني وراحت تبحث في الخطط المناسبة لمواجهته. ولم يكن من السهل على السلطة الاسرائيلية ، بالطبع ، ايجاد الوسائل الفعالة للحد من تكاثر السكان العرب ، ولهذا لجأت بدلا من ذلك الى العمل على زيادة عدد السكان اليهود وتشجيعهم ، ماليا ، على زيادة تكاثرهم الطبيعي ، فعمدت الى تعديل قانون الجنود المسرحين(١٢)، وزادت بموجب ذلك المساعدات المالية التي يحصل عليها أطفال تلك العائلات اليهود ، بينما حجبت هذه المساعدة عن العائلات العربية ، التي لا يخدم معظم اربابها في الجيش .

اذا كان الهدف من قانوني العودة والجنسية الاسرائيليين تقوية طابع اسرائيل اليهودي ، واذا كانت التعليمات التي ينص عليها القانونان ليست الا وسيلة لخدمة هذا الهدف ، وذلك لتأمين تنفيذ أحد المبادىء الرئيسية للنظرية الصهيونية وهو اقامة دولة يهودية في فلسطين تكون « نقية » قدر الامكان من ابناء الشعوب الاخرى ، وخاصة من العرب ، فان قوانين مصادرة الاراضي وامتلاكها ، التي طبقت بحق السكان العرب ، ليست الا اداة اخرى لخدمة شطر آخر من النظرية الصهيونية ، وهو تقوية الاستيطان اليهودي في فلسطين ، من خلال السعي الدائم الى احلال اليهود محل العرب على الارض الفلسطينية . ان الاستيلاء على أراضي فلسطين وتحويل ملكيتها لليهود هدف يرافق الحركة الصهيونية ، كما هو معروف ، منذ نشأتها . وكان اليهود في فلسطين قد استطاعوا شراء ما مساحته ٦ر٥٪ من مساحة الاراضي في البلد حتى سنة ١٩٤٨، بينما استطاعت اسرائيل خلال حرب ١٩٤٨ بسط سيطرتها على نحو ٦٠ ٪ من مساحة فلسطين ، بعد طرد سكانها منها . وكانت مساحات كبيرة من تلك الاراضي ملكا للعرب الذين بقوا داخل اسرائيل ، وهي الاراضي التي توجهت السلطات الاسرائيلية للاستيلاء عليها من مالكيها وتحويلها الى المستوطنين اليهود لأستغلالها .

تمس الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل ، على صعيد استملاك الاراضي واستغلالها ، بشكل جذري ودائم بحقوق السكان العرب في أملاكهم وقدرتهم على تأمين متطلبات

معيشتهم ، وتعبر في الوقت نفسه عن نية السلطات الاسرائيلية في اقتلاعهم من وطنهم ، تمهيدا لخروجهم من ديارهم اذا كان بالامكان تنفيذ ذلك . ولقد كانت حصيلة تلك الاجراءات ، التي نفذت منذ اقامة اسرائيل وحتى اليوم ، الاستيلاء على اكبر مساحة ممكنة من الاراضي التي كانت ملكا للعرب وتحويلها للمستوطنين اليهود لاستغلالها من جهة ، ثم اتخاذ اجراءات اخرى لمنع العرب من استرجاع تلك الاراضي ، وفي مرحلة لاحقة منعهم من العمل فيها كعمال مستأجرين لدى اليهود ، من جهة اخرى . اما الخطوات الاولى التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية في هذا المجال فكانت الاستيلاء عنوة على مساحات كبيرة من الاراضي العربية وتسليمها للكيبوتسات اليهودية لفلاحتها ، دون اي مبرر قانوني ، ولكنها سرعان ما تنبهت في مرحلة لاحقة الى ان مثل هذا العمل لا يليق بـ « دولة قانون » كاسرائيل ، ولهذا اتجهت الى تغيير تكتيكها وراحت تسن القوانين ، الواحد تلو الآخر ، لاضفاء صفة الشرعية على اجراءات الاستيلاء على الاراضي العربية .

كانت أولى الاجراءات القانونية التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية للاستيلاء على أراضي العرب الذين بقوا يعيشون داخلها ، سن انظمة اموال الغائبين لسنة ١٩٤٨(١٤)، التي تحولت فيما بعد الى قانون اموال الغائبين لسنة ٥٧١٠ ــ ١٩٥٠(١٥)، وهو القانون الذي يحتوي على تعليمات تشبه ، الى حد ما ، تلك المنصوص عليها في قانون الجنسية ، والذي صودرت بموجبه أراضي كل عربي كان قد ترك محل اقامته في المناطق التي احتلتها اسرائيل او التي ضمت اليها ، وانتقل الى اي مكان آخر ، خارج فلسطين او داخلها ، في اي فترة كانت بعد صدور قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ، باعتبار ذلك العربي « غائبا » بمفهوم القانون ، مع انه عمليا يسكن اسرائيل ويعتبر احيانا من مواطنيها . ولم تكتف اسرائيل ، بالطبع ، بالاراضي التي استولت عليها بموجب هذا القانون، حيث لجأت ايضا الى تطبيق سلسلة أخرى من القوانين ، منها ما سن خصيصا لهذه الغاية ، للاستيلاء على المزيد من الاراضي العربية . وكان من بين القوانين التي طبقت ايضا للاستيلاء على أراضي العرب أنظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥(١٦) التي أعلنت بموجبها العديد من القرى العربية التي كان سكانها قد طردوا منها خلال حرب ١٩٤٨ ولكن قسما منهم أو كلهم بقوا داخل اسرائيل ، مناطق مغلقة يحظر الدخول اليها(١٧)، تمهيدا لمصادرة الاراضي الزراعية الواقعة في تلك المناطق . وفي مرحلة لاحقة سن الكنيست ايضا انظمة الطوارىء (مناطق الامن) لسنة ٥٧٠٩ ــ ١٩٤٩(١٨)، التي خولت وزير الدفاع صلاحية طرد سكان اية قرية تقع ضمن اي من المناطق التي صنفت كمناطق أمن ، وضمت معظم القرى العربية في اسرائيل(١٩)، من بيوتهم الى خارج مناطق سكنهم ، وهو ما تم تنفيذه ، مثلا ، بالنسبة لقرى كفربرعم واقرت والخصاص الواقعة في منطقة الجليل ، والتي طرد سكانها منها ونقلوا الى أماكن أخرى في اسرائيل ، حيث تم على الاثر الاستيلاء على أراضيهم . وفي السنة نفسها سن الكنيست أيضا أنظمة الطوارىء (استغلال الاراضي المبورة) لسنة ٥٧٠٩ ــ ١٩٤٩(٢٠)، التي منحت وزارة الزراعة صلاحية الاستيلاء على الاراضي العربية التي لم يقم أصحابها بفلاحتها ، مع انهم كانوا قد منعوا عنوة من الدخول اليها بعد اعلانها مناطق مغلقة من قبل السلطة ، وتسليمها الى المستوطنات اليهودية لاستغلالها. وتم في السنة نفسها ايضا نشر قانون تنظيم الاستيلاء على عقارات في ساعة الطوارىء لسنة ٥٧١٠ ــ ١٩٤٩(٢١)، الذي استغل لمصادرة العقارات العربية ، في المدن خاصة ، وذلك لاسكان المهاجرين اليهود الجدد ، القادمين الى اسرائيل او لاخلاء بنايات واستعمالها مكاتب او منشآت للاجهزة الاسرائيلية الرسمية المختلفة .

بعد الاستيلاء على ما تم الاستيلاء عليه من الاراضي العربية بموجب القوانين

المذكورة، توجهت السلطات الاسرائيلية الى تصفية حقوق الملكية لتلك الاراضي وانتزاعها من العرب ، فسنت في مرحلة لاحقة قانون الاراضي (مصادقة الاعمال والتعويض) لسنة ٥٧١٣ — ١٩٥٣(٢٢) الذي أعلنت بموجبه ان تلك الاراضي ، التي تم الاستيلاء عليها بواسطة القوانين السابقة ، تعتبر ملكا لسلطة التعمير والانشاء ، وهي جهاز تابع للدولة ، بينما يحق لاصحابها السابقين الحصول على « تعويضات » عنها حسب اثمانها في أوائل سنة ١٩٥٠ ، عندما كانت أثمان الارض منخفضة للغاية ، وهو اجراء مكن السلطة من الاستيلاء على تلك الاراضي بأبخس الاثمان ، مؤكدة ان رفض المالكين العرب استلام التعويضات المقترحة عن اراضيهم لا يؤثر على « حقوق » ملكية الدولة لها(٢٣).

لم تقف اجراءات مصادرة الاراضي العربية عند هذا الحد ، فمع اواخر الخمسينات قامت السلطات الاسرائيلية بادخال تعديلات على قانونين يتعلقان بحقوق ملكية الاراضي، هما قانون التقادم لسنة ٥٧١٨ — ١٩٥٨(٢٤) وقانون الاراضي (تسوية حقوق الملكية) لسنة ١٩٢٨(٢٥)، اتضح ان الهدف منهما كان الاستيلاء على مساحات أخرى من الاراضي العربية ، وذلك باعتبار التحسينات التي أدخلها العرب على ما اعتبرته السلطات اراضي الدولة ، لجهة تحسينها او تطويرها ، وذلك منذ ١٩٤٣ ، وكأنها لم تكن ، مما مكنها من الاستيلاء على مساحات أخرى من الاراضي كان المزارعون العرب قد حسنوها وجعلوها أرضا صالحة للزراعة ، وكانت ستعتبر ملكا لهم حسب القوانين السارية المفعول وقتها لو لم يتم تعديل القانونين المشار اليهما(٢٦).

أسفرت الاجراءات التي اتخذت بموجب القوانين التي اشرنا اليها ، في نهاية الامر ، عن مصادرة ما تزيد مساحته على مليون دونم من الاراضي اي ما يزيد على ثلثي مساحة الاراضي التي كان العرب داخل اسرائيل يملكونها(٢٧). ومع اقتراب مرحلة مصادرة الاراضي هذه على الانتهاء كانت السلطات الاسرائيلية تتخذ سلسلة اخرى من الاجراءات القانونية ، هدفت الى وضع القيود على اعادة بيع الاراضي وتسليمها الى غير اليهود ، وهي القانون الاساسي : عقارات اسرائيل لسنة ١٩٦٠(٢٨) وقانون عقارات اسرائيل لسنة ١٩٦٠(٢٩) وقانون مديرية عقارات اسرائيل لسنة ١٩٦٠(٣٠)، التي فرضت بموجبها قيود صارمة على بيع ما سمي بأراضي الدولة ، ومن بينها تلك التي صودرت من العرب، ونم حصر استعمالها، عادة،في اليهود دون غيرهم.ومما يلفت النظر في عملية انتقال ملكية الاراضي هذه ، انها تتم في اتجاه واحد فقط ، اي ان عمليات تحويل الملكية تقتصر على انتزاع الاراضي من العرب ونقلها الى اليهود ، بينما يمنع القانون القيام بعكس ذلك . وفي مثل هذه الحالة قد لا نستغرب ان نصل يوما ، نظريا على الاقل ، الى وضع تنتقل معه كل ملكية الاراضي العربية الى الدولة وسكانها اليهود ، بينما يصبح العرب مجموعة من السكان لا تملك اي عقار داخل اسرائيل . ومما يلفت النظر في هذا المجال ان السلطات الاسرائيلية متيقظة للغاية لاية محاولة لتغيير هذا الوضع ، فعندما اكتشفت قبل بضع سنوات ان عددا من المزارعين العرب يعودون الى الاراضي التي صودرت منهم ، بصفة عمال مستأجرين لدى مالكيها الجدد من اليهود ، سارعت الى سن قانون خاص ، هو قانون الاستيطان الزراعي (قيود لاستعمال الارض الزراعية ولاستعمال المياه) لسنة ١٩٦٧(٣١)، فرضت بموجبه قيودا صارمة على المستوطنين اليهود ومنعتهم من استخدام العمال الزراعيين العرب في الاراضي التي سلمت لهم ، تحت طائلة مصادرة حقوقهم في استعمال تلك الاراضي ان خالفوا القانون .

اضافة الى التمييز الذي يعانيه العرب ، وفقا للقانون الاسرائيلي ، في النواحي التي اشرنا لها ، المتعلقة بحقوقهم كمواطنين في بلادهم وقدرتهم على استملاك العقارات ، هناك ايضا نواح اخرى ، يخضع نشاط العرب ضمنها لقيود صارمة ومراقبة دقيقة ،

وهي حرية العمل والتنظيم السياسي والتعبير عن الرأي . وفي هذه الناحية ، يصعب الوقوف بسهولة على طبيعة الاجراءات التي تتخذها السلطات الاسرائيلية للتحكم بأوضاع العرب السياسية ، اذ انها على عكس تلك التي عهدناها حتى الان ، نجدها هذه المرة مغلفة بعبارات وتعابير منمقة ومختبئة ، عادة ، تحت شعارات متطلبات الامن وضروراته .

أعلنت اسرائيل ، بعد بضعة ايام من الاعلان عن اقامتها سنة ١٩٤٨ ، حالة الطوارىء داخلها ، وهي الحالة التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا . وفي هذا المجال ، طبقت السلطات الاسرائيلية انظمة الطوارىء التي ورثتها عن سلطات الانتداب البريطاني ، بعد ان ادخلت عليها بعض التعديلات الطفيفة والغت منها بعض البنود التي تمس بمصالح الكيان الصهيوني ، بحق اليهود والعرب خلال بضعة أشهر بعد قيامها ، ثم سرعان ما توقفت عن تطبيقها بحق اليهود وقصرت ذلك على العرب وحدهم(٣٢) .

ان اجراءات الطوارىء التي طبقتها اسرائيل بحق العرب داخلها ، والتي لا يزال بعضها قائما حتى اليوم ، وان اختلفت طريقة تنفيذه ، تكاد تكون محصورة في انظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥(٣٣)، التي تمنح السلطات صلاحية القيام بأي عمل قد يخطر على بالها ، تقريبا ، مهما بلغ من غرابته وقسوته تحت ستار المحافظة على أمن البلد وتأمين السلامة العامة والمحافظة على النظام العام وقمع العصيان او الثورة او الفتنة . أما اولى الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية بحق العرب عامة ، بموجب تلك الانظمة فكانت فرض الاحكام العسكرية عليهم ، بحيث كانت النتيجة الاولى لهذا العمل تقسيم المناطق التي يسكنها العرب داخل اسرائيل الى مناطق مغلقة ومنع سكانها من الخروج منها ، لاي سبب كان وخلال أية فترة كانت ، وفي الوقت نفسه منع من يسكن خارجها من العرب من الدخول اليها ، الا بموجب تصريح خطي صادر عن الحاكم العسكري بذلك(٣٤) . ومع مرور الزمن أصبح تصريح التنقل هذا اداة في يد السلطة للضغط على العرب وتحديد حريتهم ومنع الجماهير العربية من القيام بأي عمل لا ترضى عنه السلطة ، اذ ان حجب مثل ذلك التصريح أصبح اداة فعالة للمس بأوضاع العرب الاقتصادية ، وخاصة العمال منهم لمنعهم من الوصول الى أعمالهم . كذلك استغلت السلطات الاسرائيلية الاجراءات الاستثنائية التي نصت عليها انظمة الطوارىء، لجهة فرض قيود الاقامة الاجبارية على الاشخاص أو نفيهم او اعتقالهم اداريا ، دون توجيه أي تهمة لهم ، عدا عن الاعلان انهم يشكلون خطرا على الامن(٣٥)، لفرض القيود على النشيطين سياسيا من العرب او المناوئين للسلطة واجراءاتها تجاه السكان العرب. ومع مرور الزمن ، ادخلت السلطات الاسرائيلية بعض التعديلات على سياستها تلك ، فأعلنت سنة ١٩٥٩ عن تخفيف قيود الحكم العسكري وسمحت بقسط أكبر من حرية التجول للعرب في مناطق محددة داخل اسرائيل ، وخلال ساعات النهار فقط(٣٦) ثم عادت وأعلنت في اواخر سنة ١٩٦٦ عن الغاء جهاز الحكم العسكري برمته وتحويل صلاحياته الى الشرطة المدنية(٣٧) في محاولة منها لاضفاء طابع الديمقراطية والتساهل مع العرب واتباع سياسة جديدة تجاههم . ولكن على الرغم من ذلك فان كل تلك الصلاحيات لا تزال عمليا قائمة ، من الوجهة القانونية ، حتى هذا اليوم ، وكل ما حدث يتلخص في ان السلطات الاسرائيلية توقفت عن تطبيق تلك الاجراءات بصورة جماهيرية واستعاضت عن ذلك بتطبيقها بشكل انتقائي بحق الافراد الذين لا يحظون برضاها ، خاصة بسبب نشاطهم السياسي(٣٨) .

وعلى ذكر انظمة الطوارىء ، ينبغي الاشارة ايضا الى ان تلك الانظمة كانت الوسيلة التي استعملتها السلطات الاسرائيلية للمس بحرية الصحافة والتعبير عن الرأي وتقييد

حرية التنظيم ومزاولة العمل السياسي ، رغم ادعاءات النظام الاسرائيلي بأنه نظـــام ديموقراطي شبه مثالي . وفي هذه الناحية ، تحتوي انظمة الطوارىء على صلاحيات واسعة يحق للسلطة بموجبها تعطيل الصحف عن الصدور او الامتناع عن الترخيص بها، دون ابداء اي سبب لذلك(٣٩)، ثم فرض الرقابة عليها(٤٠)، وكذلك منع قيام التنظيمات السياسية التي لا ترضى السلطة عنها ، ومرة اخرى دون ابداء اسباب لذلك ، عدا عن التنويه ان مثل ذلك العمل ضروري لمقتضيات الامن(٤١). لقد امتنعت الســـــلطات الاسرائيلية ، عادة ، عن تنفيذ تلك الاجراءات بحق اليهود ، ولكن موقفها كان مختلفا بالنسبة للعرب . وتعتبر التجربة التي خاضتها حركة « الارض » ، وهي حركة قومية عربية اقيمت في اسرائيل سنة ١٩٥٩ وبقيت تعمل حتى ١٩٦٤ ، عندما منعتها السلطة من القيام بأي نشاط ، خير دليل على ذلك . ان اجراءات القمع « العادية » التي اتخذتها السلطة الاسرائيلية بحق اعضاء الحركة لم تستطع منعهم من ممارسة نشاط سياسي خاص بهم ، ولما وجدت السلطات انها لن تستطيع احتواءهم لجأت الى انظمة الطوارىء فمنعتهم من اصدار صحيفة خاصة بهم(٤٢)، ثم حلت التنظيم السياسي الذي اقاموه(٤٣) وفي مرحلة لاحقة منعتهم ايضا من الاشتراك في الانتخابات العامة(٤٤).

يتضح مما تقدم من عرض الاوضاع القانونية للسكان العرب في اسرائيل ، ان اولئك السكان ليسوا ، في أحسن الاحوال ، الا مواطنين من الدرجة الثانية ، وان تمتعهم بالحقوق التي يمنحها القانون الاسرائيلي لمواطن في اسرائيل يتوقف على نظرة النظام الاسرائيلي لتلك الحقوق ، وما دامت غير متنافية مع طابع اسرائيل الصهيوني ولا تؤثر عليه ، وبعكس ذلك نرى القيود تفرض على العرب ويمنعون حتى من التمتع بأبسط حقوقهم .

٣ ــ السكان العرب في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧

يختلف الوضع القانوني للسكان العرب في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، عدا مدينة القدس ، عن ذلك القائم بالنسبة للسكان العرب في اسرائيـــل ، لجهة تصنيف هـــذه المناطق ، من وجهة نظر القانون الاسرائيلي ، كمناطق محتلة قولا وفعلا . فمع دخول قوات الجيش الاسرائيلي الى الاراضي التي احتلت يومها ، والتي تم تقسيمها اداريا الى اربع مناطق هي الضفة الغربية ، هضبة الجولان ، قطاع غزة وشمال سيناء (منطقة « اقليم شلومو » بحسب التعريف الاسرائيلي) نشر قادة القوات الاسرائيلية في كل واحدة من تلك المناطق ما سموه المنشـــور رقم ١ ، أعلنوا بموجبه « ان الجيـــش الاسرائيلي ... تقلد زمام الحكم لاقرار الامن والنظام العام في المنطقة »(٤٥) التي تخضع لسيطرتهم . ثم اتبع ذلك المنشور بالمنشور رقم ٢ « بشأن انظمة السلطة والقضاء » الذي أعلن قادة الجيش الاسرائيلي بموجبه استيلاءهم على « صلاحيات الحكم والتشريع والتعيين والادارة فيما يتعلق بالمنطقة او بسكانها »(٤٦)، وذلك بعد ان اعلنوا ان القوانين التي كانت قائمة في المنطقة عشية دخول القوات الاسرائيلية اليها « تظل نافذة المفعول بالقدر الذي لا تتعارض فيه مع هذا المنشور (اي المنشور رقم ٢) او اي منشور او أمر يصدر من قبلي (اي من قبل قائد القوات الاسرائيلية في المنطقة) ــ وبالتغييرات الناجمة عن حكم جيش الدفاع الاسرائيلي في المنطقة »(٤٧).

من الواضح من نصوص وتعليمات المنشوريـــن المذكورين ، ان الجيش الاسرائيلي اعتبر نفسه قانونا ، كما أشرنا ، بمثابة قوات احتلال موجودة في المناطق التي تخضع لسيطرته ، يديرها وفقا للاسس التي ينبغي ان تدار بها منطقة محتلـــة لحين البت في مصيرها ، ولهذا يفترض في هذا الصدد ان تلتزم القوات الاسرائيلية بالقوانين الدولية

المعمول بها في مثل هذه الحالات ، وخاصة احكام معاهدة جنيف لسنة ١٩٤٩ ، التي كانت اسرائيل من بين الدول التي صادقت عليها ، وتتصرف تجاه سكان تلك المناطق من خلال التقيد بتعليمات تلك المعاهدات وأصول القانون الدولي المرعية . ولكن بدلا من ذلك نرى ان اسرائيل قد أدينت أكثر من مرة من قبل منظمات خاصة او دولية ، وخاصة في الامم المتحدة ، بمخالفة احكام معاهدة جنيف وأصول القانون الدولي المتبعة في مثل هذه الحالات ، والتصرف بطريقة اعتباطية في المناطق التي احتلتها ، وبشكل لا يتلاءم ومصلحة السكان في تلك المناطق(٤٨).

ليس من السهل ، بالطبع ، ضمن هذا العرض المقتضب لاوضاع السكان العرب القانونية في المناطق المحتلة الوقوف بالتفصيل على طبيعة التصرفات والاجراءات التي ميزت النشاط الاسرائيلي في تلك المناطق والوصول الى موقف واضح منها جميعا . ولكن نظرة اجمالية الى الاوامر التي أصدرتها قيادات القوات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، على أصعدة « الحكم ، التشريع ، التعيين والادارة » ، تظهر ان القصد منها لم يكن الالتزام بتنفيذ تعليمات القانون الدولي من جهة ، او مخالفة تلك التعليمات قصدا من جهة أخرى ، كغاية رئيسية قائمة بحد ذاتها ، وان كان الهدف اساسا ادارة تلك المناطق بشكل يتلاءم مع المصالح الاسرائيلية ، ومع مصالح سكانها بالمدى الذي يعتبر ذلك ضروريا للحفاظ على الامن والهدوء في تلك المناطق ، من خلال التجربة الغنية التي مرت بها اسرائيل في مجال معاملة السكان العرب الذين بقوا داخلها بعد ١٩٤٨ ، وبأسلوب قضائي واداري يشبه ذلك الذي اتبعته اسرائيل بالنسبة لادارة شؤونها عند اقامتها وبعد ذلك .

ان « الاسلوب الاسرائيلي » في الحكم والادارة ، الذي طبق بالنسبة للمناطق المحتلة ، واضح للغاية وذلك من المناشير والاوامر الاولى التي أصدرها قادة الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة . فالتعليمات التي ينص عليها المنشوران رقم ١ و٢ ، اللذان مر ذكرهما ، بشأن تقلد الجيش الاسرائيلي السلطة وتحديد انظمة السلطة والقضاء في المناطق المحتلة وأسلوب التنفيذ الضمني الذي أرسيت قواعده في هذين المنشورين ، تشبه الى حد بعيد تلك الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل لحظة الاعلان عن قيامها لدعم سلطتها وتحديد أسس النظام والقضاء فيها . ولقد كان أول عمل قامت به اسرائيل عند انشائها، اعلانها عن نفسها دولة مستقلة وبسط نفوذها على المناطق التي احتلتها وقتها، بموجب مستند خاص بذلك ، عرف فيما بعد باسم وثيقة الاستقلال ، وهو التقليد الذي اتبعه الجيش الاسرائيلي سنة ١٩٦٧ باعلانه عن « تقلد زمام الحكم » في المناطق التي احتلها . كذلك فان التعليمات التي نص عليها المنشور رقم ٢ بشأن « أنظمة السلطة والقضاء » والذي أعلن قادة القوات الاسرائيلية بموجبه استيلاءهم على « صلاحيات الحكم ، التشريع ، التعيين والادارة » في المناطق التي تحتلها قواتهم ، ثم تأكيدهم ان القوانين التي كانت قائمة في المناطق المحتلة عشية دخول القوات الاسرائيلية تظل نافذة المفعول بالقدر الذي لا تتعارض فيه مع المناشير التي يصدرونها « وبالتغييرات الناجمة عن انشاء حكم جيش الدفاع الاسرائيلي » في تلك المناطق ، متجانسة تماما مع تعليمات أول قانون أصدرته اسرائيل بعد الاعلان عن اقامتها، وهو قانون انظمة السلطة والقضاء لسنة ١٩٤٨(٤٩). ففي هذا القانون ايضا اعلنت اسرائيل ان صلاحيات التشريع والقضاء والادارة في المناطق التي تسيطر عليها القوات الاسرائيلية او التي قد تحتلها فيما بعد ، تناط بالحكومة الاسرائيلية المؤقتة ، وان القوانين التي كانت قائمة عشية الاعلان عن استقلال اسرائيل تبقى نافذة المفعول ، وبالمدى الذي لم تلغ به تلك القوانين صراحة ، او ان وجودها لا يتعارض مع حقيقة اقامة اسرائيل ونظامها(٥٠). وتجدر الاشارة هنا الى

ان هذا ايضا كان نفس الاسلوب التي اتبعته القوات البريطانية عند استكمالها احتلال فلسطين سنة ١٩١٨ ، عندما أعلنت ان القانون العثماني الذي كان سائدا عشية الاحتلال يبقى نافذ المفعول ، الا اذا تم الغاؤه صراحة ، ثم راحت تدخل التغييرات على تلك القوانين فيما بعد وتضيف اليها قوانين أخرى ، بريطانية المنشأ ، بين حين وآخر(٥١) .

اضافة الى « الاسلوب الاسرائيلي » في الحكم والادارة الذي طبق في المناطق المحتلة ، كما نوهنا ، هناك أيضا « التجربة الاسرائيلية » مع العرب الذين بقوا داخل اسرائيل بعد ١٩٤٨ ، التي طبقت في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ . فالمنشور رقم ٣ الذي أصدره قادة قوات الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة في نفس الوقت الذي صدر فيه المنشوران رقم ١ و ٢ ، والذي ينص على العمل بما سمي « الامر بشأن تعليمات الامن » لسنة ٥٧٢٧ — ١٩٦٧ ، الذي صدر ايضا في تاريخ اصدار المنشورين السابقين ، وهي المناشير الثلاثة التي يمكن اعتبارها بمثابة أسس النظام الاسرائيلي الذي أنشىء في المناطق المحتلة ، يستند بشكل واضح الى الخبرة التي اكتسبتها السلطات الاسرائيلية في مجال تعاملها مع سكان اسرائيل العرب خلال ١٩٤٨ — ١٩٦٧ . وتنبغي الاشارة هنا الى أن تعديلات عديدة قد أدخلت على ذلك الامر بشأن تعليمات الامن ، في ضوء متطلبات الواقع في المناطق المحتلة ، استمرت نحو ثلاث سنوات ، الى ان أعيدت صياغة الامر سنة ١٩٧٠ وتم نشره ثانية بصيغته الجديدة ، التي احتوت على كل التعديلات السابقة(٥٢) .

ان نظرة سريعة الى مواد « الامر بشأن تعليمات الامن » تظهر ان ذلك الامر ليس الا نسخة مستحدثة ، « مكررة ونقية » لأهم التعليمات والمواد التي تحتوي عليها انظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥ ، وهي الانظمة التي استغلتها السلطات الاسرائيلية لاضطهاد العرب داخلها وسلبهم حقوقهم المدنية والتحكم في تطورهم وتحركاتهم السياسية والاجتماعية بالشكل الذي يناسبها . ولقد كانت تلك الانظمة الاداة الرئيسية التي استعملتها السلطة الاسرائيلية لفرض الاحكام العسكرية على العرب وتقييد تحركاتهم ، وهي التي ساعدتها على مصادرة مساحات واسعة من الاراضي العربية ، وعلى تقييد حرية العرب المناوئين لسياستها ونفيهم أو اعتقالهم ، سعيا لاسكاتهم ثم المس بحرية العمل السياسي وحرية التنظيم والصحافة والفكر ، كما اشرنا أعلاه . ويبدو واضحا ان الامر بشأن تعليمات الامن لسنة ١٩٦٧ ، وذلك الذي حل محله سنة ١٩٧٠ ، يسيران على نفس الخطى التي سارت عليها انظمة الطوارىء لسنة ١٩٤٥ ، ويتبعان نفس اساليب وطريقة العمل المنصوص عليها في تلك الانظمة ، ويحتويان كذلك على معظم التعليمات التي تنص عليها ، خاصة تلك التي تمس بالحريات الديموقراطية .

ان أول ما ينص عليه الامر بشأن تعليمات الامن هو منح قادة القوات الاسرائيلية في المناطق العسكرية صلاحية تعيين حكام عسكريين لاية مساحة أو مكان ضمن المناطق الخاضعة لسلطتهم ، لمساعدتهم في ادارة تلك المناطق(٥٣)، وذلك تماما كما عين في حينه حكام عسكريون للمناطق التي يسكنها العرب داخل اسرائيل(٥٤) . وينتقل الامر بعد ذلك الى تشكيل المحاكم العسكرية ، التي يشبه تشكيلها ايضا تلك التي تعمل بالنسبة للعرب في اسرائيل ، ثم يتطرق بعد ذلك الى تعداد ما يعتبره جرائم ضد الامن ، فنرى أنه لسبب ما يضم الجرائم ذات الصبغة العسكرية فقط ، ويمنح السلطات العسكرية صلاحيات التوقيف والضبط والتفتيش والمصادرة فيما يتعلق بتلك الجرائم . غير ان أهم ما يلفت النظر في هذا الامر هو الصلاحيات التي منحت للحكام العسكريين لفرض أوامر التقييد والرقابة الخاصة (النفي) والاعتقال الاداري بالنسبة لسكان تلك المناطق ، وكذلك تقييد حركة النقل والمرور ومنع التجول واعلان المناطق المغلقة(٥٥)، وهي الصلاحيات التي

استعملتها اسرائيل بشكل مكثف ضد سكانها العرب ، والتي استعملها الحكام العسكريون في المناطق المحتلة لاضطهاد السكان العرب وقمع نشاط المقاومة بينهم او للاستيلاء على اراضيهم . كذلك يلفت النظر ، من ناحية ثانية ، خلو تلك التعليمات من أية اشارة تمنح بموجبها للسلطات العسكرية صلاحية مصادرة البيوت ونسفها ، رغم ان سلطات الاحتلال لجأت الى تطبيق هذا الاجراء اكثر من مرة ونسفت المئات من البيوت في المناطق المحتلة . ويبدو ان سلطات الاحتلال امتنعت عن ذكر هذا الاجراء في أوامر الامن التي أصدرتها في المناطق المحتلة ، لانه يتنافى صراحة مع نصوص معاهدة جنيف لسنة ١٩٤٩ ، وفضلت بدلا من ذلك الاستناد الى انظمة الطوارىء البريطانية لسنة ١٩٤٥ ، التي كانت سنة ١٩٦٧ لا تزال سارية المفعول في الضفة الغربية وقطاع غزة ، لتنفيذ عمليات نسف البيوت(٥٦). وتخلو أوامر الامن أيضا من أية اشارة الى فرض العقوبات الجماعية بحق سكان المناطق او طرد السكان العرب الى خارج مناطق سكنهم(٥٧) حيث ان هذه العقوبات تتنافى أيضا مع تعليمات معاهدة جنيف ، ولهذا تلجأ سلطات الاحتلال ، مرة أخرى ، الى استعمال انظمة الطوارىء لسنة ١٩٤٥ (٥٨).

اضافة الى المناشير والاوامر والتعليمات التي أصدرها قادة القوات الاسرائيلية في المناطق المحتلة والتي تتعلق بأسس النظام والحكم الاسرائيلي في تلك المناطق ، كما اشرنا ، هناك أيضا أوامر عديدة أخرى تتعلق بشؤون المعيشة اليومية للسكان في تلك المناطق ، بكافة جوانبها والكثير منها يعدل القوانين المحلية المعمول بها في المناطق او يستبدلها او يضيف عليها ، وهناك أيضا مجموعة من أوامر التعيينات ، من ابناء المناطق المحتلة وخارجها ، لعديد من المناصب الادارية والقضائية . ان الاوامر المتعلقة بهذه الاجراءات كبيرة العدد، ويزيد حجمها أضعاف المرات على حجم الاوامر المتعلقة بالشؤون الامنية ، اذ صدر منها حتى الان ما يزيد حجمه على ألف صفحة لكل واحدة من المناطق المحتلة . وتكاد لا تترك هذه الاوامر ناحية الا وتمسها ونكتفي هنا ، للدلالة على تنوعها ، بايراد بعض النواحي التي تعالجها ؛ فهناك ، مثلا ، أوامر تتعلق بالبنوك ، سعر العملة المحلية ، تداول العملة الاسرائيلية ، الضرائب ، الرسوم الجمركية ، تحصيل الاموال الاميرية ، تسويق المنتوجات الزراعية ، توزيع الجرائد ، اطالة مدة خدمة السلطات المحلية ، تنظيم السياحة ، ممارسة الحرف والمهن ، استعمال الكتب الدراسية ، تحديد الاوزان والمقاييس والمكاييل ، الآثار القديمة ، التقاعد ، تسوية الاراضي ، حماية الصيد والغابات والمناطق المحفوظة ، الاستملاك للمقاصد العامة ، اجازات المحامين ، انشاء الحدائق العمومية ، صيانة حرمة الاماكن المقدسة ، تنظيم المدن والقرى والابنية ، استغلال الثروات الطبيعية ، الخ . ويلاحظ من الاطلاع على نصوص الاوامر المتعلقة بالنواحي التي ذكرناها ان معظمها تم من خلال وجهة نظر تسعى الى تأمين متطلبات المعيشة اليومية والنظام العام في تلك المناطق وأحيانا تأمين المصالح الاسرائيلية في نواحي معينة . كذلك يلاحظ أيضا وجود مجموعة ثانية من الاوامر ، نذكر منها تلك المتعلقة بتأمين المركبات الميكانيكية ، بما في ذلك تغطية اخطار الفريق الثالث ، وتنظيم حركة مرور السيارات واصول سيرها(٥٩)، بشكل يشبه الى حد بعيد ذلك المتبع في اسرائيل، ويضاف الى هذا الصنف من الاوامر أيضا ذلك القاضي بالغاء عقوبة الاعدام كعقوبة وجوبية في المناطق المحتلة(٦٠).

ان الانطباع الذي يخرج به المرء من تتبعه لعملية اصدار الاوامر التشريعية من قبل قادة القوات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، هو الابقاء على صفة الاحتلال كصفة ملازمة للوجود الاسرائيلي في تلك المناطق ، والسعي بالدرجة الاولى الى ضمان سلامة قوات الاحتلال في تلك المناطق خاصة وتأمين مصالح المحتل الاسرائيلي عامة ، مع الاتجاه نحو

تأمين شؤون معيشة السكان بشكل منتظم وادخال التعديلات على النظام العام في المناطق بشكل يكون اكثر ما يكون تناسقا مع الاجراءات المرعية داخل اسرائيل بالنسبة لمثل تلك الحالات . ويبدو ان الاوضاع السياسية التي سادت المنطقة منذ ١٩٦٧ ، والتي امتنعت اسرائيل بسببها عن التخلي عن تلك المناطق بينما أصرت في نفس الوقت على عدم الانسحاب منها ، كانت السبب المباشر وراء المواقف الاسرائيلية هذه .

٤ ــ سكان القدس العرب

يختلف الوضع القانوني للسكان العرب في مدينة القدس عن ذلك القائم بالنسبة للسكان العرب في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، حيث ان اسرائيل أعلنت عن ضم المدينة اليها ، مع بعض ضواحيها ، بعد وقت قصير من احتلالها ، وهو ما لم تفعله بالنسبة لباقي المناطق المحتلة ، ومن هنا الفارق في الاوضاع القانونية بين السكان . كذلك يعود هذا الوضع ويتغير اذا ما قورن مع الاوضاع القانونية للعرب داخل اسرائيل ، حيث ان اجراءات الضم الخاصة التي اتبعت بالنسبة للقدس اكسبت سكانها بعض « الحقوق » التي لم تكن من نصيب العرب في اسرائيل ، وحجبت عنهم « حقوقا » أخرى حصل عليها أولئك العرب قبل فترة طويلة .

اتخذت السلطات الاسرائيلية موقفا مميزا من القدس بعد احتلالها ، على اثر اعلانها انها ستجعل من المدينة بأكملها « عاصمة اسرائيل الموحدة » ، عندما سارعت الى ضم المدينة الى اسرائيل قبل ان يمر شهر على احتلالها ، لتضع العرب والعالم أمام حقيقة واقعة . ففي ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ أقر الكنيست قانونا بتعديل قانون انظمة السلطة والقضاء(٦١)، وهو أول قانون أصدرته اسرائيل بعد الاعلان عن اقامتها ، خولت الحكومة بموجبه ، بأمر تصدره ، بضم أي مساحة من فلسطين ، وحسب نص القانون « أرض ــ اسرائيل » ، الى اسرائيل وذلك بواسطة فرض القانون والادارة الاسرائيليين على تلك المساحة . وفي نفس اليوم أقر تعديل آخر لقانون البلديات(٦٢) سمح بموجبه لوزير الداخلية باضافة تلك المساحة التي أعلنت الحكومة عن ضمها الى اسرائيل ، الى البلدية التي تجاورها ، بواسطة توسيع حدود تلك البلدية . وعلى اثر هذا مباشرة ، وفي اليوم التالي لتعديل القانونين المذكورين ، أصدرت سكرتيرة الحكومة بيانا أعلنت بموجبه ان الحكومة الاسرائيلية قررت ضم مدينة القدس القديمة (العربية) وضواحيها ، بمساحة تقدر بحوالي ٦٩٩٦٠ دونما من الارض ، الى اسرائيل(٦٣)، بينما أعلن وزير الداخلية انه قرر اتباع تلك المساحة ببلدية القدس الغربية (اليهودية)(٦٤)، لتضاف الى مساحتها السابقة البالغة ٣٧٢٠٠ دونم ، بحيث يعتبر الشطران مدينة واحدة ، في حين أصدر الحاكم العسكري في القدس في اليوم التالي ، اي ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، أمرا بحل بلدية القدس العربية(٦٥)، وحتى دون ان يكون مخولا قانونا بذلك .

يتضح من الاجراءات السابقة ، والسرعة التي نفذت بها ، الاصرار الاسرائيلي على ضم القدس العربية الى اسرائيل ، وهي العملية التي أثارت معارضة واسعة لدى سكان المدينة العرب وفي العالم العربي ودول عديدة أخرى ، ودفعت الجمعية العامة للامم المتحدة الى اعتبارها اجراءات باطلة ، طالبة من اسرائيل العمل على الغائها(٦٦). كذلك أثارت عملية الضم هذه مشاكل قانونية معقدة ، تتعلق بالوضع القانوني للسكان العرب في المدينة ، وهي المشاكل التي لا تزال اسرائيل تسعى لحلها ، منذ ١٩٦٧ وحتى اليوم ، وذلك بواسطة مجموعة من القوانين والانظمة التي اصدرت خصيصا لذلك . وكانت الخطوة الاولى في هذا المجال اصدار قانون التنظيمات القانونية والادارية لسنة ١٩٦٨(٦٧)، الذي أضيفت اليه سنة ١٩٦٩ انظمة اخرى لاستكماله(٦٨)، ثم اعيد نشره على شكل نص موحد سنة ١٩٧٠(٦٩) وأدخلت عليه تعديلات اضافية ، مرة اخرى ، سنة

١٩٧٣(٧٠). كذلك أصدرت السلطات الاسرائيلية ، في هذا الصدد ، قانون أملاك الغائبين (تعويضات) لسنة ١٩٧٣(٧١)، « لتعويض » سكان القدس العرب عن الممتلكات التي صودرت منهم .

ان الهدف الرئيسي الكامن وراء تلك القوانين ، كما تدل عليه التعليمات المختلفة التي تحتوي عليها ، هو بسط النفوذ الاسرائيلي على مدينة القدس ، بأكبر مدى ممكن ، من خلال تقوية الوجود اليهودي فيها والعمل في نفس الوقت على حل مشاكل السكان العرب الملحة ، بطريقة « هادئة » في أغلب الاحيان ومن خلال التغاضي عن الامور الحساسة التي قد تثير معارضة واسعة للسلطات الاسرائيلية بين السكان وترك مثل هذه الامور لتجد حلا لها ، ربما ، مع مرور الزمن ، وحتى وان نجم عن ذلك عـــدم تطبيق قوانين اسرائيلية عديدة بالنسبة لسكان المدينة العرب . أما أولى القضايا التي اتجهت تلك القوانين لحلها فكانت مشكلة « وجود » العرب في القدس وعلاقتهم بالقوانين الاسرائيلية، فاعتبرت اهالي المدينة العرب من « سكان » اسرائيل ، لا من « مواطنيها »(٧٢). ولهذا امتنعت السلطات عن منح الجنسية الاسرائيلية لاولئك السكان ومنعتهم من الاشتراك في الانتخابات العامة ، بينما سمحت لهم بالاشتراك في الانتخابات لبلدية القدس فقط ، التي لم يشترك الكثيرون منهم فيها على أية حال ، وذلك رغم ان مدينتهم ضمت الى اسرائيل دون تحفظات من جانب حكومتها . ويبدو ان الهدف الرئيسي الكامـــن وراء تصرفات الحكومة الاسرائيلية هذه هو عدم زيادة عدد العرب الذين يتمتعون بحقوق المواطنة في اسرائيل ، ووضع العراقيل في وجه من يريد منهم الحصول على تلك الحقوق باجباره على تقديم طلب خاص للتجنس ، تكون حرية البت فيه مناطة بوزير الداخلية ، كما يتضح من تعليمات قانون الجنسية الاسرائيلي من جهة(٧٣)، وتسهيل عملية الخروج للعرب الذين يريدون ترك المدينة من جهة اخرى .

كذلك تحاول القوانين الاسرائيلية المذكورة التدخل في الاوضاع الاقتصادية للسكان العرب ، من خلال ربط نشاط العرب الاقتصادي بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي ، وهي نفس الطريقة التي اتبعتها السلطات الاسرائيلية بالنسبة للسكان العرب في المناطق الاخرى المحتلة سنة ١٩٦٧ ، اذ تنص تلك القوانين على تسجيل كـــل الشركات والجمعيـــات التعاونية والمؤسسات الاقتصادية العاملة في المدينة كمؤسسات اسرائيلية ، تخضع للقوانين والانظمة الاسرائيلية ، وذلك خلال فترة وجيزة من اقرار تلك القوانين(٧٤). ويبدو ان السلطات الاسرائيلية توقعت ألا يستجيب السكان العرب بسرعة الى تلك التعليمات ، ولهذا منحت لنفسها صلاحية تمديد فترات التسجيل تلك من حين لآخر ، وهي الصلاحيات التي استعملتها أكثر من مرة لتمدد بموجبها تلك الفترات(٧٥)، حيث لم يسارع السكان العرب فعلا الى التقيد بتلك الانظمة وتسجيل مؤسساتهم الاقتصادية وفقا للقانون الاسرائيلي. واستمرارا لهذا الموقف تحتوي تلك القوانين ايضا على تعاليم اضافية يقتضي على السكان بموجبها الحصول على التراخيص والاذونات الملائمة من السلطات الاسرائيلية لممارسة مهنهم وحرفهم(٧٦)، ومرة أخـــرى اتخذت السلطـــات الاسرائيلية في هذا المجال الاحتياطات الضرورية لتفادي احراج نفسها والاضطرار للجوء الى الضغوط على السكان العرب لحملهم على التقيد بقوانينهـــا ، فقد توقعت تلـــك السلطات ، مثلا ، ألا يبادر المحامون العـــرب في القدس الى القيـــام بأي اجراء كان للحصول على ترخيص بمزاولة مهنتهم وفقا للقوانين الاسرائيليـــة ، ولهذا أدخلت الى القانون بندا خاصا منح اولئك المحامين حق ممارسة مهنتهم في اسرائيل دون قيود(٧٧).

ومما يلفت النظر أيضا في القوانين الاسرائيلية الخاصة بالقدس تلك المواد منها المتعلقة بحقوق سكان المدينة العرب في أملاكهم . لقد نجم عن اجراءات ضم القدس الفورية الى

اسرائيل وضع قانوني اعتبر سكان المدينة بموجبه « غائبين » بموجب القوانين التي كانت سارية المفعول وقتها والتي كانت تطبق بحق السكان العرب داخل اسرائيل ، مما يمنح السلطات الاسرائيلية الحق في الاستيلاء على تلك الاملاك ، بما في ذلك الاماكن المقدسة وأملاك الاوقاف . وقد تنبهت السلطات الاسرائيلية الى هـذا الوضع والى التعقيدات التي قد تنشأ عنه ، ولهذا نرى ان القوانين الخاصة بالقدس تنص صراحة على استثناء سكان المدينة ، والاماكـن المقدسة ، من تطبيـق قانون املاك الغائبين بحقهم(٧٨)، وان كان هذا الاستثناء لا ينطبق علـى أملاك السكان الموجودة في الجزء الغربي من المدينة او في أماكن أخرى في اسرائيل . وكانت السلطات الاسرائيلية قد أقرت في مرحلة لاحقة قانونا لتعويض سكان المدينة عن أملاكهم(٧٩) التي كانت اسرائيل قد استولت عليها سنة ١٩٤٨ ، وفقا للاسس التي طبقت تجاه العرب داخل اسرائيل في الماضي ، مع بعض الفوارق لجهة زيادة قيمة التعويضات ، وان كانت قيمة التعويضات التي حددت لا تتناسب مع القيمة الحقيقية للاملاك التي تم الاستيلاء عليها ، في حين أجبر السكان على التقدم بطلبات التعويض خلال فتـرة محددة ، وعلى استلام جزء مـن التعويضات مقابل سندات دين ، تدفعها الحكومة الاسرائيلية خلال ١٥ عاما(٨٠)، بحيث يبدو وكأن السكان العرب ملزمون بتمويل عملية مصادرة أراضيهم منهم . وعلى ذكر المصادرة ، نشير الى ان اسرائيل كانت قد اعلنت سنة ١٩٧٠ عن مصادرة ما تقارب مساحته من ١٢ الف دونم من الاراضي العربية في القدس وضواحيها(٨١)، لاقامة مساكن عليها للمهاجرين اليهود الجدد ولليهود الاسرائيليين الذين يعلنون عن استعدادهم للانتقال والعيش في القدس ، سعيا وراء تهويد المدينة ، بواسطة زيادة عدد سكانها اليهـود وتطوير المنشآت والمؤسسات المخصصة لخدمتهم . وقد تم الاستيلاء بالفعل على جزء من تلك المساحة المصادرة ، واقامة المساكن والمنشآت عليها .

يتضح مما تقدم ان الاسباب الكامنة وراء الاوضاع القانونية الخاصة للسكان العرب في مدينة القدس متناسقة مع مثيلاتها المتعلقة بأوضاع السكان العـرب القانونية في المناطق الاخرى ، المحتلة قديما او حديثا ، من حيث انها جميعا تنبع من مواقف واهداف سياسية تسعى السلطات الاسرائيلية الى تحقيقها ، وتختلف بالنسبة لكل منطقة واخرى باختلاف الموقف الاسرائيلي ، رسميا وعمليا ، من تلك المناطق وسكانها . ويلاحظ في هذا الصدد ان اسرائيل ، في سعيها لتحقيق أهدافها السياسيـة البعيدة المدى او خططها الآنية ، لا تتردد في التمييز بين منطقة وأخرى وبين شخص وآخر ، حتى وان لم يكن هناك مبرر منطقي لذلك وتقرر مواقفها من المعاهدات والاجراءات الدولية المتبعة، لجهة القبول بها او مخالفتها ، في ضوء مصالحها الخاصة .

---

١ ـ « الوقائع الاسرائيلية » ، **كتاب القوانين** رقم ٥١ ، ١٩٥٠/٧/٦ .

٢ ـ **المصدر نفسه** ، المواد ١ و ٢ .

٣ ـ قانون العودة (تعديل رقم ٢) لسنة ٥٧٣٠ ـ ١٩٧٠ ، **كتاب القوانين** رقم ٥٨٦ ، ١٩٧٠/٣/١٩ .

٤ ـ **كتاب القوانين** رقم ٩٥ ، ١٩٥٢/٤/٨ .

٥ ـ **المصدر نفسه** ، المادة ٢ .

٦ ـ **المصدر نفسه** ، المادة ٣ (أ) .

٧ ـ انظر ، للمقارنة ، اقوال وزير الداخلية ، حاييم موشيه شابيرا ، في « **محاضر الكنيست** »، ١٩٥٠/١٠/١٠ ، ص ٢١٣٤ .

٨ ـ انظر ، مثلا ، اقوال عضـو الكنيست توفيق طوبي في « **محاضر الكنيست** » ، ١٩٥٢/٧/٢٣ ، ص ٢٧٠٠ .

٩ ـ « **قرارات المحكمة العليا** » الاسرائيلية ، المجلد السادس عشر ، ص ٦٩ ، القضية رقم ٦٠/٣٢٨ ، جمال موسى ضد وزير الداخلية .

١٠ ـ انظر المادة ٥ من قانون الجنسية .

١١ ــ قانون الجنسية (تعديل رقم ٣) لسنة ٥٧٣١ ــ ١٩٧١ ، **كتاب القوانين** رقم ٦٢٤ ، ١٩٧١/٥/٢٦ .

١٢ ــ قانون الجنود المسرحين (ارجاعهم الى العمل) (تعديل رقم ٤) لسنة ٥٧٣٠ ــ ١٩٧٠، **كتاب القوانين** رقم ٥٩٩ ، ١٩٧٠/٧/٢٢ .

١٣ ــ انظر ايضا Sabri Jiryis, «Recent Knesset Legislation and the Arabs in Israel», *Journal of Palestine Studies*, (Beirut), Autumn 1971, pp. 53-67.

١٤ ــ « **الجريدة الرسمية** » الاسرائيلية ، الملحق ٢ للعدد رقم ٣٧ ، ١٩٤٨/١٢/١٢ .

١٥ ــ **كتاب القوانين** رقم ٣٧ ، ١٩٥٠/٣/٢٠ .

١٦ ــ « **الوقائع الفلسطينية** » ، الملحق رقم ٢ للعدد ١٤٤٢ ، ١٩٤٥/٩/٢٧ .

١٧ ــ انظر المادة ١٢٥ من انظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥ ، **المصدر السابق** .

١٨ ــ **كتاب القوانين** رقم ١٧ ، ١٩٤٩/٨/٣ .

١٩ ــ « **الوقائع الاسرائيلية** » ، مجموعة الانظمة رقم ١٨ ، ١٩٤٩/٦/٨ ورقم ٢١٥ ، ١١/٢/ ١٩٥١ .

٢٠ ــ « **الجريدة الرسمية** » الاسرائيلية ، رقم ٢٧ ، الملحق ٢ ، ١٩٤٨/١٠/١٥ ورقم ٤١ ، الملحق ٢ ، ١٩٤٩/١/٧ .

٢١ ــ **كتاب القوانين** رقم ٢٧ ، ١٩٤٩/١١/٢٣ .

٢٢ ــ **المصدر نفسه** ، رقم ١٢٢ ، ١٩٥٣/٣/٢٠.

٢٣ ــ انظر ، للتفاصيل ، صبري جريس ، « **العرب في اسرائيل** » ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٤ ــ ١٦٧ ، ٢٠٩ ــ ٢١٤ .

٢٤ ــ **كتاب القوانين** رقم ٢٥١ ، ١٩٥٨/٤/٦ .

٢٥ ــ قانون (تسوية حقوق الملكية) الاراضي لسنة ١٩٢٨ ، **قوانين فلسطين** ، الجزء الثاني ، ١٩٣٣ ، ص ٩٧١ وقانون بتعديل قانون (تسوية حقوق ملكية) الاراضي لسنة ٥٧٢٠ ــ ١٩٦٠ ، **كتاب القوانين** ٣٠٢ ، ١٩٦٠/٢/٢٥ .

٢٦ ــ انظر ايضا صبري جريس ، « **العرب في اسرائيل** » ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ ــ ١٩٦ .

٢٧ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢١٥ ــ ٢٢٥ .

٢٨ ــ **كتاب القوانين** رقم ٣١٢ ، ١٩٦٠/٧/٢٩ .

٢٩ ــ **المصدر نفسه** .

٣٠ ــ **المصدر نفسه** .

٣١ ــ **المصدر نفسه** ، رقم ٥٥٦ ، ١٩٦٧/٨/١٠.

٣٢ ــ « **تقرير مراقب الدولة عن جهاز الامن للسنة المالية ١٩٥٨/١٩٥٧** » ، رقم ٩ ، ١٥/ ١٩٥٩/٢ ، ص ٥٦ .

٣٣ ــ انظر الملاحظة (١٦) اعلاه .

٣٤ ــ انظر الملاحظة (١٧) اعلاه .

٣٥ ــ **انظمة الدفاع (الطوارىء)** ١٩٤٥ ، المواد ١٠٩ و١١٠ و١١١ .

٣٦ ــ انظر بيان رئيس الحكومة الاسرائيلية ، دافيد بن غوريون ، في « **محاضر الكنيست** » ٥/٨/ ١٩٥٩ ، ص ٢٩٢٣ .

٣٧ ــ أنظر بيان رئيس الحكومة الاسرائيلية ، ليفي اشكول ، في **المصدر نفسه** ، ١٩٦٦/١٢/٧ ، ص ١٣٦ .

٣٨ ــ انظر ، لمزيد من التفاصيل ، صبري جريس ، « **الحريات الديمقراطية في اسرائيل** »، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١ ، ص ٥٢ ــ ٧٠ .

٣٩ ــ **انظمة الدفاع (الطوارىء)** لسنة ١٩٤٥ ، المادة ٩٤ .

٤٠ ــ **المصدر نفسه** ، المواد ٨٧ و٩٨ .

٤١ ــ **المصدر نفسه** ، المواد ٨٤ و٨٥ .

٤٢ ــ « **قرارات المحكمة العليا** » ، المجلد الثامن عشر ، الجزء الرابع ، ص ٦٧٥ ، صبري جريس ضد حاكم لواء حيفا ، القضية رقم ٦٤/٢٥٣ ، وانظر ايضا « **جيروزالم بوست** »، ١٩٦٤/١١/١٧ .

٤٣ ــ « **الوقائع الاسرائيلية** » مجموعة النشرات رقم ١١٣٤ ، ١٩٦٤/١١/٢٣ .

٤٤ ــ « **قرارات المحكمة العليا** »، المجلد التاسع عشر ، الجزء الثالث ، ص ٣٦٥ ، يعقوب بريدور ضد رئيس لجنة الانتخابات المركزية للكنيست السادس ، استئناف انتخابات ٦٥/١، وانظر ايضا « **جيروزاليم بوست** » ، ١١/١٤/ ١٩٦٥ .

٤٥ ــ « **مناشير ، اوامر وتعيينات صادرة عن قيادة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي في منطقة الضفة الغربية** » (بالعبرية والعربية، العدد ١، ١٩٦٧/٨/١١ ، منشور رقم ١ الصادر بتاريخ ١٩٦٧/٦/٧ . وقد صدرت مناشير مماثلة في باقي المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، والاشارة

فيما يلي الى « **مناشير ، اوامر وتعيينات ...** » تعني تلك الصادرة في الضفة الغربية فقط .

٤٦ — **المصدر السابق** ، منشور رقم ٢ ، ٦/٧/ ١٩٦٧ ، المادة ٣ .

٤٧ — **المصدر نفسه** ، المادة ٢ .

٤٨ — انظر ، مثلا ، قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٢٢٥٢ (ES-V)بتاريخ ٤/٧/ ١٩٦٧ ، رقم ٢٣٤١ بتاريخ ١٩٦٧/١٢/١٩ ، رقم ٢٢٤٣ بتاريخ ١٩٦٨/١٢/١٩ ، ورقم ٢٥٤٦ بتاريخ ١٩٦٩/١٢/١١ .

٤٩ — « **الجريدة الرسمية** » ، الملحق رقم ١ ، ١٩٤٨/٥/١٩ .

٥٠ — **المصدر نفسه** ، المادة ١١ .

٥١ — انظر ، مثلا ، مرسوم دستور فلسطين ، ١٩٢٢ ، **قوانين فلسطين** ، المجلد الرابع ، ١٩٣٣ ، ص ٣٣٠٣ .

٥٢ — أمر بشأن تعليمات الامن لسنة ٥٧٣٠ — ١٩٧٠ ، « **مناشير ، اوامر وتعيينات ...** » ، العدد ٢١ ، ١٩٧٠/٤/٢٢ .

٥٣ — المادة ٢ من الامر بشأن تعليمات الامن لسنة ١٩٦٧ ولسنة ١٩٧٠ .

٥٤ — **أنظمة الدفاع (الطوارىء)** لسنة ١٩٤٥ ، المادة ٦ .

٥٥ — المواد ٦٥ — ٧٠ من الامر بشأن تعليمات الامن لسنة ١٩٦٧ والمواد ٨٥ — ٩٠ من الامر الذي حل محله سنة ١٩٧٠ . وللمقارنة انظر المواد ١٠٩ — ١١١ و١٢٤ و١٢٥ من **أنظمة الدفاع (الطوارىء)** لسنة ١٩٤٥ ، المواد ١١٩ — ١٢١ .

٥٧ — **المصدر نفسه** ، المادة ١١٢ .

٥٨ — انظر ايضا حاييم هولتسمان ، « **تحيكات هابيطاحون بشطاحيم هاموحزاكيم** »، («تشريعات الامن في المناطق المحتفظ بها»)، جنعات حفيفة، معهد الدراسات الافروأسيوية ، ١٩٦٨ ، ص ٧٣—٨٠ (بالعبرية) .

٥٩ — أنظر « **مناشير ، اوامر وتعيينات ...** »، العدد ٤ ، ١٩٦٧/١٠/١٢ والعدد ١١، ٤/١٧/ ١٩٦٨ ، والعدد ٢٤ ، ١٩٧٠/٨/١٢ .

٦٠ — **المصدر نفسه**، العدد ١٤، ١٩٦٨/١٠/١٥.

٦١ — قانون أنظمة السلطة والقضاء (تعديل رقم ١١) لسنة ٥٧٢٧ — ١٩٦٧ ، **كتاب القوانين** رقم ٤٩٩ ، ١٩٦٧/٦/٢٨ .

٦٢ — قانون البلديات (تعديل رقم ٦) ، **المصدر نفسه** .

٦٣ — مجموعة الانظمة رقم٢٠٦٤، ١٩٦٧/٦/٢٨. وانظر ايضا عوزي بنجيمان ، « **يروشالايم — عير ليلو حوماه** » ، (« القدس — مدينة بلا أسوار ») ، القدس ، تل ابيب ، شوكن ، ١٩٧٣ ، ص ٥٦ (بالعبرية) .

٦٤ — **مجموعة الانظمة** رقم ٢٠٦٥، ١٩٦٧/٦/٢٨.

٦٥ — نشرت صورة فوتوغرافية لامر حل البلدية في عوزي بنجيمان ، « **القدس — مدينة بلا أسوار** » ، المصدر السابق ، ص ٦٣ .

٦٦ — انظر قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٢٢٥٣ (ES-V)بتاريخ ١٩٦٧/٧/٤ ورقم ٢٢٥٤ (ES-V) بتاريخ ١٩٦٧/٧/١٤ .

٦٧ — **كتاب القوانين** رقم ٥٤٢ ، ١٩٦٨/٨/٢٣ .

٦٨ — **مجموعة الانظمة** رقم٢٢٨٠، ١٩٦٩/٤/٢٧. وكذلك **كتاب القوانين** رقم ٥٧٤ ، ١٩٦٩/٧/٢٧.

٦٩ — **كتاب القوانين** رقم ٦٠٣ ، ١٩٧٠/٨/١٣ .

٧٠ — **المصدر نفسه** ، رقم ٧٠٤ ، ١٩٧٣/٧/١٣.

٧١ — **المصدر نفسه** ، رقم ٧٠١ ، ١٩٧٣/٧/٦ .

٧٢ — أنظر المواد ١ و٣ و٤ من قانون التنظيمات القانونية والادارية (نص موحد) لسنة ٥٧٣٠ — ١٩٧٠ ، **كتاب القوانين** ٦٠٣ ، ١٩٧٠/٨/١٣ .

٧٣ — أنظر المادة ٥ (ب) من **قانون الجنسية** لسنة ٥٧١٢ — ١٩٥٢ .

٧٤ — **قانون التنظيمات القانونية والادارية** (نص موحد) لسنة ٥٧٣٠ — ١٩٧٠ ، المواد ٦—١٧.

٧٥ — **المصدر السابق** ، المادة ٢٩ (ب) ، وانظر ايضا **مجموعة الانظمة** رقم ٢٣٤٨ ، ٢/١٩/ ١٩٦٩، ورقم ٢٦٦٤ ، ١٩٦٩/٣/٢٥ .

٧٦ — **قانون التنظيمات القانونية والادارية** (نص موحد) لسنة ٥٧٣٠ — ١٩٧٠، المواد ١٨و١٩.

٧٧ — **المصدر نفسه** ، المادة ٢٠ .

٧٨ — **المصدر نفسه** ، المواد ٢ و٣ .

٧٩ — قانون املاك الغائبين (تعويضات) لسنة ٥٧٣٣ — ١٩٧٣ ، **كتاب القوانين** رقم ٧٠١ ، ١٩٧٣/٧/٦ .

٨٠ — **المصدر نفسه** ، المواد ١ و٤ و٦ و١٠ و١٥.

٨١ — « **الوقائع الاسرائيلية** »، مجموعة النشرات رقم ١٦٥٦ ، ١٩٧٠/٨/٣٠ .

الاقتصاد الاسرائيلي : تفسير

الدكتور ابراهيم م• عويس

أيا كان دور الحرب في الماضي ، وسواء أكان لها دور حضاري أم لم يكن ، فان طبيعتها اليوم هي بحيث ان مجرد امكانية نشوبها تتعارض واستمرار ما يسمى بالمجتمع العظيم .

لورد روبنز(١)

لو خيرت بين سلام يتضمن العودة الى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ وعدم انسحاب بدون سلام ، لفضلت الاحتفاظ بأجزاء موقعنا الحالي حتى ولو بثمن اللاسلام . أعتقد ان على اسرائيل البقاء في الضفة الغربية الى الابد .

موشيه دايان(٢)

ان التحويل الجذري لفلسطين في عام ١٩٤٨ ، من سكان عرب أصليين يشكلون اغلبية ساحقة الى دولة اسرائيلية شردت معظم هذه الاغلبية وأحلت محلها مهاجرين يهود من سبعين بلدا مختلفا ، ان هذا التحويل قد تم بالقوة ... بالالحاق التدريجي والاستيلاء على أراضي العرب من خلال الحرب والتوسع . واستطاعت اسرائيل في عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧ أن تمتص في بنيتها التحتية المدن والمؤسسات الاقتصادية وغير الاقتصادية بالاضافة الى قطاع تصدير مربح .

ومنذ عام ١٩٤٨ حقق الاقتصاد الاسرائيلي معدل نمو مرتفع ، وان كان غير متساو ، مترافق مع موازنة دفاع كبيرة بشكل استثنائي . وعندما حلت الانتكاسات بالاقتصاد الاسرائيلي ، دفعت الحروب معدلات النمو الى مستويات أعلى . وقد علق بعض المراقبين أن حرب ١٩٦٧ كانت ضرورية لاسرائيل من اجل انتشال نفسها من أسوأ أزمة اقتصادية . في الفترة السابقة للحرب ، قفزت البطالة في اسرائيل الى ١٢ ٪ ، وانخفضت الهجرة بشكل ملحوظ ووصل معدل دخل الفرد الى أدنى مستوياته . في دراسته الاخيرة حول « **مشكلات التطور الاقتصادي في اسرائيل ، ١٩٧٠ — ١٩٨٠** » يقول البروفسور ميشيل برونو ان « الاحداث العسكرية في حزيران ١٩٦٧ قد غيرت المشهد تماما ... في عام ١٩٦٨ ارتفع اجمالي الناتج القومي أكثر من ١٣ ٪ ، والاستثمارات بمقدار ٤٤ ٪ ، والصادرات ٢١ ٪ . وانخفضت البطالة الى حوالي ٥ ٪ ، وكانت الهجرة الى اسرائيل تزداد بسرعة »(٣) . وبالاضافة الى ذلك ، فقد اعتمد نمو اسرائيل جزئيا على القدرة على جمع تبرعات ضخمة من الخارج . وعلى أي حال ، لم يكن تدفق هكذا تبرعات متساويا : فهي لا تزيد بشكل ملحوظ الا بوجود حرب أو تهديد بالحرب . وعليه ، يبدو ان التوتر المستمر في الشرق الاوسط هو شرط ضروري لنمو اسرائيل الاقتصادي .

هدف هذا البحث هو تأكيد أهمية المصروفات العسكرية لنمو اسرائيل الاقتصادي . وبكلمات اخرى ، في ظل غياب حرب أو تهديد بحرب ، او غياب موازنة دفاع كبيرة ، هل تكون اسرائيل قادرة على تحقيق معدلات نموها المرتفعة المسجلة ؟ وباختصار ، هل الاقتصاد الاسرائيلي اقتصاد حرب ؟

سيناقش هذا البحث أثر توتر الحرب على معدل النمو الاقتصادي المرتفع في اسرائيل. ولن تعالج هنا الاوجه المعنوية والاخلاقية والانعاشية للحرب. وسيحاول البحث تحديد نوع المردودات الاقتصادية التي تتلقاها اسرائيل من موازنتها الدفاعية العالية بشكل غير اعتيادي.

هنالك محددات عدم توفر سلسلات كاملة من المعلومات الموثوقة. وعلى الخصوص، فان أرقام موازنة الدفاع تحاط بالسرية القصوى، والمعلومات الجزئية المتوفرة غامضة وغالبا ما تكون مثيرة للاضطراب. في تقرير سنوي سابق، استعمل بنك اسرائيل « مصروفات الدفاع » كفئة، بينما في سنوات لاحقة كان التصنيف تبعا لموازنات « الامن والخاصة » او « الامن وغير الاعتيادية ». وقد لاحظ الكاتب السويسري ان « هنالك مطبوعات رسمية كثيرة نسبيا (في اسرائيل) : ولا يستطيع الشخص الا أن يلاحظ انها تتجنب التحليل العميق للمشكلات الاقتصادية. تعتمد اسرائيل كثيرا، من الناحية الاقتصادية على العالم الخارجي — خاصة فيما يتعلق باستيراد رؤوس الاموال — وتهدف تلك المطبوعات بوضوح، بواسطة هذه الدعاية، الى خلق مناخ ملائم من أجل الحفاظ على المساعدة الضرورية وتكثيفها. وآجلا أم عاجلا تستطيع الحقائق العنيدة النفاذ الى خارج اسرائيل ويتضح الطابع الدعائي لتلك المطبوعات ولمحاضرات اولئك الرسميين »(٤).

ومثال آخر هو المعلومات التي يقدمها المكتب المركزي الاسرائيلي للاحصاءات والمتعلقة بالتعريفات القاصرة لسلسلات مهمة مثل سلسلات الهجرة. بينما لا يعد الا الاسرائيليون الذين قدموا طلبات للهجرة في وقت مغادرتهم اسرائيل كمهاجرين، فان كل الآخرين الذين تركوا البلد واستقروا رسميا في بلدان أخرى ليسوا متضمنين في تلك الارقام.

وفي بحثي عن افضل مجموعة ممكنة من المعلومات من حيث التناسق والكمال والصحة، بما فيها المصادر الرسمية وغير الرسمية والتقارير الصحفية، فانني آمل ان أكون قادرا على اعطاء صورة منسجمة فيما يلي :

بافتراض مجموعة معينة من المصادر المستخدمة كليا في أية لحظة، يكون واضحا انه من غير الملائم تخصيص اعتمادات اكثر لقطاع المجهود الحربي (المسمى تبعا لذلك بالقطاع الحربي) لامة ما دون تخصيص اعتمادات أقل للقطاعات الاخرى. وانه لمن خلال برنامج للحصول على دالة هدف البلد، كما يقننها ويطبقها واضعو سياسته، يتم الاختيار بين القطاع الحربي من جهة وكل القطاعات الاخرى من جهة اخرى. والسؤال المركزي هو : هل يعطي تخصيص مصادر أكثر باتجاه القطاع الحربي مردودا، من الناحية الاقتصادية؟ والجواب بوضوح هو : عندما تفوق تأثيرات هذا القطاع الايجابية تأثيراته العكسية. وعلى أي حال، فانه لمن المعقول ان تخصيص مصادر لقطاع آخر يمكن أن يعطي مردودا مشابها، من الناحية الاقتصادية. ان مقارنة بين مردودات اقتصادية مختلفة قد يوجه المجتمع للتركيز على القطاع الذي يعطي المردود الاقصى، وبذلك يصبح تحقيق أقصى ما يمكن من المردودات الاقتصادية هدفا رئيسيا.

وبالنسبة لاسرائيل، فان التأثيرات الايجابية للقطاع الحربي يمكن تحقيقها اذا كانت تقود الى ما يلي : ١. التوسع الاقليمي الذي يوفر مصادر بشرية وطبيعية ... الخ، جديدة. ٢. تدفق رأس المال الاجنبي. ٣. تدفق مصادر بشرية منتجة، أي تزايد الهجرة. ٤. انخفاض البطالة. ٥. زيادة الصادرات. ٦. توسيع البنية التحتية ثنائية الاستعمال مثل الطرق والمطارات وشبكات المواصلات ... الخ.

ولدى العودة الى التأثيرات العكسية للقطاع الحربي، يلاحظ المرء دورها المهيمن في اقتصاد اسرائيل أوقات السلام النسبي. يميل تدفق رأس المال والعمال المهرة الى

الانخفاض . في ظل هذه الظروف يسحب القطاع الحربي من مصادر معروفة محددة على حساب بديل ضروري ، ومشاريع استثمار عالية الدرجة وحتى ، من المحتمل ، على حساب البنية التحتية . وبالاضافة الى ذلك ، قد يزيد القطاع الحربي معدل التضخم الذي يؤدي الى اعادة توزيع الدخل .

١. **التوسع الاقليمي** : في مجرى توسعها الاقليمي ، ضمت اسرائيل في البدء المناطق المنزوعة السلاح التي حددت بعد حرب ١٩٤٨ . وبعد حرب ١٩٦٧ ، ضمت اليها مساحات جديدة في الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء ومرتفعات الجولان. ان السياسة الرسمية هي الاحتفاظ بالمناطق العربية المحتلة واستغلال مصادرها واقامة مستعمرات يهودية(٥) في كل تلك المناطق . وبينما اعتبرت الحكومة شراء الاسرائيليين أراض في تلك المناطق عملا غير شرعي ، فان ييجال آلون ، نائب رئيسة الوزراء ، قد أعلن انه لن يكون ثمة اجراء شرعي يتخذ بشأن مثل هذه الصفقات اللاشرعية(٦).

جـــدول رقم — ١ —

التوسع الاقليمي الاسرائيلي

المساحة الكلية لفلسطين = ١٠٢٨٢ ميلا مربعا (الارقام بالاميال المربعة)

السـكان	(١) قبل قرار التقسيم لعام ١٩٤٧	(٢) قرار التقسيم (١٩٤٧)	(٣) حرب ١٩٤٨	(٤) منذ حرب ١٩٦٧
اليهود	٥٨٢ (٥٫٦٦٪)	٥٨٣٧ (٥٦٫٧٧٪)	٨٠٧٥ (٧٨٫٥٤٪)	٣٤٠٧٥ (٣٣١٫٤٪)
العرب	٩٧٠٠ (٩٤٫٣٤٪)	٤٣٧٦ (٤٢٫٥٦٪)	٢٠٦٨ مضمومة الى الاردن + ١٣٩ قطاع غزة الموضوع تحت الادارة المصرية = (٢١٫٤٦٪)	
القدس الدولية		٦٩ (٠٫٦٧٪)		
المجمـــوع	١٠٢٨٢ (١٠٠٪)	١٠٢٨٢ (١٠٠٪)	١٠٢٨٢ (١٠٠٪)	٣٤٠٧٥ (٣٣١٫٤٪)

الشـكل رقم ـ ١ ـ

التوسع الاقليمي الاسرائيلي

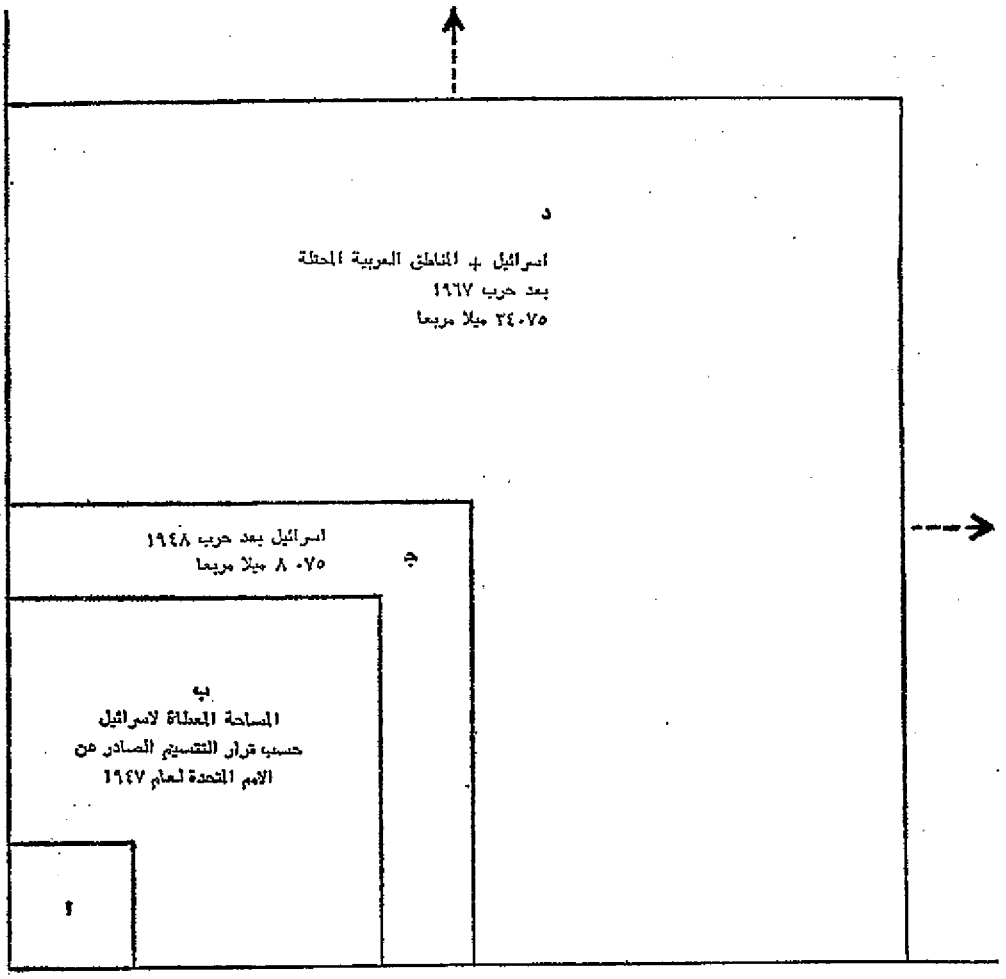

أ = ٥٨٢ ميلا مربعا ، مساحة الجزء من فلسطين الذي يملكه اليهود حتى قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ .

ب = ١٠٠٢٠٩٪ من أ .

ج = ١٣٨٠٣٪ من ب .

د = ٤٢٢٪ من ج .

د = ٣٣١٠٤٪ من مجموع مساحة فلسطين .

ومع المناطق التي تسيطر عليها اسرائيل فان مساحتها تقترب من ستة أضعاف (٥٨٤ ٪) المساحة المخصصة لها حسب قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة عام ١٩٤٧ ، واكثر من ٤ أضعاف (٤٢٢ ٪) مساحتها ما قبل ١٩٦٧ ، واكثر من ٣ اضعاف (٣٣١ ٪) مساحة فلسطين الكلية ، كما يتضح في الجدول رقم (١) والشكل رقم (١) .

ولو كان هنالك اكتساب عسكري سنوي منتظم للارض ، لكان معدل اسرائيل السنوي المركب في التوسع الاقليمي ٩ر٧٥ ٪ خلال الفترة ١٩٤٨ — ٦٧ ، أو ٥ر٧ ٪ خلال سنوات وجودها الخمس والعشرين .

يمكن تلخيص الارباح الاقتصادية الناجمة عن هذا التوسع فيما يلي :

أولا ، هنالك صافي الربح المباشر الناتج عن استغلال آبار النفط المصرية في شبه جزيرة سيناء عاملا بذلك **على رفع انتاج اسرائيل** الذي كان يغطي عام ١٩٦٦ ما مقداره ٦ ٪ فقط من استهلاكها الخاص ، **وخافضا وارداتها من النفط الخام** ، مما يخفف الحمل عن ميزان مدفوعات البلد الذي يعاني عجزا مزمنا . وقد قدر الياهو كانوفسكي الزيادة في الانتاج من هذا المصدر بمقدار ٥٩ مليون دولار عام ١٩٦٨(٧). وبالرغم من أن عائدات النفط واستغلاله من آبار سيناء تحاط بالسرية ، فان تقديرا معقولا قائما على أساس قدرة استيعاب انتاج ما قبل حرب ١٩٦٧ سيكون تقريبا بين ٨٠ و ٩٠ مليون دولار سنويا .

ثانيا ، ادى استغلال آبار النفط المصرية الى ايصال المصافي الاسرائيلية بحيفا الى رقم قياسي في اقتصادياتها . فقد حصل تشغيل هذه الصناعة بكامل طاقتها التشغيلية للمرة الاولى بعد حرب ١٩٦٧ .

ثالثا ، تضم التأثيرات الايجابية الاخرى التوسع في مصافي النفط بحيفا وأسدود ، مولدة بذلك الطلب على البضائع والخدمات من القطاعات الاخرى للاقتصاد ، خاصة المجمع البتروكيماوي الكبير قرب حيفا .

رابعا ، المصادر الطبيعية التي تساهم في الصناعة والتبادل والصادرات : فعلى سبيل المثال ، جاء في تقرير لصحيفة « **هآرتس** » ، ٢٩ أيار — مايو ١٩٧٣ ، ان « احتياطي النحاس الكبير يوجد في منطقة شرم الشيخ بكميات صالحة للاستغلال تجاريا ، وحالما يتم التأكد نهائيا من الموجودات التي جمعت ، فان العمل لاستغلالها سيبدأ » . ولم تعط الحكومة الاسرائيلية أية أرقام رسمية حول هذه المصادر الطبيعية في المناطق العربية المحتلة ولا حول اسهامها في الناتج القومي الاجمالي .

خامسا ، ساهمت المصادر البشرية العربية خاصة في الضفة الغربية وقطاع غزة بطريقتين : من ناحية الانتاج ، حيث ملأت النواقص في سوق العمل ، خاصة في البناء والصناعة ، ومن ناحية الاستهلاك ، حيث خلقت سوقا جديدة للمنتجات الاسرائيلية .

سادسا ، تسبب احتلال الاماكن المقدسة في زيادة ملحوظة لصناعة السياحة ، وكذلك للقطاعات المرتبطة مباشرة بها ، خاصة الطيران . « على اثر الحرب ازدادت السياحة بمقدار ٤٨ ٪ مع ٤٣٢٠٠٠ شخص جاءوا عام ١٩٦٨ عندما ضم الاحتفلال السنوي العشرون مهرجانا في القدس الموحدة »(٨). وقد أكد وزير السياحة الاسرائيلي ، موشيه كول ، الاسهام الملحوظ الذي قدمته السياحة الى قطاع التصدير بعد حرب ١٩٦٧ : « مع نهاية عام ١٩٧٢ ، سيكون ٥ ملايين سائح قد زاروا اسرائيل منذ ١٩٤٨ »(٩).

وهكذا فانه من الواضح ان القطاع الحربي الاسرائيلي من خلال التوسع الاقليمي قد أسهم مباشرة في معدل نمو الاقتصاد .

ب. **تدفق رأس المال الاجنبي** : « لكن حرب ١٩٦٧ والارتفاع الذي رافقها في تبرعات يهود المنفى لاسرائيل قد عملا على تقديم الرافعة الحاسمة لاعادة البناء . ويكفي رقمان لعكس ذلك الاثر بتعابير مالية : في عام ١٩٦٦ ، كان صافي المبلغ الذي جمعته الوكالة

اليهودية اثناء حملاتها العالمية ٦٠ مليون دولار : اما في عام ١٩٦٧ ، فقد كان ٣٤٦ مليون دولار »(١٠).

خلال فترات السلام النسبي ، انخفض تدفق رأس المال الاجنبي الى اسرائيل باضطراد ، وخلال فترات الحرب وبعدها بقليل ازداد هذا التدفق بشكل ملحوظ . وبالرغم من تفوقها العسكري ، فان اسرائيل ما زالت تستثمر في القطاع الحربي مع استمرار التوتر . لقد كان شعار حملة سندات قرض الدفاع لعام ١٩٦٩ هو « انه سهمك في طائرات الفانتوم . الثلثان الباقيان سيجمعان من يهود العالم »(١١).

في عام ١٩٦٥ بلغت مبيعات سندات اسرائيل الاجمالية في الخارج ٦ر٩١ مليون دولار، وفي عام ١٩٦٦ كانت ٦ر٩٠ مليون دولار ، وفي عام ١٩٦٧ ارتفع الرقم الى ٥ر٢١٧ مليون دولار ، اي أقل بقليل من ضعفي ونصف الرقم في السنة السابقة . ومن عام ١٩٥١ حتى ١٩٧١ بلغت قيمة المبيعات الاجمالية ١٨٩١ مليون دولار ، منها ٩ر١٥٨٧ بيعت في الولايات المتحدة(١٢)، أي ٨٤ ٪ .

لقد بلغ اجمالي رأس المال المتدفق سواء في شكل مساعدات او مساعدة خارجية او قروض نحو ١٤ ٪ من اجمالي الناتج القومي خلال الفترة ١٩٥٠ — ٦٥(١٣). وعلى اي حال ، فقد ارتفعت هذه النسبة نتيجة لحرب ١٩٦٧ . أما تقديري للنسبة المئوية لتدفق رأس المال من اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي فهو ١٨ ٪ من ١٩٤٨ حتى ١٩٧٢ . فقد بلغ مجموعه نحو ٦ر١٢ بليون دولار بأسعار ١٩٧١ ، وهو أقل من رقم راي فيكر البالغ ٥ر١٣ بليون دولار . « خلال سنواتها الخمس والعشرين كدولة تسلمت اسرائيل ٥ر١٣ بليون دولار كمساعدة من الخارج ، حوالي ٨٠ ٪ منها من مصادر امريكية »(١٤).

ولكن حتى لو أخذنا الرقم الاصغر (أي ٦ر١٢ بليون دولار او ١٨ ٪ من اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي خلال الخمس والعشرين سنة الاخيرة) فسيبقى يمثل اكثر من ضعف (٣ر٢) مجمل الناتج القومي لعام ١٩٧١ والبالغ ٤ره بليون دولار(١٥).

ما يزال هنالك جزء من تدفق رأس المال الى اسرائيل لم يحسب حسابه : وهو الاستيراد — بدون — دفع ، الذي هو « نوع خاص من الرخصة لاستيراد بضائع لا يطلب من مراقب العملة الاجنبية اعتماد عملة أجنبية لها . وتعود البضائع الى (أو يمولها) اسرائيليين يرغبون في تحويل رأس المال الى اسرائيل»(١٦). لم يكن باستطاعتي العثور على أرقام عن هذه الواردات غير المدفوعة . يقول الكس روبنر ان « اعتماد اسرائيل على الواردات غير المدفوعة لا مثيل له في التاريخ الحديث »(١٧).

اذا دخل هذا الجزء في الحساب ، فان تدفق رأس المال الى اسرائيل كنسبة مئوية من اجمالي ناتجها القومي سيكون أعلى حتى من ١٨ ٪ .

جـ. **تدفق المصادر البشرية** : تتلقى اسرائيل تدفقا كبيرا جدا من كل من القوة العاملة ورأس المال . ومنذ تأسيسها عام ١٩٤٨ ، وحتى قبل ذلك ، استعملت اسرائيل كل الوسائل (الشرعية وغير الشرعية) من أجل تأمين تدفق مستمر للهجرة اليهودية . وقد شنت ، وما تزال ، الحملات الجيدة الادارة لمناشدة مثل اليهود القومية والدينية والاشتراكية والاحتلالية عبر العالم أجمع . ومع ذلك ، ففي أوقات الهدوء النسبي لم يهاجر الى اسرائيل الا أعداد من اليهود أقل من المتوقع كاستجابة لتلك المناشدات .

وقد نفذت الصهيونية أيضا حملات تشهير ضد اليهود الذين يعيشون خارج اسرائيل . وقد كتب ي. كوفمان عام ١٩٤٩ يقول : « في الواقع لقد أقامت الصهيونية الحركة القومية على أساس مسوغات للتهم التي أخذتها عن اللاساميين ، وحاولت ايجاد جوهر

للعدالة في كراهية اليهود ... ان هذه الخزعبلات تلوث كل أدبنا العبري وعقول شبابنا. واذا صدف وفتحت كراسة تلميذ مدرسة عبرية ، فانك ستقرأ جملا مثل : يعيش يهود الدياسبورا (المنفى) حياة غير صحية ، وهم فاسدون ... يعيش اللايهود فيما حولهم حياة صحية »(١٨). وأثناء زيارته للولايات المتحدة عام ١٩٥١ ، أعلن رئيس الوزراء بن جوريون ان « الصهيوني هو الشخص الذي يسكن في اسرائيل » .

جدول رقم — ٢ —

الهجرة اليهودية الى اسرائيل

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٤٤	١٥٥٥٢	١٩٥٨	٢٧٠٨٢
١٩٤٥	١٥٢٥٩	١٩٥٩	٢٣٨٩٥
١٩٤٦	١٨٧٦٠	١٩٦٠	٢٤٥١٠
١٩٤٧	٢٢٠٩٨	١٩٦١	٤٧٦٣٨
١٩٤٨	١١٨٩٩٣	١٩٦٢	٦١٣٢٨
١٩٤٩	٢٣٩٥٧٦	١٩٦٣	٦٤٣٦٤
١٩٥٠	١٧٠٢٤٩	١٩٦٤	٥٤٧١٦
١٩٥١	١٧٥٠٩٥	١٩٦٥	٣٣٦٩٨
١٩٥٢	٢٤٣٦٩	١٩٦٦	١٨٥١٠
١٩٥٣	١١٣٢٦	١٩٦٧	١٨٠٦٥
١٩٥٤	١٨٣٧٠	١٩٦٨	٢٠٦٩٦
١٩٥٥	٣٧٤٧٨	١٩٦٩	٣٧٩٠٠
١٩٥٦	٥٦٢٣٤	١٩٧٠	٣٨٠٠٠
١٩٥٧	٧١٢٢٤	١٩٧١	٤١٠٠٠

المصدر : **الكتاب السنوي الصهيوني** ، ١٩٧٢ ، لندن ، ص ٣٩٩ .

وقد أقر الكنيست القانون رقم ١٤٠ لعام ١٩٥٢ ، الذي أدى الى تصديق « ميثاق المنظمة الصهيونية » في اسرائيل حيث أعفيت الوكالة اليهودية وكل توابعها من ضرائب معينة بسبب دورها في الهجرة اليهودية الى اسرائيل . وبالرغم من كل هذه الجهود ، لم يختر الهجرة الى اسرائيل سوى قلة من اليهود الغربيين . وفي عام ١٩٥٨ ، قال رئيس وزراء اسرائيل ان العدد الضئيل من المهاجرين من الغرب يظهر ان المنظمات الصهيونية في البلدان الغربية قد فشلت وانها فقدت الآن مبرر وجودها(١٩).

وفي بقاع أخرى من العالم ، وصلت التكتيكات الصهيونية الى حد اتخاذ خطوات عنيفة من أجل بث الرعب بين اليهود في بلدان اقامتهم الدائمة ودفعهم لمغادرتها(٢٠). وبالرغم من مختلف الوسائل التي لجأت اليها اسرائيل ، سواء أكانت ضغوطات سياسية — اجتماعية أو غيرها ، فانها لم تستطع تعبئة يهود العالم من أجل هجرة واسعة الى اسرائيل ما عدا في أوقات الحرب او التوتر الشديد ، كما يتضح جليا في جدول رقم ٢ وشكل رقم ٢ . وقد تميزت فترات السلام النسبي بانخفاض الهجرة . ولكن كان هنالك وقت في أوائل الستينات حيث لم تثبت صحة ذلك . ان دراسة عميقة لتلك الفترة تؤدي

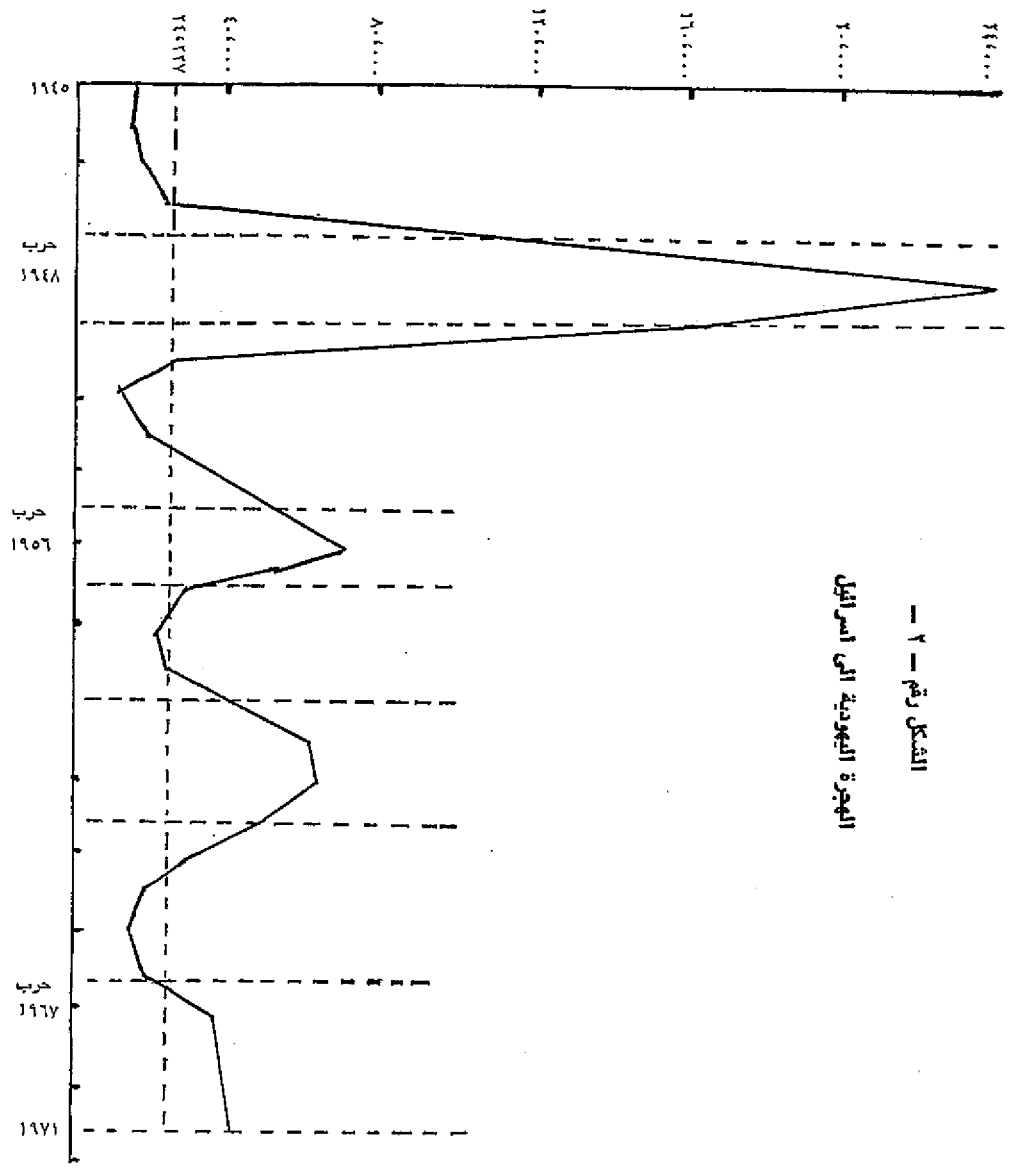

الشكل رقم — ٢ —

الهجرة اليهودية الى اسرائيل

بنا الى التفسير التالي : ان ذلك يعود الى قرار البلدان الاوروبيـــة السماح بالهجرة اليهودية للمرة الاولى منذ الحرب العالمية الثانية(٢١). « لقد فسحت الاتفاقية البولندية ــ الروسية بشأن اعادة المواطنين البولنديين المجال عام ١٩٥٩ امام ١٨٫٠٠٠ يهودي في العودة الى بولندة من الاتحـــاد السوفياتي . وقد غـــادر حوالي ٦٫٠٠٠ منهم الـــى اسرائيل »(٢٢).

في فترات السلام النسبي ، كان معدل عدد المهاجرين في السنة ٢٤٢٢٧ . ولو استمر التدفق بنفس المعدل لكان عدد المهاجرين الكلي قد وصل الـــى ٦٧٨٣٥٨ خلال الفترة ١٩٤٥ ــ ١٩٧١ ، أي ما يعادل ٤٥ ٪ من العدد الكلي الحقيقي . والقمم الحاصلة في فترات الحرب والتوتر تعادل ٥٥ ٪ ، أي ٨٢٧٫٦٢٩ من المجموع البالغ ١٥٠٥٩٨٥ خلال هذه الفترة .

وهكذا فان الحرب هي الحافز الرئيسي للهجرة الواسعة الى اسرائيل ، التي اسهمت بدورها وبشكل ملحوظ في نموها الاقتصادي . وتضم مجموعة القادمـــين الجدد الى اسرائيل علماء عالميين مشهورين، وكذلك عمالا مهرة متمرسين. ويتجه المهاجر النموذجي في السنوات الاخيرة لان يكون أكثر ثقافة وثروة ، وغالبا ما يكون محترفا ، أكثر من أولئك الذين ذهبوا الى اسرائيل في الاربعينات .

ويمكن تقدير الارباح الاقتصادية الناجمة عن الهجرة اليهودية فيما يلي :

أ. الاستثمار وخبرة المصادر البشرية يتمان خارج اسرائيل ، بينما تجني هذه الدولة الصهيونية صافي ارباح تكاليف التعليم و/أو الخبرة . اذ بلغ متوسط سني تعليم المهاجر الى اسرائيل ١٠٫٤ سنة(٢٣).

ب. حافظ العلماء المهاجرون اليهود على علاقات وثيقة مع مراكز التعليم والمؤسسات الامريكية والاوروبية العالية التخصص التـــي كانوا مرتبطين بها قبل مغادرتهم الـــى اسرائيل ، عاملين بذلك على تمكين اسرائيل مـــن استيعاب وتطبيق أحدث الانجازات التكنولوجية في العالم .

ج. بالاضافة الى التعليم والخبرة والمعرفة الراقية ، نقـــل المهاجرون اليهود مـــن الولايات المتحدة وأوروبه الى اسرائيل في السنوات الاخـــيرة رأس المال المتراكـــم في الدياسبورا . ولا تتوفر اية ارقام حول مصدر تدفق رأس المال هذا .

د. معظم المهاجرين القادمين الى اسرائيل هم في قمة سني انتاجهم الاقتصادي (١٨ ــ ٤٠) .

ومع ذلك ، فانه دائما اثناء فترات الحرب والتوتر كانت الحملات الواسعة المكثفة التي استخدمت العواطف الدينية وغيرها ناجحة في جلب غالبية المهاجرين اليهود الى اسرائيل ، والذين بدورهم ساهموا بفعالية في نموها الاقتصادي وفي مستويات المعيشة الافضل ، خالقين بذلك دوافع جديدة لليهود الآخرين في الهجرة الى بلد فقير مـــن حيث المصادر الطبيعية . وبرزت مشاكل حتمية نتيجة الرقعة المحدودة والحاجة الى مصادر اكثر ، مما ادى الى التوسع والضغط .

جـــدول رقم — ٣ —

البطـــالة في اسرائيل

السنة		المعدل اليومي لوحدات(١) العاطلين المسجلين خلال الفترة	النسبة المئوية للتغير قياسا الى السنة السابقة
١٩٦٥		٣٢٠٠	— ٥٫٩
١٩٦٦		٧٩٣٠	+ ١٤٧٫٨
١٩٦٧		١٣٥٢٥	+ ٧٠٫٦
١٩٦٨		٥٧٠٩	— ٥٧٫٨
١٩٦٩		٢٣٩٥	— ٥٨٫٠
١٩٦٦	I	٣٩٩٧	+ ٢٥٫٤
	II	٦٢٧١	+ ٩٥٫٩
	III	٩٣٨٧	+ ١٩٠٫٢
	IV	١١٨٤٩	+ ٢٧٢٫٨
١٩٦٧	I	١٠٥٤٧	+ ٢٨٩٫٠
	II	١٦٠٥٨	+ ١٥٦٫١
	III	١٢٤١٨	+ ٣٢٫٣
	IV	١٠١٥٥	+ ١٤٫٣
١٩٦٨	I	٨١٨٣	— ٤٧٫٤
	II	٥٧٩٢	— ٦٣٫٩
	III	٤٦٤٠	— ٦٢٫٦
	IV	٤١٥٣	— ٥٩٫١
١٩٦٩	I	٢٩٠٢	— ٦٤٫٥
	II	٢٦٥٠	— ٥٤٫٢
	III	٢٢٨١	— ٥٠٫٩
	IV	١٧٧٠	— ٥٧٫٤
١٩٧٠	I	١٤٩٥	— ٤٨٫٥
	II	١٧٠٧	— ٣٥٫٦
	III	١٨٢٦	— ١٩٫٩

المصادر : مكتب الاحصاءات المركزي ، نشرة اسرائيل الاحصائية ، ١٩٧١ .

(١) عدد الاشخاص الباحثين عن يوم عمل في الشهر مقسوما على عدد ايام العمل في نفس الشهر .

الشكل رقم — ٣ —

البطالة في اسرائيل

معدل العاطلين اليومي مكيف موسميا (١٩٦٦ — ١٩٧٠)

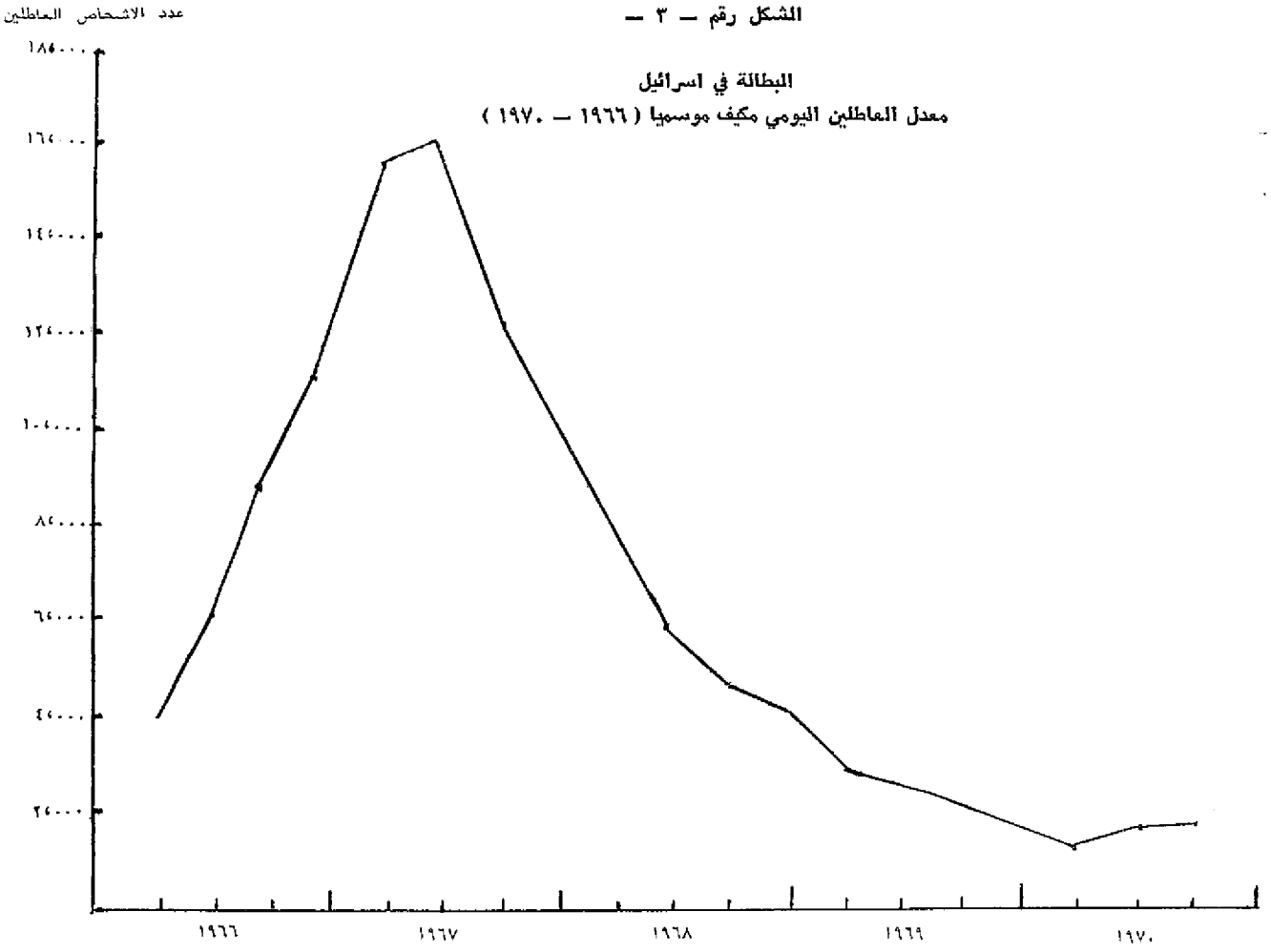

المصدر : جدول رقم ٣ .

جدول رقم — ٤ —

النسبة المئوية للتغير في اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي عن السنة السابقة
(اجمالي الناتج القومي بأسعار عام ١٩٦٤)

السنة	اجمالي الناتج القومي	النسبة المئوية للتغير
١٩٥٥	٣٨٦٤	١٣٠٩
١٩٥٦	٤٢١٨	٩٠٢
١٩٥٧	٤٥٨١	٨٠٦
١٩٥٨	٤٩٠٥	٧٠١
١٩٥٩	٥٥٣٠	١٢٠٧
١٩٦٠	٥٨٩٦	٦٠٦
١٩٦١	٦٤٩٦	١٠٠٢
١٩٦٢	٧١٥١	١٠٠١
١٩٦٣	٧٩٣٦	١١٠٤
١٩٦٤	٨٧٤١	٩٠٨
١٩٦٥	٩٥٣٤	٩٠١
١٩٦٦	٩٦٣٩	١٠١
١٩٦٧	٩٨٤٧	٢٠٢
١٩٦٨	١١٣١٨	١٤٠٩
١٩٦٩	١٢٧٠٧	١٢٠٣
١٩٧٠	١٣٦٨٨	٧٠٧
١٩٧١	١٤٧٩٠	٨٠١

ارقام اجمالي الناتج القومي بملايين الليرات الاسرائيلية .

المصدر : المجموعة الاحصائية الاسرائيلية ، ١٩٧٢ ، رقم ٢٣ ، مكتب الاحصاءات المركزي .

الشكل رقم — ٤ —

النسبة المئوية للتغير في اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي عن السنة السابقة

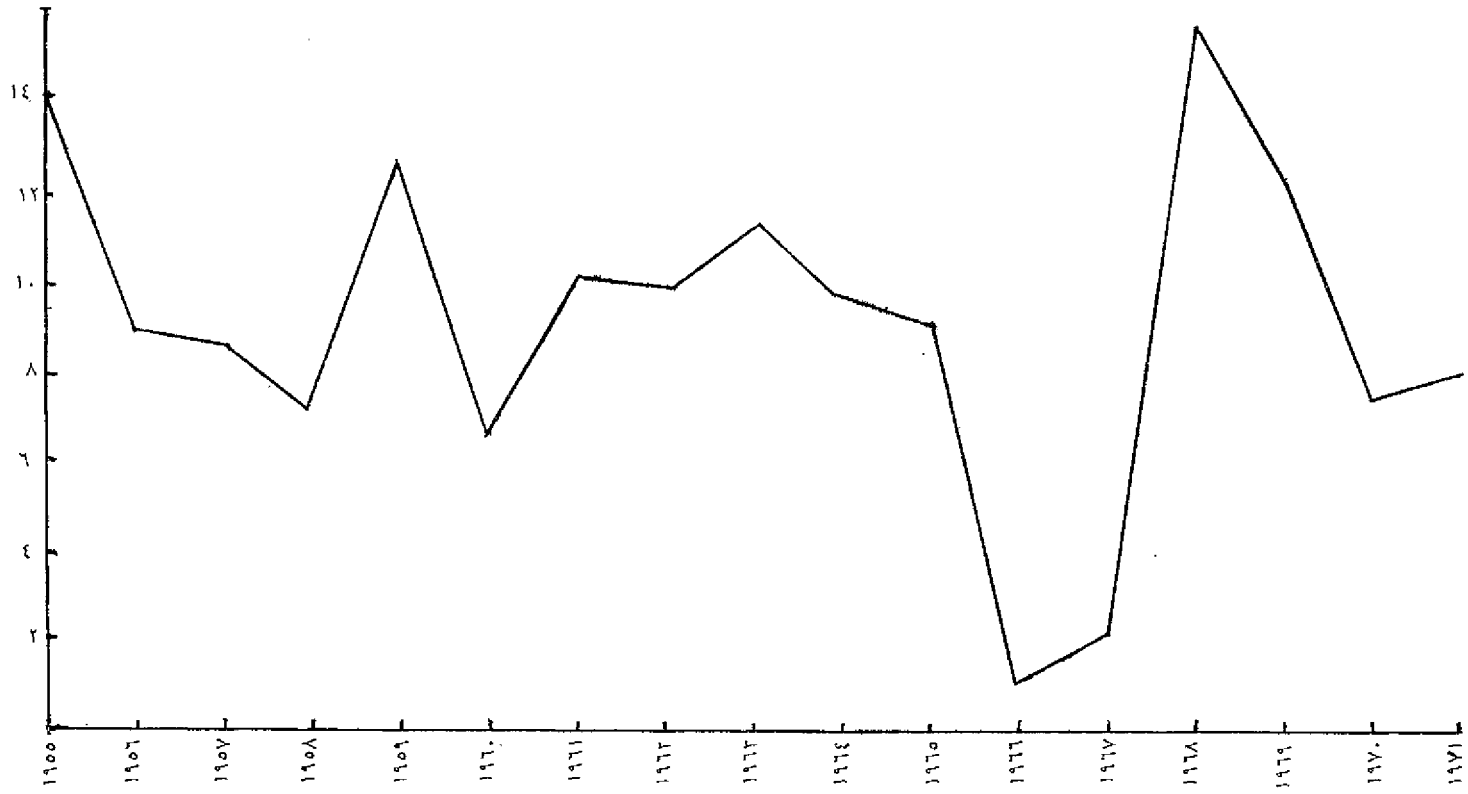

المصدر : جدول رقم ٤ .

جدول رقم — ٥ —

تكاليف الدفاع في اسرائيل
(بملايين الليرات الاسرائيلية)

السنة	(١) تكاليف الانتاج	(٢) اجمالي الناتج القومي	(١) كنسبة مئوية من (٢)
١٩٥٧	٢٢٥٫٤	٢١٢٩	٪١٢
١٩٥٨	٢٤٧٫٥	٢٥٤٣	٪ ٩٫٧
١٩٥٩	٢٨٧	٣٩١٦	٪ ٧٫٣
١٩٦٠	٣١٦	٤٣٩٣	٪ ٧٫٢
١٩٦١	٥٠٨	٥٢٨٣	٪ ٩٫٦
١٩٦٢	٥٧١	٦٢٥٦	٪ ٩٫١
١٩٦٣	٧٢٩	٧٥٤٤	٪ ٩٫٧
١٩٦٤	٧٧٩	٨٧٤١	٪ ٨٫٩
١٩٦٥	٩٠٥	١٠٤٥٦	٪ ٨٫٧
١٩٦٦	(غير متوفر)	١١٥٠٠	
١٩٦٧	٢١٦٥	١١٩٧٢	٪١٨
١٩٦٨	٢٥٣٤	١٤٠٢٦	٪١٨
١٩٦٩	٣٢٠٠	١٦١٢٧	٪١٩٫٨
١٩٧٠	٤٧٩٥	١٨٩٤٦	٪٢٥

المصادر : العمود رقم (١) مشتق من **تقرير بنك اسرائيل السنوي** .

والعمود رقم (٢) من **المجموعة الاحصائية الاسرائيلية** ، ١٩٧٢ ، رقم ٢٣ .

الشكل رقم — ٥ —

الانتاج الصناعي في اسرائيل (عام الاساس ١٩٥٨ = ١٠٠)

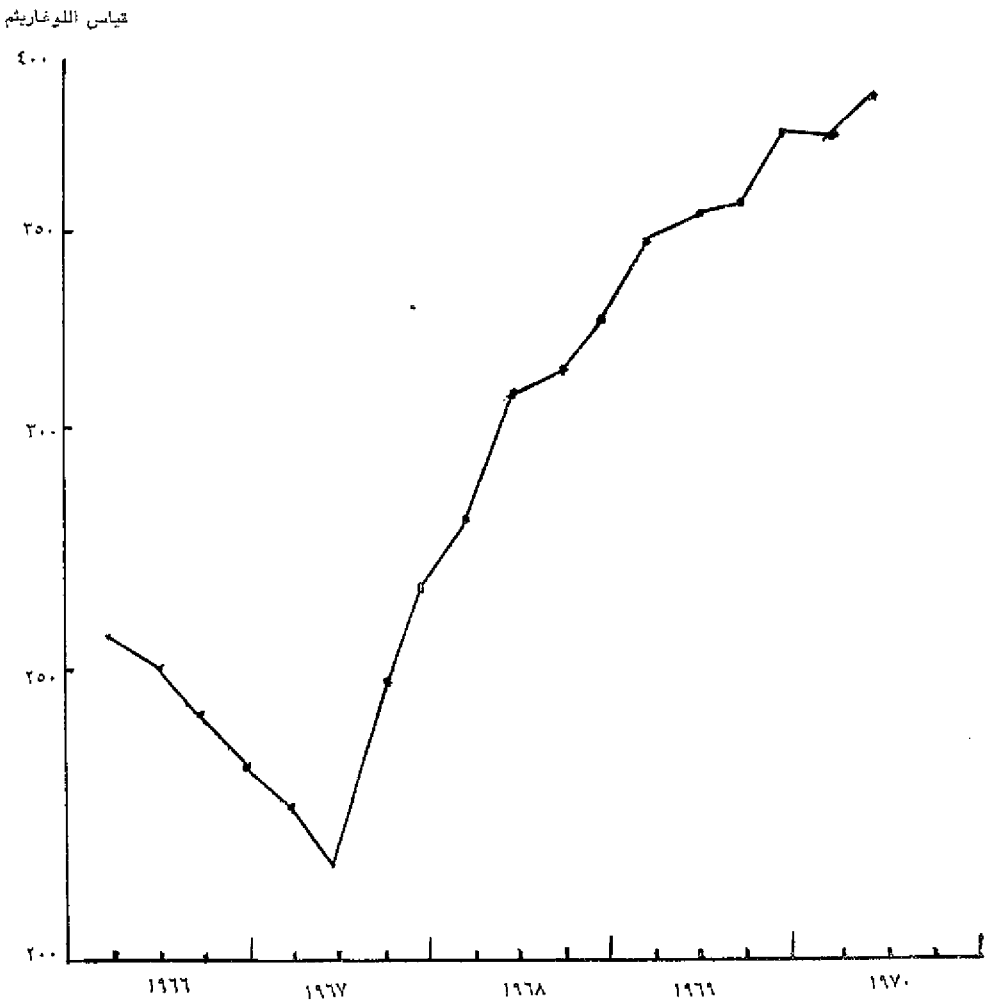

المصدر : مكتب الاحصاءات الاسرائيلي ، **نشرة الاحصاءات الشهرية** .

د. **تأثيرات الحرب على البطالة** : يوضح جدول رقم ٣ وشكل رقم ٣ أن البطالة وصلت أسوأ مستوى لها في الفترة السابقة لحرب ١٩٦٧ . ولكن الحرب ، على أي حال ، عكست الوضع تماما . فقد حصل انخفاض كبير وفوري في البطالة في الربع الثالث من عام ١٩٦٧ الذي تبعه انخفاض مستمر حتى تم الوصول الى منطقة عمالة كاملة .

في فترات السلام النسبي الموسع اتجهت النسبة المئوية السنوية للتغير في اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي نحو الانخفاض (انظر جدول ٤ ، شكل ٤) . ويظهر هذا الانخفاض في كل قطاعات الاقتصاد تقريبا . فعلى سبيل المثال ، كان الانتاج الصناعي ينخفض بثبات قبل حرب حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، كما يظهر جليا في شكل رقم ٥ .

وعلى العكس من ذلك ، عندما نشبت الحرب وازداد التور ، ازداد الانتاج الصناعي وكذلك معدل نمو اجمالي الناتج القومي (كما يظهر في جدول رقم ٤ وشكل رقم ٤ و٥) عاملا بذلك على خلق طلب اضافي على العمال . ويجب تذكر أن المجهود الحربي يمتص دائما جانبا أساسيا من عرض العمل .

تعطي الزيادة في الانتاج الحربي مزيدا من الوظائف . في عام ١٩٦٩ ، يقول كسلر « ان الصناعات الحربية وصناعات الطيران الاسرائيلية تستخدم رسميا حوالي ١٣٠٠٠ شخص ، مع ان بعض المراقبين يقولون ان ذلك الرقم منخفض »(٢٤).

هـ. **تأثيرات الحرب على الصادرات** : ارتفعت صادرات اسرائيل من المعدات الحربية من ٢٥ مليون دولار عام ١٩٦٦ الى ٣١ مليون دولار عام ١٩٦٧ (بزيادة ٢٤ ٪) الى ٣٣ مليون دولار عام ١٩٦٨(٢٥)، اي بزيادة مقدارها ٣٢ ٪ خلال سنتين . « اننا على حافة الانتقال من بلد غير متطور الى دولة صناعية ، يقول أحد المصادر هنا ، وذلك عائد فقط الى صناعتنا الدفاعية . ان الارقام تدعم هذا القول ، فقبل نشوب الحرب عام ١٩٦٧ ، كانت اسرائيل تغوص في أول نكسة جدية تلحق بها منذ تأسيسها عام ١٩٤٨ . كان العلماء يغادرون البلد لغياب فرص العمل »(٢٦).

تصدر اسرائيل الآن الاسلحة والطائرات والمنتجات الحربية الاخرى (مثل رشاشات عوزي ، وقذائف السفن الموجهة من طراز جابرييل ، وقذائف شافرين جو ــ جو) الى عدد من البلدان الاوروبية بما فيها فرنسه وألمانيه وكذلك الى الدول النامية في افريقيه وحديثا في امريكه اللاتينية .

جدول رقم ــ ٦ ــ
اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي حسب القطاع
معدل النسب المئوية

القطاع	المعدل ما قبل حرب ١٩٦٧	المعدل منذ حرب ١٩٦٧
البنـــاء	١٠ ٪	١٠ ٪
الصـــناعة	٢٣ ٪	٢٥ ٪
الزراعـــة	١١ ٪	٧ ٪
القطاع الحربي	٩ ٪	٢١ ٪
قطاعات أخرى*	٤٧ ٪	٣٧ ٪
المجمـــوع	١٠٠٪	١٠٠٪

قائم على أساس جدول رقم ٥ والمعلومات المعطاة من **المجموعة الاحصائية الاسرائيلية** ، ١٩٧٢ ، رقم ٢٣ .

* النقل والاتصالات ، المال ، العقارات ، المؤسسات غير المنتجة ، التجارة والخدمات .

الشكل رقم — ٦ —

اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي حسب القطاع

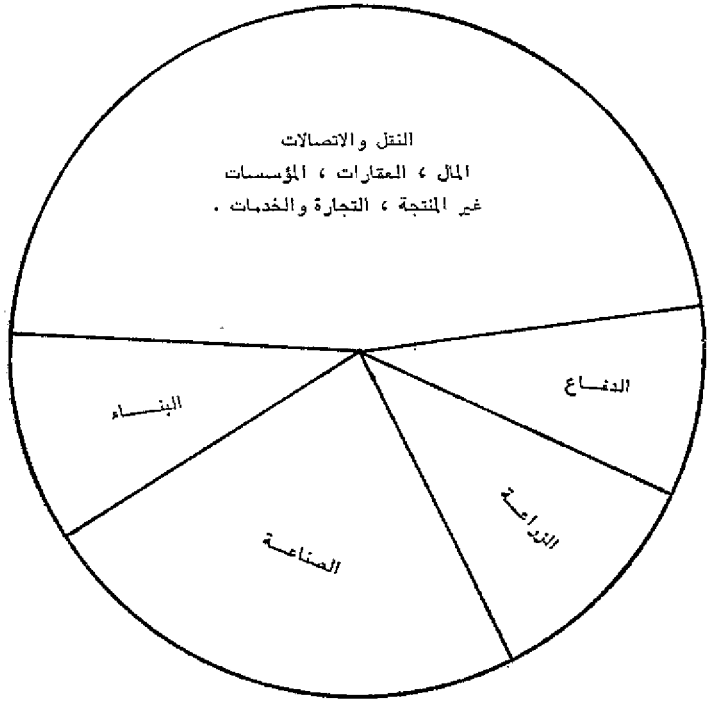

المعدل : ما قبل حرب ١٩٦٧

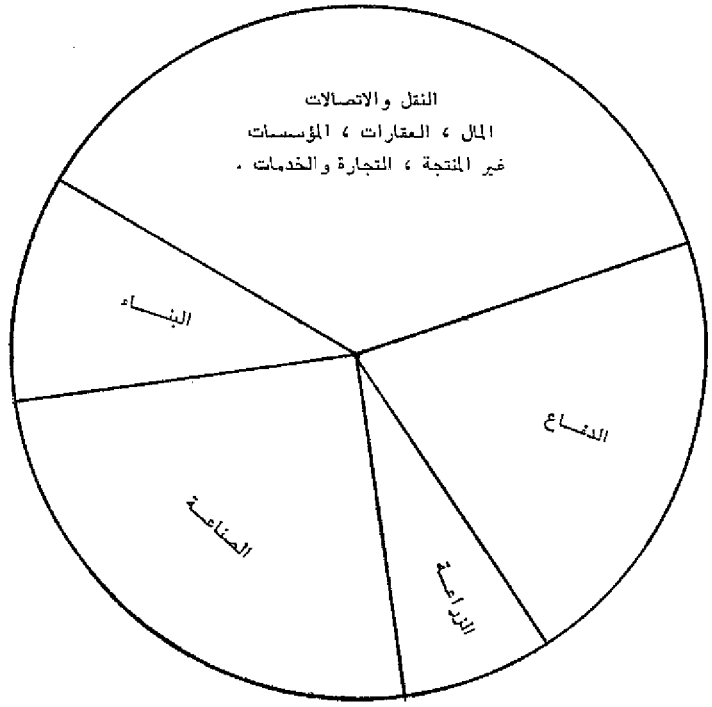

المعدل : منذ حرب ١٩٦٧

المصادر : الجدولان رقم ٥ و٦ .

وبينما تحد الولايات المتحدة بحزم من مبيعات اسلحتها الى امريكه اللاتينية ، تقول تقارير البنتاغون ان السلفادور أجرت عقدا لشراء ٢٥ مقاتلة نفاثة وناقلات جنود ومدربين من اسرائيل(٢٧). وكذلك باعت الدولة الصهيونية ٥ طائرات عرفا قصيرة المدى الى المكسيك(٢٨). ومع اتساع صناعتها الحربية ، على اسرائيل ان تزيد صادراتها من الاسلحة .

ان مصروفات اسرائيل الدفاعية مرتفعة بشكل غير اعتيادي ، وما تزال ترتفع بالارقام المطلقة والنسبية كما يظهر في جدول رقم ٥ و ٦ وشكل رقم ٦ . وهكذا فمن أجل زيادة صادرات اسرائيل من فائض المعدات الحربية ، تستخدم الدعاية الاسرائيلية مسرح الحرب لاقناع العالم بالمستوى والاداء العاليين لاسلحتها. « ان الدعاية والشهرة الناجمتين عن النصر العسكري في حرب حزيران (يونيو) قد أعطتا ، على الارجح، حافزا اضافيا لهذه الصادرات »(٢٩).

و. **تأثيرات الحرب على البنية التحتية** : من أجل تسهيل المرونة العسكرية والحركة مع كل موجة توسعية ، تبني اسرائيل الطرق والمطارات وشبكات الاتصال ومشاريع مشابهة .

فبعد حرب ١٩٦٧ ، تعاقدت الحكومة مع متعهدين « على اساس نسبة ارباح على سعر التكلفة من أجل بناء التحصينات والمستوطنات في المناطق العربية المحتلة »(٣٠). ولسوء الحظ ليس هنالك من تقديرات مرضية حول هذه المصروفات . ان لها دورا اساسيا في عملية النمو الاقتصادي .

التأثيرات الاقتصادية العكسية للحرب : لم يكن للتأثيرات الاقتصادية العكسية للحرب على اسرائيل اهمية تذكر ؛ فقد عملت الارباح الاقتصادية للحرب على اكثر من تعويض اية تأثيرات اقتصادية عكسية قد تكون اسرائيل واجهتها . وبالرغم من المعدل المرتفع للتضخم (حوالي ١١ ٪ عام ١٩٧١) ، فقد بلغت النسبة المئوية للزيادة في اجمالي الناتج القومي (بالاسعار الجارية) اكثر من السنة السابقة بنحو ٢٣ ٪ ، مما لا يزال يسمح بزيادة ٨ ٪ بالاسعار الثابتة .

وكدلالة على الازدهار اللاحق لحرب ١٩٦٧ هو وجود اكثر من ٢٠٠ مليونير في اسرائيل . « ان معارض الفن والمحلات والبيوت الفاخرة هي الاشارات المرئية للرخاء الاسرائيلي الجديد الذي هو احد اكثر النواتج الثانوية لحرب الايام الستة عام ١٩٦٧ اثارة للدهشة . ممتطية ذروة الصعود الحلزوني لفترة ما بعد الحرب ، تتبنى أعداد متزايدة من الاسرائيليين نمط حياة كان من الممكن ان يثير دهشة الصهاينة قبل جيل فقط »(٣١).

ملاحظات ختامية

يتضح مما سبق أعلاه انه في غياب الحرب أو التوتر الشديد ، ما كانت اسرائيل ، وهي بلد صغير فقير بالمصادر الطبيعية ، قادرة اطلاقا على تحقيق معدل نموها المرتفع البالغ ٩ر٢ ٪ سنويا خلال الفترة ١٩٥٠ — ١٩٧١ . ومن الجدير بالملاحظة ان معدل زيادة تدفق رأس المال ، الذي يرتفع بشكل اساسي في فترات الحرب كما يتضح اعلاه ، قد بلغ ١ر٩ ٪ مركبا سنويا . ويبدو من هذا انه لا يمكن ان يكون في صالح اسرائيل الاقتصادي تخفيف التوتر او خلق اوضاع سلام دائم مع جيرانها . ويشرح النموذج الديناميكي المبين في الشكل رقم ٧ عملية السبب والنتيجة :

الشكل رقم — ٧ —

نموذج ديناميكي لحالة اسرائيل

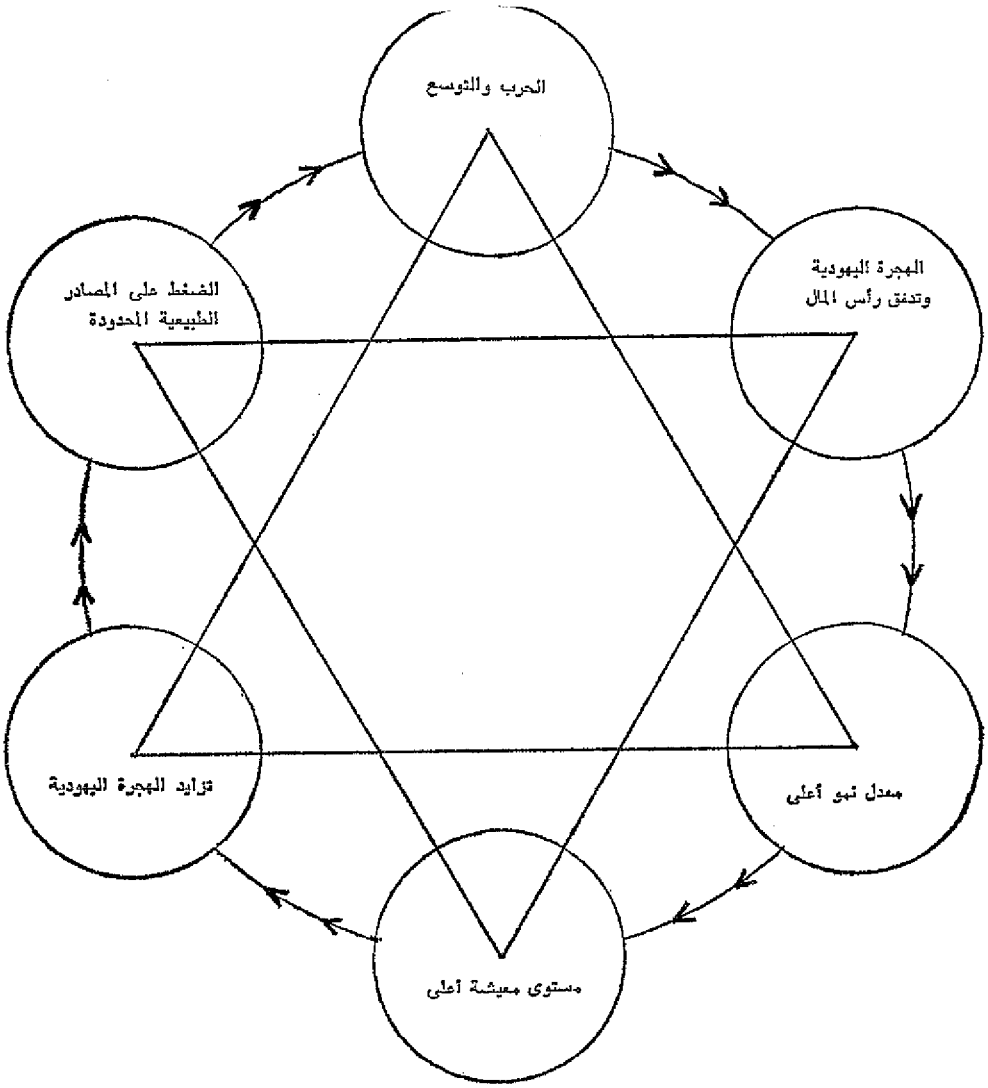

يؤدي الحرب والتوسع الاقليمي الى هجرة اكبر وتدفق اكثر لرأس المال ، مما يؤدي بدوره الى مستوى معيشة اعلى ومعدل نمو أعلى ، مشجعا ذلك مزيدا من الهجرة يحدث ضغطا على المصادر المحدودة ، مما يؤدي الى توسع آخر (مصادر اكثر) ، وهكذا تعيد العملية نفسها .

الحواشي :

١ ــ ليونيل روبنز في كتابه : **الاسباب الاقتصادية للحرب** ، لندن ، ١٩٣٩ ، ص ١٥ .

٢ ــ في مقابلة اجراها آلن هارت من التلفزيون البريطاني كما نقلتها صحيفة **دافار** ، ١٤ مايو ١٩٧٣ ، واقتطفتها مجلة **فيو بوينت** التي تصدرها « رابطة اسرائيل للحقوق المدنية والانسانية » ، القدس ، ١٦ مايو ١٩٧٣ ، ص ١٥ .

٣ ــ شارلز كوبر و سدني الكسندر ، « **التطور الاقتصادي ونمو السكان في الشرق الاوسط** » ، نيويورك ، ١٩٧٢ ، ص ٩٣ .

٤ ــ ا. جولد برجر ، «Preis-Bewegungen in Israel,» Polygraphischer Verlag, Zurich, 1956.
اقتطفها الكس روبنز في كتابه « **اقتصاد اسرائيل** » ، نيويورك ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠ .

٥ ــ تبعا لصحيفة **عال همشمار** ، ١٩ نيسان ــ ابريل ، ١٩٧٣ ، فان آلون يدعو الى اقامة ٣٠ مستعمرة يهودية بالاضافة الى الـ ١٢ مستعمرة الموجدة ، نقلا عن صحيفة **فيو بوينت** ص ٥ .

٦ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٤ .

٧ ــ الياهو كانوفسكي ، « **الاثر الاقتصادي لحرب الايام الستة** » ، بريجر ، نيويورك ، ١٩٧٠ ، ص ٥٧ .

٨ ــ **الكتاب السنوي الاسرائيلي** ، ١٩٧٣ ، تل أبيب ، ص ٤١ .

٩ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١ .

١٠ ــ **الكتاب السنوي اليهودي الامريكي**، ١٩٧٢، ص ١٨٧ .

١١ ــ **اسرائيل دايجست** ، المجلد ١٢/٨ ــ ١٨ نيسان (ابريل) ، ١٩٦٩ ، ص ٢ .

١٢ ــ **الكتاب السنوي اليهودي الامريكي**، ١٩٧٢، المجلد ٧٣ ، ص ٢٧٣ .

١٣ ــ اميل بنويت ، « **الدفاع والنمو الاقتصادي في البلدان النامية** » ، لنـدن ، ١٩٧٣ ، ص ٢٥٣ .

١٤ ــ راي فيكر ، «رفع ذراع التطويل» ، « **الوول ستريت جورنال** » ٣١ ايار (مايو) ١٩٧٣ ، ص ٣٤ .

١٥ ــ السلسلات الزمنية لاجمالي الناتج القومي بالاسعار الجارية والثابتة اخذت من **المجموعة الاحصائية لاسرائيل** ، الصادرة عـن المكتب المركزي للاحصاءات .

١٦ ــ نقلها الكس روبنز ، ص ١٤ .

١٧ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١٨ .

١٨ ــ ي. كوفمان ، « الاستراتيجيات اللاسامية في الصهيونية » في « **كومنتري** » ، نيويورك ، آذار (مارس) ١٩٤٩ ، نقلها الكس روبنز ، ص ٣ .

١٩ ــ نقلها الكس روبنز ، ص ٦ .

٢٠ ــ كشف النقاب عام ١٩٦٦ عن مهمة صهيونية سرية لقذف القنابل في الكنس وفي مراكز اليهود الاخرى ببغداد. ولم تتخذ حكومة اسرائيل اي اجراء للتحقيق في هذه الفضيحة . المصادر : « **هعولام هزه** » ، تل ابيب ، ٢٧ نيسـان (ابريل) ١٩٦٦ و« **الجيروزالم بوست** » ، ١٥ حزيران (يونيو) و٢١ تموز (يوليو) ١٩٦٦ .

٢١ ــ **الكتاب السنوي اليهودي الامريكي** ، المجلد ٦١ ، الصفحات ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

٢٢ ــ **المصدر السابق** ، ص ٢٦٥ .

٢٣ ــ **المجموعة الاحصائية الاسرائيلية** ، رقم ٢٣.

٢٤ ــ فيلكس كسلر ، « الصناعة الحربية الاسرائيلية » ، « **الوول ستريت جورنال** » ، ١٨ شباط (فبراير) ١٩٦٩ ، ص ١ .

٢٥ ــ بنك اسرائيل ، **التقرير السنوي ، ١٩٦٨** ، ص ٦٦ .

٢٦ ــ نقلها فيلكس كسلر ، ص ١ .

٢٧ ــ فرد س. هوفمـان ، « اسرائيل تسلح امريكه الوسطى » ، **الواشنطن بوست** ، ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، ص ١١ .

٢٨ ــ **المصدر نفسه** .

٢٩ ــ نقلها ا. كانوفسكي ، ص ٥١ .

٣٠ ــ ترنس سميث ، « نمط حياة الاسرائيليين المنعمين » ، **النيويورك تايمـز** ، ٤ أيلـول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، ص ٨ .

٣١ ــ نقلها ترنس سميث ، ص ٨ ج .

مرحلة الانتقال في الادب الاسرائيلي المعاصر

الدكتور رشاد الشامي

(٢) ظواهر مختلفة

هذه هي الحلقة الثانية من هذه الدراسة التي نشرنا الحلقة الاولى منها في العدد الماضي من « شؤون فلسطينية » :

الرواية التاريخية

يعتبر ظهور الرواية التاريخية من الظواهر الهامة التي ميزت أدب مرحلة الانتقال في اسرائيل ، كعنصر من العناصر التي كانت مفتقدة في الادب الاسرائيلي حتى ذلك الحين ، وهو الامر الذي يمكن اعتباره بمثابة نقطة تحول في تاريخ الادب الاسرائيلي المعاصر . وقد كان اول من قام بهذه القفزة المفاجئة من الكتابة المرتبطة بالحاضر بشدة الى الماضي ، هو الاديب الاسرائيلي موشيه شامير ، وذلك في روايته « ملك اللحم والدم » . وقد واصل كثيرون من بعده ، هذا الطريق، وكان من بينهم بعض ادباء المرحلة السابقة، وهو الامر الذي ساعد على ازدياد عدد الروايات التاريخية التي تتناول فترات مختلفة من التاريخ اليهودي . **ما الذي أدى الى هذا التغير** ؟ لقد أدى الى هذا ذلك الاهتمام المتجدد من قبل الجمهور المثقف ، وبصفة خاصة من قبل اولئك الذين يعملون في مجال التعليم ، بالماضي وبالقيم الثقافية الخاصة به . ولكن هذا الاهتمام في حد ذاته كان يدل على الحاجة الحقيقية التي ضغطت من الداخل . لقد زاد الاحساس بأن الحاضر لا يكفي ، وان هناك شيئا ما ينقصه لم يكرس له الاهتمام من قبل ، ربما لان الانتظار المتوتر للمستقبل ، قد أزال حدة الانعزال عن الماضي ، ولان المجتمع الاسرائيلي في تلك الايام التي تلت حرب ١٩٤٨ لم يكن مشدودا نحو أهداف اجتماعية وقومية . وبالرغم من رغبة هذا المجتمع في ان يعيش حاضرا مريحا نسبيا ، الا انه كان يشعر بنقص ارث الماضي ، الذي يمكن بموجبه صياغة حياة حاضر مستقرة وغنية المضمون . اذن ، لقد كان اضمحلال الحاضر وتدهوره هو سبب الاتجاه الى الماضي كموضوع للصياغة الفنية ، بالرغم من الشك الذي أحاط به نقاد الادب العبري المعاصر بمدى تحقيق هذه الروايات التاريخية لمرادها .

والدليل الاول على اتجاههم وقيودهم هو التبرير الذي يؤثر على الاديب في اختيار الفترة التاريخية المتناولة في عمله الادبي . ففي العادة يلجأ مؤلف الرواية التاريخية الى استقصاء سلسلة من الاعمال التي توضح عصره ومصيره — وحينئذ فانه يتوجه الى الماضي القريب، او انه يلجأ الى اماطة اللثام بشكل كامل، عن ماض ما زال يترك بصماته في ارثه الحضاري — وحينئذ فانه يلجأ الى لحظات التحول الحاسمة في تاريخ حضارته ، أو انه يميل ببساطة الى وصف فترة من خلال المقارنة التي يجدها فيها لمصيره ومصير جيله . وفي الحالتين الاوليين يكون للاديب باعتباره ابن الحاضر اهتمام حيوي بالماضي

نفسه ، ولا يكون هدفه في هاتين الحالتين وصف الماضي على صورة الحاضر ، بل يكون سعيه الاساسي ، في غالب الاحيان ، هو تفسير الماضي من وجهة نظر الحاضر ، المرتبط به في كل سياق انتاجه الادبي ، وفي الحالة الاخيرة لا يكون للاديب تقريبا أي اهتمام بهوية الماضي ، ولا يكاد يهتم به الا بالقدر الذي يجد انه يعكس له الحاضر على النحو الذي يود به معالجته . وبالفعل ، فانه من الامور المميزة للروايات التاريخية الاسرائيلية التي ظهرت في تلك الاونة ان معظمها قد كتب وفقا للاعتبار الثالث . لقد كانوا يبتعدون في تناولهم الى فترة بعيدة ليست على اتصال مباشر بالحاضر لا من ناحية تتابع الحدث التاريخي ولا من ناحية تتابع الارث الروحي . ولكن غالبا ما يكون في هذه الفترة التاريخية التي يتناولها العمل الادبي تشابه بأي حال من الاحوال مع الموقف الحالي .

والنموذج الذي يمثل هذا الاتجاه هو رواية موشيه شامير ، التي أشرت اليها سابقا : «ملك اللحم والدم» ، التي مع كونها الاولى من نوعها فانها تفوق من ناحية الانجاز الفني الروايات التاريخية التي جاءت بعدها ، ولا سيما روايات شامير نفسه — (تدور هذه الرواية حول شخصية الكسندر جانيوس احد ملوك المكابيين). وتتميز هذه الرواية بالاوصاف الملحمية الممتازة : المناظر الطبيعية، واوصاف القتال، والانطباعات الواقعية. ولكن حينما نأتي لفحص أهمية البعد التاريخي في الرواية نفسها نحصل على صورة مميزة . ان الفترة التي اختارها شامير — مملكة الحشمونائيم في اوج مجدها وعلى حافة تدهورها — لم تكن حاسمة في صياغة الارث الثقافي الاسرائيلي في الخمسينات من القرن العشرين ، وعلى الاخص لان الاديب هو من مواليد فلسطين الذين لا تربطهم صلة وثيقة تماما بارث الغربيين ، ولكن هذه الفترة بالذات من التاريخ اليهودي لها قوة جذبها الخاصة لما تميزت به من أبهة تاريخية مصحوبة بمشاعر المنتصرين والمحتلين في ميدان القتال . وهكذا وجد الاديب شبيها للواقع الذي يعيشه هو نفسه ، وتمت صياغة الفترة القديمة في يده كفنان رغما عنه بمثابة انعكاس للحاضر . ان ابطاله — بقدر ما هم يعيشون في الواقع وليس في سطور الرواية هم اسقاط للنماذج المعاصرة وكذلك للروايات الواقعية لشامير ، والمشاكل التي تزعجه هي المشاكل الشخصية والسياسية التي عالجها في رواياته « هوسار في الحقول » و« فصول اليك » ، ولذا ظلت الحياة الروحية للعصر المتناول وثقافته فوق مقدرة احتمال الرواية بالرغم من الجهود الكبيرة من أجل اعطاء صورة دقيقة للفريسيين والصدوقيين وكذلك حتى للفيلسوف اليوناني . ومن هنا فانه يمكننا القول بأن هذه الرواية التاريخية ليست الا صورة دقيقة مزخرفة للحاضر في مرآة الماضي ، ولذلك فان وصفه يحوي حطا لقدر الماضي في اطار ادراك ابن الحاضر أكثر مما يحوي توسيعا وتفسيرا لما هو مخفي بين ثنايا أعمال الحاضر . وبالطبع ، لا يمكن انكار الانجاز الملحمي المهم في حد ذاته ، ولكن المطلوب لم يتم تحقيقه وظلت المشكلة قائمة كما هي . ان دائرة الموضوع السابق — الصراع وحرب ١٩٤٨ — قد تم شدها ولكنها لم تفتح ، كما ان القدرة على استقاء حياة غنية من الابطال وعلى ابراز شخصية ذات انفرادية خاصة ، لم تزد . وهكذا فان الرواية التاريخية لم تفتح مجالا جديدا للموضوعات ، يمكن المداومة فيه ، ولم يرتفع انتاج الادب الاسرائيلي الى مرتبة تطور أعلى من التي وصل اليها قبلا .

العودة الى الحاضر بخوائه

حينما لم يجد الادب الاسرائيلي في الرواية التاريخية ما يشبع نهمه نحو البحث عن موضوع لم يبق امامه من خيار سوى العودة والتمعن في الحاضر على ما هو عليه ، بوحشته وخوائه وضجره ، واختياره كموضوع للانتاج الادبي . وبالفعل ، فانه في بعض القصص والروايات التي رأت النور في فترة ما بعد حرب ١٩٤٨ ، وفي السنوات

الاخيرة بصورة أكثر ، نلاحظ ازدياد هذا الاتجاه . وتبرز بين هذه القصص والروايات أعمال لموشيه شامير ودافيد شحر ، وأهارون ميجد ، وبنيامين تموز ، وفنحاس ساديه.

موشيه شامير

من الروايات التي كتبها موشيه شامير وتعتبر من قبيل أدب « مرحلة الانتقـــال » رواية « لأنك عار » . وقد طبعت هذه الرواية عام ١٩٥٩ ، وهي تعود بأحداثها الى عام ١٩٣٩ ، لكي تشير الى أزمة نهاية العقد الخامس . وكما يعبر النقد الذي تجلى في أفكار أبطال يزهار في « أيام تسيكلاج » عن ازمة الشباب الاسرائيلي في عام ١٩٥٨ ، أكثر مما يدل على شخصيته في عام ١٩٤٨ ، فان موشيه بطل شامير في « لأنك عار » والذي يعيش عام ١٩٣٩ ، هو قريب للغاية من موشيه شامير عام ١٩٥٩ . وتـــدور احداث هذه الرواية خلال سمنار للموجهين يعقد عام ١٩٣٩ ، ويشترك فيه : البطل الرئيسي موشيه ، واصدقاؤه : ليزر ، ويوحاي وكثيرون آخرون . وفي اثناء المعســـكر تحدث في نفس البطل الرئيسي أحداث نفسية متوازية : ينضج من الناحية الجنسية . ويثور من الناحية الروحية . وفي حياته الشخصية يهجر ايلانة ، محبوبة الشباب ، ويقوم باقامة علاقة جنسية قوية مع عمالية ، وفي حياته الروحية يقوم « بكسر الالواح » (رمزا الى ثورة موسى وكسره لالواح الوصايا العشر) ـــ الخاصة بحركته ويثور ضد عيمك ، الاب الروحي . وخلال فترة التمرد يقوم بكتابة مسرحية عن بناء أريحا يدور موضوعها حول موت الولدين ـــ قربانا على مذبح المجتمع . وعلى هذا النحو فان موشيه بطل شامير يستيقظ من التفاؤلية الاجتماعية لحركة الشباب الصهيونية ، انه يطرح احتمال حرب دموية ضد العرب في مقابل الانسانية المتفائلة لدى رفاقه ويشعر بأن البلاد (أي اسرائيل) قد بناها الاباء « على جسد » الابناء (موضوع المسرحية التي كتبها شامير). وهذه الرواية لها بالطبع جذور في الروايات التاريخية التي كتبها شامير ، ولكن على عكس الخصوم الانسانيين (أبشالوم ، واوريا الحثي) ، للابطال الذين يكرسون الوسائل من أجل غايات آنية او من أجل « صالح الدولة » (الكسندر يناي ، وداود الملك) ، يوجد هنا خصوم « انسانيون » ضعاف (عيمك ، وجرانت) للبطل الآتي الذي يكرس « الشر » ويستفيد منه . وفي مقابل عدم تمكن الرواية التاريخية من شق الطـــريق الاستقلالية الفردية ، فان رواية البلوغ هذه تسعى الى تحطيم الالواح والى شق الطريق للاستقلالية الآنية للفرد ، غير المرتبط بأي شيء .

وهذه الرواية لا شك تشتمل على ارهاصات الازمة التي حدثت في الستينات ، تلك الازمة التي دفعت بالادب الاسرائيلي للبحث عن هوية الفرد الاسرائيلي من جديد ، وبحث موقفه وارتباطه بالقيم التي أصبحت محل مناقشة ومحل شك.لقد فتح «تحطيم الالواح» امكانات جديدة ومجالات جديدة امام الادب : البطل الذي حكم عليه بالعزلة والتيه (عيمك الاب الروحي هو الذي يدفعه للتيه) ، يضطر من الان فصاعدا الى البحث عن طريقه . وبالطبع فان شامير الذي يضع بطله في مفترق الطرق بعد « تحطيم الالواح » لا يحدد له طريقه بعد ان اصبح في حوزة نفسه ومسؤولا عن ذاته بعيدا عن أي ارتباط بأي قيم ، وهو الامر الذي ميز ادب « مرحلة الانتقال » ، والذي جعل موجة الادباء التالية تسعى لوضع الاجابة وتحديد الطريق الذي يجب ان يسير فيه هذا البطل .

دافيد شحر

يصف النقاد قصص دافيد شحر (ولد في فلسطين عام ١٩٢٦) دائما بأنها قصص واقعية كلاسيكية . واذا كنا سنلقي ضوءا هنا على نموذج من نماذج ادب دافيد شحر ، فان ذلك سيكون فقط من أجل فهم الاتجاه الذي تبلور في القصص التي تمثل « مرحلة

الانتقال » . وفي هذا المجال سنعرض لمجموعة قصص « عن الاحلام » لما تتميز به من حقيقة بيوجرافية ، تجعلها مميزة من ناحية وفريدة في نوعها من ناحية اخرى . ينتمي أبطال شحر الى الاقلية الصغيرة من أبطال الادباء من مواليد فلسطين ، وهي تلك الاقلية التي شق طريقها من البيئة الدينية الى البيئة العلمانية وتخلق بهذه الطريقة مقارنة مثيرة للاهتمام بالموضوع الاساسي في الادب العبري في مراحله السابقة . وهناك عدة فروق تميز طريق أبطال شحر عن طريق أبطال انتاج الجيل السابق . اولا ، ان البيئة الدينية التي يخرجون منها هي بيئة منهزمة ، ليس فقط في جهودها من أجل منع ابنائهـا من الخروج الى الثقافة الدنيوية ، بل كذلك في جهودها من أجل المحافظة على حيويتها . انها بيئة خاوية ، ومتحجرة ومضجرة . ومن هنا الفارق الثاني : لا يشق ابطال دافيد شحر طريقهم من مجال لآخر على شكل صراع روحي عنيف بين بؤرتي الحياة الروحية التي يشعرون بالاخلاص لكليهما على حد السواء .

ان العبوس والجمود الديني ينفرهم ، ولكن البيئة العلمانية لا تجذبهم اليها بما تحويه من ارث روحي غني ، بل بما تحويه من حرية ، اي بالسلطة التي تمنحها للانسان ليتصرف حسبما يشاء في شؤونه الشخصية ، وعلى الاخص حرية الاختلاط بين الشبان والشابات . وبالفعل يوجد قليل من الانجذاب الى القيم الثقافية وهو الانجذاب الذي يتجلى في أشواق البطل الى الجمال ، الذي لا يوجد في بيئته الدينية ، وفي الانجـذاب الى قيم الفن التي يحتقرها الدين اليهودي . ولكن الاشواق الى الجمال فيهـا لدى بطل شحر مسحة جنسية حادة . والفن هو في نظره دافع شخصي ، داعر وفوضوي. ولا عجب في ان ما يجذب قلبه أكثر هو رفقة الفنانين أكثر من الفن ذاته. ومن هنـا الفارق الثالث والختامي : حينما يقوم البطل بالخطوة الحاسمة التي تعزله عن بيئته الدينية ، فانه يقوم بها تقريبا بلا وعي . انه يشعل سيجارة في يوم السبت ، (وهو الامر المحرم عمله في مثل هذا اليوم المقدس) ، ولا يدرك مغزى الامر الا بعد ان يفعله ، ولا يكون هذا الادراك من خلال فظاعة التغيير الذي حدث في عالمه ، بل من خلال عدم الارتياح الاجتماعي ، الذي ينطوي عليه الانعزال عن المنزل وعن طـريق الحياة الثابت الذي تم شقه أمامه . كذلك فان اكتشاف المغزى الروحي للتغيير الذي يحدث في حياته يتم بعد ان يتم التغيير ، وبعد ان يحظى بالحرية الشخصية التي كان يتوق اليها ويتضح له ، انه ليس لديه ما يفعله بها . لقد تخلص من الاذعان للاوامر الصارمة التي كان يفرضها عليه دين آبائه ، ولم يعد يعاني الان من نير الشرائع ، ولكن الحرية السلبية التي كان يتوق اليها سرعان ما تضايقه بغموضها وخوائها . وحينئذ يبحث بطل شحر عن فرصة اولى من أجل التخلص منها . وبالفعل فانه في هذه النقطة يحدث تحول يسهل على من يدرس ادب « مرحلة الانتقال » الانتقال من الموضوع الفريد الذي يتناوله دافيد شحر الى انتاج رفاقه . ان بطل شحر يصادف فور خروجه من البيئة الدينية الواقع السياسي الذي يعيش فيه اليشوف اليهودي في تلك الايام (فترة الانتداب): شرطي بريطاني يهين كرامته كيهودي ، فيرد على ذلك بغضب هائل — ويضرب الشرطي وبعد ذلك ينتظر في هدوء بال نتائج فعلته . ويدل هدوء البال الغريب هذا بعد العمليـة على معناها ذي المغزى المزدوج : أكثر مما كانت جزءا على كرامة اليهود ، كانت تعبيرا متهورا عن الهروب من الحرية التي لا يدري ماذا يفعل بها . وعمل بطل شحر غير نابع من تقديس القيمة القومية ، بل من الرغبة في الهروب من الحيرة والضياع . انه لم يقم الا بعملية استبدال ، وليست المسألة استبدال قيمة بأخرى ، بل استبدال امتثال غير مؤمن بامتثال آخر غير مؤمن هو الاخر في نظر شحر . والانتظار الهادىء لنتائج ما بعد العملية معناه : منذ الان ليس علي ان أهتم بأعمالي ، الاخرون سيعملون وفق طريقتهم ،

وسواء هذا أم ذاك فانني قد تخلصت من الحرية التي تضايقني بغموضها . ويقف بطل شحر وجها لوجه في مواجهة الضجر والخواء الذي في البيئة العلمانية ، وكل ما في مقدوره ان يفعله هو ان يرفع يديه في يأس ليخفي بهما وجهه . وبعد ذلك يجعل شحر بطله ينساق في الاعتدال المريح ، الذي لا هدف له ، والذي لا ينطوي على دراما ، والذي لا قضية فيه ، ذلك الاعتدال الخاص بالبيئة العلمانية . أنه يسعى الى مستقبل ، والى كرامة والى حب النساء ، ولكنه يعرف في أعماق قلبه ان كل مكاسبه هي محطات في طريق فشله النهائي .

وفي هذا الاطار من المعالجة الخاصة عند شحر يكون من الصعب العثور على ما هو مشترك بين هذه القصص وقصص معظم الادباء من مواليد فلسطين ، ابناء « جيل البلاد » . ولكن مع هذا فان التحول الاخير يميز على الاقل نقطة لقاء . ان ابطال شحر يتصرفون منذ البداية بتحفظ تجاه القيم القومية والاجتماعية لليهودية العلمانية . انهم لم يتعلموا على هذه القيم منذ الطفولة ، وهم معتادون كذلك على ان ينظروا اليها — بتأثير بيئتهم القريبة — نظرة نافذة . أما ابطال يزهار ، وشامير ، وموسينسون ، وناثان شاحام وأهارون ميجد فانهم يتصرفون تجاه هذه القيم منذ البداية بايمان مطلق . لقد تعلموا عليها ، واعتادوا على النظر اليها — بتأثير بيئتهم القريبة — باعتبارها قيما مطلقة فوق النقد ، ولذلك فانه طالما ان للاوامر التي تستوجبها هذه القيم مبررا حتميا موضوعيا (وهذا المبرر غالبا ما يأخذ شكل الامة المحاصرة والتي تحارب من أجل وجودها حرب حياة او موت) فانه لا يطرأ على بال أحدهم اطلاقا أي شك في صلاحيتها . بل على العكس من ذلك ، فالاعتراف نفسه بحتمية أعمال معينة يجعل هذه القيم تحتل مكانتها وتكتسب صلاحيتها : من يستجيب لها هو انسان لحياته مضمون ، وذلك لان أعماله لازمة ولذلك فانها تثير الاحترام في نظر الكثيرين ، والتقدير الذاتي في نظر الفرد . ولكن في سنوات مـا بعد حرب ١٩٤٨ اتضح بسرعة ، انه يكفي ان ينقضي الاحساس غـير الوسيط للضرورة الموضوعية التي تثير رغبة الوجود وغريزة الدفاع الذاتي ، حتى يتلاشى تماما ذلك المغزى الذي أضفته هذه القيم على حياة الفرد . ويبدو ، أن فقدان احساس الضرورة الفورية يجرد القيمة القومية والاجتماعية من مبررها ، ويتلاشى معها كذلك المعنى الوجودي الذي في اقامة « الامر » الذي يستلزمه . ان الفرد يتجه الى نفسه ، ويكتشف في نفسه العديد من الرغبات والميول المتجهة نحو هنا وهناك دون قدرة على حسم رغبة متبلورة وطموح معين وواضح . وهنا نجد ان الدافع الذي كان يضفي على المطلب الذي كانوا يستجيبون له طوعا قد فقد المبرر الحاسم للحتمية ، وهو ذلك المبرر الذي لا يدع مجالا للشك في القيمة المطلقة للعمل ، وحلت العادة والشكلية التي لا يوجد فيها ما يثير الحماس في الانسان ، والتي لا يوجد فيهـا للانسان ما يواجهـه ويتحداه ، محل الحتمية الاجتماعية السياسية الصهيونية ، التي فقدت مسوغاتها في نظر الشاب الاسرائيلي .

اهارون ميجد

والتعبير المثير للاهتمام عن هذا التغير في وعي الاديب وأبطاله والذي يميز خطوة اخرى في تطور الادب الاسرائيلي بعد حرب ١٩٤٨ ، يوجد في كتاب أهارون ميجد (ولد في بولندا عام ١٩٢٠ وهاجر لفلسطين عام ١٩٢٦) « حادثة الابله » (١٩٦٠) الذي هو بمفهوم ما استمرار لقصته السابقة « حدقا وأنا » ، وكذلـك في كتـابه « الهـروب » (١٩٦٢) . وهذان الكتابان هما تعبير لفقدان الهوية لدى الشاب الاسرائيلي ، المؤمن بقيم حركات الشباب الصهيونية ، وذلك في الموقف الاجتماعي الجديـد الذي يسحب القاعدة من تحت وجوده الروحي . و« الابله » وابطال قصص « الهروب » الثلاثة هم

أبطال بسطاء ، ترتبط بساطتهم بالخلفية الروحانية « للصهيونية الاشتراكية » . لقد تعلموا على البحث عن الخير ، ولكنهم لا يمكنهم ان يعيشوا دون احساس « بالانتماء » الاجتماعي ، وهم يصارعون من أجل الانتماء (ولو حتى لجماعة منظمة من « الاصدقاء » ـــ « حادثة الابله ») ، وهم يشتاقون الى الجزيرة المثالية الخضراء لمجتمع الفلاحين (حادثة الابله) ويعلقون الآمال الكبار على الديموقراطية الشعبية العظيمة وخيراتها الوفيرة (« رحلة الى أرض جومار ») .

الضياع ودور الحرب :

وهذا البطل هو بطل ساذج خالص النية وعاطفي في آن واحد : ساذج ـــ لانه ما زال يؤمن باحتمال تحقيق أحلامه وعدم التكيف مع الواقع الجديد ، وعاطفي ـــ لانه يحلم بواقع آخر ويقوم بتقدير الواقع وفق معايير يوطوبيا نفسية. و« الصهيونية الاشتراكية » في «حادثة الابه» ليست تجريدا فقط بل طريقة للحياة، ومعيارا وقاعدة للوجود، وحينما تزاح ، فان البطل لا يفقد فقط العبء الايديولوجي ، الذي يمكن التخلص منه ويمكن حله، بل يفقد كذلك احتمال الوجود نفسه ، لقد هدم عليه عالمه الحقيقي اليومي . وهو بطل ليست لديه الاهلية للوفاء بمطالب زوجته وبمطالب المجتمع والتكيف مع الواقع الجديد. ان الغربة والبيروقراطية (« الجنازة » ، و« حادثة الأبله ») ، والحواجز الفاصلة بين الانسان والآخر (« الزمن الذي انقضى ») ، والاتساق (« البدلة » ـــ مجموعة « حادثة الابله ») وقيم البيع (« الدرس ») ، تميز المجتمع الجديد ، الذي لا يتمكن الابله من مواجهتها . انه تائه ، ولا يتم خلاصه الا بفضل الحرب التي تنشب عام ١٩٥٦ . وهنا يطرح ميجد على المسرح احدى الابقار المقدسة لدى المجتمع الاسرائيلي ويحاول أن يذبحها : لقد انقذت الحرب البطل من الانتحار وأعادت اليه الاحساس بالانتماء : « ها ، ان الله كبير ، اي معجزة تلك التي حدثت فجاءت الحرب وأنقذتني من الموت » (حادثة الابله ص ٢٢٦) . انها النغمة التي ما زالت تميز الاتجاه السائد في الادب الاسرائيلي حتى اليوم : الحرب هي الخلاص من كل المشاكل التي تواجه المجتمع الاسرائيلي ، وهي الخلاص بالنسبة للفرد وما يعانيه من ضياع وتمزق وانسحاق ؛ انها الوسيلة الوحيدة لصهر الجميع في آتون النيران ولبث الاحساس بالانتماء لديهم بعد أن يكون قد تعرض للفقدان .

ان الموقف الحقيقي لحرب سيناء واحتلال غزة عام ١٩٥٦ ينعكس في الكتاب في مرآة محدبة . ومرة أخرى تظهر المعايير الاخلاقية لحركة الشباب ، وهي المعايير التي ليست على استعداد للتسليم بالاحتلال وقتل الفدائيين ؛ وباسمها يسأل البطل ، عما اذا كان هناك مبرر أخلاقي للحرب الفعلية ولوجود اليهود في فلسطين ، وهي الاسئلة التي تتكرر كثيرا ، كما سنرى فيما بعد ، في ادب « الموجة الجديدة » ، الاسئلة التي تطرح كل القيم ، التي كان من المعتقد انه لا مجال للشك فيها ، ولا مجال لمراجعتها ، للمناقشة من جديد ، على ضوء الواقع المريع الذي بث الضياع والانسحاق في نفس الفرد الاسرائيلي ، لتناقضه مع ما ربوه عليه من قيم ومثل في حركات الشباب الصهيونية ، قبل ان يجبروه على خوض الحروب ، وقتل الابرياء ، وسلب الاراضي ، وطرد الاهلين من ديارهم .

وهنا تنطوي القضية الرئيسية على الموقف المتناقض في الوجود اليهودي ، وهو موقف الخير الذي يبنى بواسطة الشر(١) . ان التناقض بين الرغبة في الانتماء وعدم القدرة على الاندماج ، نابع من التناقض بين قيم الماضي ، التي يحملها « الابله » الوحيد ، وبين قيم الحاضر ، التي يحملها المجموع . وهذا التناقض يتم حله في البداية بواسطة فاجعة قومية وأخيرا بمساعدة التجاء البطل وهروبه الى الحلم الاخضر لفلاحة الارض . وكلا

الحلين حلان وهميان والصراعات تبقى كما هي . ولكنها تعود وتظهر في تناسخ آخر في سلسلة الرمزيات في قصص مجموعة « الهروب » . فالابطال هنا هم صورة نموذجية للبطل الاسرائيلي المعتاد في الادب الاسرائيلي — تلاميذ حركة الشباب الاسرائيلي الذين يواجهون مشاكل وجودهم في حيرة ويعانون من الضياع . انهم يهتزون من الرحلة الى أرض « جومار » ، بلد النظام الشيوعي ، حيث يتعرض الابطال هناك لغسيل مخ في « برج عزمافت » او يقيمون في السجن الداخلي المفتوح الذي يدخلون اليه طواعية ولا يمكنهم التحرر منه ، لان حياتهم مع النخبة تناسبهم . وكذلك يهربون في سفينة من الطوفان ويكتشفون أن حرب الجميع ضد بعض قد عادت وظهرت كذلك في سفينة نوح الصغيرة تلك . واخيرا بطل ميجد ، الذي يسافر الى نيكارجوا لكي يتأمل مصادر معاداة السامية — ويدرك ان مصدرها أولا وقبل كل شيء في الكراهية الذاتية اليهودية ، وليس في كراهية الآخرين لليهود .

وعلى أي حال ، فان ميجد لا يتصارع مع المشاكل على مستوى انساني واقعي . ان الصراع الذي يعرضه هو صراع لشخصية « مجردة » مع التجرد . والسخرية (أحيانا) توجه بالاشارة الى أن البطل القديم في العالم الحديث قد فقد اتجاهه ، كما ان هذا العالم قد فقد مغزاه . ومعايير هذه القصص لا تختلف في أساسها عن معايير قصة « حدفا وأنا » ؛ ولكن نظرا لان الموقف أكثر تطرفا ، فان الصراع بين المعايير والظروف هو الآخر أكثر تطرفا وقوة . ان البطل لا يضع بطله في محك الاحسوال الحقيقية (الواقعية) او الملموسة ، ولذلك فان الصراع بينه وبين المؤسسات ، والافكار وعادات المجتمع يبقى صراعا مجردا .

وهذه القصص مبنية على شكل حلقات ، بينما الشخصية الرئيسية تمر بورطات المواقف المختلفة التي تمثل « أفكارا » او تجليات لظاهرة اجتماعية . ان هذه الرحلات الى « المدينة البيضاء » الخاصة بالابله او الى أرض جومار والى نيكارجوا او الرحلة في سفينة الفارين من النكبة العالمية لا ترتبط ببعضها في حبكة روائية بل تبقى منفصلة على شكل سلسلة من الاعمال النموذجية . وكل فصل من الفصول يمثل عينة اخرى من الشريحة الاجتماعية او الفكرية ، التي يجعلها المؤلف تتصارع مع بطله . وهذا البناء هو بناء تعليمي الى حد كبير . لقد جاء لاعطاء درس، ولاستقاء عبرة ، ولتكوين رأي . وميجد يريد بواسطة اماطة اللثام عن ضياع تلميذ حركة الشباب الصهيونية وربكته وفقدانه لهويته ، ان يكون « دليلا للحائرين » في هذا العصر . انه لا يصوغ بعد سيكولوجية الورطة بل يصوغ طابعها الاجتماعي ومغزاها الفكري . والصراع الذي يجري بين المجردات هو من الاشياء المميزة ، في هذه الحالة ، لهذا « الانتقال » ، وذلك لان المؤلف (ربما على غرار بطله) لا يدرك بعد الواقع الجديد . والتكتيك السوريالي في المعالجة ليس نابعا من الوعي بالمشاكل او من الصدام الجديد مع الانطباع الديني ، بل من فقدان مغزى الماضي وانعدام الرابطة والاتصال الحقيقي مع الحاضر .

اذن فان القاص في هذه المحاولة يتحسس طريقه نحو علاقة مع الواقع الجديد . وهذا التحسس نحو هذه العلاقة الجديدة مع الواقع الجديد يظل لعبة مع المجردات وصراعا مع الافكار عند ميجد ، الذي يمثل مرحلة الانتقال ، بينما نجد مثلا انه يصبح مواجهة مع الواقع وليس مع الافكار ويأخذ بعدا جديدا ، في أدب ابراهام بن يهوشع أحد أبرز ممثلي أدب « الموجة الجديدة » . ان الرمزية السوريالية عند ميجد تخترع مواقف اجتماعية وتتعامل معها ، بينما نجد ان بن يهوشع مثلا يجعل من هذه المواقف مشكلة اجتماعية واضحة (قضية الحارس في مواجهة الغابات — التي سنعالجها في مقال منفصل) هي أيضا بمثابة اسقاط لمشكلة نفسية .

التنوير الهجائي

كان التنوير الهجائي الذي يقترب من السخرية هو من الاشياء المميزة لفترة الانتقال ، بحيث نجد أن الكثير من الكتاب قد انتهج اللهجة الهجائية في انتاجه ، بعد أن كان قد اختط لنفسه منهجا مختلفا منذ بداية دخوله هيكل الادب . ومن الامثلة على ذلك ، دافيد شحر الذي بدأ بالكتابة الغنائية الى حد ما ، التي تغلغلت في الاركان المظلمة والخاصة في احياء القدس ــ « عن الاحلام » (١٩٥٥) واتجه في نهاية الخمسينات الى الكتابة الساخرة (في سياق تجربته الادبية حاول العودة مرة أخرى الى نوع أدبي آخر) . وروايته « شهر العسل والذهب » (١٩٥٩) ليست من الكتابات الممثلة للعصر ولكنها عرضية الى حد ما : من وجهة نظر معينة تستمر هذه الرواية من حيث انتهى ميجد في « حادثة الابله » . ان حمقى ميجد يظلون مخلصين لشريعة الماضي ، التي هي بمثابة شريعة حياة لمن يتمسكون بها . وحتى لو سلط سيف حاد على رقابهم ، فانهم لا ييأسون من القيم ، وعلى الرغم من المحن القاسية التي تمر بهم ، فان بلاهتهم تبقى بمثابة حاجز بينهم وبين عصرهم ، بينهم وبين الواقع الجديد المتناقض مع قيمهم البالية . ان « البطل القاص » عند دافيد شحر قد تخلص من نير « النبوءة » . لقد تحرر من النبوءات عن « العالم الاخضر » أو من رغبة الانتماء . والبطل القاص لا يقف عند جو الفساد الذي تفشى في هذا المجتمع في نهاية الخمسينات ، بل يسبح في مستنقعه مثل الضفدعة ، ويجني المنافع. وتحكي الرواية حكاية شاب قضى ثلاثة أشهر في أحد الكيبوتسات ثم تركه ليذهب الى القدس ويتعلم في جامعتها . وفي القدس يقيم في منزل عمته ويسرق خاتمها لكي يقضي شهر « عسل » مع خادمة المنزل في فندق فخم ، من تلك الفنادق التي يتردد عليها أبناء الطبقة الراقية . وتنتهي هذه العملية بخيانته « للخادمة » حينما اتيحت له امرأة أجمل منها ، وتخونه هذه المرأة بدورها حينما تجد رجلا أيسر منه ماديا. والبطل في هذه القصة يرفرف مثل الفراشة بين عوالم ثلاثة، يمثل كل واحد منها شريحة من الوجود الاسرائيلي: يوسفة ــ « الصهيونية » تلميذة حركة الشباب الصهيوني ، التي تمارس العهر كما لو كان واجبا قوميا ، وكاترين التي تبيع جسدها لكل من يطلبه ويدفع المقابل ، والتي تذهب في النهاية وراء ليون شبيتسماخر الى حيث توجد النقود ــ الى ألمانيا ، وسارة أنيت ، الغربية الارستوقراطية ، التي تجعل البطل يذوق طعم الحب الجسدي الشهواني المثير. وفي تنقل البطل القاص من سرير الى سرير ، يقوم بذبح كل الابقار المقدسة ويذبح كل مقدسات الوجود في الحياة الاسرائيلية : انه لا يدافع عن حياة الكيبوتس الوهمية التي يرى انها تشبه حياة الثكنة العسكرية (« شهر العسل والذهب » ص ١٦) ، ويكفر بالقيمة الاخلاقية للعمل اليدوي (ص ٤٠) ، ويتمرد على القومية اليهودية (ص ١٢٣) ، وينفر من العمل المكتبي المبهر (« الموظف زيرح تدريخ » ص ٧٩ ــ ٨٦) ، ويشمئز من السماسرة والوسطاء بشتى أنواعهم (شترويتمان وبرودسكي العجوز ، ص ١٦٨ ــ ١٦٩) . انه يرفض كل القيم التي قامت عليها الحركة الصهيونية ، والتي هي عماد الحياة الاجتماعية في اسرائيل . وشخصية البطل القاص تحاول ان تعوي مع الذئاب وأن تنحط مع المنحطين . والرواية في حد ذاتها أقل أهمية كعملية تفكير منها كظاهرة اجتماعية ثقافية تميط اللثام عن مراحل الانتقال الايديولوجية والادبية البنيوية من الادب الجاد (تبعا لمعايير الالتزام التي تضفي عليه صفة الادب المجند) القاطع في تقديراته الخاص « بجيل البلاء » الى الفترة الحديثة ، التي فقدت يقينها وارتكازات ثقتها وأصبحت لا تعرف ما هو الحق وما هو الكذب . ان شحر يرفض بالفعل شخصية فليكس كارول الاسرائيلي ، الذي يرتقي الى أعلى درجات السلم الاجتماعي الاسرائيلي ، كما يرفض المجتمع الذي يفتح أبوابه أمامه . وهذا الجمع بين الفاسد والمدمر للفساد ، الذي يكيل

للمجتمع بالكيل الذي يكيل به المجتمع ، هو من الامور المميزة للكتابات الادبية في أوقات الازمات . وتلك الشخصية الآخذة في التحرر من أي صلاحية ومن قيم المجتمع الاسرائيلي (على عكس « الابله » الذي يمسك بهذه الصلاحية كامساك الغـــريق بالقشة) هي شخصية مميزة للتحول الذي سبق « الانتقال » وأتاحه .

ان الانتقال من جيل الى جيل يحدث اذن في البداية في أدب « جيل البلاد » . ففي « أيام تسيكلاج » يثور المؤلف بواسطة الافكار التأملية لابطاله ضد القيم التي تظهر في أعمالهم . وفي « لأنك عار » تتمرد « الأنا » ضد قيم الجماعة باسم « مبدأ الأنا » دون ان تصل الأنا الى بعث ذاتي جديد . ويحطم ميجد الادوات الادبية ويبني أبنية جديدة عصرية ، لكي يضع بطله المرتبط بالماضي في مواجهة مواقف الوجود المعبرة عن الافكار المختلفة ، التي تعكس الواقع الاسرائيلي الجديد بكل تخبطاته .

ودافيد شحر ، على عكس ميجد ، وشامير ، ويزهار ، يخلق بطلا يصارع المجتمع بوسائل المجتمع : ان ما يفسده المجتمع يقوم هو بافساده أيضا . ولكن المؤلف على الرغم من اشمئزازه من الواقع الموجود ، فانه لا يثور عليه ولا يعرض الواقع الذي يود رؤيته . ولذلك فان انتاجه يعطي تعبيرا عن البلبلة والضياع وعن فقدان الاتجـــاه في الصياغة الساخرة للعالم .

فنحاس ساديه و « الحياة كمثال » :

لقد دخلت « الموجة الجديدة » الى الادب الاسرائيلي من ثلاثة مداخل أخرى : بالتأكيد المتطرف لمبدأ الأنا ، وبالالتجاء الى ذكريات الطفولة المرتبطة بعالم يهودي آخر — عالم ما قبل الفترة التسبارية ، وبصياغة الاركان المظلمة في المجتمع ، التي لا تقف في مركز الحياة الاجتماعية بل في اطرافها وتتيح عرضا لشخصيات فريدة . ومن الكتب المهمـــة الممثلة « للموجة الجديدة » كتاب فنحاس ساديه « الحياة كمثال » . ان هذا الكتاب هو كتاب اوتوبيوجرافي يشكل نقيضا حادا للبيوجرافيا النموذجية لابناء « جيل البلاد » . ويقول فنحاس ساديه في مقدمة روايته ، لتأكيد الطابع الخاص لهذا الانتاج الادبي : « ان هذا الكتاب هو عن ذاتي ، وعن انسان منعزل ، يعيش مخفيا وجهه ، في صمت ، ويرتدي ملابس رمادية . وأنا أحاول ان اكتب هذا الكتاب (حسب قول عالم الاسرار) ليس وفقا لرؤية الاشياء ، بل وفقا للروح والمفهوم . وأنا احاول أن اكتبه ليس بواسطة الفـــن المزيف للمثقفين ، بل بواسطة فن السخط واحساس القلب ، والدموع ، والدعـــابة والاشواق ، والقلق والذعر . انني اكتب عن الحياة كما لو كنت اكتب عن مثال ، عن حلم » . وكتب كذلك يقول : « اذن فانني لا أتحدث عن أي شيء خارج نطاق التجـــربة الداخلية خارج الروح ، وخارج كينونة وجود الفرد — ولست أتحدث عن مجتمع ، وعن علاقات ، وعن تاريخ ، وعن حكمة حياة ، وعن الآلهة ، وعن كلاب جهنم . لقد وقعت الحروب وتوقفت ، وأثارت أعمال الدولة الغبار ثم كنزت ، وما تبقى فقط هو لغز الحياة الشخصية ، الذي لا يتكرر ، حياة الانسان الفرد في مواجهة الرب الواحد . لهم مخصص كتاب « الحياة كمثال » ، ١٩٦٨ ، الطبعة الاولى : ١٩٥٨ — ص ٤١٤ .

اذن فالادب ، حسبما يحدده ساديه ، ليس من وظيفته أن يعرض هذا الواقع أو عمل الابطال في المواقف الاجتماعية ، بل وظيفته هي التعبير عن الفرد . والمبدأ الفردي يختلف اختلافا تاما عن وجهة النظر الاجتماعية التي تتجلى على سبيل المثال في « المانيفست » الادبي لجماعة « جيل البلاد » (« مع جيلي ») الذي طبع في « حقيبة الاصدقاء » ، والذي أشرنا اليه في مقالنا عن أدب حرب ١٩٤٨ (شؤون فلسطينية عدد ٩) . ان هذا المانيفست الشخصي قد كتب من خلال احتقار عميق الى حد ما للقارىء المحتمل (ص ٤١٥ — ٤١٦)

ذلك البورجوازي الصغير ، الذي يريد المؤلف أن يفاجئه باعترافاته ، ويعرض أمامه حياته النفسية كنقيض لحياته المنظمة ويثبت حق الفنان في أن يعيش — بكتابته . ومن الناحية الثقافية هناك مسافة شاسعة بين فنحاس ساديه وبين رجال « جيل البلاد » . انه يعود في بعض الموضوعات الى المصادر الثقافية للادب العبري في جيل بياليك . وما أخذه كل من برينر وبرديتشفسكي ملء حفنتيهما من نيتشه ، أخذه ساديه هو الآخر . وعلى غرار انجذاب برينر الى شخصية يسوع وطرحه لمواقف مشابهة لتلك الواردة في « العهد الجديد » ، فعل ساديه ذلك . انه يؤكد أنه في طفولته قد جذبته الكنيسة (ص ٢٣) ، ومنذ ذلك الحين وهو يستوعبويفسر حياته بواسطة الاساطير المستقاة من « العهد الجديد » .

ان الاعتراف الاوغسطيني — الذي يتحرك بين الخطأ والتوبة ومن التوبة الى الخطأ، ومن نيران جهنم الى نعيم الحب السماوي والسعادة — هو اعتراف مسيحي في مضمونه : ان ساديه يشمئز من خطاياه ويستمتع بها ، ويشتاق الى الحب السماوي ويفسر حياته كتحقيق لرؤى من العهد الجديد . ان اصدقاءه اليوشه وماريان ليسوا الا صورا متناسخة من اليعازر الفقير وتولاعت يوحنا (سراج الليل) ؛ ولندن هي القدس الجديدة وباريس هي بابل المدينة الخاطئة . وفي أيام الحرب نفسها (حرب ١٩٤٨) يظهر له تمثال العذراء ويسبب له شعورا دينيا وانارة روحية (ص ١٦٨ — ١٦٩) . وفي أثناء المعارك ينفعل بصورة خاصة من راهبة فرنسية تقرأ في الكتب المقدسة بترنيم خاص بينما المدافع تهدر (ص ١٧٢ — ١٧٣) . ويبدو بالذات ، ان هذا التناقض الذي بين جو حرب ١٩٤٨ والتجلي الديني ، هو الذي يكشف تلك الهوة العميقة التي بينه وبين رفاقه من ابناء « جيل البلاد » . ان المبدأ الفردي لا ينساق وراء الاحداث ويصوغها ، بل يقف خارجها ويفرض طابعه عليها (وليكن هذا الطابع كيفما يكون) . والاوتوبيوجرافيا ليست وصفا لما يحدث وما يجري في حياة الانسان الخارجية ، بل هي وصف لمشاعره الدينية . ومن يدرك فقط هذا الفارق بين « الاجيال » (او من الاحسن ، ان نقول ، المدارس) يمكنه ان يدرك الفارق بين اوصاف الحرب عند ساديه وأوصافها لدى رفاقه. ان المراحل الخارجية للاوتوبيوجرافية لا تختلف كثيرا عن قصة حياة موشي وولف ، بطل « الحساب والنفس » لحانوخ برطوف (١٩٥٣) — على الرغم من بعض الفروق البيوجرافية . ان محطات حياة فنحاس فيلدمان هي : لامبورج ، ومجدبئيل ، وتل ابيب، وتل لتفينسكي ، وشاريد ، والقدس ، ولندن ، وباريس ، ومرسيليا ، وطبرية ، والقدس . ولكن هذه المحطات لا مغزى لها ، وذلك لان المعترف لا يحاول ان يصف « المحطات الجغرافية » في التطور بل « طريق الآلام » الذي مر به .

ومن ناحية أخرى فان هذا الاعتراف هو اعتراف رجل بالغ يحكي وفق طريقته الخاصة عن مراحل مختلفة في بلوغه وطريقه هو « طريق الآلام » الخاص بابن أسرة مهدمة ، طفل منعزل ، ومنطو ، يريد أن يكون مريضا او مجنونا ؛ ولا يستطيع أن يندمج في الحياة « المدنية » ويتعيش من أي شيء يصل الى يديه . و« طريق الآلام » هذا مليء باللقاءات مع النساء . وهناك من النساء من يرفضه (مثل ياعيله) ، وهناك من يقربنه اليهن (مثل عيده وصفا) . وكل لقاء مع احدى النساء يختلف عن غيره . ان سارة لا تشبه آيلة ولا تشبه آيلة ابيجيل وثلاثتهن لا يشبهن التي تزوجها لفترة قصيرة من الزمن . وما هو مهم في طريق الآلام والحب ليس هو اللقاء مع النساء . ان هذا الطريق ليس طريق آلام وحب لدون جوان في جهنم او في السماء . ان هذه عبارة عن تناسخات للبطل في هذا العالم ، هو في الوقت نفسه بطل في علم النفس . وخطوات حياته الخارجية والداخلية ليست مستشقة . وعلاقاته مع النساء ليست « حياة » بل « مثال » . ان

بعلة وآيلة هما ظواهر مختلفة من الحب السماوي ، الذي يحاول البطـــل احيانا ان يشوهه وان يحققه وفق طريقته وفي علاقته به يمر بمشاعر عميقة من الخطأ والندم ، والخلاص والصفح . وعيدة ، وصفا وأبيجيل هن ظواهر مختلفـــة « لبنات الارض » والبطل بواسطتهن يقيم علاقة مقدسة نحو الخطأ والارض . ان النساء لسن موجودات في حد ذاتهن وهن تفسير ومثال لحياة البطل القاص ، وهن كومـــات نيران في جهنمه الشخصي او مراحل في السلم الواصل الى الارض او الى السماء . والقاص البطل هو شاعر ، وشعره وحياته هما من قطعة واحدة : الشعر نابع من الحياة والحياة هي بمثابة شعر وكل فصل من فصول حياته هو مصدر آخر يستقي منه شعره . وكما ان حياته متشابكة مع شعره ، فان الحلم والواقع فيها يستخدمان في تداخـــل . وهذا التداخل الغريب للتجربة الانسانية ، والاحلام ، والتأويل النبوئي والغامض ، والشعر والمواعظ الدينية يكشف « الأنا » وعالمها وهو تداخل ذو تعبيرية هائلة القوة .

وقد كان تقدير « الأنا » في انتاج ساديه ، وهو الانتاج الرومانسي روحا والتجريبي من حيث التعبير ، بمثابة تجديد مطلق في أدب الجيل الفتي في اسرائيل .

« قيصر » ودافيد شحر

وقد اتجه دافيد شحر ، الذي يعتبر منتميا الى « جيل البلاد » من حيث العمر ، ويعتبر رجل فترة الانتقال من حيث طابع انتاجه الادبي ، الى منحى آخر . ففي « شهر العسل والذهب » حاد عن الطريق الذي بدأ به في « عن الاحلام » وانتقل الى النقد الاجتماعي انساخر . وفي « قيصر » (١٩٦٠) عاد الى الكتابة التجريبية البيئية المميزة له . وانتاج شحر يتحرك بين الشوق الى الذكريات وبين عرض « لا بطل » جديد ، يبحث له عن « اله » صغير خاص به . اما ساديه فقد كان يبحث عن « اله كبير » في الحقول الاجنبية وفي ثنايا النفس . وقد عرض شحر شخصيات صغيرة ، لا تصبو الا الى اطار صغير من الحياة ، يكون كله ملكا لها . وهؤلاء الابطال هم على هامش المجتمع وليسوا في مركزه ، أبناء الاحياء الاورشليمية (وفي غالب الاحيان آباء وليسوا أبناء) وليسوا من أبناء حركة الشباب الذين يعيشون في الدائرة التي خلقتها الظروف لهم (الكيبوتس ، والجيش .. الخ) . والمكانة الضئيلة « للبطل » الادبي عند شحر تتضح بصفة خاصة في شخصية « يائير » بطل قصة « قيصر » (التي على اسمها سميت المجموعة القصصية الصادرة عام ١٩٦٠ والتي تحتل القصة نحو ثلثها) . انها شخصية برينرية (نسبـــة الى حييم برينر) لانسان منكود الحظ ، يعيش على هامش المجتمع ويفشل في كل شيء ، ولكن فشله يخفي بين طياته نجاحه . وانجازاته المتواضعة في حرب الجميع ضد الجميع ، في مقابل النجاحات الهائلة التي يحققها أخواه اليعازر وعاموس، هي التي تمنحه انفراديته، و« كلب الشوارع » ليس الا « القيصر » الحقيقي ، الذي لو شاء لحصل على « شنهاب » فتاة أحلامه . ولكنه يمنع نفسه من الخير طواعية ، ويفضل الاخلاص لاخيه رفيقه ـــ عن « النجاح » الوهمي . وقوة المنكود الحظ تكمن بالذات في التخلي عـــن أي ملكية او قضية . وبفضل هذا التخلي فقط يتحـــرر من تلك المعايير التـــي تحدد ان النجـــاح « الاجتماعي » هو الغاية التي يصبو اليها الانسان . وقد تجلت وجهة النظر هذه كذلك في قصة « موت الاله الصغير » (التي طبعت في مجموعة حملت هذا العنوان عام ١٩٧٠ ـــ دار نشر شوكن) . لقد تحول بطل القصة « الاله الصغير » من عالم ناجح الى باحث عن الرب ، أبعد عنه كل معارفه وأصدقائه الى أن مات موتا مفاجئا وغامضا .

والشخصية الثانية التي تظهر في هذه المجموعة (وفي سائر مجموعات شحر) هي شخصية ابن اليشوف القديم ، الذي يختنق في بيئته ويحاول أن يقتحم اطاراتها ويبيح المحظورات . وفي قصص مثل « عن الخطايا الصغيرة » و« بينيك يطلب يد الفتـــاة

سيمون » و« العجوز وابنته » يواصل دافيد شحر تقاليد القصص التي تدور عن الصدام بين الغريزة والقانون في حياة اليشوف القديم في فلسطين . وهذه التقاليد لها بالطبع جذور في الادب العبري الاوروبي ، وعلى الاخص في قصص ميخا يوسف بَرديتشفيسكي. ان ابطال شحر يريدون قطع الحبل الاجتماعي والثقافي المربوط حول رقبتهم : لذلك فان هناك منهم من يخونون زوجاتهم وهناك من يهربون الى ما وراء البحار . وكل من الخائنين والهاربين يريدون حياة جديدة . والمؤلف (بواسطة بطله القاص) يضيء هذه الشخصيات بضوء ايجابي، على اعتبار ان التمرد هو الطريق الوحيد الذي يتيح للانسان امكانية الوصول الى ذاته .

وفي قصة « قيصر » التي تسمى باسمها مجموعة قصص شحر ، توجد حبكة روائية أولية يطرح فيها المؤلف شخصية منكود الحظ ملبر والناجح ملجو. وفي هذه الحبكة يتخلى البطل عن زوجة أخيه (حسب الشريعة اليهودية من المفروض ان يتزوج الاخ زوجة اخيه بعد وفاته) ، وهنا تنتقل الروابط الاجتماعية الى مجال العلاقات بين كلبين : ان نجاح يائير لدى شنهاب يخضع للتنوير من وجهة نظر نجاح الكلب قيصر لدى كلبته مولى كلبة شنهاب ، ويتم تنوير التخلي كذلك هو الآخر بواسطة المقارنة . فكما ان يائير قد تخلى عن شنهاب وسجن (حسب الشريعة اليهودية يسجن من يتخلى عن أرملة اخيه وتقوم ارملة اخيه بخلع نعله والبصق على وجهه ، ويسمى بيته بيت مخلوع النعل) ، فان الكلب قيصر هو الآخر يتم تسليمه طواعية لمقر سجن الكلاب (ص ١٦٣ — طبعة ١٩٧٠ ضمن مجموعة « شارب البابا ») .

وفي « عن الخطايا الصغيرة » نجد العالم وهو في حالة تنوير من وجهة نظر فتى يتذكر زيارته لبيت عمه زيرح ، الذي كان وحيداً وفريداً ومختلفا عن كل سائر اقاربه . وفي الفصول الاولى من القصة نتابع ذكريات الفتى الذي يصف الجو العام في حوش عمه والعلاقات التي بين العم وزوجته وأبنائه (مجموعة « قيصر » ص ٨٥ — ١٠٢) . وفي الفصول الاخيرة تصبح زاوية الرؤية اكثر موضوعية (١٠٣ — ١٢٠) حيث يحكي حكاية العم دون أن نشعر بوجهة نظر الفتى . فبداية القصة عبارة عن زخرفة نصف سلوك الابناء المختلفين ، الذين يحلون مشاكلهم كل حسب طريقته . وفي سياق القصة وفي نهايتها — يصف خيانة العم لزوجته . وهنا لم يجد المؤلف توازنا صحيحا بين الاسس « الخاصة بالذكريات » وبين البناء الوجودي .

وهذان الاتجاهان المميزان لقصص شحر : الشحنة الخاصة بذكريات الطفولة والحاضر من ناحية ، والرغبة في تنظيم هذا العالم وتفسيره من ناحية ، مميزان لهذه المجموعة ولمعظم قصص المؤلف ، التي تمتاز بلهجة ساخرة حزينة وأصيلة الى حد ما ، وهي اللهجة التي نلمسها كذلك في « هيكل الادوات المحطمة » (١٩٦٩ — دار نشر الكيبوتس الاقليمي الفتي — تل أبيب) . وهذان الاتجاهان ، هما اللذان اقتحما حدود « الآن وهنا » المميزة للغاية لادب « جيل البلاد » . لقد بدأ أدباء « الموجة الجديدة » في الالتجاء الى مصادر جديدة لكي يجددوا لانفسهم ركيزة جديدة . ومن الممكن ان نجد نماذج كثيرة ممثلة لهذا الاتجاه في « مرحلة الانتقال » لدى كثيرين من الادباء الذين مهدوا لظهور « الموجة الجديدة » ، وخاصة ي. كينز ، وبنيامين تموز وحانوخ برطوف ويتسحاق اورباز ، وأهارون أمير وغيرهم ممن يظهر لديهم بوضوح المزج بين عالم الذكريات الطفولية وبين عالم الغرائز .

اللغة ، الفجر ، الدم

علي الخليلي

إذا انفطرتْ قُبّراتُ البلادِ البعيدةِ صوتاً يوحّدُه
العشقُ والوجعُ الصَعبُ ، كانت بلادُكَ تحت
لساني مرارةَ أنْ يبزُغَ الصوتُ ، تَنْبجسُ العينُ ،
مأثرةً ...
كلما عاشرَ الفقراءُ الصعاليكُ حُزني ، وثوّرَني
في الزمانِ البخيلِ مخاضٌ ، أشدُّكَ جذْعاً ،
فتخذُلُني . كلما سَقَطتْ مُدُنُ الوهمِ ، تَنْهَدُ بي
ملكاً من جديدٍ ، تعلّلُني بالسلامةِ ...
آنَ ابتدأتَ ، انتهيتَ .. المدائنُ عاقرةٌ ،
والتواريخُ ، خُضتُ إليكَ مضائقَ ظنّي ، الجنونَ ،
المشانق .. لا جذوةٌ في المقابرِ .
آنَ الغزالةُ مذبوحةٌ ، جثّةٌ فلّعتْها المهاجعُ .
آن انبذرتُ لأعناقِ رفٍّ العصافيرِ ، جائعةً ،
دونها عُنُقي ، نقّرَتْ في العيونِ ، الضياءَ الوحيدَ ،
البذارَ ...

لماذا تمزّقُ رفَّ العصافيرِ ، تحبلُ بالموت ..؟!
إنيّ أقيءُ الموانيءَ في لحظةِ القمعِ ، والمدُنَ القاتلات ،
أبارحُ خوفَكَ ، جيفَتَكَ ، الردّةَ ، السُبُلَ الموصَدهْ .

فَرّتِ الرومُ ..؟! إنّكَ لم تحصد الزرعَ !
أقبَلت الرومُ ..؟! لم تأتمنّي !
تَصِرُّ ، وتُقبلُ ، تُقبلُ ، تُقبلُ ...

هذا المدارُ القديمُ ، القديمُ ،
لماذا تكرّرُ وحلَ الأساطير ..؟!
تنزعُ جلدي خرائطَ زيفٍ ومهزلةٍ للبلادِ الشهيدةِ ؟!
هـا ... ملحماتِ المذابح ،
لا تُنقذي في الكواليس رأسي !
وفي سقطاتِ الذراعِ البليدة ...
مُتّسعٌ وجعي الصعبُ ، عشقي ، مخاضي ، الجنونُ ، المشانقُ ...

« ليلى » تغادُر « قيساً » وراء الظنونِ ،
وتنفضُ ذاكرة البيد ،
تسحبُ منديلها الأبيضَ المستكين على مُقلتيهِ ..؟!
وتنكرُه ..؟!
والقبائلُ تَنْظِمُ أنسابها في العصورِ الكسيحةِ ،
تقرأ وَجْهَ السُطوحِ ،
وترقُدُ .. لا فضةٌ أمطرت في المداخلِ ، لا ذَهباً ..
أو عناقيدَ حُزنٍ أصيلْ .

يُداهمُها المستحيلْ ..؟!
تكرّسُ ميراثها للرياحِ ..؟!
وفي قاع جمجمتي ، الخيلُ تصهلُ ، حيناً ،
وتندفعُ الخيلُ ، حيناً ..
تجوسُ المحيطاتِ ، يُنْبِىءُ عنها الذينَ تبعثر
في الطرقات ، المنافي ، السجونِ البلادِ الشهيدة ،
دَمُهُمُ ، شجراً ولغات .

بيت الجنون : مسرحية فلسطينية رائدة

ريتا عوض

عندما ندرس الادب الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني فنحن لا ننظر اليه من حيث هو ظاهرة منقطعة عن التيار العام الذي انصب فيه الادب العربي الحديث ، بل من حيث تكونه داخل الاطار الذي يحتضن الادب في الاقطار العربية الاخرى . لكن عاملا مغايرا للعوامل التي يتألف منها الادب العربي الحديث قد يدخل ، احيانا ، في بنـــاء الاعمال الادبية الفلسطينية تحت الاحتلال ، وهو تأثر هذا الادب بالجو الثقافي العام في فلسطين المحتلة ذاتها .

لعل هذه النظرة الشاملة تساعدنا على تعليل بعض الظواهـــر الادبية في فلسطين المحتلة ، فندرك مثلا علة تقدم شكل من أشكال التعبير الفني على الآخر . ولا أتحدث هنا عن القيمة الفنية للاعمال الادبية لان الادب الفلسطيني ، برأيي ، لم يدرس بعد دراسة جدية تحله مكانه الحق بين الاعمال الادبية في العالم العربي . لكنني أقصد التوجه الى شكل من أشكال التعبير الفني دون الآخر . فالاعمال الادبية التي وصلتنا مـــن الارض المحتلة ، كانت في معظمها شعرا . ولم يبلغنا سوى عدد قليل من الروايات والقصص القصيرة . ولا أعرف سوى عمل فني واحد في مجال المسرح هو مسرحية توفيق فياض(١) **بيت الجنون**(٢) . ولعل أحد أسباب اندفاع الادباء العرب في فلسطين المحتلة الى التعبير بالشعر هو أن حركة الشعر الحديث في العالم العربي كانت أكثر الفنون الادبية تبلورا لما يدعمها من تراث شعري عريق . بينما ظلت الرواية والقصة القصيرة اقل تبلورا . أما المسرح العربي فما زال في بداية البداية .

يهمني في هذا المجال أن ادرس هذا العمل المسرحي الفرد الذي وصلنا من الارض المحتلة . أن العرب في فلسطين يعانون فقرا مؤلما في مجال الفن المسرحي ، حتى انهم لا يملكون مسرحا . ولا يصعب علينا أن ندرك السبب في ذلك . فالسلطات الاسرائيلية لا يمكن ان تسمح ببناء مسرح عربي يغدو مركز تجمع يلتف فيه العرب حول اعمال فنية تدين الاحتلال الصهيوني وتدعو الى المقاومة . وقد أحس المواطنون العرب في ظـــل الاحتلال بافتقارهم الى المسرح . يقول توفيق زياد : « ان الاقليـــة العربية لا تملك مسرحا ... هذه هي الحقيقة المرة ... وهذه هي احدى وصمات العار المختلفة في جبين الرجعية الحاكمة ، واصحاب سياسة الاضطهاد القومي الذين يعرقلون ، وينظرون بقلق وعدم رضا ، الى كل خطوة الى أمام يقطعها المثقفون العرب في اسرائيل ، في مجال الابداع الفني والثقافي ، وذلك اثباتا لنظريتهم القائلة ان العرب شعب قاصر فكريا »(٣) .

أضف الى ذلك ان المسرح الاسرائيلي نفسه يعاني « أزمـــة في الموضوع والتعبير الفني »(٤) على حد تعبير توفيق زياد ، فينتفي وجود تجربة مسرحية يفيد منها الاديب والفنان العربي في ظل الاحتلال . لكن المسرح الاسرائيلي يقدم من حين الى آخر اعمالا مسرحية عالمية ، او تزور البلاد فرق مسرحية اجنبية(٥)، الامر الذي يتيح للمثقف العربي أن يعيش أحيانا في جو مسرحي . ولعل مسرحية توفيق فيـــاض **بيت الجنون** كانت ،

الى حد بعيد ، وليدة لقاح بين تجربة فياض الذاتية والقومية في ظل الاحتلال وما يدعم هذه التجربة من رواسب صورية تراثية في لاوعيه وبين تجربة فنية وفرها له ذلك الجو المسرحي في الارض المحتلة . وقد وجدت فيما قمت به من بحث حول هذا الموضوع ان توفيق فياض شاهد في فلسطين المحتلة مسرحية برازيلية بعنوان **ايدي يوريديس**(٦) قبل كتابة مسرحيته **بيت الجنون**(٧) .

وقد اهتممت هنا بالبحث عن المؤثرات التي أرجح انها وجدت صدى في نفس توفيق فياض وظهرت في **بيت الجنون** لان هذه المسرحية ، كما يبدو لي ، عمل ادبي متفرد ليس في الادب الفلسطيني فحسب بل في مجال المسرح العربي . ولا يعني تأثر فياض بمسرحية برازيلية انه « سرق » او « نسخ » او « حاكى » . بل ان صورا ادبية معينة عبر عنها بدرو بلوخ في **ايدي يوريديس** ايقظت مثيلات لها في اعماق لاوعي فياض وتجسدت عملا فنيا جديدا يحمل صورا مشابهة او معادلة للصور التي يحملها العمل الفني الاول .

من هنا يمكننا ان ننظر الى الاعمال الادبية في انحاء العالم جميعا على مر العصور ليس فقط من حيث امتدادها عموديا في الزمان بل من حيث امتدادها افقيا في المكان . لان صورا معينة تتكرر في الاعمال الادبية الكبرى في كل مكان وكل زمان فتشكل اطارا يضم في داخله الادب . واذا تساءلنا عن سبب تكرار هذه الصور وجدنا انهـا حقائق نفسية انسانية هاجعة في اللاوعي الجماعي اطلق عليها العالم النفساني كارل غوستاف يونغ اسم النماذج الاصلية . وقد وجدت هذه النماذج الاصلية تعبيرا عن ذاتهـا في صور حضارية مختلفة عند الشعوب جميعا منذ فجر التاريخ وما زالت تتكـرر في الاعمال الادبية الكبرى حتى اليوم . لذلك يهدف النقد الادبي الذي يعالج النماذج الاصلية الى كسر طوق الزمان والمكان اللذين يغلفان العمل الادبي ويحددانه ، فينطلق النقد بالعمل الادبي الى ذرى انسانية عندما يكشف ارتباطه بالحقائق المطلقة التي تختزنها النفس الانسانية .

يقول يونغ انه كما تترسب تجارب الفرد في لاوعيه الفردي تترسب التجربة الانسانية العامة في اللاوعي على مستواه الجماعي . وتظهر الرواسب الصورية الفردية في الحلم بينما تظهر الرواسب الصورية الجماعية في الاسطورة . من هنا كان حلم الفرد اسطورة الجماعة . وكلما عمق الاديب تجربته ووسع رؤياه غاص في اعماق اللاوعي واستطاع ان يبلغ الى حقيقة النفس الانسانية الكلية ويكتشف النماذج الاصلية . وتكتسب النماذج الاصلية في طريقها الى العبارة خصائص تلتقطها من المستويات المختلفة للاوعي ، وهي كما عددها يونغ : المستوى العرقي والقومي والقبلي والعائلي والفردي . فيظل العمل الادبي يحمل خصائص ذاتية محلية بالاضافة الى خصائصه الجماعية الانسانية . وهذا احد الادلة على اصالة العمل الادبي .

وقد أصبح اليوم ما يدعى بالنقد الاسطوري او النقد النموذجي الاصلي مـن أهم المناهج النقدية في العصر الحديث . ويعد الناقد الكبير المعاصر نورثروب فراي في كتابه **تشريح النقد** من أبرز مشرعي هذا المنهج . وقد عرف فراي الادب بأنه اتحاد الطقس والحلم في صيغة كلامية مستفيدا بشكل خاص من فريزر ويونغ .

لعل هذه المقدمة كانت ضرورية من حيث هي تمهيد لدراسة **بيت الجنون** . ولعلنا الآن نفهم لماذا لم تكن **بيت الجنون** تقليدا او نسخا **لايدي يوريديس** . فقد استطاع توفيق فياض ان يصهر تجربته الذاتية والقومية في التجربة الانسانية الكلية ، فكانت مسرحيته صورة لمأساة الانسان الفلسطيني في وطنه المحتل كما هي مأساة كل انسان . لذلك كان فياض اصيلا : لم يستعر تجربة غيره بل استطاع ان ينبه نماذج اصلية هاجعة في لاوعيه

وأن يكسبها خصائص قومية محلية . فغدا عمله الادبي عينيا مطلقا يضرب جذوره في الواقع الحاضر ويتطلع الى الافق الانساني البعيد .

تتألف مسرحية توفيق فياض القصيرة من فصلين ، وهي مونولوج ، اذ تدور حول شخصية واحدة هي سامي مدرس الادب والتاريخ . ولعل عنوان المسرحية يحمل دلالة كبيرة . فالجنون موضوع ذو اهمية خاصة في تاريخ الحضارة الانسانية ، وجد التعبير عن نفسه منذ الحضارات البدائية حيث كان للكهان والاطباء المشعوذين الذين ادعـــوا القدرة على الاتصال بالقوى الغيبية أهمية خاصة وكانوا يسمون بالمجانين . كذلك أعلى الاغريق من أهمية الجنون فعده أفلاطون في كتابه **فيدراس** هبة من السماء فكان جنونا الهيا . كما عرف التراث العربي عددا كبيرا من المجانين حتى تجسدت هذه الصورة في أسطورة مجنون ليلى الذي أصبح فيما بعد ـــ في الادبين العربي والفارسي ـــ رمزا للمتصوف الذي يبحر بروحه الى دنيا الله وتفنى ذاته الصغرى في الذات الكلية الكبرى، ويخلق لاوعيه عوالم خارقة يرفضها المنطق . وظلت صورة المجنون تتكرر في حضارات مختلفة وعصور متباينة حتى وجدت التعبير الامثل عن ذاتها في العصر الحديث في الحركة السريالية التي ظهرت في فرنسا بعد الحرب العالمية الاولى . فقد رأى السرياليون ان المجانين ـــ وهم المنحرفون عن الحقيقة الخارجية ـــ يعرفون عن الحقيقة الداخلية أكثر مما يعرف العاقلون ، وهم يستطيعون ان يكشفوا للعاقلين حقائق لا يمكن النفاذ اليها بدونهم . وجعل السرياليون للجنون أعيادا فاحتفلوا عـــام ١٩٢٨ باليوبيل الذهبـــي للهستيريا .

كانت مسرحية توفيق فياض بيتا للجنون لان الشخصية الوحيدة فيهـــا ، سامي ، يعيش وحيدا في ظل كابوس مرعب ، لذلك فهو يحاول ان يهرب من عالم الواقع الفاسد الى عالم ما فوق الواقع الذي يبنيه لاوعيه . ويتحول تداعي الكلام تداعيـــا حرا الى هذيان يجسد مأساة سامي فيعانق الماضي والحاضر والمستقبل . وتفوّر رؤياه نماذج أصلية مختزنة في أعماق لاوعيه فتخرج أساطير كررها الانسان في كل مكان عبر العصور . من هنا كانت هذه المسرحية اقرب ما تكون الى القصيدة : فالشعر ـــ كما يقول اليوت ـــ يميل نحو الدراما والدراما تميل نحو الشعر .

تعبّر **بيت الجنون** ـــ من حيث البناء والرمز ـــ عن اسطورة الموت والانبعاث ، وهي الاسطورة الاساسية في تاريخ الحضارة الانسانية . فقد ظهرت في الديانات الوثنية في المناطق المحيطة بشرقي البحر المتوسط ، فكانت شخصيات تموز وأدونيس واوزيريس وآتيس صورا مختلفة للاله الميت المنبعث . كما لعب اورفيوس عند الاغريق ـــ بهبوطه الى العالم السفلي وصعوده ثانية ـــ الدور ذاته الذي لعبه اله الخصب الميت المنبعث . وقد أكدت المسيحية أهمية نموذج الموت والانبعاث فجسدت حقيقة انسانية مطلقة هي توق الانسان الى اكتساب الحياة الابدية وأعطت قيامة المسيـــح أملا بالانبعاث لكـــل انسان .

ولعل الاله الذكر لا يلعب الدور الاساسي في أسطورة الموت والانبعاث ، فتغدو الالهة الانثى ، أمه ، حجر الزاوية في البناء الاسطوري ، وتكون في الوقت نفسه عروسا له . ويكون العشق محورا ترتكز اليه الاسطورة : فيتصل الاله الذكر بالام العروس ويخصبها فيتم فعل الخليقة وتخضر الحياة في العرق الذابل . وتظل المرأة الرمز المحوري في الصور الحضارية المختلفة : فتلعب العذراء مريم ام المسيح دورا أساسيا في الدين المسيحي ، ويتخذ المتصوف المسلم صورة المرأة رمزا لله ، ويفني جسده في التوق اليها ، لتتوهج روحه وتسمو اليها وتفنى ذاته في ذاتها . فكانت ليلى صاحبة قيس بن الملوح ، ولبنى

صاحبة قيس بن ذريح رمزا لله المعشوق ، وكان العاشق مجنونا ينتصر لاوعيه على وعيـــه .

يلاحظ دارس **بيت الجنون** ان هذه الرموز جميعا تتكرر في المسرحية ــ القصيدة . ولعل اصالة توفيق فياض تتبلور في استلهامه الرموز في صيغتها العربية من حيث هي العمود الفقري لعمله الادبي . فكانت لبنى حجر الزاوية في البناء المسرحي . ولم يكن الرمز المحوري في **بيت الجنون** بسيطا يمتد في بعد واحد ، بل استطاع فياض ان يصهر التنويعات المختلفة للرمز الواحد في جوهر الصـــورة المحورية . فكانت ايزيس اخت اوزيريس وعروسه ، وعشتروت ام تموز وعروسه ، والعذراء مريم ام المسيح وعروسه تنويعات مختلفة على حقيقة جوهرية واحدة هي لبنى عروس سامي وصورة امـــه . ويدمج فياض الاسطورة الاساسية للموت والانبعاث بتنويع آخر عليها هو اسطورة الارض اليباب . وتروي هذه الاسطورة قصة ارض حلت عليها اللعنة فسيطر تنين رهيب على منبع النهر الذي يرويها ومنع الماء عن الارض العطشى ، فحالت حقولها يبـــاسا وخرابا . ويطالب التنين صبية حسناء كل عام يقدمها سكان البلدة فدية . وتقف الصبية بانتظار الفارس المخلص الذي يقتل التنين ويتزوجها ، فيردّ الخصب الى الارض الخراب . وتعدّ هذه الاسطورة تنويعا على أسطورة الخضر في صورتها اليهودية المتمثلة في النبي ايليا ، وصورتها المسيحية المتمثلة في القديس جرجس وصورتها الاسلامية المتمثلة في موسى وفتى الله كما يظهران في سورة الكهف .

أفاد توفيق فياض من اسطورة الموت والانبعاث في كشفه مأساة فلسطين ، التي تمثلت له ارضا يبابا حلت عليها اللعنة يوم استولى عليهـــا الصهاينة . وتقف الارض منتظرة بطلا يخلصها من براثن التنين ويردّ اليها الحياة ويزرع في أحشائها بذرة تخصب . لكن الواقع المؤلم يعيد صياغة رؤيا فياض . فتختلط القيم وتغدو لبنى عروسه المحبة تنينا . فماذا يفعل الفارس ؟ لقد تحولت الام ــ مبدأ الحياة ــ اداة دمار . ويحاول البطل الهروب من الواقع بعوالم يخلقها خياله ما فوق الواقع فيحلم بلبنى المثال . فيقتل التنين في ذات لبنى ويبعث المثال . ويؤمن في لاوعيه ان لبنى ــ ليس كما هي بل كما يجب ان تكون ــ حية لم تمت .

تتخذ **بيت الجنون** اطارا لها ليلة من ليالي الشتاء العاصفة في بيت يقع بمحاذاة البحر . ويظهر رجل يجلس على كرسي قديم خلف المكتب ، يرى مستغرقا في النوم ، ملقيا رأسه على ذراعيه فوق الطاولة . وينهض فجأة وهو يصرخ بفزع :

الكابوس ... هذا الكابوس الرهيب ! (متحسسا عنقه) مرة اخرى ! وكان أشباح الجحيم ، انتقلت جميعها الى هنا .. لتشاركني هذا القبر المتعفن ! (محركا عنقه) كادت اصابعه المتوحشة تخترق بلعومي .

تبدأ المسرحية ــ القصيدة في الجحيم ، فيظهر البطل سامي ميتا مدفونا في قبر متعفن ، تشاركه السكنى فيه أشباح رهيبة . وليس الجحيم هنا سوى ارض الواقع ، لذا فموت سامي ليس هو الموت بمعناه العادي بل هو موت في الحياة . لكـــن نموذج الانبعاث الهاجع في اللاوعي الانساني ينتصر على الموت فتتحد صورة سامي الذاتيـــة بصورة اوزيريس الاسطورية ، فيغدو انبعاث سامي حتميا حتمية انبعاث اوزيريس . فيقرأ سامي في كتاب التاريخ المفتوح أمامه :

انهض ، انهض يا اوزيريس !

أنا ولدك حوريس ..

جئت أعيد اليك الحياة ،

جئت أجمع عظامك .

واصل أعضاءك ...
أنا حوريس الذي تكون اباه !
حوريس يعطيك عيونا لترى ،
وآذانا لتسمع ، وأقداما لتسير
وسواعد لتعمل ...
ها هي ذي أعضاؤك صحيحة ،
وجسدك ينمو ،
ودماؤك تدب في عروقك !
ان لك دائما قلبك الحقيقي ،
قلبك الماضي !
فانهض ، انهض يا أوزيريس !!
(يغلق الكتاب وهو ما يزال يردد وبحزم أكثر)
انهض يا أوزيريس ..
يا أوزيريس انهض !

لكن ظلام الواقع يشوش رؤيا الانبعاث . فقد حالت الحمامة الوديعة التي عادت بغصن الزيتون الاخضر ، وبشرت نوحا بولادة الارض من جديد ، وجسدت الروح القدس في معمودية المسيح وبشرت كل انسان بولادة جديدة ــ حالت هذه الحمامة تنينا مفترسا. فانتصر عنصر الشر على الخير ، وماتت القيم وسيطرت الفوضى :

لبنى ! أجل لبنى ! بل التنين !! من يتصور
ان مثل هذه الحمامة الوديعة ، تتحول الى
تنين رهيب ، يغرس مخالبه في عنقي ؟

ويعم الكون ظلام كلي لا يسمح حتى بضوء القمر . وليس غياب القمر سوى غياب لبنى ، لان القمر في الاساطير هو العنصر الانثوي الذي يحمل في طياته عناصر الخير والشر : فهو من ناحية شعار العذراء مريم في الايقونات ، ومن ناحية اخرى صورة للتحول والخداع والغش في تحول مظهره خلال ايام الشهر ولياليه(٨). ولا يختار القمر طوعا أن يغيب ، لكن شاعرا مجنونا يغتصبه في ليلة من ليالي الشتاء على شاطىء البحر ، ويقتله ويذيبه ليخفي آثار جريمته(٩). فتتحد صورة القمر بصورة لبنى التي يخنقها سامي على شاطىء البحر في ليلة عاصفة ممطرة وينحل جسدها في ساعات قليلة بعد أن ينهش سرطان البحر لحمها . فيصبح سامي هو الشاعر المجنون : قاتل لبنى ومغتصب القمر . يقول :

ايه ... لا قمر في السماء ! (يسدل الستار عامدا . يرفع يده الى أعلى ثم ينزلها بعصبية كمن ينتزع شيئا .) قد انتزعه ذلك الشاعر اللعين من الاعالي ، واغتصبه في ليلة مجنونة من ليالي الشتاء ، على الشاطىء المقفر ! (معبرا بحركة من يده) ثم .. ثم ذوبه بالملح والكبريت ! (بسخرية) هه .. القمر ! أجل. القمر بالملح والكبريت !! (باستغراب) بل وشربه ! كما لو كان يشرب خمرة رديئة في ليلة افلاس ! (بضيق معبرا بيديه) لماذا لم يخنقه ذلك المجنون خنقا ؟ (ينظر الى يديه المتشابكتين بفزع) اوه .. كلا .. كلا .. (يرخي يديه وهو لا يزال يتأملهما) كنت افقد عقلي ، لو رأيته يفعل ذلك ! مجرد ان اتصوره يفعل !! (يتجه ناحية مكتبه ، وهو لا يزال يتأملهما . يشعل النور ثم يقلبهما متفحصا) خيل الي انهما ملطختان بالدماء ! اللعنة ...

وتتحد مأساة سامي بلبنى مع مأساته « بالمالك الوقح » الذي يتصور انه يقرع بابه . وكأن لبنى في خيانتها وظلمها ليست سوى مالك بيت سامي الذي يطالب بحقه في بيت قد اغتصبه . وهنا تتجسد مأساة الفلسطيني في ظل الاحتلال . يقول :

... ذلك الشبح المتوحش ! شبح لبنى ولا شك ! (بغضب) كلا .. كلا .. بل شبح المالك الوقح ... ماذا ؟.. ألم يعد ثمة قانون يردع اولئك الاوغاد ؟ ماذا يظنون ؟ انني متاع لهم ! يقتحمون بيتي كلما شاؤوا !!... قلت لك كلا ... لن افتح ... حطم الباب ان استطعت.! (معبرا بيديه) انني سأكتم انفاسك بيدي هاتين ...

ويلتفت سامي ناحية المتفرجين باستغراب وكأنه يراهم للمرة الاولى . ويصبحون شخصية ثانية في المسرحية . ويكون المسرح بخشبته وصالته هو بيت سامي ، ويغدو المتفرجون دخلاء في بيته . ويرمزون بذلك الى العصابات الصهيونية التي تحتل فلسطين . فيخاطبهم قائلا :

يا اله السماء ! انتم ... ماذا تفعلون هنا ؟ كيف دخلتم داري بحق الشيطان !؟ كيف استطعتم ذلك !؟ (بغضب) ماذا ! ألم يعد ثمة قانون في العالم !؟ (باستغراب) منتهى الوقاحة ! انني لا استطيع أن أتصور ! كيف يسمح شخص لنفسه دخول بيت غير بيته . ودون اذن صاحبه !؟ (بغضب) حتى حديقة الحيوان ... بل والمقابر اصبح لدخولها وقت معين ! بل وثمة ابواب لها تقفل على موتاها !! انني .. انني لا افقه كيف تدخلون بيتي كما .. كما لو كنتم تدخلون خانا .. او .. او مرحاضا عاما !؟

ويرتد سامي من مأساة الاحتلال الى تصور لبنى . ولكن هـل تختلف مأساته مع المحتلين عن مأساته معها ؟ ان سامي يدرك في أعماق لاوعيه ان المأساة واحدة في جوهرها . فيقول ان مأساته مع لبنى نتيجة لما ارتكبه المحتلون . فقد فعلت ما فعلت بايعاز منهم حين استطاعوا ان يستعبدوا غباءها . فيغدو المحتلون حية خادعة اغرت حواء بالتفاحة فسقطت وآدم من الفردوس الى عالم التحول والفساد . وكان السقوط علة كل داء . يقول :

لبنى ... لو انك الان هنا يا لبنى .. كنت تقذفين بهؤلاء الذئاب الى الشارع .. الى الشارع .. ولكنك.. ولكنك بعيدة عني الان .. لقد رحلت بعيدا .. هجرتني .. لا بد وانك فعلت ذلك بايعاز منهم ! فقد سيطروا على رأسك الصغير .. استعبدوا غباءك !!.

ويعود سامي بذاكرته الى الماضي المشرق عسى ان ينسى ظلام الحاضر وبروده . ويعيد خلق فردوسه المفقود حيث يرى لبنى كما رآها للمرة الاولى . ويسبح في عالم ملائكي لا يطاله فساد ولا يرقى اليه الظلام . ويعانق عبر خياله المرأة ــ المثال ، حواء الجنة . ويراها للمرة الاولى عند الصباح ، والشمس لم تزل طفلة بعد انبعاثها من بحر الموت والظلام ، وكأن لبنى هي الشمس ــ الطفلة التي يرى العاشق المتصوف عند الوصول اليها نورا لا تقوى عين انسانية على التطلع اليه . ويولد حبه مع ولادة الشمس طفلا بريئا ما زال خياله يحيا في عالم المثال وان هبط جسده الى عالم كون وفساد . وتكون لبنى بحيرة اخضرار تحمل في اعماقها صور الخصب والحياة ، لانها الالهة ــ الام، مبدأ الحياة وعلة الوجود ، وصوتها هديل حمامة بشرت نوحا بخليقة جديدة ، وروح قدس أعلنت انتصار الانسان على الموت واكتسابه حياة ابدية . يقول :

مع انسام الصباح .. ودفق عبير الشمس عبر نافذتي .. كان يدلف الي ذلك الهديل الرخيم من خلف شباكها .. وعند المساء .. كنت ألم ببيتها لاسمعها .. كانت دائما تغني .. فتعلق على شباكها قلبي . وذات صباح طروب رأيتها .. بحيرة الاخضرار رأيت ! تلك المترامية على هدب الافق البعيد في عينيها . وذلك الفجر الملوح في وجهها الصغير !

لكن سامي يفيق الى فجيعة الواقع ، ويرى ان بحيرة الاخضرار احتلها تنين امتص رحيقها ومنع ماءها عن ري الحقول فحالت الارض يبابا وماتت قدرة الينبوع علـــى منح الحياة . يقول :

ايه يا بحيرة الاخضرار .. يا حديقة الوجد المزهرة .. اي اعصار بدوحك مر ؟ اي تنين بنبعك يا غدائر العنبر سكن ! أي لبناي ... لبناي الضائعة ..

ويرتد مجددا الى الماضي السعيد عساه ينسى في دفئه مأساة واقعه . وتغدو لبنى هي الالهة الام الكبرى عشتروت ، وهو تموز ابنها وعروسها الذي يجسد رغبة دفينة تسكن لاوعي كل انسان ، بالتوق الى الام واخصابها . ويتم الانبعاث حين تنزل عشتروت الى العالم السفلي للبحث عن تموز بعد موته ، فتمنحه الحياة وتعود به الى العالم . فتكون أما تمنح الحياة ، وتكون رمزا للارض التي يتوق الانسان الى الفناء فيها ليكتسب بالموت حياة جديدة . من هنا كانت لبنى رمزا لارض فلسطين : فلسطين الام معطية الحياة ، وفلسطين العروس زوج الفـــارس المخلص الذي يخصب بالعشق الارض . والعشق صورة اخرى للموت: فكما ان ذات العاشق تفنى في ذات المعشوق لتولد عوالم جديدة ، يكتسب العائد الى رحم الارض بانحلال جسده في ترابها انبعاثا وحياة جديدة . وكذلك فان لبنى هي العذراء مريم ـــ المساوية رمـــزيا لعشتروت ـــ لانها تحمـــل في أحشائها مسيحا فاديا ومخلصا يزيح اسباب الظلام ويمنح الارض حياة ابدية . وليس ما تحمله الارض في أحشائها سوى طاقات الثورة في قلوب ابنائها ، الفرسان الابطال ، الذين يقتلون التنين المسيطر ويعودون بالارض الى حالتها العدنية الاولى : صبية بكرا . يقول :

هكذا رحت اصلي لها بعد أن عرفتها .. لعشتروت . عشتروت الصغيرة الساذجة ! عشتروت الحمامة .. عشتروت الام .. وعندما كانت بشهور حملها الاولى .. (مبتسما بسعادة) جميل ذلك .. لبنى .. (معبرا) لبنى حامل !.. (ضاحكا) كدت اجن .. تلك الالهة الصغيرة .. حامل .. اله صغير يلجأ برفق الي.. الي.. كانت تبعدني عنها خجلة .. (راكعا) الى أن ركعت على قدميها الحافيتين تينك القدمين الجميلتين .. قدمي عشتروت الصغيرة .. عشتروت الام .. المبللتين بقطرات الفرحة من دموع سعادتي . (ناهضا بحماس) كالظل بقيت اجلس عند قدميها .. تلك الشهور من حملها .. كنت لا أفارقها .. والدة الاله ..

وتوقظ صورة لبنى في لاوعيه صورة أمه حين كانت حبلى بـــه ، ويفيق الى مأساة ولادته . ولعل سامي عاش مأساة ولادته مضاعفة : فالولادة مأساة كل انسان لانها انفصال عن رحم الام التي يظل الانسان توقا الى العودة اليـــه ، وهي صورة اخرى لسقوط الانسان من الفردوس . لكن ام سامي وضعته في المرحاض قبل موعد ولادته بسبب رعبها من الطائرات قاذفات القنابل . فيغدو هذا العالم كله مرحاضا ، ويكون الصهاينة الذين أشعلوا تلك الحرب صورة للحية الخادعة التـــي كانت علة سقـــوط الانسان . يقول :

لا بد وانها ليلة من الافلاس ، تلك تمخضت عني ! (بصمت .. ثم بسخرية) هه .. في المرحاض ! مسكينة أمي .. ألم تجد غير المرحاض تسقطني فيه ؟ (بيأس) يا للتعاسة ! هل ضاقت بها الدنيا ! في المرحاض !؟ (بغضب) ولكن ثمة مبرر لم يكف لها ! انها تلك الطائرات المفترسة .. انها هي التي ولدتني في المرحاض ، وهي تلد الجنون بعينه ، مع مئات القنابل .. والتي كانت تصبها تلك الليلة علـــى هذه المدينة .. ودون انقطاع !.... ولكن .. أليس هو الافلاس بعينه ؟ افلاس العقل ! افلاس العالم من كل قيمه الاخلاقية ! بل افلاس الانسانية بأسرها !؟ ... يا للتعاسة .. انني لا استطيع تصور ذلك ! ولكنها الحقيقة .. والبرهان على ذلك ، انني ولدت في المرحاض ! (بسخرية) الحرب .. الحرب من أجل الحياة الافضل ! هه .. من أجل ان تضعني أمي في المرحاض ! وقبل أن يحين مع ذلك موعدي ! أجل . من اجل ان تكون المراحيض مهود ولادة البشرية ! ولماذا ؟ لكي أحيا حياة أفضل !

ولا تنتهي مأساة ولادة سامي عند هذا الحد ، فتموت أمه وهي تلده ، وتنقطع نهائيا صلته بالام ويعيش حياته منبت الجذور منقطعا عن مبدأ وجوده . وتغدو حياته بحثا عن الام الضائعة التي لم يرضع ثديها ولم يشبع حلمه بلذة وصالها . وحين يلتقي لبنى يسقط عليها صورة الام فتكون له أما وعروسا ، فيؤمن ان الطفل الذي تحمله لبنى في أحشائها ليس ابنه فحسب بل هو صورة اخرى لنفسه فيحلم بأن يكون لابنه غير مصيره . ولكن كيف يتم ذلك ؟ ان علة مأساة ولادته ما زالت مستحكمة ، بل وازداد الشر تعاظما . فان استطاع هو ان يتمسك بالحياة حين ولادته فان طفله ولد ميتا ، ولـم تقبل الحياة ان تحتضنه . وكما قتلت امه قتلت لبنى ، وعاش هو وحيدا حياة هي اقسى من الموت . يقول :

ولكن أمي لم تحظ بذلك .. انها لم ترني ولو لمرة واحدة ألثم ثديها ! في نفس اللحظات التي كانت تمنحني فيها الحياة .. كانت تفقد هي حياتها ! (بنقمة) النزيف .. النزيف الاحمر القاني . اجل . انه هو الذي قتلها ، ودون ان يستطيع والدي ، ان يفعل من اجلها شيئا ... انه لم يكن يعلم ! ان أحدا لم يستشره ! بل تآمروا عليه جميعا . (بثورة) أجل . تآمروا عليه .. العالم بأسره .. وسيظل ذلك النزيف القاني لطخة جريمة مروعة .. تلوث يديه ابد الدهر .. العالم بأجمعه ! أجل . العالم بأسره .. هو المسؤول عن هذه المأساة الاليمة .. مأساة ولادتي ! على كاهله سيحمل وزرها الى الابد .. الى الابد !.. حتى ابي .. ذلك المسكين .. لقد جروه هو الاخر الى الموت قسرا ... يا للضياع ! (بشرود يائس) واخيرا بقيت وحدي .. لقد ذهبوا جميعا ! امي .. والدي .. ذلك الاله الصغير طفلي .. لبنى ..

لكن لبنى هي التي قتلت طفلها . فقد قتل الصهاينة طفولة لبنى وسذاجتها فتوهج عنصر الشر فيها وسيطر على جميع تصرفاتها . وتحول الارض الخصبة صحراء قاحلة وتسيطر صور الجفاف والموت . وتتحول الام ، مبدأ الحياة ، اداة دمار . فقد فككت الصهيونية العائلة العربية ، وكانت علة قتل لبنى الام والعروس ، والقضاء على الجيل الجديد الذي كانت تحمله لبنى في أحشائها . يقول :

ولكنها تغيرت .. تغيرت تماما ! انها لم تعد تلك التي كنت في حاجة اليها ! تلك الساذجة الطفلة !! ذلك الحزن الساكن في عينيها .. لقد تغير كل شيء ! (بشيق وتشك) الى نمرة شرسة تحولت ، وفجأة !.. بحثت عن تلك الواحة الخضراء في عينيها ، فلم أجدها ! كان وجهها .. كان صحراء لون الكبريت المحرق رمالها !.. ولكن .. ولكن .. (بيأس) كيف استطاعت ذلك ؟ كيف !؟ لم يحدث في التاريخ .. لقد تعلمته جيدا . أجل لم يحدث ابدا ! نمرة واحدة لم تفترس طفلها ! اما هذه النمرة الشرسة .. النمرة مفترسة أطفالها لقد افترسته .. أجل . اغتالته ! كيف استطاعت ذلك — بحق الشيطان — ! كيف !؟ ان تجهضه بيديها هي !.. بيديها المجرمتين فعلت ذلك .. وبايعاز منهم ! لقد ساعدوها على ذلك .. ولماذا ؟ لانه سيكون ولدي !

ويخنق سامي لبنى على شاطىء البحر فيما كانت تحاول الانتحار . لكن لبنى كما أرادها ان تكون ظلت معه وكأنه قتل عنصر الشر الذي سيطر عليها فقتل الموت والجفاف ليحل الخصب . وبهذا لا يكون هو القاتل ، بل القـاتل الحقيقي هم الصهاينة الذين حولوا لبنى عن طبيعتها البريئة الطفلة الى طبيعة مفترسة متوحشة . يقول :

لقد فرت من البيت .. كانت كالمجنونة تجري ناحية الشاطىء .. كانت تريد الانتحار ولا شك ! انني .. انني لم .. لقد حاولت ارجاعها فقط .. ردها عن ذلك الجنون ! ولكنها ابت !.. لماذا لا تقول انك رأيتني ، ادفنها في جوف الرمل عميقا .. عميقا !؟... انها هناك ايها الذئب ... هناك علـى الشاطىء .. كتمت أنفاسها بيدي هاتين .. هناك .. لا .. بل انتم الذين قتلتموها .. لقد فعلت ذلك بايعاز منكم ... هناك .. هل تسمع .. انني لا اخافكم .. (يندفع نحو الباب بجنون يحاول فتحه) لا ارهبكم .. سأتحداكم جميعا .. سأنتصر عليكم جميعا .. جميعا .. وحدي (يخرج) وحدي .

وتنتهي المسرحية كما ابتدأت وسامي يقف وحده متحديا الجميع . ولعل هذا التوحد

يرمز الى ان الشعب الفلسطيني سيحارب ويصمـــد ولو اضطر ان يكـــون وحيدا في الساحة . وقد استطاع توفيق فياض بغوصه عميقا في ظلام اللاوعي ان يقف بثبات على أسس صلبة هي النماذج الاصلية الهاجعة هناك فولّد الرموز المحورية التي تصهر في داخلها الحسي والمجرد ، والذاتي والمطلق فتغدو اللحظة الواحدة جوهرا يختصر الزمن السرمدي ، والفرد الواحد هو الانسان الذي يختصر جوهر الانسانية ويمثلها جميعا . من هنا لم تكن **بيت الجنون** صورة لمأساة خاصة يعانيها فرد من افراد الشعب الفلسطيني فحسب بل صورة لمأساة كل انسان يعاني القهر والعبودية في ألوانها المختلفة . لذلك فهو الانسان المطلق الذي — وان تحرر من عبودية قوى خارجية — يظل عبدا لاهوائه وغرائزه وتطلعاته لانه عبد للحياة . فيصبح الموت سبيل خلاص لانه تحرر من عبودية الحياة . فيكون على الانسان ان يموت ليولد من جديد ويكتسب حياة ترتفع به عن عالم تسيطر فيه الاهواء الذاتية والمصلحة الفردية الى عالم جديد تتحد فيه الآلام والآمـــال العامة لتصبح قضية الانسانية قضية كل انسان فرد . وهنا يصل الانسان اسمى مراتب انسانيته : فهو حين يختار فانه يختار للبشرية جمعاء ، وحين يفعل فانه يفعل من حيث هو ممثل عنها . وقد استطاعت هذه النظرة الانسانية الوجودية ان تضع الانسان امام مسؤوليته كاملة ليؤكد انه جدير بالحياة .

---

١ — اديب فلسطيني ولد عـــام ١٩٣٩ في قرية مقيلة قرب جنين . درس في ثانوية الناصرة ، وكان يعمل في دائرة الجمارك قبل ان تضعه السلطات الاسرائيلية في السجن . من أعماله الادبية الاخرى رواية **المشوهون** ، ومجموعـــة قصص قصيرة بعنوان **الشارع الاصفر** .

٢ — نشرت هذه المسرحية عام ١٩٦٧ في فلسطين المحتلة . ونشرت في بيروت للمرة الاولى في **ملحق الانوار** الاسبوعي في العددين ٢٤٥٥ و٢٤٦١ (١٣ و١٩٦٧/٨/٢٠) . واعاد غسان كنفاني نشرها في كتابه **الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال** (بيروت ، ١٩٦٨) ص ١٧٤ — ١٩٦ .

٣ — **عن الادب والادب الشعبـــي في فلسطين** (بيروت ، ١٩٧٠) ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

٤ — م. ن. ، ص ١٦٠ .

٥ — حديث خاص مع الشاعر محمود درويش .

٦ — لم أعثر على هذه المسرحية . لكن الملحق الثقافي في السفارة البرازيلية في بيروت افادني في حديث خاص ان **ايدي يوريديس** هي مسرحية من تأليف كاتب برازيلي شهير من اصل روسي يدعى بدرو بلوخ . ولد بلوخ في اوكرانيا عام ١٩١٤ ثم هاجر الى البرازيل . وهو يدرّس حتى اليوم الموسيقى في احدى الجامعات البرازيلية. من أعماله المسرحيـــة : **الاعداء و لا ترســـل الازهار** . نال الجائـــزة الاولى للمســـرح في البرازيل والميدالية الذهبية من اتحاد النقاد . وتعد **ايدي يوريديس** من اشهر اعماله المسرحية. وما زال الممثل البرازيلي رودولفو مايا يمثلها على خشبة المسرح البرازيلي منذ خمس وعشرين سنة .

٧ — قدّم ممثل اميركي مـــن اصل لبناني هذه المسرحية على مسارح فلسطين المحتلة .

٨ — Gertrude Jobes, *Dictionary of Mythology, Folklore and Symbols*, (New York: 1962), II, 1119.

٩ — يشير الـــى الشاعـــر محمود درويش في قصيدته « قمر الشتاء » من ديوان **عاشق من فلسطين** حيث يقول :

سألم جثتك الشهيده
وأذيبها بالملح والكبريت
ثم أعبها : كالشاي
كالخمر الرديئة ، كالقصيده
في سوق شعر خائب
وأقول للشعراء :
يا شعراء أمتنا المجيدة !
أنا قاتل القمر
الذي كنتم عبيده !

كندا بين العرب واسرائيل

الدكتور طارق يوسف اسماعيل

انصب الباحثون على دراسة سياسات الدول ذات العلاقة المباشرة بالقضية الفلسطينية فوردت معظم الكتابات عن علاقة الدول الكبرى بالقضية وسياسات وردود الفعل العربية لها او حولها ، وبذلك اهملوا دولا لعبت دورا فعالا في تطور القضية واتخذت موقفا صريحا منها واثرت على مجرى السياسة العالمية وبالتالي على القضية والمنطقة ومن هذه الدول كندا . فرغم أن كندا لم تكن لها علاقة دبلوماسية مباشرة مع اي بلد عربي حتى عام ١٩٥٤ فان علاقاتها وتورطها في القضية الفلسطينية ترجع اصوله الى الايام الاولى لتدخل الامم المتحدة في الموضوع واستمرت بشكل غريب متدخلة او مجبرة على التدخل في كل اوجه القضية الفلسطينية وبقيت تلعب دورا واضحا في النزاع العربي — الاسرائيلي الى يومنا هذا . لقد كانت كندا عضوا بارزا في كل لجنة شكلتها الامم المتحدة لدراسة القضية الفلسطينية منذ عرضها على تلك الهيئة الدولية . بالاضافة الى ذلك صادف وجود كندا عضوا في مجلس الامن اثناء حرب ١٩٥٦ واثناء ازمة ١٩٦٧. وفي كل ذلك كانت لكندا سياسة واضحة المعالم وفلسفة معينة وخط متبع . ترى هل كان ذلك مقصودا ام كان تيارا عفويا ساقته الصدف فبدا لغير المتتبع سياسة مرسومة ؟

ان المحاور الرئيسية لسياسة كندا الخارجية تدور حسب اهميتها على ما يلي : (١) حلف شمال الاطلسي، (٢) منظمة دفاع شمالي اميركي، (٣) مجموعة الكومنولث، (٤) شركاء كندا التجاريين .

واذا نظرنا الى تلك الاسس لسياسة كندا وحاولنا تعليل سبب تورط كندا في النزاع العربي الاسرائيلي نقف حائرين من دون اجابة شافية !! لماذا دخلت كندا وسط هذا الصراع ؟ ولماذا شاركت كندا فيه ؟ وعلى أي اساس لعبت هذا الدور الفعال في هذا المضمار ؟ ولاي الاسباب ؟

ان كاتب هذه السطور يعتقد اعتقادا جازما بان السبب الرئيسي لهذه السياسة الواضحة المعالم والتي هي عفوية ولكنها تبدو مرسومة هو دور شخصي لعبه السيد لستر بيرسون، ونظرا لعدم وجود سياسة حكومية واضحة وثابتة فان أهواءه واندفاعاته الشخصية أنتجتها، خاصة وان لهذه الاهواء الشخصية جهازا دعائيا واسعا منظما وغنيا وهو الصهيونية وقد اعترفت المنظمة الصهيونية بافضال السيد بيرسون ومنحته جائزة رفيعة كما منحته اسرائيل جائزة وايزمن ويعتقد البعض بان جائزة نوبل للسلام التي منحت له عام ١٩٥٧ كانت بدفع ولو خفي من المنظمة الصهيونية العالمية !!

تعود أصول بداية التورط الكندي بالقضية الفلسطينية الى عام ١٩٤٦—١٩٤٧ عندما أصبحت المشكلة موضع اهتمام الجلسات الاولى للجمعية العمومية لوليد الحرب العالمية الثانية الامم المتحدة . لقد رأس السيد بيرسون الوفد الكندي بصفته نائب وزير الدولة للشؤون الخارجية للجلسة الخاصة التي دعت لها الامم المتحدة في نيسان (ابريل) ١٩٤٧ لمعالجة الموقف في فلسطين وقد انتخب السيد بيرسون عضوا في اللجنة التي انيطت بها

دراسة القضية وبذلك بدأ تاريخ التورط الكندي في الشرق الاوسط والذي استمر ليومنا هذا . وبعد ذلك بشهر اوصت تلك اللجنة بانشاء هيئة اخرى خاصة لهذا الموضوع تدرسه وتقدم اقتراحات معينة للامم المتحدة بشأن القضية . وفعلا في مايس من العام ذاته خلقت لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين وبالطبع كانت كندا عضوا فيها .

اختار السيد بيرسون لعضوية هذه اللجنة صهيونيا كنديا معروفا وهو القاضي ايفان ج راند !! وبالطبع سوف يمثل هذا الرجل دوره الصهيوني وبذلك اصبح رأي كندا في هذا المحفل الدولي هو رأي الصهاينة !! وبالطبع عمل هذا الرجل وصوت لقرار التقسيم ساعده على ذلك من وراء الكواليس السيد بيرسون رئيس الوفد الكندي . فقد لعب بيرسون دورا فعالا في الضغط على الدول الاخرى محبذا مشروع التقسيم وعندما حصل صدام بين مواقف اميركا والاتحاد السوفياتي على موعد انتهاء الانتداب « شكرا للجهود التي بذلها السيد بيرسون أمكن الوصول الى توفيق » وانتهت الازمة(١) وقـد لخص الكتاب شبه الرسمي الذي يصدره معهد الشؤون الخارجية الكندي مؤرخين دور كندا الدولي دور السيد بيرسون بالكلمات التالية : « ولقد شبه صهيونيو كندا السيد بيرسون ببلفور كندا في محاولتهم للحصول على تأييده لخطة التقسيم ، لقد كان تأثيره مهما جدا ان لم يكن اساسيا »(٢).

وحين أعلنت المنظمة الصهيونية خلق اسرائيل في ايار (مارس) ١٩٤٨ وقف ممثل كندا في الامم المتحدة السيد بيرسون والذي سعى قبل اسابيع او ايام لخطة التقسيم والتي تركها الان مساندا الدولة الصهيونية وقال : « يجب علينا ان نعترف بأن هناك الان دولة يهودية قائمة الكيان وقد بسطت سلطانها على اراضي لا يمكن لاحد زحزحتها عنها ، ولاجله يجب ان نوجه اهتمامنا الان الى تنظيم علاقات هذا المجتمع مع جيرانه . لست أنكر صعوبة قبول العرب لهذا ، ولكن هذا هو الواقع وعلى العرب القبول به ، ولست أعتقد بأن الامم المتحدة تساعد العرب اذا سمحت لهذه الدول الاستمرار بالتفكير بسحق هذه الدولة اليهودية بالحرب »(٣).

وهكذا نجد ان قواعد العلاقات العربية الكندية وضحت بشكل بارز في اثناء السنين الاولى من عرض القضية الفلسطينية واتخذت طابع التأييد المطلق لاسرائيل، ولكن حينما توقف تدخل الامم المتحدة في النزاع العربي الاسرائيلي توارى دور كندا ولم تلعب كندا أي دور في المنطقة او القضية خلال السنوات الثمان التي تلت خلق الدولة اليهودية وان فعاليات كندا حتى حرب السويس لم تتعد اعارة خدمات مدير لوكالة غوث اللاجئين الدولية ، وفي عام ١٩٥٤ عين الجنرال أي.اف.بيرنز ليرأس قوة مراقبة الهدنة ولكن الصورة تغيرت اثناء حرب السويس عام ١٩٥٦ وعادت كندا لدورها الفعال .

وضعت حرب السويس كندا في موقف حرج جدا فقد برز الى الوجود خلاف واضح بين سياستي الحليفتين القويتين والمهمين والمقربين لكندا، انكلترا واميركا ... ووضع الموقف كندا امام مهمة التوفيق بين مصالح هاتين الدولتين وبالطبع محاولة ربط كل ذلك بالرغبات الاسرائيلية ، وقد لخص السيد بيرسون رأيه في الحرب بما يلي :«ليس في نيتي ولو للحظة واحدة ان انتقد نوايا حكومتي فرنسا وبريطانيا ... ربما يظهر لي بأن طريقة تدخلهما هي غير صائبة ، الا انني لا انتقد أغراضهما »(٤). وهنا لعب وزير الخارجية الكندي السيد بيرسون حينئذ دورا فعالا في ايجاد حل يحمي صديقتيه ويعيد الوفاق الى حلفائه ويحقق له شخصيا سمعة عالمية (تنتهي بمنحه جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٧ ومن ثم يستغلها ليصبح رئيسا لحزب الاحرار في بلاده ومن ثم رئيسا للوزراء ؟!) حيث تمكن هذا من ان يكون المهندس لقوة الطوارىء الدولية التي أنشأتها الامم المتحدة والتي

انيطت بها مهمة احلال السلام في منطقة الشرق الاوسط . ولم يخف السيد بيرسون نواياه بل قال للسيد جون فوستر دالاس وزير الخارجية الاميركيـــة « ان رغبتي هي مساعدة بريطانيا وفرنسا ... اريدهم ان ينسحبوا — من مصر — دون ان يفقدوا ماء وجوههم ... واعيدهم الى حظيرة التحالف مع الولايات المتحدة »(٥).

وهكـذا نجد بأن كندا لعبت دورا مهما لمصلحة حلفائها اميركا وفرنســا وانكلترا واسرائيل ، اذ سخرت الامم المتحدة لتحقيق اطماع اسرائيل وايجاد توفيق بين بقيـة حلفائها الاخرين واعادة بناء الحصن من الدول الغربية الكبرى بترميم التصدع الذي حصل في علاقاتهابعضها ببعض نتيجة حرب السويس . ويعتقد كاتب هذه السطور بأن شخصية السيد سانت لوران كانت السبب الرئيسي في كبح جماح عاطفة السيد بيرسون ومراقبته بدقة فلم يستطع في غيه بمساندة اسرائيل خاصة وان دوره في الامم المتحدة يقتضي لعب دور المحايد على الاقل في المحافل العامة ، رغم ان المتتبعين لحركات السيد بيرسون والمقربين اليه يعلمون انه يؤيد اسرائيل تأييدا مطلقا .

وخلال السنوات التي تلت حرب السويس حتى حزيران ١٩٦٧ اتبعت كندا سياسة الابتعاد عن الشرق الاوسط ومشاكله وذلك لفشل الاحرار بقيادة السيد بيرسون من الفوز بالانتخابات ومجيء حكومة المحافظين ولكن بيرسون عاد سنة ١٩٦٤ الى رئاسة الوزارة الكندية .

تجددت في شتاء ١٩٦٦ وربيع ٦٧ روائح ازمة في الشرق الاوسط وكانت كندا عضوا في مجلس الامن وعندما حصلت اشتباكات خطيرة بين سوريا واسرائيل شكا من خطورة الموقف السكرتير العام للامم المتحدة السيد يو ثانت في ابريل ١٩٦٧ — وايده في ذلك قائد قوة الطوارىء الدولية الجنرال اد بول (Odd Bull) من خطورة الموقف الى مجلس الامن الذي كان يرأسه في ذلك الوقت السيد جورج اكانتييف الذي لم يهتم بالامر ومر شهر ابريل (نيسان) ولم يدع رئيس المجلس الى جلسة للنظر في وضع الشرق الاوسط الخطير رغم الحاح الامين العام للامم المتحدة على ذلك . وفي ٢٤ مايس تم عقد الجلسة وكان الوضع قد وصل الى درجة كبيرة من التدهور مما جعل تدخل الامم المتحدة ومجلس الامن صعبا ... وانتهت النتيجة الى الحرب التي انتهت بانتهاك اسرائيل لسيادة ثلاث دول وتشريد اكثر من مليون عربي معظمهم شردوا مرتين في حياة واحدة .

والمتتبع لسياسة كندا في تلك الفترة يجد تحيزا واضحا من قبل الحكومة الكندية ، فالسيد بيرسون الان هو الحاكم الناهي ورئيس وزراء بلاده وتصريحات السيد بيرسون المتتالية توضح بشكل جازم مدى مسايرته لاسرائيل وفي بعض الاحيان حقده الواضح على العرب وفي بعض الحالات يغدو الرجل عاطفيا لدرجة المغالاة . واحسن مثل على هذا السلوك هو ان السيد بيرسون الذي اكد عند خلقه قوة الطوارىء الدولية بأن سيادة الدول ذات العلاقة سوف لن تمس ، عاد في عام ١٩٦٧ واعتبر عمل مصر في الطلب من الامم المتحدة بسحب قواتها هو ليس من صلاحيات مصر !! ففي تموز ١٩٥٧ اكد السيد بيرسون لعدد من الصحفيين بأن وجود القوات هو ليس انتقاصا لسيادة اي من الدول المعنية وانها ضيفة على تلك الدول موحيا بأن لهذه الدول الحق في اخراج هذه القوات متى تشاء .

الحياد الكندي حقيقة أم وهم ؟!

لعل القارىء العربي لا يعلم بأن محاور السياسة الكندية هي موحاة من الخارج وان لمعظم هذه المحاور صلات معينة باسرائيل . لهذا فان هذا التأثير سوف يستمر باتجاه مضاد للعرب مهما كانت الظروف وما لم تتغير السياسات الرسمية لهذه المؤثرات فان

السياسة الكندية ستبقى ذيلية للمحاور الاربعة التي ذكرناها في بداية البحث وان اصدقاءنا هم من المحاور الاقل أهمية وتنحصر في عدد كبير من دول الكومونولث التي لها مشاكل وصراعات مع البقية الباقية من محاور سياسة كندا !! ولعل المتأمل في كلمة « المحايدة » كما يفهمها الكنديون يجد انها كلمة غير مستقرة ومعناها غامض ان لم يكن غير معروف وتخضع في كل الظروف الى المحيط الكندي ونظرته. والمتطلع يجد بان الكنديين كمسيحيين تتجه أنظارهم دوما الى « الارض المقدسة » . هذا وان الكندي يعرف ويرى دوما ويذكر بالآثام الاوروبية ضد اليهود التي توجتها أعمال هتلر بالقتل الجماعي لليهود ، ناهيك عن النظرة الشوفينية التي تجتاح الدول الغربية والتي تنظر الى الدول الافريقية الاسيوية ، وبضمنها العرب ، بغير عين العطف ان لم يكن بعين الاحتقار . يضاف الى كل ذلك النشاط الصهيوني المنظم وضعف المنظمات العربية والدعاية العربية المضادة . فسان المنظمات الصهيونية تنشط نشاطا ملحوظا في كل المناسبات وفي معظم الاحيان تأثيرها يفوق بكثير حجمها العددي ، فان عدد اليهود في كندا لا يزيد على ٢٢٠،٠٠٠ أي حوالي واحد بالمئة من مجموع السكان ، ومع ذلك فهم يلاحظون في كل نشاط سياسي واجتماعي وديني وحتى عنصري !!! هذا بالاضافة الى السيطرة الاقتصادية في النظام الكندي . فهم المسيطرون على حزب الاحرار اذ هم يؤلفون الدعامة المالية الاولى للحزب وهم ايضا اعضاؤه النشيطون وهذا الذي حدا بأحد الكتاب اليهود بالقول بان اليهودي في كندا واميركا حشر نفسه في موقف خطر قد تكون ردود فعله في المستقبل ضد مصلحة اليهود بصورة عامة ، اذ ان اليهودي هنا وضع نفسه في موضع المدافع عن اسرائيل مهما كانت سياساتها(٦). هذا بالاضافة الى التأييد الذي تلقاه السياسة الاسرائيلية من الصحف الكندية والعطف الواضح الذي تحظى به اسرائيل من وسائل الاعلام الاخرى . ولننظر الى التأثير الصهيوني ونشاطه في كندا والنشاط العربي في كندا فنجد التناقض واضحا بين الصورتين ، فبينما النشاط الصهيوني منظم ومنسق حيث يعتقد كاتب هذه السطور ان ثلث المجتمع اليهودي عدديا منضم الى المنظمات الصهيونية وهذا يعني نسبة تفوق الـ ٩٠٪ من عدد القادرين على العمل السياسي (أي ان الاطفال والشيوخ العاجزين ليس لهم دور العمل المنظم) وان التقدير لعدد العاملين في المنظمة الصهيونية الكندية هو بين ٧٠ و٨٥ الفا وان عدد هؤلاء بالطبع لا يعكس اهميتهم الاقتصادية فان حزب الاحرار واقع تحت التأثير الصهيوني من دون شك اذ ان اليهود يمولون هذا الحزب وهم دعامته المالية الاولى من دون شك هذا بالاضافة الى انهم يجهزون القيادة الفكرية والسياسية للحزب الديمقراطي الجديد والذي يلعب دورا فعالا في الحياة السياسية الكندية هذه الايام فان رئيسه السيد ديفيد لويس يجهر بمساندته للصهيونية وبمعاداته للعرب وفخره باسرائيل وقد روى لي الاستاذ سامي هداوي الرواية التالية :

في ابريل — نيسان — ١٩٧٢ شكل الاتحاد العربي الكندي والجاليات العربية في كندا وفودا لتقابل رؤساء الاحزاب وقد ترأس الوفد العربي لزيارة رئيس الحزب الديمقراطي الجديد الاستاذ سامي هداوي وعندما بدأ الاستاذ هداوي بعرض وجهة النظر العربية قاطعه رئيس الحزب الديمقراطي الجديد بوقاحة غاضبا وقال : اني لا أسمح بهذا لاني يهودي !! وتناسى السيد لويس منصبه وتمادى في الدفاع عن الموقف الاسرائيلي !!. وان هذا الموقف هو اعتيادي وغير غريب فان السيد لويس يجهر علانية بعشقه لاسرائيل وان معظم قادة هذا الحزب هم من الصهاينة او مؤيديهم . أما حزب المحافظين فانه يحاول اجتذاب اليهود او عدم استثارة غضبهم على الاقل . ورغم ان الاهمية البشرية للصهاينة في كندا هي محدودة ولكن توزيعهم الوظيفي ونشاطهم السياسي يضاعف عشرات المرات تأثيرهم السياسي ، ويعزو الكاتب الكندي المعروف السيد

بل دوبيل ذلك « النفوذ الواسع الى غناهم ، مساهماتهم المالية ومساعداتهم لحزب الاحرار ، تنظيمهم الرائع ، وتركيزهم في المدن المهمة الكبرى والتي تصوت للاحرار ... فأكبر تركيز للاصوات اليهودية في كندا يقع في منطقتي رئيس الوزراء الكندي الحالي ووزير خارجية كندا اليوم » . ويستطرد الكاتب ويقول : « ان تأثيرهم النسبي أكبر بكثير من حجمهم ايضا لان عدد العرب في كندا اقل بكثير من اليهود ، بالاضافة الى انهم متفرقون ، منقسمون بين العديد من الطوائف والاديان ، اقل تنظيما واقل جاها »(٧)، ومن يلقي نظرة فاحصة على البرلمان الكندي يجد تأييدا يكاد يكون اجماعيا لليهود والصهاينة واسرائيل بينما لا يتراوح عدد اصدقاء العرب في هذا البرلمان الثلاثة !! أما الجالية العربية في كندا فان عددها يتراوح بين ٥٠ — ٧٠ الفا ومعظم ابنائها من العمال، قليلو الثقافة ، تتقاسمهم الطائفية ، وتقسمهم الحزازات ومعظمهم عمال ... ليس لديهم المال او الثقافة او الوقت لصرفه على القضايا العامة بالاضافة الى ان الغالبية الغالبة منهم مهاجرون جدد تفصلهم عن المجتمع الكندي التقاليد واللغة وفي معظم الاحيان الموانع الاجتماعية . وان عدد المهتمين في القضايا العربية لا يزيد على ٥٪ والعاملين لها ١٪ . ومما يلفت النظر هو بوادر التنظيم السياسي التي بدأت بعد نكسة حزيران عام ٦٧ وبروز المقاومة الفلسطينية فقام عدد من ابناء الجالية الفلسطينية بتنظيم رد الفعل العاطفي هذا في منظمة تسمى « الاتحاد العربي الكندي » وقاد هذه المنظمة وعمل فيها باخلاص الدكتور جورج حجار والسيد جميل بطرس وبعد عام واحد من ذلك بدأ الشقاق يدب في اوصال الجمعية وبعد عامين ظهر اتجاهان مختلفان وفي العام الثالث حصل انشقاق ، وكانت لهذا الانشقاق نتائجه الواضحة في السلبية التنظيمية للجالية العربية في كندا فانخفض عدد المشاركين الفعليين وحتى المنظمين او المتعاونين الى ما يقارب العشرة وترك العمل المنظم معظم قياداتها الاولى !!.

وفي هذا الجو المفيد لاسرائيل والصهيونية يلعب الاستعمار الثقافي الاميركي دوره في تكييف المشاهد او المستمع الكندي الى وجهة النظر الاسرائيلية هذا بالاضافة الى النشاط الناجح الذي تقوم به السفارة الاسرائيلية والتنسيق المنظم والمستمر بينها وبين الجمعيات الدينية والصهيونية والاجتماعية اليهودية وغير اليهودية ، ناهيك عن العمل الاعلامي الواسع المتواصل والذكي الذي تقوم به تلك المجموعة .

أما عن الفرد الكندي ، وحتى المسؤول منهم ، فانهم لا يريدون ان يوصموا بغير الحياد وهم في قرارة انفسهم يؤمنون بان الحياد هو عدم التورط بوضوح في قضايا الشرق الاوسط وعدم السماح للدولة بأن تكون مفضوحة النوايا لمساندة أي من دول المنطقة ولكن ذلك لا يعني محاربة أي من دول المنطقة ايضا !! وهذا التعليل قد يبدو كافيا وقد يبدو منطقيا للكندي اذ ان الوقوف على التل في هذه المسألة هو حياد بالنسبة لهم متناسين الاجحاف الذي لحق بالعرب من جراء خلق اسرائيل متناسين المليوني فلسطيني المشردين ، محاولين عدم الخوض في تفاصيل النزاع العربي الاسرائيلي من دون حصول ازمة خاصة وان الجانب العربي من النزاع لم يوضح او يقدم للكندي المعلومات . وان عدد اصدقائنا ، كما اوضحت ، في الحقل الاعلامي محدود ، وان اصدقاءنا في وزارة الخارجية غير مهمين فان لنا في كل هذه المجالات مقربين يحسون بعدالة قضيتنا ففي الحقل الاكاديمي مثلا لنا بعض الاصدقاء الذين بدأوا يجهرون بعدالة قضيتنا وفي الحقل الديني لنا اناس يحاولون عرض قضايانا وان كان ذلك فقط من جانبها الانساني ، هذا بالاضافة الى وجود العديد من اصدقائنا في البرلمان الكندي . وهناك حركة شبه عامة وعفوية في المجتمع الطلابي وخاصة في الجامعات ، ورغم تلقائية هذا التيار وعدم انتظامه ، فان التعاطف مع العرب بدأ يزداد وينمو متمركزا في صفوف اليسار الجديد

وفي المنظمات الوطنية بولاية كيوبك وأهم دواعي ذلك هو التعديات الاسرائيلية الصارخة والعلنية واهمال اسرائيل والصهيونية حتى اعطاء تبريرات مقبولة ومعقولة مصحوبة في بعض الاحيان بوقاحة المنظمات الصهيونية التي اغاظت العديد من الشباب والمثقفين الكنديين . واذا ما فهم بأن نفسية الكندي وقيمه المثالية نجد احتمال انعطاف نحو القضايا العربية واضح وموجود واذا ما نظمت الجهات العربية حملات دعائية او اعلامية فان امكانية تجنيد هذه القوى ممكن وواقعي ومحتمل .

خـاتمة

لخص الدكتور علي الدسوقي(٨) الموقف الكندي بواقعية حين استنتج ان سياسة كندا رغم انها حيادية في الاسم فانها في الواقع مساندة لاسرائيل فرغم ان السياسة الكندية في الشرق الاوسط هي من خلال عمل كندا في الامم المتحدة فان هذه السياسة لم تكن لا موضوعية ولا محايدة . وانها وفي القضايا المهمة وباستمرار تتخذ خطا مطابقا للمواقع الصهيونية والاسرائيلية وان الساسة الكنديين لم يحاولوا حتى تفهم الجانب العربي !!

ان هذا التقييم صحيح ووارد في الماضي ولكن جوا جديدا بدأ يلوح في أفق العلاقات العربية الكندية ، فان غياب السيد بيرسون من الحياة السياسية الكندية ، بعد سيطرة دامت زهاء عقدين ، وعدم مبالاة القيادات الصهيونية في تبرير كل أعمال اسرائيل ، والاعتداءات الاسرائيلية المتكررة وبروز القومية الوطنية الكندية بدأت علامات الاستفهام على الموقف الصهيوني والاسرائيلي وكذلك الكندي تظهر بوضوح . ناهيك عن تأثير الاعمال التي قدمتها المقاومة الفلسطينية في تأكيد الوجود الفلسطيني ... كل هذه خلقت مناخا جديدا ان استغل من الجانب العربي فقد يمر بالتأثير على السياسة الكندية تجاه القضايا العربية .

---

١ — Robert Spencer, *Canada in World Affairs from NATO, 1946-1949* (Toronto: Oxford University Press, 1959), p. 145.

٢ — *Ibid.*, p. 147.

٣ — A/AC. 13/32, United Nations GAOR. 11, *ad hoc* commission on Palestine question, pp. 209-301.

٤ — James Eayrs, *Canada in World Affairs, October 1955 to June 1957* (Toronto: Oxford University Press, 1959), p. 185.

٥ — Terance Robertson, *Crisis: The Inside Story of the Suez Conspiracy* (Toronto: McClelland and Stewart Limited, 1964), p. 188.

٦ — J. L. Granatstein, *Canadian Forum*, June 1971, p. 35.

٧ — Bill Dobell, *Canada's Search for New Roles* (Oxford: Oxford University Press, 1971), p. 17.

٨ — Ali Dessouki, *Canadian Foreign Policy and the Palestine Problem*, (Ottawa: Middle East Research Centre, n.d.), Monograph No. 1.

الهستدروت والمجتمع الاسرائيلي

انطوان منصور

تصور الدعاية الاسرائيلية الرسمية الهستدروت* او الكونفدرالية العامة للعمال بأنه يقوم بأربع مهمات رئيسية :

١ ــ دور نقابي : الدفاع عن مصالح العمال كأية نقابة في المجتمعات الرأسمالية .

٢ ــ دور اقتصادي (ادارة وامتلاك وتنظيم) يقوم به كمالك لوسائل انتاج متعددة، ولا بد من الاشارة هنا الى ان القطاع الاقتصادي من الهستدروت وسمي أيضا القطاع التعاوني او قطاع الاقتصاد العمالي ، يدعي سيادة علاقات الانتاج الاشتراكية ضمنه ويطرح نفسه كمجسد للتحول الاشتراكي للمجتمع الاسرائيلي .

٣ ــ ادارة مجموعة مؤسسات للضمان الصحي والاجتماعي .

٤ ــ دور ثقافي ومن أهم ما يقع على عاتقه تربية النشء .

ولكن بين ادعاءات الابواق الرسمية والدور الفعلي الذي يلعبه الهستدروت تناقضا سوف نحاول توضيحه . فكأية مؤسسة انشىء الهستدروت لخدمة مصالح طبقة معينة (الصهيونية) تحتاج اليها لتلعب دورا سياسيا واقتصاديا وايديولوجيا يتناسب واهدافها ويتلخص هذا الدور :

١ ــ المساهمة باستعمار فلسطين وبتكوين المجتمع الاسرائيلي .

٢ ــ السيطرة على قطاعات اقتصادية استراتيجية .

٣ ــ تأدية دور سياسي وايديولوجي لضرب النضال الطبقي وتأمين تماسك المجتمع الاسرائيلي .

المساهمة باستعمار فلسطين وبتكوين المجتمع الاسرائيلي :

أسس الهستدروت في حيفا بفلسطين عام ١٩٢٠ ودعي الكونفدرالية العامة للعمال اليهود في فلسطين . قد يوحي لنا الهستدروت انه كأية كونفدرالية عمالية اخرى يهتم بالدفاع عن مصالح العمال . لكن ما هو في الحقيقة دوره ؟ الهستدروت هو العمود الفقري للاستعمار الصهيوني ، لقد ارسى القاعدة الاقتصادية للدولة اليهودية . وقد بيّن الباحث الاجتماعي الاسرائيلي ايزنشتادت بوضوح دور الهستدروت اذ قال : « كان هدف الهستدروت تأمين الشروط الضرورية لايجاد وتنظيم طبقة عاملة جديدة ولها امتيازاتها ، وليس الحفاظ على مصالح طبقة موجودة »(١).

هذه الشروط هي في الحقيقة خلق المؤسسات الصناعية والزراعية لتنمو فيها الطبقة العاملة اليهودية . « ان الحاجة لتكوين طبقة عاملة يتطلب انشاء قطاعات اقتصادية

---

* اعدت هذه الدراسة قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

تستطيع العمل فيها »(٢). لقد أناط الهستدروت بنفسه « اعادة تكوين الاقتصاد القومي اليهودي » فانشأ وحدات نصف صناعية ومؤسسات مختلفة :

ـ عام ١٩٢١ انشأ « السوليل بونيه » المؤسسة الكبرى للاشغال العامة خاصة للانشاءات .

ـ أسس كذلك عام ١٩٢١ « بنك العمال » وهو مشترك مع المنظمة الصهيونية العالمية .

ـ عام ١٩٣٣ أسس شركة النقل بين المدن « ايجد » تؤمن ٦٥ ٪ من المواصلات بين المدن .

ـ عام ١٩٣٦ انشأ « مكروت » اهم منظم وموزع للماء في المستعمرة الصهيونية .

ـ عام ١٩٣٦ أيضا انشأ الشركة البحرية « تسيم » .

ووسع الهستدروت نشاطه بحيث شمل مختلف المجالات الاقتصادية : أسس شركات لبيع الانتاج الزراعي وكذلك شركات تعاونية للبيع بالجملة .. وأحاط نفسه بشبكة مؤسسات ضخمة : يمتلك شبكة مدرسية (مدارس للمهاجرين اليهود فقط) وصحية (ضمان صحي) .

وكانت « النقابة » (أي الهستدروت) تتولى الاشراف على منظمة الدفاع اليهودية « الهاغانا » (الجيش اليهودي) .

هكذا أسس الهستدروت مؤسساته ومنشآته مانعا العرب من المشاركة فيها . وبعد شعار « العمل لليهود فقط » اطلق شعار « الانتاج اليهودي » معناه مقاطعة منظمة للبضائع العربية .

اشرف الهستدروت على المستعمرات الزراعية ولعب دورا كبيرا في طرد اليد العاملة العربية والفلاحين منها . « سمحت مكانة الهستدروت المتميزة عند المستعمرين الصهاينة ومنظمته القوية ، ان يلعب دورا رائدا في عملية الاستعمار الزراعي وفي التسلط على اماكن عمل يحرمان العمال والفلاحين العرب منها من أجل العمال اليهود »(٣). هكذا قصر الانتساب للهستدروت باليهود فقط ، اليهود الذين « يعيشون من ثمار عملهم » .

بمعرض اشارته الى دور الهستدروت في استعمار فلسطين وفي تكوين المجتمع الاسرائيلي قال بن غوريون : « لا ينبغي فقط تنظيم الطبقة العاملة ، انما خلقها وتكوينها وزرعها في فلسطين »(٤).

اذا ليس الهستدروت نقابة عمالية كما يدعون ، انه اداة استعمار صهيونية ، لعبت دور رب العمل . أما ادعاؤها انها مجرد « نقابة » فذلك من أجل تضليل العمال اليهود تمهيدا لادخال الايديولوجية الصهيونية في صفوفهم ودفعهم للهجرة الى فلسطين ، ولخدمة اهداف الصهيونية : بتكوين سريع للاطار القومي الضروري . وقد اوضح ذلك مؤسسو الهستدروت بقولهم : ان المصلحة القومية تعلو على المصلحة الاقتصادية والمصلحة الثقافية .

حدد بنحاس لافون السكرتير العام للهستدروت الدور التاريخي الذي لعبه هذا الاخير فقال : « تأسست الكونفدرالية العامة للعمال منذ ٤٠ عاما من بضعة الاف من الشبان الراغبين بالعمل في بلد متخلف حيث العمل رخيص ، في بلد ينبذ سكانه وغير مضياف للقادمين الجدد . ان تأسيس الهستدروت في هذه الظروف كان حدثا أساسيا في عملية تكوين الامة العبرية في وطنها . ان هستدروتنا متكامل في وجوده ، ليس نقابة

عمالية بالرغم من أنه يهتم جيدا بحاجات العمال الفعلية »(٥). كانت ادارة الهستدروت هي التي تحدد الخط السياسي لليهود في فلسطين كما كانت تهتم أيضا « بأوضاع « اليهود الداخلية » وبعلاقاتهم بالمحتلين الانكليز والجماهير العربية »(٦). ومن جهة ثانية ، كانت الهستدروت وما زالت تحت سيطرة الحزب العمالي « المباي » عام ١٩٣٠ وهو الحزب الحاكم حتى اليوم . وخرج من صفوف الهستدروت كل الزعماء السياسيين في الدولة الاسرائيلية : بن غوريون ، ليفي اشكول ، غولدا مئير . لقد لعب الهستدروت دورا أساسيا في ارساء الاسس الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لدولة اسرائيل كما شكل الاطار الذي تحققت فيه العلاقات الاقتصادية والسياسية والايديولوجية لليهود في فلسطين .

سيطرة الهستدروت على بعض القطاعات الاستراتيجية في الاقتصاد الاسرائيلي

أ ــ **الهستدروت رب عمل** : يملك الهستدروت عدة مؤسسات اقتصادية ساهمت بشكل رئيسي في ارساء القاعدة التحتية لدولة اسرائيل تمهيدا للعب دور القاعدة الاستعمارية في المنطقة ، ففي مجالات الزراعة والصناعة بادرت بالمشاريع التي لا تدر ربحا على المدى القصير كالصناعات التحويلية ، البناء ، الاشغال العامة والصناعة الثقيلة .

لقد ذكر « كتاب اوروبا السنوي » لعام ١٩٦٩ ان « الهستدروت أهم جسم اقتصادي في الدولة .. ان كثرة المشاريع الاقتصادية التي حققها تجعل منه اكبر متعهد في البلاد بحيث يصل الى ان يكون هو الدولة »(٧).

في القطاع الزراعي يشرف الهستدروت على ادارة « الموشافيم » (اي « القرى التعاونية ») والكيبوتسيم (او « القرى الجماعية ») . بلغت مساهمته عام ١٩٥٩ ٣٢٪ من الانتاج الزراعي الصافي. يملك تعاونية بيع الانتاج الزراعي وهي تؤمن تصريف ٧٠٪ من انتاج البلد الزراعي .

في قطاع البناء ، المؤسسة الرئيسية التابعة للهستدروت هي « السوليل بونيه » يعمل فيها حوالي ٢٨ الف شخص وهي تشكل اكبر شركة للانشاء البحرية ، للبناء وللاشغال العامة في اسرائيل . في الفترة الممتدة بين ١٩٤٩ و١٩٦٤ بنت حوالي ١٠٠ الف مسكن، ثلاثة ارباعها خصصت للمهاجرين الجدد وحوالي ١٩ الف للعمال المسنين(٨). تعرف شركة بناء المساكن بـــ « شيكوم عوفديم » .

ومن ناحية اخرى تملك وتستغل احواض الانشاءات البحرية (هاياما واوجن) ، تستثمر مصانع للانشاءات المعدنية في جون حيفا في « جفعات رامبام وحولون » وتملك ٦٠ ٪ من أسهم ميناء حيفا .

وفي القطاع الصناعي ، الشركة الصناعية الام هي « كور » وهي تتكون من مجموعة تبلغ حوالي خمسين مؤسسة(٩) اختصاصها الصناعة الثقيلة تستخدم حوالي ١٢ الف عامل وهي بالتالي اكبر مؤسسة صناعية في اسرائيل ، نمت بشكل سريع خلال السنوات الاخيرة حيث بلغت مساهمتها لمجموع الانتاج الصناعي حوالي ٩ ٪ عام ١٩٧٢ بينما كانت ٦ ٪ عام ١٩٦٩(١٠). في الفترة الممتدة بين ١٩٦٨ و١٩٧١ تضاعفت الموجودات الثابتة وزاد الانتاج بنسبة الثلثين . وفي العام ١٩٧٢ زاد الانتاج بنسبة الثلث ، وتأمل الشركة مضاعفة انتاج عام ١٩٧٦ بالنسبة لعام ١٩٧٢(١١). أصبح التصدير عاملا مهما في تحديد سياسة مجموعة « كور » وتخطيطها لتوسيع الانتاج . ففي عام ١٩٧١ بلغت

قيمة البضائع المصدرة ٥٠ مليون دولار بينما كانت ٣٠ مليون دولار عـــام ١٩٧٠ و٢٤ مليونا عام ١٩٦٩ .

ثلاث مؤسسات تنتج حوالي ٧٠ ٪ من المنتجات المعدة للتصدير وهي تاديران (١٥ مليون دولار) ، ماشتشيم (١٠ م. د.) وسلطان (١٠ م. د.)(١٢).

احدى المجموعات التي تتفرع عن شركة « كور » الام هي « أعمال كور المعدنية » وهي تضم ١١ مؤسسة ، تستخدم الفي عامل ، اما حجم عملياتها فيبلغ ١٠٠ مليون لـــيرة اسرائيلية عام ١٩٧١ . بالنسبة لعام ١٩٧٢ قدر حجم العمليات بـــ ١٨٠ مليون ليرة اسرائيلية(١٣). حاليا تنتج انشاءات لتخزين البترول كالانشاءات الموجودة في عسقلان وفي ايلات ، ومحطات كهربائية قوية الانتاج لحساب شركة كهرباء اسرائيل ورادار ضخم للمحطة الفضائية التي انشأتها وزارة المواصلات كما بنت الهانغار الجديد الذي يأوي طائرات الجمبوجت الضخمة في مطار اللد .

ان اهم مؤسسات مجموعة « كور المعدنية » هي :

ـــ مركفين المحدودة : متخصصة بانتاج الادوات المعدنية الضخمة كعربات قطر سكك الحديد وسيارات النقل الكبيرة .

ـــ الـــ « اغان » : متخصصة بانتاج البضائع الحديدية التي تحتاج اليها المصانع ونوادي الرياضة ... وهي تعمل بترخيص من شركة « بتلر » الاميركية وهـــي من الشركات الكبرى في العالم .

ـــ الـــ « حامات » تنتج عددا من البضائع المعدنية كالبطاريات التي تصدر منهـــا جزءا كبيرا اذ بلغت المبيعات عام ١٩٧١ في الخارج مليون ونصف مليون دولار .

ـــ الـــ « سيمات » تنتج الالات الصناعية وقطع الغيار للطائرات .

وقد قدر هولز مدير « كور المعدنية » قيمة البضائع التي كان من المنتظر ان تصدرها هذه الشركة عام ١٩٧٢ بـــ ٨ ملايين دولار(١٤). ولم يتوفر لدينا احصاءات اليوم لتأكيد هذا القول .

في قطاع الخدمات تملك الهستدروت شركة تأمين « حسنيه » وبنـــك « هبوعليم » وهو يعد ثالث بنك في اسرائيل من حيث الاهمية . وله فرع في امريكا يستثمر بواسطته الرساميل في الولايات المتحدة ، كما يحتكر من خلال امتلاكه لمؤسسة « كوبات حوليم » الصحية تقديمات الضمان الاجتماعي : ٧٧ ٪ من السكان يستفيدون مـــن خدماته . وتجدر الملاحظة الى تأثير الهستدروت على الادخار المالي في الاقتصاد لانه يدير سبعة صناديق تقاعد . بلغت قيمة الاموال المخزنة في هذه الصناديق اكثر من ملياري ليرة اسرائيلية في العام ١٩٦٩ فهي تشـــكل مصدر تمويل هـــام لمشـــاريع الهستدروت الاقتصادية(١٥).

ب ـــ **أهمية قطاع الهستدروت في الاقتصاد الاسرائيلي:** ما هي اهمية قطاع «الاقتصاد العمالي » في مجمل البنية الاقتصادية ؟ ما هو حجم مساهمته بالانتاج الداخلي الصافي وفي العمالة ؟ هل تتقلص أهمية الهستدروت بالنسبة للقطاع الخاص ؟ ولماذا ؟

عدد من الاسئلة سوف نحاول الاجابة عليها استنادا الى الاحصاءات التي بين ايدينا. تبين دراسة قام بها حاييم باركي ان مساهمة الهستدروت بالانتاج الداخلي الصافي عام ١٩٥٧ بلغت ٢٠،٦ ٪ وعام ١٩٦٠ ٢٠،٤ ٪ فقد حافظت على نفس المستوى . امـــا القطاع الخاص فهو المساهم الاساسي : ٥٨،٥ ٪ عام ١٩٦٠ .

مساهمة القطاعات بالانتاج الداخلي الصافي (النسبة المئوية)

	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠
القطاع الخاص	٥٨،٥	٦٠،٠	٥٨،١	٥٨،٥
القطـاع العام	٢٠،٩	٢٠،٠	٢١،٦	٢١،١
القطاع الهستدروت	٢٠،٦	٢٠،٠	٢٠،٣	٢٠،٤
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

Haim Barkai, The Falk Project for Economic Research in Israel, Sixth Report 1961-63. Jerusalem, Central Press, 1964.

اذا كانت مساهمة الهستدروت في الانتاج الداخلي الصافي تبلغ ٢٠،٤ ٪ فان جزءا كبيرا منها (١٠،١ ٪) قد حققته المؤسسات التي تستخدم العمل المأجور والتي يساهم الهستدروت بنسبة ٥٠ ٪ من رأسمالها (لا تضم المؤسسات تعاونيات الانتـاج ، الموشافيم والكيبوتز) . لا توجد احصاءات رسمية عن مساهمة الهستدروت في الانتاج الداخلي الصافي بعد عام ١٩٦٠ . ان تقديرات مؤسسة البحوث الاقتصادية والاجتماعية التابعة للهستدروت هي التالية : تراوحت هذه النسبة بين ٢٢،٥ ٪ و٢٣،٣ ٪ خلال الاعوام ١٩٦٠ — ١٩٦٥ وتدنت الى ٢١،٦ ٪ و٢١،٨ ٪ عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧ . أما عام ١٩٦٨ فبلغت ٢٠،٨ ٪ (١٦). أما تقديرات أخرى فتشير الى تدني هذا القطاع الى ١٥ ٪ عام ١٩٦٥ (١٧).

— اهمية الهستدروت حسب فروع النشاط الاقتصادي : ان الاحصاءات المتوفرة لدينا لعام ١٩٥٩ تشمل كل فروع النشاط الاقتصادي ولعـام ١٩٦٥ تنحصر فقـط بالقطاع الصناعي .

يستخدم الهستدروت ٢٢،٦ ٪ من مجموع اليد العاملة ، أما القطاع الخاص فيبقى القطاع المهيمن في كل الفروع والمجالات باستثناء النقل والمواصلات ؛ أما الهستدروت فهو يتخطى القطاع العام : في القطاع الزراعي تبلغ مساهمة الهستدروت ٣٢ ٪ من الانتاج الداخلي الصافي (٥،٨ ٪ للقطاع العام) ويستخدم ٤٧،٦ ٪ من اليد العاملة في هذا القطاع ، اما في قطاع البناء فهو يساهم بنسبة ٣١،٩ ٪ من الانتاج الداخلي الصافي (١٠،٦ ٪ للقطاع العام) ويستخدم ٢٦،٦ ٪ من اليد العاملة ، في الصناعة ٢٢،٢ ٪ من الانتاج الداخلي الصافي (٤،٣ ٪ للقطاع العام) و ١٧،٥ ٪ من مجموع اليد العاملة — يبين الجدول التالي توزيع الانتاج الصافي والعمالة على القطاعات وفروع النشاطات الاقتصادية لعام ١٩٥٩ .

فروع النشاط الاقتصادي	توزع الانتاج الداخلي الصافي حسب القطاعات(١) (النسب المئوية)				توزع العمالة حسب القطاعات(٢) (النسب المئوية)			
	المجموع	العام	الخاص	المستدروت	المجموع	العام	الخاص	المستدروت
الزراعة ، التحريج والصيد	١٠٠	٦٧٫٢	٠٫٨	٣٢٫٠	١٠٠	٥١٫٠	١٫٤	٤٧٫٦
الصناعة والمناجم	١٠٠	٧٣٫٥	٤٫٣	٢٢٫٢	١٠٠	٨٠٫١	٢٫٤	١٧٫٥
البنـــــاء	١٠٠	٥٧٫٥	١٠٫٦	٣١٫٩	١٠٠	٦٧٫١	٦٫٣	٢٦٫٦
المـــاء والكهرباء	١٠٠	—	١٠٠	—	١٠٠	—	١٠٠٫٠	—
النقل والمواصـــلات	١٠٠	٢٢٫٧	٤٠٫٣	٣٧٫٠	١٠٠	٥٤٫٣	٣٢٫٤	٢٢٫٣
البنوك والمـــال	١٠٠	٨٩٫٨	١٫١	٩٫١				
التجـــــارة	١٠٠	٨٤٫٢	١٫٢	١٤٫٦	١٠٠	٥٣٫٩	٣٠٫٤	١٥٫٧
الخـدمات العـــامة	١٠٠	—	٩٧٫٠	٣٫٠				
المجمـــوع	١٠٠	٥٨٫٢	٢١٫٥	٢٠٫٣	١٠٠	٥٩٫٨	١٧٫٦	٢٢٫٦

المصدر : ١ — Schlomo Sitton, *L'économie d'Israel*, p.142.

٢ — David Horowitz, *The Economics of Israel*, p. 40.

— القطاع الصناعي التابع للهستدروت : ان المؤسسات الصناعيـــة التـــابعة للهستدروت أكبر من مؤسسات القطاع الخاص وهي تتمركز خاصة في الصناعات التي تتطلب نسبة مرتفعة من الرأسمال ، في الصناعات المعدنية الاساسية (تســاهم عام ١٩٦٥ في ٤٨ ٪ من العمالة) ، في المناجم غير المعدنية (٢٥٫٥ ٪) ، في الاخشـــاب ومشتقاتها (٢٢٫٩ ٪) وفي المناجم (٢١ ٪).

في عام ١٩٦٥ بلغ عدد اليد العاملة التي يستغلها الهستدروت ٣٣ الف في القطـــاع الصناعي فقط ، ٤٨ ٪ منهم يعملون في مؤسسات حفرات عوفديم ، ٣١ ٪ في مؤسسات الكيبوتز و ٢١ ٪ في التعاونيات(١٨).

لقد تدنى حجم اليد العاملة الصناعية التي يستخدمها الهستدروت في العام ١٩٦٥ بالنسبة لما كان عليه عام ١٩٥٩ . ففي هذا العام بلغت النسبة ١٧٫٥ ٪ من مجموع اليد العاملة الصناعية واصبحت عام ١٩٦٥ ١٥٫١ ٪ . يعود هذا الانخفاض الى هيمنة القطاع الخاص . عام ١٩٦٥ ، كانت ٩٣٫٣ ٪ من المؤسسات الصناعية تتبع القطاع الخاص وتستخدم ٧٦ ٪ من اليد العاملة الصناعية . ان حفنـــة من المجموعات المالية (بنك ديسكونت ، الشركة المركزية للتجارة والصناعة ، مجموعة ولفسون ، بنك ليومي) تسيطر على ثلاثة ارباع الانتاج ، كما ورد في بنك اسرائيل . من ناحية أخرى ٩٦ ٪ من المؤسسات التي انشئت في السنوات العشر الماضية تتبع القطاع الخاص(١٩)، بينمـــا ٥٫٥ ٪ فقط من المؤسسات تتبع قطاع الهستدروت الذي يستخدم ١٥ ٪ من مجموع اليد العاملة الصناعية . اما القطاع العام فيملك من المؤسسات بنسبة ١٫٢ ٪ ويستخدم ٨٫٥ ٪ من مجموع اليد العاملة الصناعية .

	عدد المؤسسات	٪	اليد العاملة	٪	معدل الاستخدام في المؤسسة الواحدة
القطـــاع الخاص	٢٢٨٨٧	٩٣٫٣	١٧٠٠٤٩	٧٦٫٠	٧
القطاع الهستدروت	١٣٥٤	٥٫٥	٣٣٧٠٨	١٥٫٠	٢٥
القطاع العـــام	٢٨٧	١٫٢	١٩٠٣٥	٩٫٠	٦٦
المجمـــوع	٢٤٥٢٨	١٠٠٫٠	٢٢٢٧٩٢	١٠٠٫٠	٩

المصـــدر : *Statistical Abstract of Israel, 1967.*

ج ــ **تراجع الهستدروت لمصلحة القطاع الخاص** : برهنت النتائج السابقة الاهمية الكبرى التي يأخذها القطاع الخاص على حساب قطاع الهستدروت وتؤكد لنا احداث اخرى تمت ما بعد عام ١٩٦٧ صحة هذا الاتجاه .

خسر حزب الماباي ــ وهو الحزب الحاكم ــ بعض مراكزه في الهستدروت فهو كان يمثل دائما الاكثرية وقد حصل على ٦٢ ٪ فقط من مقاعـــد الهستدروت في الانتخابات الكونفدرالية عام ١٩٦٩ بينما نال ٧٧٫٥ ٪ من المقاعد عام ١٩٦٥ . فالحزب اليميني المتطرف « حيروت » Herout قد حقق تقدما اذ نال ٢٠ ٪ من المقاعد عام ١٩٦٩(٢٠).

ومن جهة اخرى ، فقد برز بوضوح التناقض بين البورجوازية الصهيونية (المهيمنة على الهستدروت والقطاع العام) والبورجوازية الاسرائيلية العالميـــة (المهيمنة على القطاع الخاص) عندما انعقد المؤتمر الاقتصادي الدولي للميليادير اليهود في القدس في نيسان ١٩٦٨ . أصر الميليارديز ، وعددهم سبعون ، بأن تلعب الحكومة الاسرائيلية دور الشريك فقط على غرار اصحاب المؤسسات الخاصة وطلبوا بأن يكون للاستثمارات مردودا عاليا وان يتقلص تأثير القطاع التعاوني (الهستدروت) على الاقتصاد . في هذا المؤتمر تطرق آلان بروفمان ، وهو كندي ، الى موضوع الضمانات التي تقدمها الحكومة للقطاع الخاص وطرح الاسئلة التالية : « هل يوجد تضييق على نمو الاعمال الخاصة ؟ هل تفسح النقابات العمالية المجال امام الاستثمارات الخاصة لتحصيل الارباح ؟ هل تسمح البنية (الوضع) الاقتصادي باختراق السوق العالمية ؟ هل توجـــد افضليات ممنوحة للمؤسسات العامة او للمؤسسات التي تديرها الدولة ، بحيث يستطيع القطاع الخاص المنافسة وتأمين مدخول مرضي ؟ » . ان الجواب على بعض هذه الاسئلة قدمه رئيس جمعية الصناعيين في اسرائيل والناطـــق بلسان المؤسسات الخاصة « زلمـــان سوزاييف » الذي قال : « لا الهستدروت ولا الدولة ستتدخل بالاعمال ونشهد منذ فترة وجيزة اتجاها للابقاء على الوضـــع القائم »(٢١). نستدل من الاسئلـــة المطروحة ان البورجوازية العالمية تشكو من العوائق التي يخلقها وجود القطاع التعاوني امام توسع أعمالها ، مما دفعها لرهن الاستثمار بعدد من الشروط اهمها تخفيف اثر الهستدروت في الاقتصاد .

بعد حرب ١٩٦٧ وبالتحديد بعد مؤتمر الميليارديز عـــام ١٩٦٨ نمت الاستثمارات الخاصة بوتيرة مرتفعة على حساب قطاع الهستدروت . فمثلا عرض اثناء المؤتمر شارل كلور وهو انكليزي ويملك شركة الكترونية ضخمة (تلكو) في انكلترا عرض دمجها مع شركة تلراد التابعة لشركة « كور » ولوزارة الدفاع . وقرر بيتمان ، وهو من الولايات المتحدة ، ليس فقط طبع كتب بالاشتراك مع الهستدروت، وانه أيضا يتعهد بترويج هذه الكتب في أسواق الولايات المتحدة نفسها(٢٢). ان اتجـــاه اشراك القطاع الخـــاص

بمؤسسات الهستدروت قد عبر عنه ممثل الهستدروت في المؤتمر اشير يدلين : « ان حفرات عوفديم (التابعة للهستدروت) تتطلع باهتمام لاقامة الصلة مع رجال الاعمال الاجانب بغية جذب الاستثمارات الاجنبية »(٢٣). وهكذا فبين المشاريع المقدمة من قبل الهستدروت للمؤتمر الاقتصادي توجد عروض توسيع فنادق موجودة في ايلات (فندق ايلات) وفي القدس (فندق « موريه ») ، وكذلك بناء فنادق جديدة في منطقة تل ابيب، ان نسبة مساهمة الرأسماليين الاجانب في هذا المشروع السياحي تبلغ ٥٠ ٪(٢٤). ومن ناحية اخرى باعت شركة « كور » والشركة المركزية عام ١٩٧١ مصالحها في شركة الباصات الانكليزية « ليلند » . سوف تسدد شركة « ليلند » والرأسمالي اسحاق شوبينسكي مليوني ليرة اسرائيلية وهو ثمن نصف الاسهم التي تملكها شركة كور والشركة المركزية(٢٥).

الهستدروت أداة سيطرة سياسية وايديولوجية على البروليتاريا اليهودية لضرب نضالها الطبقي وتأمين تماسك المجتمع الاسرائيلي :

لم يكتف الهستدروت بدوره باستعمار فلسطين وطرد الشعب الفلسطيني منها واستغلال العمال اليهود ، فهو بالاضافة الى هذا كله يعمل من خلال موقعه « كنقابة » على لجم النضال الطبقي . وقد لعب الهستدروت دورا مهما على الصعيد الايديولوجي في صفوف العمال اليهود بتعبئتهم حول شعارات « العودة الى الارض » ، « العمل لليهود » ، « الانتاج اليهودي » . وهكذا وضع الهستدروت مصلحة الصهيونية على رأس اهتماماته على حساب دوره كنقابة : فقد أوضح مؤسسوها ان « المصلحة القومية » هي أولى من « المصلحة الاقتصادية » و« المصلحة الثقافية » . حتى اليوم ما زال الهستدروت يلعب هذا الدور بكسر الاضرابات وبتقديم العمال للمحاكمة امام « محكمة داخلية » وهذا باسم « المصلحة القومية » وبحجة التعبئة ضد العدو الخارجي. هذا ما تؤكده اضرابات عمال احواض اسدود عام ١٩٦٩ واضرابات صيف ١٩٧١ . لقد قدم العمال المعارضون امام « المحكمة الداخلية » واتهموا بأنهم أعضاء في حركة فتح وانهم مخربون لان عمال الاحواض في أسدود رفضوا الانصياع لطلب الهستدروت بوقف الاضراب(٢٦). اما اضرابات صيف ١٩٧١ فقد شملت قطاعات عديدة : عمال أسدود ، عمال المرفأ والمطارات والاطباء ... مما دفع سابير وزير المالية للاعلان « ان هذه الاضرابات هي أشد خطورة من الحرب » . كما أعلنت غولدا مئير : « ان خضات من هذا النوع ادت الى الفاشية في بلدان أخرى . ان الوضع يتدهور ليس بسبب العرب بل بسببكم انتم »(٢٧).

بحكم دوره ، للهستدروت تأثير كبير في اوضاع الطبقة العاملة لا يتأخر في استعمالها او التهديد بها كما حدث عام ١٩٦٩ اثناء اضراب عمال احواض أسدود . لقد هددت ادارة الهستدروت العمال الذين قدموا للمحاكمة بقولها : « اذا أدنتم فسوف تطبق عليكم العقوبة القصوى وهي تعني حرمانكم من منافع الضمان الاجتماعي لكم ولعائلاتكم »(٢٨). وبالفعل يحتكر الهستدروت بشكل شبه تام كامل التقديمات والضمانات الاجتماعية . ولهذا السبب ينتسب العمال اليه . ان هذا الموقع يسمح باستمرار سيطرته على الطبقة العاملة اذ يصبح النضال ضد الاستغلال في هذا الوضع صعب . فالعامل يجابه بالصرف من العمل وتجويعه هو وعائلته . « على العامل ان يطيع « الهستدروت » او يتخلى عن الحفاظ على عائلته » (أوري افنيري) .

من ناحية أخرى كتب جورج فريدمن الذي جاء بزيارة الى اسرائيل يقول : « التقيت بموظفين وجامعيين يعلنون ان السبب الرئيسي لانضمامهم للهستدروت هو الـ « كوبات حوليم » »(٢٩). والكوبات حوليم هي أضخم مؤسسة صحية في اسرائيل تابعة

للهستدروت ، تبلغ ميزانيتها ضعف ميزانية وزارة الصحة ويستفيد من خدماتها ٧٧ ٪ من السكان . هدف الهستدروت من ذلك تأمين استمرارية علاقات الانتاج بتوزيعهـا فتات ارباح الرأسمالية الهائلة وابقاء الوعي الطبقي في حدوده الضيقة بانتهاجها هذه السياسة الاصلاحية .

ان الهالة الدعائية الكثيفة التي يراد بها حجب دور الهستدروت الفعلي بتصويره انه يقوم بالدفاع عن مصالح العمال وسائر الاجراء لم تنجح ، فهو الاداة الرئيسية لقمع الاضرابات ، كما انه في الحقيقة كرب عمل يقوم بالدفاع عن مصالح ارباب العمل ، لم يعد ينخدع العمال بحقيقة الهستدروت انهم ناقمون على الوضع ويعبرون عن نقمتهم باضرابات لا تتقيد مطلقا بأوامر الهستدروت لا بل تتجه ضده . وسيتضح ذلك فيما يلي:

نضال العمال اليهود في فلسطين : لم تكن الصهيونية بتوجهها لليهود بجميع طبقاتهم وفي سائر انحاء العالم تريد تحقيق مصالحهم . كانت تحقق فقط مصالح الطبقة التي حملت هذه الايديولوجية . ان دفع اليهود الشرقيين للهجرة من بلادهم لـم يكن بهدف تحسين وضعهم وشروط معيشتهم ، لقد كانت البورجوازية الصهيونية بحاجة الى طبقة عاملة يهودية لتستغلها ولتشكل الاطار القومي الضروري الذي يسمح لها بلعب دور طبقي قيادي في المجتمع الجديد ولكي تستطيع اضطهاد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية بشروط أفضل . لقد هاجر اليهود « السفراد » الى اسرائيل على أمل تأمين حياة أفضل وايجاد المساواة كما صورتها لهم الدعاية الصهيونية .

بعد انتفاضة « الفهود السود » في اسرائيل يقول الصهاينة انهـم فشلوا في تأمين المساواة وانهم سيولون موضوع اليهود « السفراد » الاهتمام الكامل لحله خلال فترة السنوات العشر القادمة . ولكن بعيدا عن ضجيج الدعاية فان مسألة المساواة تضرب بجذورها في أسس المجتمع الاسرائيلي وتطلب لحلها تغيير النظام الرأسمالي الصهيوني القائم على استغلال قوة العمل . فحل مسألة المساواة بين الطبقة العاملة وارباب العمل في ضمن النظام الرأسمالي ادعاء واهم .

ومن جهة اخرى تواجه اسرائيل تناقضا ناتجا عن عملها لتحقيق أحد أهداف الصهيونية وهو صهر اليهود المشتتين في مختلف انحاء الارض لان ذلـك يضع مجموع اليهـود « السفراد » لمواجهة نظـام رأسمالي صهيونـي يختلف عن النظـام الرأسمـالي « التقليدي »(٣٠) . ان حل هذا التناقض يستدعي طرح مبرر وجود دولة اسرائيل .

ان الايديولوجية الصهيونية تطمس وتشوه التناقضات الطبقية . فالشعب مستنفر لمواجهة العدو الخارجي : تصور الصهيونية الشعب الفلسطيني والشعوب العربية انها قوى غريبة عن فلسطين وبالتالي معادية لتحرر « الشعب اليهودي » .

تلعب الايديولوجية دورا فائق الاهمية تستخدمه الطبقة الحاكمة لتطمس الاستغلال الطبقي وكما يقول محمود حسين : « ذاتيا يتصرف المستعمرون كما لو انهم رواد قضية مثالية ، مقتنعون « بحقوقهم التاريخية » ومستعدون للموت في سبيل تحقيقها » ولكن « موضوعيا تصرفهم عنصري معاد للعـرب ، استعماري ، قمعي يخـدم الامبريالية مباشرة »(٣١) .

ان تطور أشكال النضال الذي تواجه به الطبقة العاملة في اسرائيل الطبقة المستغلة الاستعمارية بطبيعتها لن يتم بين ليلة وضحاها . فالوعـي الثوري تنضجه النضالات الطويلة والشاقة .

كيف يتم نضال العمال اليهود اليوم في اسرائيل :

١ ــ **نضالات العمال : أشكالها وأهدافها** : على الرغم من الايديولوجية التي ما زالت تؤمن تماسك المجتمع الاسرائيلي في ظل هيمنة الصهيونية ، قام العمال اليهود بانتفاضات عديدة ضد الاستغلال والقهر الذين يتعرضون له . يدل على ذلك سلسلة الاضرابات المهمة التي حصلت على امتداد عامي ١٩٦٥ ــ ٦٦ . في هذه الفترة بلغت التناقضات الطبقية ذروتها نتيجة الازمة التي كان يعانيها النظام الرأسمالي الصهيوني ، اذ تدنت المساعدات الخارجية*. فكون هذه المساعدات تشكل كدعامة هامة تستند اليها دولة اسرائيل وقعت بأزمة اقتصادية فارتفعت الاسعار وطالت البطالة ٩٠ الف عامل . في هذه الفترة بلغ مجموع المضربين ٩٠ الفا عام ١٩٦٥ بينما كان ٤٨ الفا عام ١٩٦٤ . أن عوارض التفكك هذه التي بدأت تظهر في المجتمع الاسرائيلي ما لبثت حرب حزيران ٦٧ أن أضعفتها . لقد أعيد تماسك مختلف الطبقات « لصد الخطر الخارجي » ! فلم تشمل الاضرابات عام ١٩٦٨ الا ٤٢ الفا . والجدير بالملاحظة هو ان ما حصل الان كان قد حصل في السنوات السابقة لحرب السويس عام ٥٦ وفي السنوات التي تلتها . يبين الجدول التالي تطور عدد الاضرابات في الفترة الممتدة بين ١٩٤٩ و١٩٦٩ :

السنة	عدد الاضرابات	عدد المضربين (بالالوف)	عدد ايام الاضراب (بالالوف)
١٩٤٩	٥٣	٥	٥٧
١٩٥٠	٧٢	٩	٥٥
١٩٥١	٧٦	١٠	١١٤
١٩٥٢	٩٤	١٤	٥٨
١٩٥٣	٨٤	٩	٣٥
١٩٥٤	٨٢	١٢	٧٢
١٩٥٥	٨٧	١٠	٥٤
١٩٥٦	٧٤	١١	١١٣
١٩٥٧	٥٩	٤	١١٦
١٩٥٨	٤٨	٦	٨٨
١٩٥٩	٥١	٦	٣١
١٩٦٠	١٣٥	١٤	٤٩
١٩٦١	١٢٨	٢٧	١٤١
١٩٦٢	١٤٦	٣٨	٢٤٣
١٩٦٣	١٢٧	٨٧	١٢٩
١٩٦٤	١٣٨	٤٨	١٠٢
١٩٦٥	٢٨٨	٩٠	٢٠٨
١٩٦٦	٢٨٢	٨٧	١٥٦
١٩٦٧	١٤٢	٢٥	٥٨
١٩٦٨	١٠١	٤٢٫١ (١)	٧١٫٢ (١)
١٩٦٩	١١٤	٤٤٫٥ (١)	١٠٢

المصـــدر :

Annuaires Statistiques, 1965 and 1967, Bank of Israel Annual Report, 1967.
(1) *Israel Economist,* May 1970, p. 117.

* من ٢٤١ مليون دولار عام ٦٥ اصبحت ٢٩٢ مليون دولار عام ٦٦ .

خلال عامي ٧٠ ــ ٧١ ارتفعت نسبة الاضرابات وازدادت نقمة العمال . يرجع ذلك الى أن موازنة الدفاع تمتص نسبة هامة من موازنة الدولة (حوالي ٤٠ ٪ و٣٠ ٪ من النتاج القومي العام) . تميزت فترة عامي ٧٠ ــ ٧١ بانتفاضة الفهود السود فقامت عدة مظاهرات في القدس وفي تل ابيب ، فاعتقل اثناءها رجال البوليس عددا منهم وجهت اليهم تهم الخيانة وارتكاب جريمة . فوجئت غولدا مئير بمظاهرات الفهود السود وطرحت : « أيعقل أن يقذف يهود على يهود آخرين قنابل مولوتوف في بلد يهودي » !!

المستوى الذي بلغه النضال الطبقي : ما زال نضال العمال في اسرائيل يقتصر على المطالبة بتحسين اوضاع المعيشة والعمل ولم يصل بعد الى المستوى السياسي ليطال طبيعة الدولة الاسرائيلية . واليهود الشرقيون يأملون في أن يعاملوا كاليهود الغربيين وشعار الفهود السود الاول طرح التساؤل التالي : متى يصبح اليهودي الشرقي كاليهودي الغربي . ان وعي اليهود الشرقيين لموقعهم الطبقي وهم يشكلون البروليتاريا ما زال مطموسا الى حد ما بالعامل العنصري فهم يعتبرون ان الشروط المعيشية التي يعانون منها تعود لكونهم شرقيين لذلك فنقمتهم موجهة ضد اليهود الغربيين وليس ضد الطبقة المستغلة .

ان مسالة المساواة بين اليهودي الشرقي والغربي هي طرح جزئي وغير متكامل للمشكلة بأبعادها الحقيقية وهي مسألة تحرر البروليتاريا من استغلال وقهر الطبقة الحاكمة . لذلك فالجواب عليها يتم بالوعي الثوري لطبيعة الكيان الصهيوني الاستعماري . ان ما قاله ماركس : « الشعب الذي يقهر شعبا آخر لا يمكن ان يكون حرا » يعبر أصدق تعبير أن يحدد بشكل واضح الترابط بين قمع الفئات الكادحة والبروليتاريا في اسرائيل وقهر الشعب الفلسطيني والشعوب العربية . معنى ذلك ان نضال الفئات الكادحة في اسرائيل ضد استغلالها وقهرها يجب ان يتلاءم مع نضالها ضد سياسة الاضطهاد التي تمارسها اسرائيل تجاه الشعب الفلسطيني والشعوب العربية. وبكلمة أخرى ان يرتقي النضال الاقتصادي الى مستوى النضال السياسي . لقد وصف لينين النضالات الاقتصادية بالعفوية والعفوية هي دلالة عدم ادراك الجماهير لنمط الانتاج الرأسمالي . لقد فسر ذلك لينين بقوله : « ان العامل العفوي هو في حقيقته الشكل الجنيني للوعي . ان التمردات البدائية هي التعبير عن تكوين الوعي اذ يفقد العمال ايمانهم بدوام النظام الذي كان يرهقهم . وعلى الرغم من انها تعبير عن يأس وانتقام اكثر من كونها نضال »(٢٢) . ان تاريخ نضال الطبقة العاملة في روسيا يبين ان التمردات والاضرابات التي وقعت بعد عام ١٨٩٠ لم تتعد الصراع بين العمال وأرباب العمل (الصفة المميزة الاقتصادية) لتطال نمط الانتاج الرأسمالي . بهذا الصدد ، يقول لينين ، « اذا كانت الاضرابات التي وقعت بعد عام ١٨٩٠ تمثل تقدما هائلا بالنسبة لما كانت تعبر عنه « العصيانات » الا انها بقيت حركة عفوية أساسا»(٢٣) .

هذا وبقيت الاضرابات في اسرائيل ضمن اطار العمال وأرباب العمل دون ان تتخطاها للنضال ضد نمط الانتاج الرأسمالي وطبيعة الكيان الصهيوني ولكن بقاء هذه الاضرابات دون المستوى السياسي لا يلغي اطلاقا كونها تشكل مرحلة ارقى في وعي البروليتاريا .

٢ ــ **النضال الطبقي خارج الهستدروت** : ان اتساع النضالات العمالية خارج الهستدروت يمثل مرحلة ارقى في وعي الطبقة العاملة . وقد اتضح لهذه الطبقة بأن الهستدروت اداة بيد الطبقة الحاكمة لاستمرار سيطرتها .

ان ازدياد الوعي في صفوف الطبقة العاملة يستدل في عدد من الظواهر : ففي الانتخابات النقابية لعام ١٩٦٩ بلغت نسبة الممتنعين عن الادلاء بأصواتهم ٤٠ ٪ بينما كان معدل هذه النسبة في السنوات السابقة يتراوح بين ١٥ و ٢٥ ٪ كحد اقصى(٢٤). وكدليل آخر احصاء قام به الهستدروت نفسه ونشرت نتائجه في الدليل السنوي الذي أصدره عام ١٩٦٦ وقد جاء فيه «ان قسما لا يستهان به من العمال لا يتلمس اطلاقا مدى نشاط الهستدروت في الميدان النقابي ويعتبر ان وضعه لن يتغير بغياب النقابة العمالية». وهذا معناه ان « النقابة » موجودة اسما وغائبة فعلا . وورد ايضا : « ٢٠ ٪ من العمال أعلنوا ان اضرابات قد حصلت في مؤسساتهم مخالفة لرأي الهستدروت ، ٤٧ ٪ كان رأيهم انه في بعض الحالات من الافضل أن يعلن العمال الاضراب بلا ترخيص من الهستدروت ، وردا على سؤال : لماذا انتم اعضاء في الهستدروت ؟ فكانت الاجوبة على الشكل التالي :

٧٠ ٪ انتسبوا بشكل عفوي او لانهم « اضطروا » او « لاسباب شخصية » او « تمشيا مع العادة » او بسبب « الضمانات الاجتماعية » ، ١٦ ٪ لاسباب ايديولوجية ، ١٣ ٪ لان الهستدروت يدافع عن مصالح العمال »(٢٥).

بالاضافة الى ما تبينه هذه الاحصاءات من وعي عند العمال فان نضالات العمال هي دلائل أخرى تثبت هذا الواقع خاصة وان الاضرابات التي تحصل خارج « النقابة » تزداد وتتسع . فالاضرابات التي سمحت بها الهستدروت خلال عام ١٩٦٥ لم تتخط ٢٨،١ ٪ من مجموع الانقطاعات عن العمل . بلغت هذه النسبة ٤٣،٨ ٪ عام ١٩٦٦(٢٦). فهذه الاضرابات تعلن دون موافقة « النقابة » وتستمر رغم عدم الموافقة . فمثلا عام ١٩٦٩ بلغ عدد الاضرابات ١١٠ منها ٦٢ دون موافقة الهستدروت و٤٨ سمح بها . ٩٥ اضرابا حقق نتائج ايجابية للعمال من اصل الـ ١١٠ ، ٤٧ منها لم يسمح بها الهستدروت(٢٧).

٣ ــ **النضال ضد الهستدروت** : يشن العمال ايضا نضالات في مؤسسات الهستدروت الاقتصادية. يرتكز هذا القطاع كالقطاعين الخاص والعام على استغلال الطبقة العاملة. لقد اعلن وزير الزراعة حاييم جفاتي وهو أحد المسؤولين الرئيسيين في الهستدروت في مجلس للهستدروت عقد عام ١٩٦٤ : « لم ننجح بتحويل هذا الغنى الهائل الى خلايا اقتصاد اشتراكي . لم ننجح في الحفاظ على الطابع العمالي لقطاعنا الاقتصادي . في الواقع لم نعد نرى ما يميزه عن باقي القطاع العام وحتى في بعض الاحيان عن القطاع الخاص . فقطاعنا الاقتصادي لا يتميز بمناخ مختلف ، بعلاقات عمل مختلفة كما لا نلاحظ أيضا علاقات انسانية مختلفة عن أية مؤسسة اخرى »(٢٨).

ان الصراعات في مؤسسات الهستدروت قد أضاعت ٣٩٤٥٨ يوم عمل بينما بلغ هذا الرقم ٦٠١٧٦ في القطاع الخاص و١٠٥٥٩٦ في القطاع العام(٢٩). ان القطاع العام والهستدروت هما ، كما اوضحنا سابقا ، الادوات التي تستخدمها البورجوازية لتمكن سيطرتها على المجتمع وتدعم موقفها القيادي لسائر الطبقات الاخرى .

الخاتمة

لقد توخينا في هذه الدراسة المساهمة بفهم الدور الذي لعبه الهستدروت في المجتمع الاسرائيلي منذ تكوينه حتى اليوم وعلى كافة المستويات الاقتصادية والسياسية والايديولوجية لقناعتنا بأن المعالجة الايجابية لا بد ان تحيط بالموضوع من كافة جوانبه لترابطها وتكاملها . كما أوضحنا بعض المفاتيح التي استخدمناها في التحليل . قد يتبادر الى الذهن التباس سرعان ما يوقع المفكرين وطالبي المعرفة بوهم مؤداه امكانية نشوء

قطاع عام او أي شكل مؤسسي آخر ، كالهستدروت ، تلتقي فيـــه علاقات الاستغلال فيسعى لتحقيق أهداف سامية تحلق فوق الواقع . ان ما أردنا توضيحه هو ان هذه الافكار هي أحلام ليلة صيف سرعان ما تنتهي ، لنبـــين أن أهداف الهستدروت هي المساهمة باستعمار فلسطين وانه كأي مؤسسة أخرى يسعى الى الربح المادي لا فرق ان كان هذا الربح قريب المنال او بعيـــد الاجل . بعض الاقتصاديين وعلماء الاجتماع الصهاينة كـ « ايزنشتادت » Eisenstadt يقولون : « الهستدروت والقطـــاع العـــام يستثمرون بفروع غير مربحة «لتطوير» البلد ولاعتبارات «قومية»(٤٠) ولكن يستنكفون عن فهم الدوافع الحقيقية . فالقطاع الاقتصادي من الهستدروت والقطاع العام هما بيد الصهيونية ، لذلك يشكلان حماية من الدولة للبورجوازية لتقوم بعملية الاســـتعمار الاستيطاني وتوسيع الارض .

---

١ — Eisenstadt, *Israeli Society*, London 1967, p. 38

٢ — **المصدر نفسه .**

٣ — Revue ISRAC, Haim Hanegbi in « *La Histadrouth, syndicat-patron*», 1er semestre 1970, p. 22.

٤ — La Palestine économique 1936, « *Organisation des Travailleurs* », numéro spécial des Cahiers Juifs, pp. 166-167.

٥ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣ .

٦ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣ .

٧ — *The Europa Year Book*, 1969, Vol. 11, p. 696.

٨ — Georges Friedmann, « *Fin du peuple juif;*» Collection Idées, p. 111.

٩ — *Israel Economist*, Sept. Oct. 1972, p. 246

١٠ — *Israel Economist*, June 1972, p. 157.

١١ — **المصدر نفسه .**

١٢ — *Israel Economist*, June 1971, p. 205

١٣ — *Israel Economist*, Sept. Oct. 1972, p. 246

١٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٤٧ .

١٥ — Schlomo Sitton, *L'économie d'Israel*, p. 146

١٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٣ .

١٧ — Cahiers du Centre d'Etudes Socialistes : « *Imperialisme au Moyen-Orient* », No 99-103, 1970, p. 44

١٨ — Israel Economic Development, *Past Progress and Plan for the Future*, Jerusalem, March 1968, p. 412.

١٩ — *Israel Economist*, March 1967, p. 62

٢٠ — Revue Partisans : Eli Lobel in « *L'escalade à l'intérieur de la société israélienne* », No 52, mars-avril 1970, p. 116.

٢١ — *Israel Economist*, May 1968, p. 180

٢٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٨٠ .

٢٣ — **المصدر نفسه** ، ص ١٨٠ .

٢٤ — *Israel Economist*, May 1968, p. 194.

٢٥ — *Israel Economist*, February 1971, p. 83.

٢٦ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٥ .

٢٧ — *Le Monde*, 29-9-71 : «Israël au-delà des modèles», par Pierre Drouin.

٢٨ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٥ .

٢٩ — ج. فريدمن ، **المصدر السابق** ، ص ١٠٣ .

٣٠ — Rouge, *Journal de la Ligue Communiste en France*, juin 1971: interview d'Aric Boher (Matzpen)

٣١ — Mahmoud Hussein : *La lutte des classes en Egypte*, Ed. Maspero, p. 342.

٣٢ — لينين ، **ما العمل ؟**

٣٣ — **المصدر نفسه .**

٣٤ — لوبيل ، **المصدر السابق** ، ص ١١٦ .

٣٥ — هانجبي ، **المصدر السابق**، ص ٢٣ — ٢٤.

٣٦ — *Israel Economist*, April 1967, p. 90.

٣٧ — *Israel Economist*, May 1970, p. 117.

٣٨ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣ .

٣٩ — *Israel Economist*, Sept. 1966.

٤٠ — ايزنشتادت ، **المصدر السابق**، ص ١٠٣ .

بين الوفاق والانفراج

اسحق الخطيب

ان مثلنا الاعلى هو : انهاء الحروب ، والسلم بين الامم ، وايقاف النهب والعنف .

لينين(١)

لعل أكثر التعابير خداعا في اللغة السياسية هو ما اصطلح عليه « بالوفاق الدولي » اثر لقاء القمة السوفياتي ــ الامريكي في حزيران من العام الماضي . ويكمن الخداع في كونه محاولة التفاف على شعار آخر ناضلت من أجله البشرية طوال اكثر من نصف قرن ، ألا وهو شعار الانفراج الدولي أو التعايش السلمي . فكأن مروجي التعبير الجديد يهدفون الايحاء بأن شيئا ما ، جديدا ، أخذ يبرز على المسرح الدولي ... شيئا بدون جذور ، ولا يربطه رابط بالشعار النضالي الذي أخذ يفرض نفسه على مجرى الحياة السياسية في السنوات الاخيرة .

وعمليات الالتفاف من هذا النوع ليست نادرة في التاريخ ، فمن قبل حاول خصوم الاشتراكية بعد أن عجزوا عن مقاومتها او الاستمرار في تجاهلها ، ان يطلقوا عليها تسميات مختلفة كالعدالة الاجتماعية حينا او الاشتراكية المعتدلة حينا آخر . وكذلك فعل خصوم عيد العمال في أول أيار حين اضطروا للاعتراف به تحت اسم عيد العمل !

ان الوفاق ، لغويا ، لا يختلف في المعنى عن الانفراج والسلم وبقية حبات مسبحة المترادفات التي تزخر بها لغتنا العربية . ولكنه في المفهوم السياسي وبالطريقة التي اخرج بها عبر الصحافة والتصريحات الرسمية ، ليس الا تحايلا القصد منه اضفاء الطابع التآمري على لقاء القمة وابرازه في وضع المتعارض مع أماني الشعوب وعلى حسابهـــا .

وعلى النطاق العالمي حيث بقيت كلمة الانفراج Détente هي التعبير المعتمد ، فقد جهد خصوم الانفراج على اعطاء تفسيرات ومضامين مختلفة . فالبعض يحرص على اظهار الانفراج حصيلة طبيعية لتقارب النظامين : الاشتراكي (الذي أصبح ليبراليا) والرأسمالي (الذي تخللته الاشتراكية) ، وان دخولهما « مجتمع ما فوق الصناعي » قد وحد اهدافهما ! والبعض الاخر يصور الامر تخليا عن الاشتراكية لصالح الرأسمالية وتواطؤا سوفياتيا صريحا لاقتسام مناطق النفوذ . فما هي حقيقة الامر ؟

يعلمنا الديالكتيك انه لتفسير ظاهرة ما ، فان الامر يستدعي فك واعـــادة تركيب الاجزاء والعوامل التي تتكون منها الظاهرة . وفي موضوعنا ليس من طريق أسلم من العودة الى طبيعة النظامين وموقف كل منهما من قضية الحرب والسلام وما ترتب على هذا من ممارسات . فكل اناء ــ كما يقول مثلنا العربي ــ ينضح بما فيه ، وكل طبيعة تعبر عن نفسها بشكل ممارسات تطبيقية تنعكس تلقائيا عن هذه الطبيعة . فالانظمة الاجتماعية تحكمها قوانين موضوعية اكثر مما تحكمها رغبات البشر واراداتهم ، وهـــي تسير وفق هذه القوانين الخاصة بها في كل مرحلة من مراحل تطورها .

طبيعة النظام الرأسمالي

يعرف النظام الرأسمالي ، تبسيطا ، بأنه نظام الحد الاقصى من الارباح . وسعيا وراء هذا الهدف يخوض الرأسماليون صراعا ضاريا لا رحمة فيه . وبفعل هذا الصراع يتطور النظام الرأسمالي من المنافسة الحرة الى الاحتكار ، الى رأسمالية الدولة الاحتكارية وما يرافق هذا من نشوء الاستعمار ، وينقلب الشعار الذي استلهمت به الرأسمالية عهدها الزاهر من Laissez-Faire دعه يعمل ، الى Laissez-Mourir دعه يموت .

يتميز النظام الرأسمالي بفوضى الانتاج وغياب البرمجة والتخطيط ، الامر الذي يولد أزمات فائض انتاج بشكل دوري . اذ طالما بقي الطابع الاجتماعي للانتاج نقيضا للتملك الفردي لوسائل الانتاج في النظام الرأسمالي ، فان أزمات الانتاج وما يترتب عليها من تدمير للقوى المنتجة تبقى ملازمة للنظام كجزء من طبيعته . ان القوانين في الرأسمالية تعمل وفق قوانين الطبيعة العمياء المدمرة والخارجة عن ارادة الانسان .

وتحاول الرأسمالية التخفيف من آثار هذه الازمات او اجراء تباعد بين فترات وقوعها ، فتلجأ الى توجيه الاقتصاد وجهة عسكرية بغية تنشيط الانتاج وامتصاص الفائض منه . فالرأسمالي ، بتملكه وسائل انتاج الخيرات المادية ، لا يقوم بتلبية حاجات الناس من وجهة نظر رئيس جمعية خيرية ، وانما لان هذا يتيح له فرصة تحقيق ارباحه . فاذا ما اكتشف ان صنفا اخر من المنتوج ، مدفعا او دبابة او حتى أسلحة جرثومية ، يحقق له الشيء نفسه وبمقاييس أعلى ، فانه سرعان ما يحول خط انتاجه في هذا الاتجاه . ويتحول جزء من الاحتكارات الى الانتاج الحربي كوسيلة لتنشيط الحياة الاقتصادية التي دب بها الركود ، ومما يوفره هذا النمط من الانتاج من وتائر أعلى في فائض القيمة .

وخلال مرحلة زمنية قد تقصر او تطول ، يتخيل النظام الرأسمالي انه وجد في التسلح بلسمه الشافي ، ومن أجل تبرير هذا التوجه يفتعل عداوات خارجية ويؤجج روح العداء القومي ويكبح الصراعات الداخلية ويمتص مداخيل الشغيلة بشكل ضرائب متزايدة للانفاق العسكري . ويتولد عن هذا جو هستيري يغري بالتدخل الاستعماري مما يوتر الاجواء الدولية ويخلق المناخ الصحي الذي تتنفس فيه الرأسمالية بشهيق أعمق .

ان الروح العدوانية للرأسمالية جزء من طبيعتها ، وهذا يطبعها ، خاصة في المراحل العليا من تطورها ، بطابع رجعي وقمعي في الداخل والخارج كمعيقة لتطور القوى المنتجة وتقدم الشعوب . وفي مجال العلم والثقافة تقف الرأسمالية موقفا مغايرا لذاك الذي وقفته في بدء نشأتها عندما كان العلم والثقافة يخدمان اهدافها في وجه النظام الاقطاعي الآيل للسقوط . وليس بودنا الاحاطة بكل جوانب الرأسمالية وافرازاتها بقدر ما يهمنا الوصول الى اخطر ما تجد الرأسمالية نفسها أسيرة له بحكم قوانين تطورها ، وهو شهوة العدوان .

فاذا ضربنا صفحا عن الحروب التي كانت تشنها الدول الرأسمالية ضد بعضها من أجل اقتسام اسواق العالم وبسط سيطرتها عليها ، ووقفنا أمام ردود الفعل التي انتابتها من جراء قيام طراز جديد من الدول خارج اطار رأس المال ، وهو الحدث الذي ولد مقولة التعايش السلمي (موضوع بحثنا) ، لوجدنا ان الرد على أول مرسوم أصدرته السلطة السوفياتية في اليوم الاول من قيامها ، وهو مرسوم السلام ، كان التدخل المسلح بأربع عشرة دولة رأسمالية لخنق المولود في مهده .

منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا ، دأبت الدول الرأسمالية الكبرى على التهيئة للحرب ضد الاتحاد السوفياتي بشتى الطرق والاساليب أملا في أن تحين الفرصة للانقضاض عليه بعد محاصرته واضعافه . ولئن كانت الامكانية قد أخذت تضعف شيئا فشيئا على مر السنين ، فليس مرد هذا تحكيم منطق العقل لدى قادة الدول الرأسمالية أو حدوث تغيير في طبيعة رأس المال ، وانما لعدة أسباب اخرى سنأتي على ذكرها.

بعد ان فرغ الحلفاء من اقتسام غنائم الحرب العالمية الاولى ، اعلن ويلسون رئيس الولايات المتحدة الامريكية في ذاك الحين الحرب على الثورة الاشتراكية عبر تصريحه « بأن القوى الحليفة ليس لديها النية لان تقف موقف اللامبالاة بالنسبة للبلشفية » .

واذ فشل العدوان الذي استمر أربع سنوات ، لجأت الدول الاستعمارية الى فرض حصار اقتصادي ودبلوماسي بغية اضعاف النظام وخلق شروط افضل لهزيمته. وحتى عام ١٩٢٤ لم يكن سوى بضع دول يعترف بالاتحاد السوفياتي ويقيم معه علاقات تجارية ، وظل هذا الحال ، مع تطور بسيط ، حتى عام ١٩٣٣ اثر عدوان اليابان على الصين وقيام حكم فاشي في المانيا . اذ برزت الضرورة لانفراج اكبر بغية صد العدوان ، وتم عقد اتفاقيات مع العديد من البلدان ودخل الاتحاد السوفياتي عصبة الامم .

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبروز منظومة اشتراكية على انقاض المجتمعات الرأسمالية في شرق اوروبا ، أخذت الدول الرأسمالية تشعر بتزايد الخطر على انظمتها ، وخرجت الولايات المتحدة الامريكية على المسرح الدولي كزعيمة للدول الرأسمالية ووريثة امبراطورياتها .

ان القوة المتزايدة التي خرجت بها الولايات المتحدة من الحرب ، قياسا بالدول الرأسمالية الاخرى سواء تلك التي ذاقت طعم الهزيمة او الانتصار ، قد مكنتها من بسط سيطرتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية على مجموع العالم غير الاشتراكي، وتمكنت عن طريق « مساعداتها » ، وهي في الغالب الاعم مساعدات عسكرية ، وتصدير رؤوس الاموال واقامة القواعد والاحلاف العسكرية، ان تجر العديد من الدول الى جو الحرب من جديد .

ففي أوروبا انشأت حلف الناتو وفي آسيا حلف السنتو وحلف السيتو والحلف الاسيوي الباسيفيكي « أسباك » ، وحلف الانزوس (بينها وبين استراليا ونيوزيلاندة)، الى جانب ٤٢ اتفاقية ثنائية اخرى مع دول في آسيا وامريكا اللاتينية وأوروبا(٢).

استلغت امريكا انفرادها بامتلاك القنبلة الذرية لاتباع سياسة ابتزاز دولية ، فأخضعت العديد من الدول بحجة حمايتها وزرعت في أراضيها ٣٤٠٥ قواعد عسكرية بين صغيرة وكبيرة(٢)، وفرضت على هذه الدول نفقات عسكرية باهظة وجرتها الى سياسة الحرب الباردة .

في هذا الجو ابتدعت الولايات المتحدة مشروع مارشال ومبدأ ترومان ومبدأ ايزنهاور وشنت الحرب الكورية وحرب الهند الصينية وتدخلت في اليونان وغواتيمالا والدومينيك وكوبا ولبنان ، وقلبت أنظمة حكم عدة دول في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . وكما يقول ريتشارد بارنت ، احد كبار موظفي الخارجية الامريكية ومدير معهد الدراسات السياسية في واشنطن ، فان الولايات المتحدة كانت منذ الحرب العالمية الثانية تتدخل بهذا الشكل او ذاك في الدول الاجنبية بمعدل مرة واحدة كل ١٨ شهرا .

ورافق هذا تسعير جو محموم ضد القوى الديمقراطية في الداخل عن طريق لجنة

مكارتي . وفي فرنسا انهارت حكومة الوحدة الشعبية التي كانت تضم الشيوعيين بتحريض من الولايات المتحدة ، وبزغ نجم دعاة الانتقام وحظر نشاط الحزب الشيوعي في المانيا الغربية .

اوكلت الولايات المتحدة لنفسها مهمة الدرك العالمي ، فما من بلد لا يكيف اوضاعه وفق هذه الصيغة الا وناله من الولايات المتحدة نصيب من المحاصرة او التآمر او العدوان ، اما تجاه دول المعسكر الاشتراكي فان مهمة الدركي الامريكي تحرير شعوبها !

كانت دقات طبول الحرب هي النغم المفضل في الولايات المتحدة ، وأخذت الدعاية للحرب تجد تعبيرا لها في الافلام ووسائل الاعلام ومراكز الابحاث ودور العلم . وليس صدفة ان تبعث نظريات مالتوس عن طريق مجموعة أساتذة في جامعة بنسلفانيا . للتبشير بأن « الانفجار السكاني لهذا القرن سيكون مدمرا بنفس القوة التدميرية للقنبلة الذرية او الحرب العالمية »(٤) .

ارتفعت النفقات العسكرية في الموازنة الامريكية من ٩٠٧٪ عام ١٩٣٩ الى ٤١٠١٪ عام ١٩٦٧ ، وبلغت عام ١٩٦٩ ٨١٠٣ مليار دولار ، وان كانت في حقيقة الامر تتجاوز ١١٢ مليارا اذا ما احتسبنا اعتمادات هامة مندرجة تحت بنود اخرى(٥) . وما ينطبق على امريكا ينسحب على معظم الدول الرأسمالية خاصة تلك التي تشكل مجموعة حلف الاطلسي حيث بلغت النفقات العسكرية لعام ١٩٧١ ١٣٠ مليار دولار .

من خلال التلويح بالخطر القادم من الشرق ، ومكائد الشيوعية التي تهدد النظام من الداخل ، استطاعت الولايات المتحدة ان تبسط سيطرتها على العالم غير الاشتراكي برمته ، وان ترتب فيه اوضاعا آمنة لتغلغل رأسمالها فيه بشكل واسع ، فقد بلغت التوظيفات المباشرة حسب احصاء عام ١٩٦٧ ١٨٠١ مليار دولار في كندا و١٠٠٢ مليارات في امريكا اللاتينية و١٠٠٧ مليارات في آسيا وافريقيا ، و١٧٠٩ مليارا في اوروبا(٦) . واستطاعت الشركات الامريكية ان تسيطر في هذه البلدان على ١٥ ٪ من انتاج السلع الاستهلاكية ، و ٥٠ ٪ من انتاج أشباه الموصلات و٨٠ ٪ من انتاج الحاسبات الالكترونية ، غير انشاء السيارات والنفط والانشاءات الميكانيكية ومناجم الماس والكوبالت والمنغنيزيوم(٧) . وعن هذا الطريق أمكن للاحتكارات الامريكية ان تجني ٥٧ مليار دولار أرباحا صافية في العام ، اي ما يعادل ١٠٠ ٪ من حجم توظيفاتها الخارجية ، علما بأن التوظيفات في النفط والماس والكوبالت في دول العالم النامي تعود بمردود يقارب الـ ٣٠٠ ٪ .

وفي كتابه « رأس المال » يحدد ماركس عملية نشاط الرأسمال كما يلي : « متى كان الربح ملائما صار الرأسمال جريئا ، ومتى بلغ ١٠ ٪ مضمونة أمكن استعمال الرأسمال أينما كان ، ومتى بلغ الربح ٢٠ ٪ أخذت الرأسمال الحمية ، ومتى بلغ ٥٠ ٪ صار الرأسمال ذي جسارة جنونية ، ومتى بلغ ١٠٠ ٪ داس الرأسمال جميع الشرائع الانسانية ، ومتى بلغ ٣٠٠ ٪ فلا تبقى هناك جريمة لا يقدم على ارتكابها حتى ولو تعرض لحبل المشنقة » .

ولنتوقف عند هذا الحد ، وان كان الوقوف عند حبل المشنقة لا يجلب البهجة ! ولنلق نظرة اخرى على طبيعة النظام الاشتراكي المعاكسة .

طبيعة النظام الاشتراكي

اذا كانت الرأسمالية ، كما رأينا ، تجد في توجيه الاقتصاد فوائد جمة تجنيها في العديد من المجالات ، واذا كان الاستغلال الطبقي المصحوب بالقهر هو الاساس الذي تقوم عليه الرأسمالية في الداخل ، فان استغلال الشعوب الاخرى واخضاعها عن طريق القوة والتدخل والحروب بغية استغلالها ونهب ثرواتها ، هو امتداد خارجي للحالة الداخلية ، وكلاهما يعبران عن طبيعة رأس المال . وعلى النقيض من ذلك يقوم الاقتصاد الاشتراكي الذي يهدف سد الحاجات القصوى المادية والروحية للناس .

في احدى مراحل تطور الرأسمالية ، وعند بلوغ التناقض أشده بين العمل ورأس المال ، وتوفر ظروف موضوعية وذاتية في بلد معين ، تقلب الطبقة العاملة النظام الرأسمالي وتبني مجتمعها الجديد الخالي من كل أشكال استغلال الانسان لاخيه الانسان .

والطبيعة الاشتراكية للنظام الجديد ، تتنافى ، كنقيض ، مع اهداف وطبيعة النظام الرأسمالي وممارساته . فهي سعيا منها وراء تحقيق مثالها الاقتصادي « سد حاجات الناس القصوى المتنامية » ، تسعى الى خلق وفرة في الانتاج المادي والروحي عن طريق تخطيط مبرمج . وتسعى في الوقت نفسه الى خلق انسان جديد يتخذ موقفا مغايرا من العمل ويعتبر استغلال الانسان عارا بشريا وبعيدا عن الكرامة الانسانية .

ومن المفيد التذكير ان هذا الموقف الذي يتخذه الانسان في النظام الاشتراكي ليس مرده في الاساس النوازع العاطفية بل طبيعة النظام الذي أوجدت هذه العواطف . وما ينطبق عليه ينطبق ايضا على الرأسمال ونوعية عواطفه . فليس بالضرورة ان يكون الرأسمالي شريرا بالفطرة ، ولكن طبيعة رأس المال في دورته الشهيرة ، تطبع الرأسمالي بكل صفات رأس المال الذي « يدوس على جميع الشرائع الانسانية ويقدم على ارتكاب أية جريمة حتى ولو تعرض لحبل المشنقة » .

ان طبيعة الاشتراكية الخالية من الاستغلال الطبقي في الداخل تشترط خلوها — بالنتيجة — من الاستغلال والقهر في الخارج . وشعار الاشتراكية في خلق وفرة انتاج مادية وثقافية لسد حاجات الناس المتنامية تفترض تلقائيا نبذ الانتاج العسكري باعتباره هدرا لا يسد حاجة بشرية . واضطرار الاشتراكية اتباع هذا النمط من الانتاج مرده حماية مكاسب النظام الاشتراكي امام تطاولات الرأسماليين . فاذا كان التوجه للانتاج العسكري فيه انعاش للاقتصاد الرأسمالي في فترات معينة ، فان مثل هذا الانفاق في النظام الاشتراكي يسبب عرقلة ويوقع اضرارا بالغة في الاقتصاد ، واللجوء اليه — اضطرارا — ليس سوى من قبيل الضريبة الفادحة التي لا بد منها في ظل التطويق الرأسمالي وخططه الرامية لسحق الاشتراكية وحركات التحرر في العالم .

ان النظام الاشتراكي القائم على السلم الداخلي بعد ان انتفى فيه صراع الطبقات اثر سقوط طبقة الرأسماليين وكبار الملاكين المستغلة ، يحتاج الى سلم خارجي كشرط من شروط تطوره وازدهاره . وهو اذ تحدوه الامال بالانتقال الى النظام الشيوعي حيث وفرة الانتاج التي لا سابق لها في تاريخ البشرية ، وحيث تتحقق فيه شخصية الانسان — أثمن رأسمال في الوجود — على أتم وجه ، فانه يحرص على كل ما من شأنه توفير الجو الملائم لهذا التطور .

ليس من مصلحة النظام الاشتراكي في الحروب العدوانية التي تستهدف فتح أسواق

جديدة واخضاع شعوب اخرى ، طالما انه اقتلع من الجذور تلك الطبقة التي تتطلع الى ما وراء حدودها سعيا وراء مجالات أوسع للاستثمار وتحقيق المزيد من الارباح عن طريق التدخل والحروب ، اذ فقط الشعب الفاقد حريته في الداخل يساق للحرب بغية افقاد شعوب اخرى حريتها لحساب مستغليه ... « لا يمكن ان يكون حرا ، الشعب الذي يستعبد شعبا اخر ــ ماركس » .

واستلهاما بالنظرية الماركسية اللينينية التي تعتبر الثورة نتاج صراعات طبقية داخلية وبروز وضع ثوري داخلي ، فان النظام الاشتراكي كذلك ، يعتبر تصدير الثورة امرا غريبا عليه ومنافيا لطبيعته .

الى جانب الطبيعة السلمية للنظام الاشتراكي كأساس هام من اسس تطوره وازدهاره ، وعامل فعال في تعميق ازمة النظام الرأسمالي من خلال ظروف اكثر ملاءمة لانضاج الصراع الطبقي وتشديد النضال التحرري للشعوب ، فان النظام الاشتراكي يرتكز في سياسته الخارجية على مبدأ الاممية البروليتارية ، اذ يجد من واجبه ، ومصلحته كذلك ، مد يد المساعدة للشعوب المناضلة ضد سيطرة الاستعمار ورأس المال ، واستدراكا أقول ، انني لا اتكلم عن الواجب من منظار اخلاقي ولا عن المصلحة من زاوية أنانية، فالاشتراكية التي تشكل التناقض الرئيسي مع رأس المال والامبريالية، ترى نفسها في خندق واحد وتحالف طبيعي مع كل القوى المناضلة ضد العدو المشترك، فالواجب ينبع من طبيعة الاشتراكية وفاشيا مع مصلحتها ، وما ضير الاشتراكية والحالة هذه اذا ما انسجمت مصلحتها ومصلحة الشعوب ؟ اليس في هذا ضمانة أكبر للشعوب في تمتعها بهذا الواجب الاممي وما يترتب عليه من مساعدات اخوية في كافة مراحل نضالها وتطورها ، مما لو كان الامر مرتبطا بعاطفة فرد او ضرورات مصلحية لمرحلة طارئة ؟

انطلاقا من هذا الانسجام ، بل الترابط العضوي في المصالح ، تقدم الاشتراكية للشعوب العون المتعدد الوجوه ، وكلما نمت قوى الاشتراكية انعكس مردود هذا النمو على الشعوب بشكل او بآخر ، والى جانب العون المادي والمعنوي المباشر ، تقدم الاشتراكية بقوة المثال عونا غير مباشر لا يقل اهمية ، فعن طريق هذا المثال وما يقدمه من حلول للمشاكل الاجتماعية والقومية ، تلعب الاشتراكية دور الملهم لشغيلة البلدان الرأسمالية في تشديد نضالها ضد رأس المال وبناء مجتمعها الجديد على انقاضه ، وتحفز شعوب البلدان الاخرى للانعتاق من نير الاستعمار والتخلف والسير على طريق التطور المستقل. كما انها تقوم بدور الكابح لتجاوزات الامبريالية على سيادة الشعوب، وتشكل ضغطا غير مباشر على الرأسمالية في اتجاه دفعها للقيام بتنازلات جزئية لصالح الشغيلة في بلدانها .

ان التأثير الذي تمارسه الاشتراكية على مجمل العملية النضالية في العالم ليس تأثيرا أحادي الجانب ، فبالمقابل تنعكس ايجابا انتصارات الشعوب على تطور الاشتراكية وتوفر لها ظروفا افضل ، فالعلاقة بين الطرفين علاقة جدلية يؤثر الواحد منهما في الاخر .

ان اخلاص الاشتراكية للسلم والتعايش السلمي لا يعادله سوى الاخلاص لمبادىء الاممية البروليتارية ، وكلاهما وجهان للعملة التي يتداولها النظام الاشتراكي . وليس بين دعم السلم ودعم نضالات الشعوب وحروبها العادلة تناقض كما يبدو من الناحية الشكلية ، فالماركسية تقر « ان هناك حروبا عادلة واخرى ظالمة ، ونحن نقف بلا تحفظ مع الاولى وبلا تحفظ ضد الثانية ــ لينين » .

السلم في ممارسات الاشتراكية

حتى مطلع القرن الحالي لم تكن الماركسية قد عالجت مسألة التعايش السلمي انطلاقا من أن رائدي الاشتراكية العلمية ، ماركس وانجلز ، لم يريا في ظل ظروف الرأسمالية التي عايشاها امكانية انتصار الاشتراكية في بلد واحد . وكان للينين الفضل الاول في ملاحظة ان الدول الرأسمالية لا تتطور بوتيرة واحدة وانما بدرجات متفاوتة ، مما يولد في السلسلة الرأسمالية حلقات ضعيفة يسهل كسرها بمطرقة الثورة الاشتراكية .

من خلال هذه الرؤية استنتج لينين امكانية التعايش السلمي بل وحتميته في عالم يقتسمه نظامان متضادان . ورأى ان التعايش السلمي بين النظامين ليس من شأنه حماية الثورة الاشتراكية الوليدة وتوفير وسائل بقائها وازدهارها فحسب ، بل هو الى جانب ذلك أداة هدم للاسس التي يقوم عليها النظام الرأسمالي . فالتعايش السلمي في المفهوم اللينيني ليس فقط طريقا لانتفاء الحرب ، بل اسلوب للعلاقات بين الدول يحترم السيادة الوطنية ويضمن التطور المستقل للشعوب وحقها في اختيار نمط حياتها دون خوف من تدخلات خارجية ، كما انه شكل اخر من الصراع الطبقي على النطاق الدولي . ومنذ نداء السلم الذي ولد على فم ثورة اكتوبر في يومها الاول عام ١٩١٧ ، حتى البرنامج السلمي الذي أقره المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي عام ١٩٧١ ، فان نشاط السلطة السوفياتية ، وفيما بعد منظومة الدول الاشتراكية وقوى السلم والحرية في العالم ، قد تميز بالنضال الدؤوب من اجل السلم والانفراج الدوليين . واذا كان النضال في بادىء الامر يحمل طابعا دفاعيا عن الثورة الاشتراكية، فانه مع اضطراد نمو النظام الاشتراكي وازدياد جبروته ، قد اخذ يتحول الى مرحلة الهجوم ، واخذ جيش السلام يتسع بانضمام دول وطنية حديثة الاستقلال وبروز حركات تحرر وطني وتعزز أحزاب الطبقة العاملة . وتوفرت قوى اعظم لتصعيد الضغط على الامبريالية واجبارها في النهاية على احترام السلم :

● **قوى المنظومة الاشتراكية** : ان الاشتراكية التي شقت طريقها في بلد واحد تعداد سكانه ١٥٠ مليونا قبل اكثر من نصف قرن ، قد أصبحت نظاما اجتماعيا لمنظومة اشتراكية تضم ١٤ بلدا تعداد سكانها يربو على الالف وثلاثمائة مليون انسان . والاشتراكية التي لم تكن عند قيامها تساهم في الانتاج الصناعي وميدان التجارة العالميين بأكثر من ٣ ٪ اصبحت تشكل حتى عام ١٩٧٠ اكثر من ٤٠ ٪ .

لقد تطور الانتاج الاجمالي للصناعة السوفياتية عبر نصف القرن الماضي بأكثر من ٥٠ ضعفا . وتضاعفت تجارته مع البلدان النامية ٣٠ مرة عما كانت عليه سنة ١٩٤٦ ، وبلغت مع الدول الرأسمالية المتطورة ستة مليارات روبل عام ١٩٧٢ . وفيما كان الحجم العام للدخل الوطني قد بلغ في اعوام (٣٦ — ٤٠) ١٥٤ مليار روبل ، فقد بلغ في أعوام (٦٦ — ٧٠) ١١٦٦ مليار روبل وهذا بدوره يزداد بنسبة ثابتة قدرها ٨ ٪ سنويا(٨). اما بقية دول مجلس التعاضد الاشتراكي فقد ضاعفت انتاجها الصناعي بحوالي سبع مرات خلال اعوام ١٩٥٠ — ١٩٧٠ .

ان الاتحاد السوفييتي يحتكر منذ زمن بعيد المراتب الاولى في العالم بالنسبة لعدد المهندسين والاطباء والعلماء والطلاب واقصر اسبوع عمل . هذا التعاظم في مقدرة المعسكر الاشتراكي ينعكس تلقائيا على مدى تأثيره في سير الاحداث العالمية ، فلم يعد مشكوكا فيه ان الاشتراكية ، وليست الرأسمالية كما كان الامر في الماضي ، هي التي تطبع سير الاحداث بطابعها وتوجه مسار التاريخ وجهته الحتمية .

● **قوى الدول الوطنية وحركات التحرر** : تسارع تطور الحركات التحررية في العالم بعد الحرب العالمية الثانية بشكل لم يسبق له مثيل ، ونالت ١١٣ دولة استقلالها السياسي وانفصلت عن التبعية المباشرة للاستعمار ، وهي وان ظلت تدور في فلك السوق الرأسمالية ، الا أن أقساما منها اخذت تشق طريق حياتها المستقل سياسيا واقتصاديا ، وأخذت تسير في طريق آخر غير الطريق الرأسمالي .

لقد وجدت هذه الدول التي خبرت مآسي الاستعمار والحروب العدوانية ، في النضال من أجل السلم والانفراج الدوليين فرصة ملائمة لكبح جماح تطاولات مستعمريها السابقين عليها ، وشكل العديد منها مجموعة عدم الانحياز بمفهومه النضالي الموجه ضد الاستعمار ومحاولاته فرض أحلافه عليها ، شعورا منها بأن جو الحرب الباردة يتيح للمستعمرين خلق ذرائع التدخل في شؤونها الداخلية واعادتها الى حظيرة الاستعمار من جديد . لقد أثار هذا الموقف استياء وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك ، جون فوستر دالاس ، الذي وصفه بالموقف اللااخلاقي .

ان حركات التحرر الوطني التي لم تصل للسلطة بعد ، تزداد قوة وترسخا على مر الايام . كما تشهد قارات آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية نهوضا شعبيا لتطوير أنماط حياتها في اتجاه ديمقراطي وتقدمي .

وتبرز كمثال ساطع لحركات التحرر ثورة الشعب الفيتنامي التي عمقت أزمة النظام الامريكي واوقعته في ارتباطات مالية ونقدية وتسببت له بعجز في ميزانيته لعام ١٩٦٩ مقداره ٢٥ مليار دولار(٩). وخلقت الى جانب ذلك تأثيرا هائلا على جماهير الشعب الامريكي الذي لم يسبق أن اهتز ضميره مثلما اهتز من جراء الحرب الفيتنامية . لقد تحرك الشعب الامريكي مثقلا بتأنيب الضمير والشعور بالذنب ضد حكومته لوقف تدخلها في الفيتنام ، وهذا التحرك الواسع وان كان مقتصرا لحد الان على قضية محددة، الا انه سيترك أثره بالتأكيد على ذهنية الفرد الامريكي ويدفعه لتساؤلات أعمق تجره لتحرك سياسي واجتماعي أشمل . ان تزايد حالات الفرار من الجيش ورفض التقدم للخدمة العسكرية ، ظاهرة لا تنم عن جبن تجاه الموت بقدر ما تدلل على موقف سياسي تجاه حرب قذرة ، ففي عام ١٩٦٨ وحده تضمنت سجلات وزارة الدفاع الامريكية ٥٣ ألف حالة فرار و٢٣ الف حالة رفض خدمة(١٠). وفي هذا يكمن المعنى العميق لما قاله ملك بروسيا في القرن الثامن عشر « لو علم جنودنا من أجل اي هدف نشن الحروب ، لما كان ممكنا على الاطلاق شن حرب واحدة » .

ان مثال الفيتنام الهم بالقدر نفسه الشعوب المناضلة من أجل تحررها وحقها في اختيار حياتها المستقلة ، وزعزع ثقة الحكام الرجعيين في قدرة امريكا على حماية أنظمتهم من انتفاضات شعوبهم .

● **قوى الطبقة العاملة في النظام الرأسمالي** : تلعب الطبقة العاملة في النظام الرأسمالي دورا هاما في النضال من أجل السلم، فهي بنضالاتها الاقتصادية والسياسية تزعزع اسس النظام الرأسمالي القائم في الاساس على استغلالها . ولقد تطور هذا النضال بحيث اخذ يشمل جماهير اوسع واوسع من الشغيلة ذوي الياقات الزرقاء والبيضاء على السواء . ففي ظل رأسمالية الدولة الاحتكارية تأخذ جماهير واسعة في الانضمام الى حلبة الصراع الاجتماعي الى جانب الطبقة العاملة ، فالفلاحون وصغار المنتجين وكل جماهير البرجوازية الصغيرة تصبح هدفا مباشرا للاستغلال من قبل الاحتكارات .

خلال الستينات بلغت أيام العمل الضائعة من جراء الاضرابات في البلدان الرأسمالية

المتطورة ١١٧٠٤ ملايين يوم عمل ، وارتفع عدد المضربين بين أعوام (٤٦ — ٦٠) الى ٢٢٢ مليون مضرب(١١). وفي أمريكا وحدها بلغ عدد الاضرابات عـــام ١٩٦٨ ٥٠٤٥ اضرابا بخسارة قدرها ٦٩ يوم عمل .

لم تعد الاضرابات ذات صفة مطلبية فقط ، وانما تعدتها لمطالب سياسية ، فقد بدأ الاضراب في البلجيك عام ١٩٦٠ بالمطالبة بالغاء تجميد الاجور وانتهى بمطالب ضد حلف الاطلسي وأسقاط الحكومة . وفي فرنسا بدأ اضراب الشغيلة عام ١٩٦٨ من اجل رفع المستوى المعاشي وأدى الى اضعاف الحكم المطلق .

ان المستوى العالي من التركز والتمركز الذي وصل اليه الاحتكار قد جعل ثروات المجتمع في قبضة حفنة ضئيلة من الطغمة المالية . ففي الولايات المتحدة تسيطر أقلية لا تتجاوز ½ ٪ من عدد السكان على ثلث الانتاج(١٢)، وفي بريطانيا يسيطر ٥ ٪ من السكان على ٦٢ ٪ من الانتاج(١٣)، اما في المانيا فان ٥ ٪ من السكان يملكون ٥٣ ٪ من ودائع البنوك(١٤).

وما يزيد الطين بلاً توجه هذه الاحتكارات الى الانتاج العسكري وادخال التحسينات عليه ، الامر الذي يزيد من نفقات تكلفته ، اذ ارتفعت تكاليف انتاج الغواصة عما كانت عليه سنة ١٩٤٥ بأربعين مرة، وحاملة الطائرات بعشر مرات، والقاذفات الاستراتيجية بـ ٣٦ مرة ، والمقاتلات بـ ١٣٠ مرة(١٥).

ان هذا الوضع وما رافقه من بطالة دائمة تقدر بـ ٤ ٪ من مجموع الايدي العاملة ، وارتفاع الضريبة التي تمتص ثلث المداخيل(١٦)، وتجميد الاجور وتفاقم الغلاء ، قد دفع بأوساط اوسع من الناس للنضال ضد الاحتكارات ونهجها الحربي . ففي حين تزداد الاحتكارات غنى يزداد وضع الاغلبية الساحقة من الجماهير صعوبة ، ويتكثف بشكل أشد حرمانها الاقتصادي وافقارها المعنوي ، وتتقلص الفرص أمام تطور الشخصية واغنائها بالعلم والثقافة . وتزداد الجريمة وتتسع الهوة بين مداخيل الفقراء والاغنياء (ازدادت ارباح الاحتكارات في السنين العشر الاخيرة بنسبة ٩٤ ٪ في حين لم تزد الاجور الا بـ ٣٢ ٪)(١٧). وفي تقرير أعده السناتور جوزيف كلارك يتبين ان الجريمة في الولايات المتحدة ازدادت بين اعوام (٥٧ — ٦٧) من مليون ونصف المليون الى اربعة ملايين حالة وان ٧٧ مليون أمريكي يعيشون في حالة فقر(١٨).

يصف ماركس وضع الانسان في المجتمع الرأسمالي بما يلي: « بالرغم من ان الانسان يختلف عن كل أنواع الحيوانات الاخرى في مجال احتياجـاته اللامحدودة وامكانيـــة تطويرها باتساع ، فليس هناك من حيوان آخر يقلص احتياجاته ويقتصرها على هذا الحد البائس من مستوى المعيشة مثله »(١٩).

ان تقلص احتياجات الانسان الناجم عن تقلص دائرة الثروة في أضيق بقعة من قمة الهرم الاجتماعي في النظام الرأسمالي ، يستتبعـــه بالضرورة تقلص في ثقة الجماهير بامكانية تحسين أوضاعها المعاشية في ظل هذا الاسلوب من الانتاج ، وفي قدرة هذا النظام الذي يعج بالازمات النقدية والاقتصادية والفضائح السياسية ، على تحقيق مطامحها. أن تحركات الشباب والطلاب والمثقفين وهم في الغالب الاعم ابناء البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ، لدليل على عمق أزمة الثقة بالنظام الذي كان حتى الامس القريب مثار اعجابهم .

الى جانب هذا الصراع المحتدم بين الجماهير وفي طليعتها الطبقة العاملة نظـــرا لموقعها في عملية الانتاج ، والاحتكارات ، فان صراعا آخر أخذ يشتد بين الاحتكارات الرأسمالية نفسها . فلقد فعل قانون التفاوت في التطور بين الدول الرأسمالية فعله ،

واخذت الدول التي كانت في موقع التبعية بالنسبة للاحتكار الامريكي ، تتخلص شيئا فشيئا من هذه التبعية وتشكل مراكز اقتصادية تنافس الاقتصاد الامريكي وتتناقض معه . فاليابان تحتل الآن المركز الثالث بالنسبة لمجمل انتاجها الوطني ، وتشكل دول السوق الاوروبية المشتركة قوة اقتصاديـــة يحسب حسابها في مواجهـــة الاقتصاد الامريكي . وهذا بدوره انعكس على مواقفها السياسية حيال العديد من القضايا التي كانت تكوّن فيها قناعاتها عبر القناعة الامريكية فيما مضى . فأخذت تتمرد على سياسة الحرب الباردة ، وتخفف من التزاماتها بحلف الاطلسي ، وتخرق التعهدات التي كبلتها بها مواد قانون « باتل » الامريكي بالنسبة للاتجار مع المعسكر الاشتراكي . واذا كان مثال فرنسا ساطعا في هذا المجال ، فليس أقل منه كثيرا موقف الدول الاخرى التي ظهر تناقضها مع الولايات المتحدة بشكل أبرز من السابق ابان حرب تشرين الاخيرة حين عارضت تقديم التسهيلات للجسر الجوي الامريكي لاسرائيل ، ووقفت موقفا متميزا بالنسبة للنزاع العربي الاسرائيلي ومن مسألة الطاقة . وقد عبر عـــن هذا هنري كيسنجر حين قال « ان اصدقاء امريكا يهتمون بالحصول على فوائد فردية تافهة اكثر من اهتمامهم بالعمل المشترك » . وأشارت النيوزويك بأسى الى أنه « ظهر في عاصمة أوروبية بعد أخرى ، أن أوروبا لم تعد خاضعة لليد العليا للولايات المتحدة » . أمـــا السناتور فرانك تشيرش فقد كان أثقب منهما نظرا عندما لاحظ منذ عام ١٩٦٦ بأن « ما يسيطر على أوروبا الآن ليس الانقسام والحرب الباردة بل اعادة الامور طبيعية بين الغرب والشرق (...) واذا لم ندخل اللعبة فان اللعبـــة ستجري بدوننا ، ان الحرب الباردة في أوروبا على الاقل قد انتهت »(٢٠).

مما لا شك فيه ، انه الى جانب موضوعية التناقض بين الاحتكارات الاوروبية من جهة ، والاحتكارات الامريكية من جهة أخرى، فقد لعبت الشعوب الاوروبية، وبالاخص طبقتها العاملة وأحزابها السياسية ، دورا نشيطا في تأزيم التناقض وبلورة المواقف السياسية المتميزة لبلدانها وفي زعزعة ارتباطها بعجلة الامبريالية الاميركية .

● **قوى حركة السلم** : لا يسعنا ونحن نعدد العوامل التي اثرت في تغيير موازين القوى لصالح النضال من أجل تعزيز السلام ، الا أن نشير لحركة السلم العالمية التي احتفلت في نيسان الماضي بذكرى مرور ٢٥ عاما على انشائها .

ان مجرد اقامة الاحتفال في نفس المكان (قاعة بلاييل بباريس) يحمل في طياته دلالات كبرى ، فمن هذا المكان طرد المجتمعون عام ١٩٤٩ في يوم اجتماعهم الثاني ، واقفلت القاعة في وجوههم بتدبير من الولايات المتحدة التـــي رأت في السلم تهديدا لمطامعها ولاجما لمراميها .

نشأت حركة السلم للنضال ضد نشوب حرب نووية في الاساس ، الا أنها من خلال تطورها وتغير موازين القوى أخذت صفوفها تتسع ومضامينها تتعمق بحيث لم تعد عضويتها تقتصر على لجان السلم المنتشرة في العالم ، وانما شملت حركات التحرير وقوى أخرى مناضلة ضد الاستعمار والتمييز العنصري . واقترن السلم في أهدافها بقضايا الاشتراكية والتحرر الوطني والدفاع عن الشعوب المضطهدة . « ان الاستعمار الجديد والتمييز العنصري والاضطهاد القومي ، هي احدى المصادر الرئيسية للتوتر والنزاعات في عصرنا (...) وان النضال الذي تخوضه الشعوب المضطهدة من أجل التحرر ليس فقط نضالا عادلا ومشروعا في سبيل حقوقها الكاملة ، وانما ايضا مساهمة قيمة في قضية السلام والامن الدوليين وفي تطوير التعاون الدولي »(٢١).

لقد أظهر مؤتمر السلام الذي عقد في موسكو أواخر العام الماضي مدى قوة وتأثير

هذه الحركة التي أخذت تضم عشرات الملايين من المكافحين من أجل السلم والتحرر الاجتماعي والوطني ، والى أي حد أصبح السلم سلاحا ماضيا تتسلح به الشعوب في كفاحها وتشل به تطاولات أعدائها .

هذه العوامل مجتمعة ، تعاظم قوة المعسكر الاشتراكي ، والطبقة العاملة العالمية ، وكفاح البلدان الوطنية وحركات التحرر ، والتناقض بين الدول الرأسمالية ، واتساع المشاركة النشطة لجماهير غفيرة في النضال ، وتزايد حجم ونفوذ حركة السلم العالمية، كل هذا ألجم تجار الحروب واضطرهم للتراجع . وليس في ذهن أحد بطبيعة الحال أن يتوهم حدوث تغير في طبيعة النظام الرأسمالي من جراء هذا التراجع ، ولا الايحاء بأن قضية السلم أصبحت مضمونة ولا يتهددها الخطر بعد الآن ، ولكن ليس من الصواب أيضا التقليل من أهمية ما استطاع النضال الدؤوب من تحقيقه في هذا المجال . فبفضل هذا النضال العنيد وما رافقه من نهوض ونمو في المقدرة ، أمكن فرض التراجع على الامبريالية واجبارها على الاخذ بعين الاعتبار حقائق العصر الجديدة . ان الزمن الذي كانت فيه الامبريالية تقرر مصير العالم قد ولى .

وهكذا انهارت سياسة الحرب البـــاردة وانتصرت ارادة السلام ، وتعمقت أزمة النظام الرأسمالي أكثر من ذي قبل . فالحرب الباردة التي طبعت العالم بطابعها خلال عقدين من السنين بعد الحرب العالمية الثانية قد باءت بالفشل . والاقتصاد الرأسمالي الذي وجد متنفسا في جو الحرب وسباق التسلح ، بات عليه أن يتخلى عن وتائر انتاجه وأرباحه العالية بعد أن تقلصت عنه العطاءات الحربية في ظل وضع الانفراج الجديد الذي أخذ يحل محل الحرب الباردة . فقد خفضت شركات مثل بوينج ولوكهيد وجنرال ديناميكس حجم التشغيل فيها بنسبة ٥٠ ٪ ، كما ان شركات أخرى مرتبطة كليا بالانتاج الحربي اخذت تفلس نتيجة عدم القدرة على الصمود ، ومنها مثلا شركة (بن سنترال) التي يبلغ رأسمالها العامل ٧ مليارات دولار(٢٢) .

لقد عبر الكثيرون من رجالات الدولة والفكر عن هذه الحالة الجديدة التي تمر بها الرأسمالية . فالعالم الالماني ستيرنبيرغ أشار الى انه « سيكون من الصعب على الرأسمالية ان تعيش في عام ٢٠٠٠ »(٢٣) . كذلك صرح تشير باولز رجل الدولة الامريكي قائلا « منذ عشر سنوات لم يتغير ميـــزان القوى السياسي والاقتصادي لصالحنا ، فالاقتصاد السوفياتي يتطور بوتيرة أعلى »(٢٤) .

وفي رسالته للكونغرس أشار نيكسون في حديثه عن المتغيرات في المجال العالمي الى « نهاية التفوق الذي لم يكن ينازع في القوة الاستراتيجية الاميركية، وبـــروز ميزان استراتيجي نووي جديد يحتل فيه كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة نسبـــا متقاربة »(٢٥) .

ان نكسون في رسالته لم يكن صريحـــا بالقدر المطلوب ، فهو لم يشر الى حقيقة المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على النطاقين المحلي والعالمي ، ولا الى دوافعها وأسبابها والنتائج المترتبة عليها . انه اكتفى بحصر المتغـــيرات في القـــوة الاستراتيجية الامريكية التي اصبحت بنسب متقاربة مع الاتحاد السوفياتي بعد ان كانت تتمتع بالتفوق المطلق ، أي ان توازن الذعر النووي هو الذي فرض الاتجاهات الجديدة في السياسة الامريكية . وهذا ليس حقا .

ان توازن الذعر النووي هو أحد الكوابح ضد الحرب بلا شك ، ولكنه ليس الكابح الرئيسي ولا الوحيد . ان تنامي القدرة في شتى المجـــالات والاوجه لدى المعسكـــر الاشتراكي بالدرجة الاولى ، وكل العوامل والمتغيرات التي سبق ذكرها ، هي التي

مهدت الطريق للسلم والانفراج الدوليين ، ولم يكن هذا الطريق بأي حال ، مفروشا يوما بالورود .

ان فشل سياسة الحرب الباردة أدى الى ايجاد جو ملائم لتصعيد الهجوم السلمي واختراق جبهة الحرب الباردة بالسلم ، مثلما تخترق الجبهة الحربية بالسلاح . فتم عقد اتفاقية حظر انتشار الاسلحة ، ومعاهدة حظر تخزين اسلحة نووية في الفضاء الخارجي وأعماق البحار وابرام الاتفاق الرباعي حول برلين ، وكذلك عدة اتفاقات ثنائية مع بعض الدول التي ضعفت الهيمنة الامريكية عليها بعض الشيء :

ـــ مع فرنسا معاهدات اقتصادية وثقافية وتجارية وفي مجال العلم والتكنيك وأبحاث الفضاء .

ـــ مع المانيا الاتحادية اتفاقات تعاون اقتصادي وصناعي وفني ، كما تم عقد اتفاقات ثنائية مع كل من بولندا والمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي بشأن انهاء مخلفات الحرب العالمية الثانية والاعتراف بسيادة كل دولة وبحرمة اراضيها . وتكمن أهمية الاتفاقيات الاخيرة مع المانيا الاتحادية في ان القضايا التي تعالجها كانت الى أمد قريب أشد سلاح من أسلحة الحرب الباردة. فالاوساط الانتقامية في المانيا الاتحادية ، بتشجيع من الولايات المتحدة كانت تطالب باعادة تقسيم القارة الاوروبية وفقا لما كانت عليه قبل العدوان الهتلري ، أي اقتطاع أجزاء من اراضي تشيكوسلوفاكيا وبولندا والحاقها بألمانيا الاتحادية ، كما كانت ترفض الاعتراف بألمانيا الديمقراطية كدولة مستقلة ذات نظام اجتماعي متميز .

ـــ عقد معاهدات صناعية وتجارية واسعة مع ايطاليا واليابان وكندا والعديد من الدول الاوروبية .

ونظرا لما للقارة الاوروبية التي اندلعت منها حربان عالميتان مدمرتان في هذا القرن ، فقد وجدت الدول الاشتراكية المنضوية في حلف وارسو ، ان الظروف اصبحت مهيأة لاقامة نظام أمن وتعاون اوروبي ، فدعت في أوائل عام ١٩٧٢ الى عقد مثل هذا المؤتمر، وقد ساعد جو الانفراج على تقبل الدول الأوروبية لهذا الاقتراح ، وتم عقد جلسات على مستوى رفيع للبحث في قضايا الامن والتعاون ، وهناك ما يدعو للتفاؤل بأن تتوصل الدول المعنية الى اتفاق .

وفي آسيا اقترح الاتحاد السوفياتي عقد معاهدة أمن جماعية بين دول المنطقة ، وبمبادرة منه في لجنة نزع السلاح بجنيف ، تم التوقيع على اتفاقية حظر تطوير وانتاج وتخزين الاسلحة السامة والبكتيريولوجية . وفي هيئة الامم تقدم الاتحاد السوفياتي في الدورتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين ، باقتراح عقد مؤتمر دولي لنزع السلاح ، وعقد اتفاقات لتحريم استعمال القوة في العلاقات الدولية وحظر استعمال الاسلحة النووية ، كما قدم اقتراحا بتخفيض النفقات العسكرية للدول الكبرى بنسبة ١٠ ٪ وتوزيع هذا الرصيد بشكل مشاريع تنمية على البلدان النامية .

هذه الانجازات على طريق الانفراج الدولي ، شكلت مع غيرها ، عوامل ضغط على موقف الولايات المتحدة . ولم يعد في وسعها الاكتفاء باظهار القلق مما أخذ ينشأ من متغيرات في الساحة الدولية وعلى الأخص في المجال الاوروبي الحليف . وأخذ العديد من المسؤولين ورجال الفكر يعترفون بالوقائع ويهزأون بالمواقف الدونكيشوتية التي لا تزال تمارسها الولايات المتحدة بعقلية تجاوزها الزمن . فقد صرح لويس لوندبورغ الرئيس السابق لمجلس ادارة بنك اميركا ، اكبر بنوك الولايات المتحدة ، امام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ « اذا أردتم امتلاك العالم فلا تبذروا طاقاتكم على

حروب خاسرة . اتبعوا مثال اليابان والمانيا منـــذ الحرب العالمية الثانيـــة ، وكونوا مهاجمين اقتصاديين » .

وعلى نحو مشابه أورد رجل الدولـــة والباحث الامريكي ريتشارد بارنت في كتابه « جذور الحرب » ، « ان قادة الانتاج اخذوا يلمسون بأن القوة الاقتصادية تشكل أداة أكثر نفعا من القوة العسكرية لفتح الاسواق والوصول الى مصادر المواد الخام » .

واكتشف دافيد روكفلر ان الدول الاوروبية سبقت الولايات المتحدة في مجال التجارة مع الاتحاد السوفياتي ، فأعلن « ان الحصار الاقتصادي الذي كانت تفرضه بلاده على المنظومة الاشتراكية قد استنفد أغراضه بعد أن امتد الى أبعد من المدى المطلوب »(٢٦).

أما السناتور ماتياس فيحاول الاستناد الى مقولات الماركسية في تحذير بلاده من مغبة مواصلة السير وراء التسلح ، فهو يقول امام مجلس الشيوخ « بأن الماركسية ـــ اللينينية تنبأت منذ زمن بأن الانفاق المتزايد على التسليح سيكون أحد العوامل الرئيسية في انهيار الغرب »(٢٧).

ان أول ما يلح على الذاكرة عند سماع هذه النغمة الجديدة من التصريحات ، قصة الثعلب الذي وجد العنقود حامضا ! فلسنا بحاجة للقول ، ان التحول في النظرة الى النمط العسكري الذي ساد الانتاج الرأسمالي ، والامريكي بشكل خاص ، يحمل من الدلائل أكثر مما تحاول التصريحات السابقة الايحاء به ، للتستر على اسباب التحول ودوافعه الحقيقية .

العلاقات السوفياتية ـــ الامريكية

لم يكن سعي الاتحاد السوفياتي الى اقامة علاقات سلمية ومعاهدات مختلفة مع الدول الاوروبية مرده النية في تجاهل الولايات المتحدة أو عدم الرغبة في عقد اتفاقات ثنائية معها تعزز الانفراج والسلم الدوليين . الا ان الظروف التي نشأت في العديد من الدول الاوروبية ، وانتهاج هذه الدول مؤخرا سياسة مستقلة الى حد ما عن التسلط الامريكي لاسباب سبق ذكرها ، قد أوجد وضعا أكثر ملاءمة من الوضع الذي بقيت عليه الولايات المتحدة فيما يتعلـــق بالسلم والتعاون . وقد كان مـــن حصافة الرأي استغلال هذا الوضع الناشىء وتطويق الولايات المتحـــدة بمناخ التعايش السلمـــي واجبارها على التنفس في أجوائه .

كان واضحا منذ البداية ان المستفيد الاول من جو الحرب الباردة هو البلد الرأسمالي الاقوى والاكثر تطورا ، وان النجاح والتقدم في مجال التعايش السلمي يعتمدان الى حد كبير على موقف هذا البلد الذي تحدده عوامل كثيرة تتلخص في رجحان او اختلال موازين القوى . ومما لا شك فيه ان هذا الميزان قد اختل في العديد من المجالات لغير صالح الطرف الامريكي ، وأمكن بعد هذا الاختلال فقط ان تنجح المساعي من اجل اقامة علاقات تعاون سلمي مع الولايات المتحدة .

واذا كان الرئيس الامريكي نيلسون قد صرح عام ١٩١٨ ممهدا للتدخل العسكري في روسيا ، بأن الحلفاء لا يستطيعون الوقوف موقف اللامبالاة من تطور البلشفية ، فان خلفه الرئيس نيكسون ، اكتشف ايضا ان الحلفاء لا يستطيعون الوقوف موقف اللامبالاة من البلشفية ، ولكن باتجاه الاحساس بالعجز واستحالة الاستمرار في تجاهل القدرة المتنامية للاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية .

ان موقف الرئيسين ينبع من وضع الرأسمالية في حقبتين مختلفتين من التاريخ يفصل بينهما اكثر من نصف قرن ، الاولى عند ازدهار الرأسمالية والثانية عند أفولها ، وليس

هناك تفكير بربط هذا التحول في موقفي الرئيسين الامريكيين بطبائعهما الشخصية الخيرة أو الشريرة . بل الطريف في هذا المجال ، ان الرئيس نيلسون ، على عكس نيكسون الذي ارتكب جرائم الحرب في الفيتنام واللاووس وكمبوديا ، والتدخل في التشيلي وبوليفيا والشرق الاوسط ، معروف بمبادئه الداعية للمساواة وحق العيش وتقرير المصير ! ولكن ما فرض على الولايات المتحدة اتخاذ الموقفين المتمايزين ، هو وضع القوة والضعف الذي مر بهما النظام الرأسمالي ككل .

لقد اخذ الحزب الشيوعي السوفياتي في مؤتمره الـ ٢٤ بعين الاعتبار الظروف المستجدة في المسرح الدولي ، وارتأى ان الاهداف السلمية التي نادى بها زمنا طويلا وركز عليها بشكل خاص في مؤتمراته العشرين حتى الثالث والعشرين ، قد أصبحت قريبة المنال ، فصاغ برنامجا متكاملا للسلام أوكل مهمة تحقيقه للجنته المركزية من أجل أن « تواصل بثبات تطبيق مبادىء التعايش السلمي وتطوير العلاقات مع الدول الرأسمالية (...) ان الاتحاد السوفياتي على استعداد لتطوير العلاقات مع الولايات المتحدة باعتبار ذلك ينسجم مع مصالح الشعبين السوفياتي والامريكي ومبادىء السلم العالمي . وفي الوقت نفسه فان الاتحاد السوفياتي سيظل على الدوام يعارض بحزم سياسة القوة والاعمال العدوانية للولايات المتحدة » .

لقد تضمن برنامج السلام عقد معاهدات حظر الاسلحة الكيماوية ، والعمل على خلق مناطق لاذرية ، ونزع السلاح النووي ، وتصعيد النضال لوقف انتاج الاسلحة التقليدية والذرية وعقد مؤتمر عالمي لنزع السلاح ، وفك القواعد العسكرية وتخفيض السلاح والقوات المسلحة خاصة في وسط اوروبا ، والتقليل من امكانية نشوء حالات حربية مفاجئة وعقد اتفاقية تخفيض النفقات العسكرية .

ليس من السهل تحقيق هذا البرنامج الطموح في وقت قريب ، ولكن النضال الآخذ في الاشتداد من اجل السلم ، وتعاظم قوى السلم وتنامي قدراتها ، سيجعل ممكنا تحويل هذا الحلم الى واقع . وان ما تم من انجازه لحد الآن ، يعطي الثقة ويشحذ العزم على مواصلة تشديد النضال .

ان ما تم من اتفاقات مع الولايات المتحدة يعتبر انتصارا كبيرا لقوى السلم والتحرر في العالم ، فقد جرى التوقيع على اتفاقية « المبادىء الاساسية للعلاقات المتبادلة بين الدولتين » ، ونصت على تطوير العلاقات الاقتصادية والتعاون العلمي والتكنولوجي والثقافي ، وعلى احترام سيادة الدول صغيرها وكبيرها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية ، كما نوهت بأهمية مستقبل أوروبا السلمي على اساس حرمة حدود كل دولة ونبذ استخدام القوة أو التهديد بها . وبالاضافة الى الاتفاقية الام ، جرى توقيع معاهدات اخرى هامة تصب كلها في مجرى الانفراج الدولي : معاهدة الحد من نظام الصواريخ المضادة ، اتفاق للنظر في الحد من الاسلحة الاستراتيجية الهجومية ، اتفاقية منع الحوادث في أعماق البحار وأعاليها ، اتفاقية التعاون في حقول العلم والتكنولوجيا وفي استكشاف واستخدام الفضاء الخارجي للاغراض السلمية . وفي رعاية الصحة العامة ومكافحة الاوبئة وحماية البيئة .

وفاق أم انفراج ؟

ان الذين يقومون بتشويه مبادىء التعايش السلمي من يمين « ويسار »، ويصورون الانفراج وفاقا تآمريا بين القوتين الاعظم ، يحاولون التستر وراء جهل البعض بالتاريخ النضالي لشعار التعايش السلمي . فاللقاء الذي تم بعد طول نضال من جانب ، ومقاومة يائسة من جانب آخر ، على بعض مبادىء التعايش السلمي ، يعكس في حقيقته

قدرة طرف على الفرض وعجز طرف آخر عن الرفض ، وهو من الناحية النظرية تنعكس فيه ديالكتيكيا وحدة وتناقض الاضداد .

واذا كان لا بد من تقبل صفة العظمة المقرونة بها القوتان بشكل تشكيكي ، فعظمة احداهما على الاقل تنبع من مساندتها للشعوب وتجسيدها لامانيها في العيش بسلام .

ان التعايش السلمي ليس فقط لا يزيل التناقض او يخففه بين النظامين ، وانما هو في الواقع يشدده ويسارع في تفاقمه ، ولكن ليس على طريق الحرب بل على طريق السلام . انه نقل الصراع الطبقي الى مساحة أرحب وبشروط أفضل لاحراز الانتصار، فالهجوم السلمي يسير في تكتيكه وفق قواعد تكتيك الحرب وعلى أساس خلق أنسب ظروف القتال الملائمة لطرف ، وتمكنه من فرضها على الطرف الاخر .

ان الميادين الايديولوجية والاقتصادية والثقافية هي الشروط الانسب للنظـــام الاشتراكي في معركته السلمية مع الرأسمالية ، انطلاقا من التفاؤل التاريخي باحراز الانتصار عليها . وليس معنى هذا ان الميدان الحربي يشكل نقطة ضعف في مواجهـــة الامبريالية ، ولكن الرغبة في تجنيب العالم ويلات حرب نووية ، والثقة المطلقة باحراز الانتصار على الرأسمالية عن طريق الهجوم السلمي والمباراة السلمية بين النظامين ، تجعل الاشتراكية من هذا الميدان ساحة محرمة ، وتجهد في فرض هذا التحريم على الامبريالية ، عن طريق خلق قوة رادعة تفوق قوتها .

ان التعايش السلمي اذ ينفي الحروب واللجوء الى القـــوة والتدخل فـــي الشؤون الداخلية للبلدان الاخرى ، واذ يحترم سيادة وحرمة حدود كل بلد ، وحق كل بلد ، وحق كل شعب ، صغيرا كان أم كبيرا ، باختيار طريق حياته وتطوره الحر المستقل ، فانما يوجه ضربة كبرى لاسس النظام الرأسمالي الذي تتنافى طبيعته مع هذه المبادىء، ويوفر الاجواء الملائمة للنضال التحرري والاجتماعي لتحقيق المزيد من الانتصارات . ومن هنا قيام ما تم تحقيقه من منجزات على هذا الدرب يشكل خطوة كبرى في لجم قوى الحرب والعدوان .

الا انه يجب الا يغفل عن البال ، ان الرأسمالية ستظل ، تجنبا لخطر الاندثار سلما، تنحين الفرص لشن حرب عالمية تتوهم فيها انقاذ مصيرها ، ولكن بقدر ما تتقلم أظافرها عبر النضال العنيد ، وبقدر ما تستطيع الشعوب ان تنزع من ترسانة الامبرياليـــة أسلحتها ، فانها تستطيع بالتأكيد ان تنزع من ذهنها فكرة الحرب المستحيلة .

ان طريق النضال هو طريق تعاظم القدرة اللامحدودة للاشتراكية والطبقة العاملة العالمية وحركات التحرر الوطني ، وهو طريق وحدتها الطبيعية للوقوف في وجه تجار الحروب ، وفرض تراجعات أكبر عليهم ، وتحقيق سلم ثابت مضمون .

---

١ ــ لينين ، **الاعمال الكاملة** ، المجلد ٢١ ص ٢٩٣ .

٢ ــ بريجنسكي ، **امريكا بين عهدين** ، ص ٣٢ .

٣ ــ مجلة **الوقت** ، عدد ١ ، ١٩٧٠ .

٤ ــ كتاب «من أجل استراتيجية اميركية متقدمة» اقتباس مجلة **قضايا معاصرة** ، عدد ٢ ، ١٩٧٣.

٥ ــ مجلة **الوقت** عدد ١ ، ١٩٧٠ .

٦ ــ مجلة **الوقت** ، عدد ٣ ، ١٩٧٠ .

٧ ــ كتاب التحدي الامريكي ، شرمان شرايبر ، اقتباس مجلة **الوقت** ، عدد ٣ ، ١٩٧٠ .

٨ ــ **توجيهات الخطة الخمسية التاسعة للمؤتمر الـ ٢٤ للحزب الشيوعي السوفييتي** .

٩ ــ مجلة **الوقت** ، عدد ١ ، ١٩٧٠ .

١٠ ــ **المصدر نفسه** .

١١ ــ جريدة **طريق الشعب** العراقية، عدد ٦ تاريخ ١٩٧٣/٩/٢١ .

١٢ ــ مجلة **الطليعة** المصرية ، عدد ١٢ ، ١٩٧٠.

١٣ ــ كتاب بريطانيا عام ١٩٨٤ ر. بريش اقتباس

مجلة **قضايا معاصرة** ، عدد ٢ ، ١٩٧٣ .
١٤ — مجلة دي ديرنشتافت ، عدد أغسطس ٦١ ، اقتباس **المصدر نفسه** .
١٥ — **يو. اس. نيوز اند وورلد ريبورت** ، شباط عام ١٩٦٩ ، ص ٣١ .
١٦ — مجلة **الوقت** ، عدد ١ ، ١٩٧٠ .
١٧ — **المصدر نفسه** .
١٨ — **المصدر نفسه** .
١٩ — **ماركس ، انجلز** ، المجلد ٢ ، ص ٢٣٥ .
٢٠ — مجلة **الشؤون الدولية** ، اكتوبر ٦٦ ، اقتباس كتاب **التعايش السلمي بين الدول** ، ص ٦٦ ، وكالة « نوفوستي » .
٢١ — قرار اللجنة الخاصة بالنضال التحرري المنبثقة عن مؤتمر السلم العالمي الذي عقد في صوفيا في شباط ١٩٧٣ .
٢٢ — مجلة **الطليعة** القاهرية، عدد ١٢، ١٩٧٠.
٢٣ — مجلة **الوقت** ، عدد ١ ، ١٩٧٠ .
٢٤ — **المصدر نفسه** .
٢٥ — نشرة وزارة الخارجية الامريكية ٣/١٣/ ١٩٧٢ ، ص ٣١٤ ، اقتباس **نوفوستي** .
٢٦ — كتاب حول التعايش السلمي بين الدول ص ٧٠ ، وكالة **نوفوستي** .
٢٧ — سجلات مجلس الشيوخ الامريكي، ٤ شباط ١٩٦٩ ، ص ٧٢٣ ، اقتباس مجلة **قضايا العالم المعاصر** ، عدد ٢ ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٧ .

مركز الابحاث

يقدم :

محمود درويش

في كتابه الجديد :

وداعا ايتها الحرب
وداعا ايها السلام

بأسلوبه المتفجر شاعرية وشراسة ، يرصد المؤلف حرب تشرين من مرحلة الانتظار ، الى مرحلة الانفجار ، الى مرحلة الانتظار العائد .

سعر النسخة ٥ ل.ل. يضاف اليها بدل أجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في اوروبة ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

اطلب نسخك من : مركز الابحاث — قسم التوزيع
ص.ب ١٦٩١ — بيروت
(او من المكتبات) .

مناقشات

حسين ابو النمل

حول : المقاومة الفلسطينية ومهامها الوطنية الكفاحية الراهنة

« فقط السذج وعديمو التجربة من الناس يعتقدون انه يكفي ان نعترف بجواز المساومات بوجه عام حتى تزول الحدود الفاصلة بين الانتهازية التي نشن عليها بل ويجب ان نشن عليها نضالا لا هوادة فيه.وبين الماركسية الثورية او الشيوعية . المهم ان يستطيع المرء عند كل لحظة تاريخية معينة او خاصة ان يميز بين المسائل العملية في السياسة تلك المسائل التي تظهر بها الاشكال الرئيسية من المساومات غير الجائزة والضارة . وان يوجه جميع الجهود لتبيانها ومكافحتها لانها اقرب ما تكون لرجل يعطي الدراهم والسلاح لقطاع الطرق ليشترك في اقتسام الاسلاب » .

« لينين ١٩١٧ »

لان «شؤون فلسطينية» منبر الفكر الفلسطيني الملتزم بالثورة واهدافها كما تقول افتتاحية العدد٣٣، فتحت المجلة صفحاتها لندوة ضمت بعضا من قادة المقاومة الفلسطينية ، وفتحت المجال أيضا لنقاش مع اراء وافكار هؤلاء القادة ، ومن حق العقل الفلسطيني أن يناقش وان يستمر النقاش لاننا أمام مفترق خطر ، وعلى العقل الفلسطيني ان يتخذ قراره ، وحوار الافكار وسيلة صحيحة للخروج بأفضل قرار .

ان حوار الافكار ونشاط العقل الفلسطيني لا وتقع تحت أي حجر ، ولكن لهذه النقاشات حدودا خطرة يجب ان لا تتعداها ، وضوابط مبدأية لا يجوز القفز فوقها ، والا لاصبح الحديث لغوا نظريا لا طائل تحته ، وحسنا فعل محمود درويش عندما لخص جوهر الموضوع الذي دارت حوله الندوة المذكورة عندما قال « ليس الضمير الفلسطيني موضع المناقشة ، انها ندوة العقل الفلسطيني على الخروج **من مرحلة الى اخرى** بأحسن الاجتهادات الممكنة **على طريق أهدافه المشروعة** » «وعندما يقال ان الضمير الفلسطيني ليس موضع المناقشة او كما يقول سعيد جواد (في العدد ٣٣ من شؤون فلسطينية تعقيبا على ندوة القادة) بصيغة « اكثر تحديدا » كما يسمى كلامه « فان الحقوق والاماني الوطنية الشرعية والتاريخية والاهداف الاستراتيجية البعيدة للثورة الوطنية والتي هي خلفية الضمير الفلسطيني ومعين منابعه الضاربة في عمق تراب الوطن ، غير قابلة للنقاش على الاطلاق » . ان صيغة **«ليس موضع مناقشة ، وغير قابلة للنقاش»** تعبر عن مبدأية هذه القضايا ، كما أن صيغة « لا تناقش » . تعني انها حدود أي موقف راهن ، حيث تشكل مؤشرا لصحة او عدم صحة اي اجتهاد، وهل هذا **الاجتهاد** على طريق الاهداف المشروعة، أم لا ، كما يحدد محمود درويش اساس النقاش . ان تلك المقدمة ، والتي تؤكد على أن معنى « ليس موضع مناقشة » هو أن هذه القضية **لا خلاف حولها** ، وليس المعنى الذي يحاول البعض ان يعطيه **بأن الان ليس وقت مناقشة هذه القضية**، ضمن منطق الاستغراق في المرحلية والافراط بها.

وعلى هذا فيمكن لنا تحديد الاساس الذي يحاكم على ضوئه أي اجتهاد . وهل هو داخل الاطار الصحيح للنقاش ، ومنسجم مع القضية التي **لا خلاف حولها** ، او التي يعبر عنها بـ « غير قابلة للنقاش » . ولعل هذا هو الاساس الذي لا بد أن تحاكم على ضوئه مقالة « المقاومة الفلسطينية ومهامها الوطنية الكفاحية الراهنة » ، في العدد السابق من شؤون فلسطينية ، ولان أسلم طريقة في تقييم أي (موضوعية) هو في محاكمتها على ضوء المعيار الذي التزم به حتى صاحب المقالة المذكورة،

أي رؤية المهام الوطنية الكفاحية الراهنة كمرحلة على طريق تحقيق الاهداف والتي هي « غير قابلة للنقاش على الاطلاق » . كما يعيد كاتبها كلمات محمود درويش « بصياغة اكثر تحديدا » وان كان الكاتب « المحدد » قد سمح لنفسه تحديد كلام الاخرين فليسمح لنا أن نحدد فهمنا لكيف يمكن ان تكون المهام الوطنية الكفاحية الراهنة ، هي فعلا لا قولا مهام وطنية كفاحية وانها تكون هكذا عندما لا تتعارض مع خدمة القضية **التي لا خلاف حولها** بل تصب فيها وان تعارضت فهي لا تعود قطعا مهام كفاحية ، بل تصبح اي شيء اخر الا هذا .

تحليل وتقييم معطيات وحقائق حرب تشرين :

مما لا خلاف حوله ان ما من حدث سياسي او عسكري ، الا ويخلق ظروفا موضوعية جديدة ويفتح الباب واسعا أمام احتمالات شتى ، ولكن الحدود الايجابية لهذه الاحتمالات ، بالاضافة الى انها مرهونة بالحدث العسكري من ناحية فانها بالمقابل مرهونة بالافق السياسي الذي يحدد افاق ذلك الحدث والطريقة التي تقاد بها المعركة السياسية لحصد النتائج السياسية للحرب . وبرغم الحقائق الكبيرة التي افرزتها حرب تشرين والتي يلخصها نايف حواتمة بأعتبار « أنها الافضل تأثيرا في عناصر الصراع الموضوعية » ويعددها بـ « شبه التوازن العسكري العربي الاسرائيلي . هز نظرية الامن الاسرائيلية ، الحاق ضربات موجعة بالقوى الحية العسكرية الاسرائيلية . وآلات الحرب العسكرية الاسرائيلية الامبريالية ، دخول الجيوش العربية في قتال حي وفعلي وبروز امكانية استخدام الاسلحة الحديثة بفعالية ، بورز دور السلاح بيد العرب ... شبه الانتفاضة الشعبية الشاملة في الاراضي الفلسطينية المحتلة ضد الاحتلال الصهيوني ... استخدام سلاح النفط ضمن الحدود التي استخدم بها ، حالة عالية ضاغطة باتجاه حل مشكلة الصراع العربي الاسرائيلي » . ويضيف سعيد جواد من عنده « جملة التغييرات الايجابية لصالح العرب باتجاه تطبيق القرارات الدولية » .

ان الخلاف ليس حول الحقائق المباشرة لحرب تشرين ، والتساؤل الذي يجب ان يطرح هو اين نقطة التقاطع بين هذه المعطيات وبين قضيتنا والتي هي « غير قابلة للنقاش اطلاقا » كما يقول سعيد جواد ، خصوصا وان قيمة تلك المعطيات كما سبق أن قلنا مرهونة بالافق السياسي الذي نستطيع ان نبلغه ، وهذه الحقائق بالرغم من أنها كبيرة وبدأت تحتل واقعا وحجما في اذهان الجميع ، الا ان كل طرف له زاويته الخاصة التي ينظر منها الى هذه المسألة . وانسجاما مع رؤية الخطوة المرحلية في ضوء المسائل التي « لا يجوز النقاش حولها » فأن ما خرج به الدكتور جورج حبش كان صحيحا تماما . اذ ان ترجمة هذه المعطيات سياسيا وعلى ارض الواقع لا بد وان تكون لخدمة الشعار الاستراتيجي وعاملا جديدا يؤكد صحته ، وأن هذا الشعار موضوع في حدود الممكن وليس «رومانطيقية تحلم بالاندلس المفقود» كما حلا للبعض ان يصف الكلام عن الحق التاريخي ، « ان التوازن العسكري والضربات الموجعة بالقوى الحية العسكرية والاسرائيلية وآلات الحرب » ... هو السبب وراء قول الدكتور جورج حبش أن حرب تشرين رسمت لاول مرة علامة سؤال ولدت صغيرة جدا في ذهن الجماهير العربية حول صحة المشروع الصهيوني من أساسه . واذا لم تكن من نتائج النصر الذي تحقق في حرب تشرين هذه ان يحدث الشيء نفسه في المستوى نفسه في كيان العدو باعتباره خطوة على طريق ازالة المشروع الصهيوني ، فأي قيمة بالنسبة الينا تحملها المعطيات التشرينية ؟ لاننا عندما نقول ان تلك المعطيات كانت نصرا بالنسبة للعرب افليس من حقنا ان نرى نتيجتها المنطقية التي يجب ان ترافقها : خطوة على طريق الهدف الاستراتيجي حيث يبلغ هذا النصر مداه السياسي الحقيقي ؟ فأن العبرة ليست في المعطيات بحد ذاتها ، بل في النتائج السياسية التي توظف في خدمتها هذه المعطيات . والشيء الطبيعي ان نطالب بنصر سياسي ان كان قد تحقق نصر عسكري ، لان النتائج يجب ان تكون في حجم المقدمات ، والا فان خللا ما يكون قد حدث عند حساب احدهما .

ان التعامل الثوري مع معطيات حرب تشرين هو في توظيفها في خدمة أهداف المستقبل . ولقد كان الدكتور جورج حبش يرى المستقبل كله عندما اعتبر « علامة التساؤل التي بدأت ترتسم داخل المجتمع الاسرائيلي نفسه حول صحة المشروع الصهيوني من أساسه » ، وسيلة جديدة لانتزاع ما حاولت ان ترسخه الامبريالية الصهيونية في أذهان الجماهير من روحية الاستسلام عبر السؤال

الذي اصبح متداولا بعد هزيمة ٦٧ . « هل سيكون من الممكن القضاء على اسرائيل » . ان انتزاع ذلك التساؤل الخطر خطوة ضرورية للاستفادة من امكانات الجماهير « وهي القوة التي تحرك عجلة التاريخ » . ان هذه الجماهير والتي تستطيع وحدها ان تصنع النصر لن تكون قوة فاعلة « اذا كانت هذه الملايين غير مقتنعة بعمق بقدرتها على تحطيم هذه القاعدة الغازية الفاشية العنصرية الامبريالية المتمثلة في اسرائيل » ، اذ انه من « الصعب ان تعبىء هذه الجماهير كل طاقاتها لتحقيق هدف لا تتوفر لديها القناعة لقدرتها على تحقيقه » .

ان التعامل مع معطيات حرب تشرين بهذه الطريقة والانطلاق منها بعملية تحريضية نحو مزيد من تعبئة الجماهير وتعميق التزامها بأهداف الثورة ، والتي اكتسبت دليلا حسيا اخر على انها ممكنة ، هذا النمط من التعامل هو الوحيد الكفيل « بتوفير شروط قيام واستمرار الحرب الشعبية الطويلة الامد » كما يطالب سعيد جواد ، وهي الظرف المناسب تماما لتصعيد العمل في الداخل والمطالبة بفتح الحدود العربية امام حركة المقاومة. وليس توقيف العمليات كما حدث بالنسبة لاكثر من جبهة من تلك الجبهات .

ان الانطلاق من معطيات تشرين، في عمل جماهيري مكثف وواسع هو الوسيلة الوحيدة لفرملة الفهم الانتهازي لمعطيات حرب تشرين وللحرب نفسها أساسا والتي يعتبر سعيد جواد نموذجها القيادة « الوطنية » التي « لا تستطيع التعبير عن قناعات الجماهير ولا تستوعب استعداداتها ، بل ومنعتها باصرار من المساهمة في التحضير للحرب او الاشتراك بالقتال فيها » . والتي « اوقفت الحرب المحدودة دون تحقيق اهدافها » والتي « بدأت التحرك باتجاه تسوية سياسية على أساس القرار رقم ٢٤٢ » . ماذا يعني هذا الكلام ؟ انه يعني ان حرب تشرين، حتى باهدافها المحدودة ، كانت قادرة على تحقيق اهداف اكبر من التي حققتها . وهنا يبرز تساؤل جديد : هل « قيادة توقف الحرب عند حدود واهداف أقل من التي تستطيع بلوغها » هي قيادة يمكن ان نطلق عليها قيادة وطنية ؟ وامر اخر ، الا يعني هذا أن هنالك تعاملا قاصرا مع معطيات واهداف حرب تشرين تمثله تلك القيادات (الوطنية) ويتناقض مع الفهم الصحيح وطموحات واستعدادات جماهيرنا للعطاء ؟ هنا يقع سعيد جواد في الخطأ القاتل ويتناقض مع نفسه ، حيث سمح لنفسه ان يعتبر ان استعدادات الجماهير العربية والفلسطينية العالية المعطاء ، وبرامج الثورة الفلسطينية للتحرير الكامل ... لا يمكن ان يغير شيئا من طبيعة الحرب الوطنية التي تخوضها القيادات الوطنية لحركة التحرر العربية (الانظمة) بل حتى التأثير في حدودها واهدافها المحدودة » .

مرة اخرى ، ماذا يعني هذا ؟ ألا يعني ان حركة الجماهير باستعداداتها العالية للعطاء + حركة المقاومة الفلسطينية تساوي صفرا في مجال التأثير في مجريات الامور ؟ واذا كان هذا الكلام صحيحا فما معنى كلام سعيد جواد عن « حضور واقع فلسطيني موضوعي فرض من خلال القتال وصمود المقاومة » هذا الواقع والحضور العسكري والسياسي الذي أدى الى « تصفية ادعاءات النظام الاردني في الضفة الغربية » ص ٤٦ ، ولكم يبدو غير منطقي وهو « يصغر » حركة المقاومة بالاضافة الى حركة الجماهير وفي الوقت نفسه يعطيها القدرة على النضال « ووضع العقبة تلو الاخرى في وجه التسوية الامريكية — الاسرائيلية بالنضال ضد حلقاتها الخاصة بالمسألة الفلسطينية » (ص ٥٦) .

ان سعيد جواد يحجم حركة المقاومة بمقياس مزاجي غريب جدا ، ويفصل قدراتها حسب المواقف المتناقضة ، فهي عندما تطالب بموقف ضاغط على الانظمة الوطنية ، فانها مضافا اليها حركة الجماهير غير قادرة على أن تغير شيئا من طبيعة الحرب ويحدد اكثر بل حتى « في حدودها واهدافها المحدودة » (ص ٤٣) ، ولكن عندما تكون المسألة تسوية سلمية ومشاركة في جنيف فأن حركة المقاومة تصبح « جبهة ثالثة » (ص ٦٢) من الجبهات التي قاتلت في حرب تشرين . ويضيف لها انتصارات مؤتمري الجزائر ولاهور » (ص ٦٢) . متناسيا ان المؤتمرين المذكورين ليسا ببعيدين عن متناول يد الانظمة التي لا تستطيع المقاومة او الجماهير التأثير عليهما ، الا اذا كان سعيد جواد يعتبر ان بقية الاطراف — الانظمة الرجعية في مؤتمر القمة — هي التي انهزمت امام انتصارات منظمة التحرير . عندما تكون المسألة حضور مؤتمر جنيف « فأن الانظمة لا يمكن ان تكون حريتها مطلقة او كبيرة في التحرك » (ص ٥٨) وفي الوقت

الذي يعطي المقاومة في جنيف هذه القدرة ، فانه يقلل من التجاهل المطلق للانظمة الوطنية في هذا المؤتمر ، والتي لن « تتنازل عن برنامج الحد الادنى » لماذا ؟ لان هذه الانظمة حتى في تراجعاتها تجاه اسرائيل « تقف عند حدود محرمة وخطرة لم تستطع تجاوزها بفعل الرقابة الجماهيرية العربية الصارمة » (ص ٥٣) . هنا تكمن الانتهازية في الموقف وهنا تكمن المغالطة . عندما يكون الامر خسارة تهون منها وعندما تكون انتصارات نضخمها وحتى نفتعلها ، وليت سعيد جواد فسر لنا السحر الذي حول العلاقة بين الجماهير والانظمة الوطنية من حالة اولى اتسمت فيها هذه العلاقة بأن الانظمة الوطنية هي التي « اوقفت الحرب المحدودة دون تحقيق اهدافها » (ص ٤٣) « وحكمت وتحكمت بمسار الامور » ص ٣٣ ومنعت الجماهير « باصرار من المساهمة في التحضير للحرب » ص ٤٣ تلك الجماهير التي بأستعداداتها « العالية للعطاء » ص ٤٣ مضافا لها « برامج الثورة الفلسطينية » التي كانت غير قادرة حتى على « التأثير في حدودها واهدافها » (اي الحرب) ، الى صيغة اخرى من العلاقة التي أصبحت فيها الجماهير — في جنيف لها رقابة صارمة تجبر تلك الانظمة على الوقوف عند « حدود محرمة وخطرة » ص ٥٣ . هل هي جنيف التي لها فعل السحر تبدل من طبيعة العلاقة بين الانظمة والجماهير فتصبح تلك الجماهير اكثر قوة فتنزل عند ارادتها الانظمة ؟

ان سعيد جواد بهذه الطريقة المزاجية التي تقاس بها قدرات حركة المقاومة الفلسطينية . وحركة الجماهير العربية ، خالف المنطق الذي وضعه هو نفسه طريقا للوصول الى القرار الفلسطيني ، حيث طالب طوال مقاله بالمواجهة الجريئة للحقائق الموضوعية والقياس الدقيق للعناصر الفاعلة ، المنظورة وغير المنظورة ، كبيرها وصغيرها ، حتى النوافذ منها . (نوافذ « جمع » نواة والتعبير لسعيد جواد) .. ولكن وبالرغم من المزاجية التي تعامل بها وهو يقيس قدرة العناصر الفاعلة، فبالامكان الاستنتاج من كلامه ان هنالك برنامجين وفهمين للاستفادة من حرب تشرين: برنامج الانظمة والتي لولا الخوف من الرقابة الصارمة لتنازلت . وهنا يطرح هذا التساؤل : اليس ضابط التنازل الوحيد وتصعيد الرقابة هو في تصعيد التعبئة الجماهيرية ومصارحتها بالحقيقة وبلورة حدود المعركة السياسية في أذهانها ، كي تفرض برنامجها هي ؟ ان حركة المقاومة بالاضافة الى حركة الجماهير، وبالذات بعد ان ذاقت طعم النصر ولو لمدة قصيرة ، هي قوة فرض هائلة ، وعندما يراهن الدكتور جورج حبش عليها فانما بالمقابل يرى انها هي الضمان الوحيد لعدم تنازلات الانظمة وانها هي الرقابة الصارمة عليها . ولكم هو محزن انلايستطيع كاتب ثوري ان يرى حتى ما استطاعت الانظمة ان تراه من امكانات الجماهير وحركة المقاومة ، وحذفها منهما . فأن تلك الانظمة حاولت تطويعهما او كما كان يسمى في حينه (تدجينهما). ان الموقف الثوري والصحيح هو في الاستفادة من هذا المارد والتكاتف معه الى أبعد الحدود كي لا يمر برنامج الانظمة على حساب برنامج حركة المقاومة وحركة الجماهير . لان النصر يفترض « انسحابا غير مشروط » ، ولكن مؤتمر جنيف يقوم على القرار رقم ٢٤٢ وهذا القرار هو « لتنظيم انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ وتعديلا في بنوده الخاصة بالمسألة الفلسطينية ، مقابل انهاء المواجهة العسكرية كما هو الموقف العربي الرسمي المعلن ربما أبعد من ذلك [الكلام لسعيد جواد] وتحقيق اعترافات عربية وضمانات دولية واشتراطات اسرائيلية كما تسعى اسرائيل والولايات المتحدة » (ص ٤٩) و« الابعد من ذلك » الذي يتحدث عنه سعيد جواد والذي يسقطه على سعي اسرائيل والولايات المتحدة هو ليس سعيا اسرائيليا او امريكيا ، بل هو من صلب القرار ٢٤٢ الذي يقوم على أساسه مؤتمر جنيف ان الاعترافات العربية (باسرائيل) ليست مرتبطة بحل امريكي — اسرائيلي ، حيث يظهر وكأن اشكال التسوية الاسرائيلية — الامريكية والتي يدعو سعيد جواد المقاومة للقيام بها هو عمل لمنع الاعتراف (باسرائيل) ، انها محاولة ساذجة للتلاعب بالكلمات ، فالقرار ٢٤٢ ، وشروطه الواضحة منذ صدر في ٢٢ نوفمبر ٦٧ تتضمن اعتراف الدول العربية المعنية باسرائيل . اما ان يلقي المسؤولية على عاتق امريكا ، فهذا حرمان للدول العربية من (شرف) الموافقة والتي تتضمن الاعتراف ، والذي لم يكن يوما من الايام مانعا من اتمام التسوية اذ

كانت الخلافات منذ البدء تدور حول « الاراضي » او « أراض » والمعني بها الاراضي التي احتلت ما بعد ٦٧ . وهنا لا بد من التساؤل : اذا كانت الدول العربية تذهب الى جنيف ضمن اطار القرار المذكور والذي ينص على الاعتراف ، ماذا بقي للمقاومة ، واين الخطة الكفاحية الراهنة التي يتصورها سعيد جواد ، وهل لا يتعارض هذا الامر مع الاساس الذي انطلق منه النقاش منذ البداية ، وحدد بالآتي على لسان محمود درويش وموافقة سعيد جواد : مرحلة الى اخرى .. شرط عدم تعارضها ومساسها بالقضايا **التي هي غير قابلة للنقاش** حسب تعبيره هو .

ومع افتراضنا بصحة كلام سعيد جواد على ان « تحقيق اعترافات عربية وضمانات دولية واشتراطات اسرائيلية » هو ما تسعى اسرائيل والولايات المتحدة لتحقيقه ، مع افتراضنا جدلا ان هذا هو فقط أمنيّة اسرائيلية ، ولكن ماذا يعني كلام سعيد جواد بالحرف عن « انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية مقابل انهاء المواجهة العسكرية » ماذا تعني انهاء المواجهة العسكرية ، هل ستعني ان آفاق التحرير تبقى مفتوحة ؟ والقضايا « غير القابلة للنقاش » هل ستكون بخير ؟ ان اثر انهاء المواجهة العسكرية ، ليس في حدود ثلاث كلمات فقط . لان انهاء المواجهة العسكرية هو انهاء للاساس الموضوعي لمعطيات حرب تشرين ، والتي انطلق منها النقاش . انهاء المواجهة العسكرية لكي يفسح المجال لماذا ؟ ولاي نوع من المواجهة . وكيف ستكون عندها المهام الوطنية الكفاحية الراهنة وغير الراهنة ؟ وهنا يناقض سعيد جواد نفسه وهو يمر بسهولة على موضوعة انهاء المواجهة العسكرية ، بدون ان يرى أبعادها ، ناسيا او متناسيا موافقته التي أعطاها على مداخله نايف حواتمة حول « ابرز وقائع الحرب وافعلها تأثيرا » (ص ٤٠) ، وهي « شبه التوازن العسكري والذي هز وهز وهز ... الخ » ان شبه التوازن هذا هو الذي ولد المعطيات العربية والاسرائيلية لحرب تشرين، وانهاء احتمالات الحرب هو انهاء لمعطيات جديدة من مستوى معطيات حرب تشرين . ان انهاء المواجهة العسكرية هو انهاء لمفتاح التفاعلات الايجابية لصالح حركة التحرر الوطني العربية والفلسطينية ، ان تأجيل قرار « عدم المواجهة العسكرية » منذ ٦٧ حتى تشرين ٧٣ هو السبب وراء شبه التوازن العسكري الحالي الذي تحدث عنه نايف حواتمة ، واذا كان عدم اغلاق الباب عام ٦٧ ادى الى شبه توازن ، الا يعني هذا ان ابقاء الباب مفتوحا عام ٧٣ ، سيعني ان حالة (شبه) هذه يمكن ان تتحول الى حالة « توازن كامل » خصوصا وان معطيات حرب تشرين خلقت امكانية المسارعة في تنمية القدرات العربية والتي تتوفر لها من الامكانات البشرية والمادية ما يساعدها على ذلك ، في مقابل امكانات الخصم التي « اهتزت » نتيجة « للضربات الموجعة بالقوى الحية العسكرية الاسرائيلية وآلات الحرب العسكرية الاسرائيلية الامبريالية » . ما هي آفاق عدم التوازن هذا ولمصلحة من ابقائه عند هذه الحدود . لمصلحة من يسير المستقبل وعلى ضوء معطيات تشرين التي يسميها سعيد جواد « وقائع وحقائق تشرين الحادة الفعل » . لا جدال ان وقائع حرب تشرين الحادة الفعل قد اثرت في تعديل ميزان القوى بين العرب واسرائيل ، واي اتفاقية سلام او ما يسمى بتسوية شاملة لا بد وان تكون انعكاسا لميزان القوى الحالي . ان اختلال ميزان القوى بفعل حرب تشرين لصالح العرب ، اجبر اسرائيل على استبدال وثيقة غاليلي « التي كانت برنامجا لفرض الاحتلال كأمر واقع على اساس حقائق ديان الجديدة » (ص ٤٥) ، وان ذلك الاستبدال ليس « مجرد رغبة اسرائيلية في تحديدها او مناورة او لعبة انتخابية لمواجهة تشكيلات طارئة » (ص ٤٦) ، ولكن لماذا استبدلت اذن ؟ يجيب الكاتب « ان وقائع وحقائق تشرين الحادة الفعل هي التي فرضت نفسها بقوة على القيادة الاسرائيلية لاقرار هذه الوثيقة والغاء وثيقة القضم والضم مكرهة ومرغمة » (ص ٤٦) ولكن لماذا مرغمة؟ أيضا يجيب الكاتب « ان القيادة الاسرائيلية بالتأكيد تحاول ما استطاعت ايتاف تفاعلاتها اولا واستيعاب وامتصاص بعض من الوقائع والحقائق ثانيا » (ص ٤٦) ، ثم الوجه الثاني للتفاعلات داخل اسرائيل وهو مضاعفات وحقائق الحرب في المجتمع العربي وجبهات المواجهة (ص ٤٦) . ويستطرد سعيد جواد في تعداد اسباب التراجع الاسرائيلي متسائلا بشأن تأييد الاسرائيليين لاتفاقية فك التحام القوات مع مصر بـ « خوفهم من شبح الحرب واستعدادهم لتراجعات كبيرة خاصة اذا

استطاع العرب الاستمرار في حالة الحرب التي لم يكن حتى التفكير بها واردا قبل الحرب » (ص ٤٧) .

هنا نقول كلمة شكر كبيرة جدا لسعيد جواد لانه اثبت لنا ان التمزقات التي شهدها مجتمع العدو والاخطار التي تتهدده هي السبب وراء تراجع العدو الاسرائيلي عن وثيقة جاليلي لصالح وثيقة جديدة أكثر واقعية . اننا نشكره ونقول اننا لا نخالفه الرأي بأن وثيقة الاربعة عشر بندا هي « افضل » من وثيقة جاليلي ، ولكن ما دام الوضع الداخلي الاسرائيلي بالصورة التي تحدث عنها سعيد جواد فما هو تصرفنا ازاءه . وما هو الموقف الصحيح من أجل مزيد من « تكسير احلام اسرائيل التاريخية » هل العلاج الصحيح بتصعيد التفاعلات السلبية داخل مجتمع العدو ، أم من خلال انهاء المواجهة العسكرية والتي كان قد اعتبرها ثمنا سوف يدفع من الدول العربية في مؤتمر جنيف . هل ان انهاء المواجهة يعني شيئا غير انهاء شبح الحرب .

هل (انهاء المواجهة العسكرية) (ص ٤٩) سيساعد القيادة الاسرائيلية على امتصاص واستيعاب تساؤلات الاسرائيليين وتشكيكاتهم المتزايدة ؟ (ص ٤١) . بماذا ؟ « بصحة المشروع الصهيوني من اساسه » ، تساؤلاتهم من نوع « هل هذه مثلا ارضنا » و« هل قضيتنا عادلة وحقة » ؟ مثل هذه التساؤلات التي طرحت في اوساط اليهود هل ستستمر عندما ترمي الحكومة الاسرائيلية جوابا عليها : بالاعتراف من قبل العرب بوجودها وانهاء المواجهة العسكرية كما ينص قرار ٢٤٢ اساس مؤتمر جنيف . **ان وقائع حرب تشرين الاسرائيلية حادة ، ولكنها حادة الى درجة كانت كافية فقط لقطع المسافة بين وثيقتي جاليلي والوثيقة الجديدة** .. ولكن تلك الوقائع يمكن في المستقبل ان تكون اكثر حدة ، لان ميزان القوى يميل بشكل اكثر حدة لصالح العرب . واذا كان ميل ميزان القوى واتجاه التفاعلات هو لمصلحة العرب ، فمن اذن المستفيد من اغلاق الباب امام تطورات المستقبل واعطاء اسرائيل صكا واعترافا بحقها في الوجود مضافا لذلك انهاء المواجهة العسكرية ؟

ان كلام سعيد جواد عن اوضاع اسرائيل الداخلية لا نختلف عليه ، ولكننا نختلف حول الهدف الذي تخدمه التسوية في ضوء ميزان القوى الحالي والمستقبلي . هذا هو بيت القصيد وعجيب غريب من سعيد جواد او غيره ان يقول لنا صارخا ان اسرائيل تنزف حتى الموت ثم يطالبنا بعد ذلك بالذهاب الى جنيف حتى نعطيها نحن صك الحياة . وماذا غير « المواجهة العسكرية » هي « عناصر التفجير في الصراع » حيث « يشكل العنف الوسيلة الابرز من اساليب المواجهة مع العدو . وعندما نقدم الاعتراف ، وننهي المواجهة العسكرية ، ألا نكون عمليا قد وقعنا في فخ سياسة الولايات المتحدة التي تقوم سياستها ومصالحها على امتصاص وقائع حرب تشرين بعد سحب عناصر التفجير في الصراع » (ص ٤٥) . وبالرغم من ان سعيد جواد لا يعدد لنا هذه العناصر ولكنها معروفة جيدا حيث تتركز في القضية الفلسطينية محور ورمز الصراع في المنطقة والتي كانت تترك باب المواجهة العسكرية مفتوحا وباستمرار .

ان معطيات حرب تشرين مسألة طالما استثمرت غطاء للقبول بالتسوية ، وكان شبه التوازن العسكري الذي تحدث عنه نايف حواتمة مسألة مطلقة تستطيع ان تعطينا كل شيء وتسمح لنا بعمل اي شيء ، ان هذه المسألة في منتهى الخطورة ، اذ لا يجوز على الاطلاق تحجيم المعطيات اكثر مما هي في الواقع . وكذلك الحدود التي نستطيع ان نصلها . **ان شبه التوازن ، يعني شبه توازن، وليس اكثر ويجب أن لا نراهن على هذا الامر اكثر من ذلك** ، علينا ان نرى المعطيات التشرينية بآفاقها التاريخية ، كفاتحة لمعطيات جديدة ، نقطف ثمارها السياسية ، ولكن الثمار السياسية لن تكون بعيدة عن المدى الذي وصلته المدافع العربية في الحرب الاخيرة ، **لان ثمة فرقا كبيرا بين شبه التوازن وبين الانهيار** ولقد سبق ان اشرنا الى ان اسرائيل والامبريالية ادراكا منهما للمؤشرات التي دلت عليها حرب تشرين ، فان كل مصلحتها ان تعقد التسوية الان ، **لان ميزان القوى مرشح للميلان وباستمرار ضد مصلحة اسرائيل** وهذا يفرض على الامبريالية الامريكية الانتقال الى موقع آخر ، موقع حددته المدافع العربية ، وهنا تكون قد اعطت تنازلا في مستوى تلك المعطيات ، وبنفس درجة ميلان ميزان القوى . هذا هو المكان الجديد الذي وصلت اليه الامبريالية ، والتي تتنازل ولكن ضمن حدود « تأمين الوجود الصهيوني بشكل مضمون » وهذا

يكون بانتزاع الاعتراف العربي والفلسطيني بشرعية الوجود الصهيوني ، وهذا هو احد الاسس التي يقوم عليها مؤتمر جنيف ، وبالاضافة الى « ذلك تأمين مصلحة الامبريالية بشكل كامل » واي تأمين للمصلحة الامريكية اكثر من تأمين وجود اسرائيل ، (وانتقال) امريكا من موقع (الطرف) الى موقع الوسيط بل (الصديق) للجميع ، حسب قول القيادة المصرية ان تصور الوضع والتي يسميها سعيد جواد « بالقيادة المتحكمة في طبيعة الحرب ».

ان سعيد جواد لا يخدع سوى نفسه عندما يتحدث عن « ارادات عربية وفلسطينية وعالمية تقدمية » « تتحرك باتجاه اجبار اسرائيل على الانسحاب **غير المشروط** من الاراضي العربية والفلسطينية » (ص ٤٤) . هل صحيح هذا الموقف الذي يدعي صاحبه رؤية الامور وتفحصها بالمجهر التحليلي والسياسي (ص ٤٥) . **ان المسألة لا تحتاج الى مجهر ، بل تحتاج الى شخص يعرف القراءة فقط ليقرأ نصوص قرار ٢٤٢** ، واذا كان لا يعرف القراءة فيكفي ان تكون اذنه بخير ليعلم ان مسؤولا عربيا واحدا على الاقل قد اعلن عن استعداده للاعتراف . ان سعيد جواد نفسه وبعد صفحات قليلة قد قال « ان الانظمة العربية التي قادت الحرب » تعمل « على تطبيق القرار رقم ٢٤٢ لتنظيم انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ ... مقابل انهاء المواجهة العسكرية كما هو الموقف العربي الرسمي المعلن ، ربما ابعد من ذلك ، وتحقيق اعترافات عربية » (ص ٤٩) . اذا كان هذا ما يعتقده سعيد جواد عن موقف انظمة الحرب « حسب موقفها المعلن » فكيف وهو يعرف هذا يقول لنا قبل اربع صفحات فقط « تتحرك باتجاه اجبار اسرائيل على الانسحاب غير المشروط من الاراضي العربية والفلسطينية » (ص ٤٤) .

كيف تتبدل الامور في مدى اربع صفحات فقط . ولكن ماذا لو بعد ثماني صفحات او ماذا لو ذهبنا الى جنيف مع سعيد جواد ، الا اذا كان المجهر التحليلي قد تعطل معه في ص ٤٤ فلم ير اي شروط للانسحاب ، ثم وضع المجهر فبدت له الحقائق اكثر وضوحا . ورأى احد تلك الشروط « انتهاء المواجهة العسكرية » ، وبدأ الضباب يلف الشرط الثاني « تأمين الاعتراف » ولكن كما يبدو فان المجهر لم يكن قادرا على الالتقاط الدقيق ، فترك مسألة الاعتراف بين الشك واليقين . وحسنا فعل ، لان الضمير يجب ان لا يتحمل اخطاء المجهر .

ولكم يبدو سعيد جواد طريفا وفارسا في الوقت نفسه وهو يتحدث عن « **احتلال منطقة التراجع** » و« **التمترس فيها** » (ص ٤٥) .. ان (**احتلال**) و(**تمترس**) كلمتان حلوتان ولكنهما ذات **طابع عسكري** خصوصا عند الحديث عن « **الحضور العسكري** » (ص ٤٦) . وتتصاعد النبرة العسكرية مع تعطل المجهر مرة اخرى في ص ٥٠ وهو يتحدث عن « **اجبار العدو على الانسحاب غير المشروط من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة** في العام ٦٧ **والفوز** بالحقوق الوطنية الراهنة للشعب الفلسطيني » . ان (**احتلال**) و(**تمترس**) و(**حضور عسكري**) و(**الانسحاب غير المشروط**) و(**اجبار**) و(**كنس**) و(**الفوز**) هي مجرد كلمات تحمل نبرة عسكرية ولكنها لن تخدع سوى صاحبها ومجهره الذي تعطل ، لان (فوز) تعني نصرا تعني انتزاعا بلا ثمن . ولكن هل (فوزنا) بحقوقنا الراهنة هو فعلا (فوز بها) ، ام شراء (ثمنه) أراضي ما قبل ٦٧ ؟ هل استطاع سعيد جواد بالرغم من كل كلماته الكبيرة ان يخفي حقيقة بسيطة : وهي ان **مقايضة** سوف تحدث : يعيدون لنا ما بعد ٦٧ او اجزاء منها ونتنازل عما قبلها .. أوليس هذا هو الثمن ، وعندما ندفع ثمنا بهذا الارتفاع ألا تكون مسألة **الفوز** عندها ، غير معبرة عن حقيقة الامر حتى ولو ادعى صاحبها انه يحمل مجهرا عندما ينقب عن الحقائق .

المؤامرة الموضوعة ، واجتهاد المؤامرة

ان المؤامرة الموضوعة التي تحدث عنها الدكتور جورج حبش ، والتي سماها « بمحاولة واضحة في الواقع لاحتواء ما تبقى من حركة المقاومة وثورية حركة المقاومة» ، حيث ستجري محاولات، محاولات جادة لاحتواء هذه القوة بكل الوسائل بالضغوطات وبالاكراه ، بمحاولات الاقناع ، بمحاولات التحريف، بكل الوسائل الممكنة » (ص ٤٩ ، عدد ٣٠) . ان هذا الكلام واضح ودقيق ومنسجم تماما مع كل الضربات التي وجهت لحركة التحرر العربية والفلسطينية ، وهذه المؤامرة ليست (اجتهادا) شخصيا من قبل الدكتور جورج حبش كما يحاول ان يشير جواد في (ص ٥١) لان ذبح المقاومة في

الاردن وعمليات التطويق والابادة التي تعرضت لها، ليست (رؤية ذاتية) من قبل الدكتور جورج حبش، وان المضايقات التي تتعرض لها البندقية الفلسطينية الان في معظم الاراضي العربية ليست اجتهادا شخصيا ايضا ، وان ذبح حركة التحرر العربية دمويا احيانا كما في بعض المناطق وسياسيا في احيان اخرى كما حصل في اكثر من موقع ، ان تلك الترتيبات ليست صدفا تاريخية ولكنها صراع قوى وبرامج وسياسات متعاكسة ومتناقضة ، ولم يقل احد « انها لغز او سر او ارادة الشيطان او الاله » .

ان جواد الذي يكتشف ان المؤامرة لم تبدأ بعد تشرين بل بدأت مع نهاية القرن الماضي ، وبداية النشاط الصهيوني وتداخله مع صعود الامبريالية العالمية . ان سعيد جواد هنا يحلق عاليا جدا فوق النقطة المحددة والتي نحن بصددها ، حركة المقاومة الفلسطينية في ظل فترة زمنية محددة ، ان هذه هي المسألة موضع النقاش ، ولكن اذا اراد ان يزايد قليلا بتوسيع رقعة المؤامرة ، فان الجميع يعرف ان المؤامرة الامبريالية هي اوسع من حركة المقاومة الفلسطينية وحركة التحرر العربية ، انها تتسع للتآمر على كل ما هو ثوري في هذا العالم .

ان الحديث عن المؤامرة الموضوعة ، ليست « صيغة تخلط بين اهداف متناقضة وسياسات متعارضة » بل انها تعبر عن تناقض البرنامج الفلسطيني مع البرنامج الاسرائيلي والامريكي ، ومن هنا كانت المواقف الامريكية منذ ٦٧ وحتى الان تعتبر تصفية المقاومة شرطا لمرور التسوية ، الا اذا تصور سعيد جواد ان تصفيتها في الاردن كانت موقتا (اردنيا) فقط ، وهذا ما ترفضه الحقائق الموضوعية ، فما زلنا نؤكد جيدا ان التصفية تلك قد أتت في اجواء مشروع روجرز من ناحية وتمت في ظل صمت عربي مطبق ، متضامن **قولا** مع المقاومة **وفعلا** مع النظام الاردني .

وعندما يحاول سعيد جواد ان يحصر المؤامرة فقط بالطرف الامريكي يخطىء كثيرا ويناقض نفسه بنفسه . فبرنامج حركة المقاومة الذي كان يعبر عن نفسه **بالبندقية وباستراتيجية الحرب الشعبية** ، ليس هو برنامج القبول بقرار ٢٤٢، ان البرنامجين: برنامج حركة المقاومة من ناحية وبرنامج بعض الدول العربية وبالذات مصر والذي كان يتحرك على الارضية السلمية للقرار ٢٤٢ ، ان هذين البرنامجين كانا متناقضين ، وكان كل منهما يعبر عن افق نظري وطبقي محدد ، ومرور برنامج انما هو على حساب الاخر ، وكيف لا تتوقع مؤامرة من انظمة وصفها سعيد جواد قائلا : « هذه القيادة الوطنية لا تستطيع التعبير عن قناعات الجماهير ولا تستوعب استعداداتها ، بل **ومنعتها** باصرار من المساهمة في التحضير للحرب ، او الاشتراك بالقتال فيها » (ص ٤٣) ، اذا كانت هذه هي علاقة الانظمة (الوطنية) بشعوبها ، فما هو موقف تلك القيادات من النموذج الذي كانت تطرحه وتمثله حركة المقاومة : البندقية في يد الجماهير ، تدافع بها عن نفسها وعن قناعاتها ، عندها هل ستستطيع الانظمة الوطنية وغير الوطنية (منعها باصرار)؟ ان جواد وهو يتحدث عن صراع قوى وطبقات وبرامج، لا يبقى منطقيا الى نهاية الامر لانه افترض ان طبقة معينة ، يمكن ان لا تتآمر على « السلاح » في يد طبقة اخرى او برنامج آخر . هنا نقول لسعيد ان المؤامرة هي على البندقية الفلسطينية ، لانها الاضافة الجديدة التي أعطتها حركة المقاومة ، بكل ما تعني البندقية في يد الجماهير ، من تغيير في ميزان القوى بين الطبقات والقوى المتصارعة .

ان هذا لا يعني تطابقا بين رؤية الاطراف الاخرى ومقدار (حذريتها) في مواجهة حركة المقاومة ، ولكن ما يجب ان يعرفه سعيد جواد هو ما يلي : كما ان البرنامج الامريكي والاسرائيلي يحاول ان يفصل البرنامج العربي على مقاسه ، فبالمقابل فان البرنامج العربي يحاول ان (يقزم) البرنامج الفلسطيني ليتناسب (الحجم) العربي الرسمي وآفاقه النظرية والطبقية .

وبعد هذا وبعد حديث سعيد جواد عن الانظمة الوطنية التي « تمنع » و« باصرار » ، وبعد تجربة طويلة للمقاومة مع الانظمة ، وعمليات الذبح والابادة التي تعرضت لها ، وبعد حديث سعيد جواد نفسه عن الانظمة التي تريد انهاء المواجهة العسكرية مع اسرائيل (ص ٤٩) ، هل الحديث عن مؤامرة موضوعة ، هو (اجتهاد مؤامرة) ؟ ليقل سعيد جواد ما يريد ولكن المنطق يقول غير هذا ، لان دولا تريد « انهاء المواجهة العسكرية » بالتأكيد تتآمر على البندقية التي تطمح ان تبقى مشرعة .

ان سعيد جواد يستخلص في احيان اخرى نتائج كما يحلو له ويقوم بتوليد نتيجة من نتيجة ليصل في النهاية الى ان «الموقف السوفييتي جزء من التسوية الدولية بمفهومها العام » . وبالتالي فالاتحاد السوفييتي جزء من « الارادة الدولية او المؤامرة » ان تلك الجملة الاعتراضية التي يضعها سعيد جواد بين سطور صفحة ٥٢ هي محاولة خبيثة لتحميل كلام الدكتور جورج حبش ما لا يحتمله : فالدكتور جورج حبش الذي يقول ان « السوفييت اصدقاء لهم وجهة نظر معينة في قرار ٢٤٢ » لا يمكن ان يحتمل كلامه كل عملية (التقويل) التي ألصقها سعيد جواد بكلام الدكتور جورج حبش ليصبح في الصيغة الجديدة : « مؤامرة يشارك بهما السوفييت » . ان جواد لا يكتشف سرا عندما يعيد كلام الدكتور جورج عن موقفه من وجهة نظر السوفييت في القرار ٢٤٢ . انهم اصدقاء ولا نطلب منهم موقفا شبيها بموقفنا نحن ، والسوفييت لم يفرضوا وجهات نظرهم السياسية على احد ، ومن حقنا ان نختلف معهم ومن موقع الصداقة . ومن مصلحة الثورة الفلسطينية ان ترفض القرار ٢٤٢ بغض النظر عن سقفه . واذا كان سعيد جواد مهتما كثيرا بالتناقض بين « الصيغة الامريكية مقابل الصيغة السوفييتية » والذي هو « صغير جدا على الورق هو كبير جدا على تراب الارض العربية والفلسطينية » (ص ٥٥) ، اذا كان هذا الحرص على الارض صحيحا ، وبالتالي الحرص على التسوية السوفييتية ، الا يستوجب هذا الحرص من سعيد جواد ان يعترف بأن الصغير جدا على الورق والذي هو كبير جدا على الارض الفلسطينية « سيعني تنازلا بالمقابل عن شيء صغير جدا آخر على الورق وكبير جدا (آخر) على تراب الارض العربية والفلسطينية » ألن يعني تنازلا عن الارض المحتلة ما قبل ٦٧ ؟ ان الحرص على تراب الوطن يجب ان يكون حرصا متساويا سواء كان الامر بشأن ما بعد ٦٧ او ما قبل ٦٧ ، والا فان الحرص هو ادعاء زائف .

من حقنا ان نرفض ان تحشر المسألة الوطنية لتصبح بين (اراض) و(الاراضي) . وان الاساس الكفاحي المشترك مع السوفييت هو في تصعيد الحرب والنضال ضد كل الوجود الاستعماري في المنطقة والذي هو مصلحة مشتركة بين العرب والفلسطينيين والسوفييت ، ان الاساس المشترك ليس في الاعتراف بأدوات الامبريالية — دولا او اشخاصا او طبقات ، بل بالعمل على تدمير هذه الادوات ، لانه كما ان اسرائيل مصلحة امبريالية كما اثبتت الوقائع الملموسة وعلى مدى عمر الحركة الصهيونية (حركة — او دولة) فانها مصلحة ثورية ، للسوفييت ، وللفلسطينيين ، ولقضية الاشتراكية في العالم ان تدمر هذه الاداة وان تدعم المواقع التي تصادم هذه الاداة . ان الحرص على صداقة السوفييت هو في الالتقاء معهم على الارضية الحقيقية والواسعة للنضال ألا وهي النضال ضد الامبريالية بكافة اشكالها وأدواتها . هذا هو البرنامج الثوري للقاء مع السوفييت ، وهذا هو البرنامج المبدأي، واما الموقف القائم حاليا وبالذات القرار ٢٤٢ ، او حتى قرار العام ١٩٤٧ فانما يعني اعترافا من جملة الحركة الثورية في العالم بشرعية اسرائيل ولتستمر مطمئنة في تأدية دورها كوتد امبريالي في المنطقة . ان مساحة اللقاء مع السوفييت هي مساحة واسعة وبحجم التناقض الخالد بين البرجوازية والاشتراكية ، ومن الظلم ان لا نرى المسألة سوى في اطار مؤتمر جنيف ، والذي قام بالاساس بناء على دعوة وجهت من الرئيس المصري انور السادات ، وذلك في الخطاب الشهير الذي كان قد ألقاه في منتصف حرب تشرين .

ان مواجهة ركائز الامبريالية وأدواتها وبالعنف ، هي الاساس الكفاحي الذي يشكل القاسم المشترك مع الاصدقاء السوفييت ، حيث تكمن في هذا الخط من المواجهة المصلحة الثورية المشتركة . وان سعيد جواد الذي استطاع ان يرى بمجهره التحليلي المساحة الكبيرة جسدا علمى التراب الفلسطيني والتي تفصل المشروع السوفييتي عن الامريكي ، كان عليه بالمقابل ان لا يعطل مجهره فلا يرى المساحة التي سنخسرها ايضا على صعيد الارض من ناحية ، وعلى صعيد الصدام مع الامبريالية حيث سنمنح الحياة لركيزتها الاساسية في المنطقة ، من خلال الاعتراف بها وانهاء المواجهة العسكرية معها .. لكي تستمر مطمئنة في تأدية دورها المرسوم لها .

نقطة من هنا .. ونقطة من هنا

بكلمات بسيطة يصور الدكتور جورج حبش ما

سيحدث في مؤتمر جنيف قائلا « فلنتصور ماذا يحدث في مؤتمرات من هذا النوع . خطوة من هنا . ثم خطوة من هنا ، ثم خطوة من هنا . ثم خطوة من هنا الى ان نصل الى نقطة مشتركة » (ص ٢٠) . ويستهجن سعيد جواد متسائلا : « ما هو المقصود بـ « نقطة من هنا .. ونقطة من هنا » بالنسبة لحدود هامش المناورة والتراجع المحدود بالنسبة للانظمة الوطنية حيث لا تملك ، ولا تستطيع التنازل عن شبر واحد من ارض الوطن » .

ان استهجان سعيد جواد لـ « من هنا ومن هنا » استهجان لا مبرر له ، بل هو ما يحدث وسيحدث في جنيف ، والا فلماذا الذهاب اصلا الى جنيف وكيف يمكن ان يصلوا الى اتفاق . وان « **نقطة من هنا ونقطة من هنا** » تعني **تنازلا من هنا وتنازلا من هنا** . واذا كان يفترض ان طرفا ما لن ينتقل بهذه الطريقة فانه يفترض اذا ان مؤتمر جنيف هو اجتماع لكي يملي طرف شروطه على الاخر . وان النقطتين اللتين سيتم في اطارهما التحرك هما (الاراضي المحتلة) او (اراضي محتلة) وما عداهما فستكون تفاصيل ليس الا . ان مساحة التحرك هي في اطار (ال) هذه ولكن حتى ولو كسبت الدول العربية هذا الحرف وضمته الى مكتسباتها ، فهل يعني هذا ان حريتها لن تكون مطلقة او كبيرة في التحرك باتجاه « نقطة من هنا ونقطة من هنا ». وكونها « لا تستطيع التنازل عن شبر واحد من أرض الوطن » ص ٥٧ ، ولكن حتى ولو لم تتحرك مطلقا عن نقطة (الاراضي المحتلة) ، فكيف يفسر لنا سعيد جواد كلامه السابق عن « تطبيق القرار ٢٤٢ لتنظيم انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة في عام ٦٧ » « مقابل انهاء المواجهة العسكرية كما هو الموقف العربي الرسمي المعلن ، ربما أبعد من ذلك وتحقيق اعترافات عربية وضمانات دولية » ص ٤٩ . ان كلام سعيد جواد في ص ٤٩ يعني ان هذه الدول سوف تعطي اعترافا وتنهي مواجهة عسكرية . واذا كان ما قاله في ص ٤٩ **صحيحا** فهل صحيحا ما قاله في ص ٥٧ عن « لا تستطيع التنازل عن شبر واحد من ارض الوطن ». ان كلام سعيد جواد يكون صحيحا عن عدم التنازل عن شبر واحد من ارض الوطن « بالرغم من الاعتراف باسرائيل » **اذا كان سعيد جواد يعتقد ان فلسطين ليست من الوطن .**

. وهنا وحتى ولوكان الدكتور جورج حبش بقوله « نقطة من هنا ونقطة من هنا » قد ارتكب (خطيئة) و (خطأ) ، الا يعني هذا ان هنالك نقطة انطلاق في النقاش ، وحتى ، وحتى ولولم تتحرك الانظمة الذاهبة الى جنيف سنتمترا واحدا عن نقطة الانطلاق ، الا يعني هذا بحد ذاته ان اسرائيل تمتلك عند نقطة الانطلاق هذا مكسبا احتياطيا بحجم الاراضي التي اغتصبت عام ٤٨ ، الا يعني هذا ان نقطة البداية والتي هي القرار ٢٤٢ والذي يعني **(مسامحة)** اسرائيل بفلسطين ، كارثة وطنية بحد ذاته ، ان منطق سعيد جواد غريب ، فمنطق، ان تربح اسرائيل أقل ، وان نخسر نحن ايضا أقل ، ليس هو الوضع الصحيح الذي يجب ان يحكم تفكيرنا .

ان عدوى النزعة العسكرية تستمر مع سعيد جواد حتى ص ٥٨ عندما يلخص حسب هواه ، نقاشات قادة المقاومة حيث يتوصلون « بعد تحليل الوقائع والحقائق الفاعلة في معضلات الصراع المباشرة الى تحديد المهام الوطنية الكفاحية **وبرامجها القتالية** لمواجهة تحديات ما بعد الحرب » ص ٥٨ ومستعيرا أحد جمل نايف حواتمة « من مواقع الرفض الثوري الملموس » والتي كان قد ذكرها في ص ٣٨ . أي برامج قتالية يتحدث عنها سعيد جواد ، ولمواجهة تحديات ما بعد الحرب !! كيف ينسجم كلام سعيد هذا مع كلامه عن انهاء المواجهة العسكرية ، والبرامج القتالية من أجل ماذا ؟ وما قيمة **البرامج القتالية** بدون **احتمال المواجهة العسكرية** ، الا اذا كان سعيد جواد يوجه تلك البرامج لتصفية الاعداء الطبقيين وغير الطبقيين ، علما بأن سعيد جواد وهو يتحدث عن برامج قتالية كان يسقط كلامه هذا على كلام نايف حواتمة والذي لخص مواقع الرفض الثوري الملموس ... لـ « لا للاحتلال ، لا لمشروع المملكة المتحدة ، لا لعودة قوات الملك ، النضال من أجل تقرير المصير واقامة السلطة الوطنية » ، اين البرامج القتالية والدعوة لها في كلام نايف حواتمة، وكيف يستنبط ويقول سعيد جواد نايف حواتمة كلاما لم يقله ، ولم يدع له ، خاصة وان في هذا « الاتهام » لنايف حواتمة تناقض مع الدعوة التي اطلقها للحوار مع المتنورين اليهود (الحديث الذي نقلته يديعوت أحرونوت) .

ولكم يبدو سعيد جواد ضيقا في رؤياه ، ومجهره دقيقا في التقاط القضايا الجزئية ولكن القضية الاساسية يتجاهلها عمدا ، فهو يقول موافقا على كلام نايف حواتمة « والتصدي لعناصر التسوية الامريكية لاحباط محورها تجاه المسألة الفلسطينية على الوجه التالي : من مواقع الرفض الثوري الملموس ، لا للاحتلال ، لا لمشروع المملكة المتحدة ، لا لعودة قوات الملك ، النضال من أجل تقرير المصير واقامة السلطة الوطنية » ص ٥٨ ، ماذا يعني هذا ؟ انه يعني ان (المحور) هو في موضوع الضفة الغربية.ولكن هل تقاطع التسوية الامريكية مع المسألة الفلسطينية هو في هذا الاطار فقط ؟ ماذا عن اراضي ٤٨ في ذهن الاميركيين ، هل غابت، أم انها في حكم المنتهية . ان التسوية الامريكية في حدها الادنى هي في حدود اراضي ٤٨ ، وفي حدها الاعلى في حدود اراضي ٦٧ . ماذا يعني اذن كلام سعيد جواد وقبله نايف حواتمة بحصر المسألة في حدود الضفة والقطاع ، هل يعني هذا ان النزال مع التسوية الامريكية هو في هذه المساحة فقط . وهل يعني من ناحية اخرى ان اراضي ٤٨ مسألة عفا عليها الزمن ، وعندها يكون كلام سعيد جواد عن عدم التفريط بشبر واحد من ارض الوطن ص ٥٧ ، هو كلام صحيح لانه لا يعتبر اراضي ٤٨ من الوطن بل يحصرها في حدود اراضي ٦٧ كما يبدو من كلامه في ص ٥٨ .

ان سعيد جواد وهو يخشى من « تقديم حل كسيح للمعضلات الفلسطينية » ص ٥٥ اذا بقيت المقاومة في « معاقل زوايا انعزاليتها » ص ٥٥ لذلك فهو يدعو الى عدم الاستنكاف عن المساهمة الايجابية في الصراع ومن ميادين الكفاح الاساسية ص ٥٨ . ويحذر سعيد جواد بأن استنكاف المقاومة سيؤدي الى ان « تتمكن اسرائيل وامريكا من فرض عراقيلها » ص ٥٥ وبالتالي « تتربع امريكا على عرش مواقعها الجديدة » ص ٥٥ . بعد ان تكون قد أعادت التوازن لعناصر سياستها التي افتقدته خلال الحرب وبعدها .

ان سعيد جواد ، وهو يخشى من حل كسيح تقدمه الامبريالية للمسألة الفلسطينية ، لم يقل ، ما هو الحل (الاقل كساحا) . وكذلك عندما يتحدث عن « المساهمة الايجابية في الصراع ومن ميادين الكفاح الاساسية » [الاشتراك في مؤتمر جنيف ولعبة التسوية] ، فان المساهمة الايجابية، وميادين الكفاح الاساسية بالنسبة الينا تظل غير ما يتصوره سعيد جواد ، لان المساهمة الايجابية هي في تصعيد قدرة الفعل القتالي الفلسطيني والعربي والدعوة اليه . لان التصعيد وحده هو الكفيل بضمان مشاركة ايجابية في صنع الاحداث . ان منع الحل الكسيح هو في مزيد من أحداث الميلان في ميزان القوى ، باتجاه قوى جديد يعطي حلا أقل كساحا ، فأقل كساحا... على طريق الوصول الى الحل الافضل ، **ومفتاح الحل الاقل كساحا هو بالتأكيد مفتاح كل معطيات تشرين ، تصعيد القتال وارادة القتال .**

اننا عندما نقول ان المقاومة قادرة على هذا فاننا ننطلق من تشخيص سعيد جواد لقدرات حركة المقاومة ، فحركة المقاومة تمتلك القدرة على «تذليل العقبة لصالح اميركا واسرائيل » ص ٥٥ أو عدم تذليلها ، وحركة المقاومة قادرة على التحكم (بتقديم حل كسيح) ص ٥٥ أو بالتالي حل (غير كسيح) ، وهي تتحكم في ان « تتربع امريكا على عرش مواقعها الجديدة » وبالتالي منعها من التربع . حركة المقاومة قادرة من خلال المشاركة على منع أو تمرير التسوية الامريكية مقابل التسوية السوفييتية العربية ؛ هذه القدرة التي لمنظمة التحرير تستند على ماذا ؟ على « ان مصر وسوريا أعلنتا رسميا : الالتزام ببرنامج الانسحاب الاسرائيلي حتى حدود الرابع من حزيران ٦٧ وضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . والاخيرة مرتبطة بقرار فلسطيني معترف به رسميا من الانظمة العربية وفرض عمليا على العالم . من هنا يصبح تراجع الانظمة خارج حدود هذا البرنامج مسألة لا يمكن الاقدام عليها بسهولة ومغامرة الانظمة بتجاوزها يخلخل تماسكها [أي تركيبتها الطبقية] وينجر طاقات الجماهير العربية والفلسطينية ويرتب عليها مواقف وسياسات جديدة » .

ان سعيد جواد يعدد قدرات المقاومة ، ويعيدها الى موقف الجماهير الذي سيراقب انضباط الانظمة بالتزاماتها تجاه « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » تلك الحقوق التي يحددها « قرار فلسطيني » وبكلمة اخرى **فان تلك الانظمة بفعل خوفها من جماهيرها ملزمة بتنفيذ قرارات المنظمة.**

وهذا يعني ان مفتاح القرار العربي والتسوية هو القرار الفلسطيني . ما دامت كل هذه القدرات لمنظمة التحرير ألا يعني ان جدالنا مشروع في مطالبة سعيد جواد بأن يطالب المنظمة بأن (تجبر) الدول العربية على عدم الاعتراف باسرائيل وانهاء المواجهة العسكرية معها . خاصة وان هذه الدول موافقة على هاتين المسألتين كما يقول سعيد جواد ص ٤٩ (انسحاب من اراضي ٦٧ مقابل اعتراف لا انهاء المواجهة العسكرية) . واذا كان القرار العربي بشأن المسألة الفلسطينية « مرتبطا بقرار فلسطيني » ص ٥٤ . أفلا يعني هذا ان القرار العربي بشأن الاعتراف بأسرائيل وانهاء المواجهة العسكرية معها هو قرار فلسطيني بالاساس وبالتالي فان منظمة التحرير تتحمل مسئولية كما يبدو من الطريقة التي حدد بها سعيد جواد العلاقة بين القرارين الفلسطيني والعربي في ص ٥٤ .

ان سعيد جواد يكرر بهذا مرة ثانية لعبة (التضخيم) و (التقزيم) للدور الفلسطيني حسب المناسبات متناسيا أنه حدد شكلا ونمطا آخر للعلاقة بين (الانظمة) وبين (المقاومة + مركز الجماهير) وذلك حين قال « ان استعدادات الجماهير العربية والفلسطينية المالية للعطاء وبرامج الثورة الفلسطينية ... لا يمكن ان يغير شيئا من طبيعة الحرب الوطنية ... بل **حتى** التأثير في حدودها وأهدافها المحدودة » ص ٤٣ . وعلاقة الخوف بين الانظمة والجماهير في ص ٥٤ كانت في ص ٤٣ « **بالرغم** من قناعات الجماهير ونواياها واستعداداتها العالية للعطاء والقتال فان قيادة الحرب ... **حكمت وتحكمت** في مسارها طبقا لما تفيه طبيعتها الطبقية » .

ان تبادل الادوار والعلاقة بين الجماهير والمقاومة من ناحية والانظمة من ناحية اخرى ، في الحرب شكل ونمط وفي السلم نوع آخر من العلاقة بل نقيضه ... تبدل الادوار وفي صفحات محدودة من ٤٣ — حتى ٥٤ دليل آخر على ان المجهر قد تعطل في احدى المرتين ، او ان سعيد جواد كان قد أقفل عينيه في احدى المرتين ، فلم يحسن التقاط الصورة ، خصوصا وان أغماض العيون وسيلة لتنشيط الخيال كما يقول الشعراء .

وبشكل متناقض مع الوقائع والحقائق للوصول الى اهداف متناقضة ، كان يجهز أيضا جوابا احتياطا لاي حديث عن الحرب الشعبية معتبرا اياها مسألة مؤجلة بانتظار توفر شروط قيامها واستمرارها وهو « هدف لا يمكن انجازه الا بنمو القوى الطبقية المتحركة لاستراتيجية حرب التحرير الشعبية » . بهذا يكون قد قطع الطريق على كافة الاحتمالات الا جنيف .

ان سعيد جواد عندما يحكي عن « الكمون » في « معاقل الانعزالية » وهو يتهم من لم يوافق على الذهاب لجنيف ، فانما هو وحده يحدد البدائل : جنيف، او الكمون . **ولكن بين جنيف والكمون طريق ثالث ، طريق كريات شمونة ، فهل نسيه** سعيد جواد ؟ ان نسيه ، فهذا شأنه ، ولكن كريات شمونة طريق يبقى مفتوحا ، ان الثورة الفلسطينية التي امتلكت في مراحلها الاولى بنادق معدودة قديمة ، فهي الان تتملك العديد من البنادق .

ان الرافعة التاريخية التي يدعو سعيد جواد الى تأسيسها في نهاية مقاله هي بالحفاظ على البندقية الفلسطينية والعربية وابقاء باب المواجهة العسكرية مع العدو مفتوحا وان نكون أمناء لـ « الحقوق والاماني الوطنية الشرعية والتاريخية والاهداف الاستراتيجية البعيدة للثورة الوطنية والتي هي خلفية الضمير الفلسطيني ومعين منابعه الضاربة في عبق تراب الوطن ... والتي هي ... غير قابلة للنقاش على الاطلاق » . وليس أصدق في أمرنا من المثل القائل : لا تضع رجلك في الوحل لئلا يغرق جسدك كله .

مراجعات

Elie Kedourie: The Chatham House Version and Other Middle - Eastern Studies,
(Weidenfeld and Nicolson, London, 1970).

أصبح التاريخ المصري والعربي عموما موضوعا لدراسات عديدة يقوم بها دارسون من مختلف الزوايا ، ففي داخل الوطن ، بدأ التساؤل عميقا ما هي الجذور الحقيقية وراء ما يحدث .. ما مكامن الضعف والقوة .. وهل يمكن ان نأخذ من التاريخ ما نستطيع به مواجهة المستقبل . وموقف العدو واضح . انه يريد ان يقتنص النفس العربية من مقتل ، لهذا فهو يستنطق التاريخ كي يكشف لها عن سر خبيء — يستطيع ان يستند اليه وهو يوجه ضربته . ومراكز الدراسات الاكاديمية تهتم أيضا بالتاريخ المصري والعربي وهذا الاهتمام من جانبها تقليدي منذ أيام الاستعمار القديم ، لقد كان العلماء في جميع العلوم يتقدمون ويصاحبون ويتبعون جيوش الاحتلال . وتكونت من هذا كله حصيلة ضخمة تحتاج الى النظرية المصرية العربية النافذة، فما زالت شخصية هذا الشعب تحتاج الى مزيد من التعمق. وقد يكون واحدا من المنطلقات المأمونة والمجدية أن نتأمل ما يقوله الغير عنا وان نكتشف وراء الرداء الاكاديمي الاهداف والمواقف . وان هذه الدراسة نموذج لما يمكن ان تقوم به في هذا المجال فالاستاذ ايلي قدوري استاذ السياسة بجامعة لندن كتب عدة دراسات وضعها في كتاب* نشر عام ١٩٧٠ — عرض فيها جوانب عديدة من التاريخ المصري والعربي ، ومؤلف الكتاب استاذ للسياسة في جامعة لندن ، اي أنه يسهم في صياغة عقول طلبة هذه الجامعة ، ويشرف على أبحاثهم في الدراسات العليا ، وبهذا يمارس نفوذا قويا في توجيه آرائهم ومواقفهم وقراراتهم — حتى يصل هؤلاء الخريجون الى مراكزهم العملية في بلادهم — كرجال سياسة يشاركون في الحكم او اساتذة في الجامعات او مستشارين لرجال الحكم او دبلوماسيين او صحفيين يوجهون الرأي العام ... الخ .

ويضم الكتاب اثنتي عشرة دراسة تتعلق جميعا بتاريخ وواقع الحياة في منطقة الشرق الاوسط ، ويمكن تقسيمها الى مجموعتين : **المجموعة الاولى :** تتعلق بتاريخ الحياة السياسية في مصر (سعد زغلول والبريطانيون) ، (نشأة الدستور المصري عام ١٩٢٣) ، (مصر والخلافة من سنة ١٩١٥ — ١٩٥٢) . **والمجموعة الثانية:** تضم دراسات تشمل المنطقة العربية في مجموعها وتتعرض بالذات لحركة الوحدة العربية فيها — تاريخا وواقعا (الشرق الاوسط والقوى الدولية) ، (القاهرة والخرطوم والمسألة العربية ١٩١٥ — ١٩١٨) ، (سقوط دمشق في اول اكتوبر ١٩١٨) ، (السير هربرت صموئيل وحكومة فلسطين) ، (العروبة والسياسة البريطانية) ، (مملكة العراق — دراسة للاحداث الماضية) ، (الاقليات) ، (الدين والسياسة) والدراسة الاخيرة عن الاتجاه الذي يتخذه المعهد الملكي للشؤون الخارجية في الدراسات التي يصدرها . وغني عن البيان ان الدراسات جميعا متصلة اتصالا عضويا وللمؤلف فيها خط فكري موحد ينتظمها كلها ويقدم تطبيقاته المباشرة في كل دراسة بحسب ظروفها .

أن هذا الدارس ينظر الى منطقة الشرق الاوسط

* سبق لمجلة « شؤون فلسطينية » ان نشرت مراجعة للكتاب موضوع هذه المراجعة في العدد رقم ٢ .

نظرة مبالغة في التشاؤم ، فمن الصفحة الاولى من كتابه نقرأ : « منذ القرن التاسع عشر حين ادخلت الاصلاحات المزعومة الى الامبراطورية العثمانية ، كان ثمة وزراء ودبلوماسيون غربيون ينظرون الى سياسة الشرق الاوسط بأمل في تحسن اموره ، ولكن خلال مئة السنة الاخيرة لم تشهد المنطقة استقرارا ... واذن فلعله من الاحكم ان نفترض ان الخلل في الشرق الحديث ليس امرا عارضا ، وان عدم استقراره السياسي هو بالاحرى نتيجة أزمة اجتماعية وثقافية عميقة لم تقدر مشروعات المصلحين او حسن نية المتعاطفين ان تعدل فيها او تلطف حدتها » .

هذه هي نظرة الكاتب للمنطقة وهو يبدي أسفه لان (الغرض الرصين) الذي يعتبر ان الخلل في المنطقة (مزمن) لم يعتنقه الا عدد قليل سواء في بريطانيا او في امريكا . على ان تشاؤم قدوري ليس قاصرا على المنطقة ، بل هو أشمل من ذلك. ان هذا التشاؤم يتسع لكي يضم في عتمته مستقبل الانسانية على العموم ، فلديه ان تفاؤل الليبراليين الغربيين وايمانهم بأن العالم ينزع الى التحسن وبأن في ميسور الانسان ان يساعد على تحسينه ، ومبادءهم التي توجه نشاطهم وعلى افكارها المتفائلة يقيمون علمهم السياسي — هذا كله يفسر موقفهم من منطقة الشرق الاوسط خصوصا حين ينادون بأن سلاما شاملا مستقرا سيسود العالم حين يصبح مكونا من دول قومية ديمقراطية تقدمية .

وفي رأي الكاتب أنه مهما يكن الحق في هذه المعتقدات فانها ليست مما يجب ان يعتنقه رجل الدولة بل أنها بالنسبة لهذا الاخير يجب أن لا تكون لها علاقة بعمله . ويسخر المؤلف من هذه المباديء ويقول ان يكفي الرجال العمليين ان يواجهوا الشرور الحالة وان يحافظوا على المصالح الراهنة ، ولا يسوغ لهم أن يثقلوا كواهلهم بالعقائد التاريخية او أن يجروا وراء الاوهام في تلك المتاهات التي نشرها الكلام السياسي الغربي في العالم كله .

واضح من هذا الموقف ان المؤلف يعتنق موقفا نفعيا خالصا وهو يدعو الى تعامل بين الدول والشعوب لا مبادىء تحكمه ، ومهما يكن من أمر — فالمهم هنا هو أن نتعرف كيف يطبق استاذ السياسة هذه النظرة الضيقة على ما جرى — ويجري في المنطقة — وما هو نوع المصالح التي يدعو الى المحافظة عليها .

أن أشد ما يثير الكاتب هو ما يراه منتشرا بين المثقفين ورجال السياسة الانجليز من شعور دائم بالاثم بسبب مسلك الغرب من نحو العرب بعد الحرب العالمية الاولى ليس صحيحا لديه القول بأن الامبريالية والصهيونية هما أساس عدم الاستقرار في المنطقة ، ذلك أنه يرى ان عدم الاستقرار في الشرق عميق ومزمن ولن يشفي هذا المرض اختفاء اسرائيل او ما يسمى بالامبريالية — التي يصف معاداتها بأنها تضاعف سوء الفهم وتشجع على تبني الاوهام لصالح المهيجين ومن يستخدمونهم بحيث يكون الخاسر — في النهاية — هو الراغب في السلام والمتحضر ، وهو يرى ان محاولات تحديث المجتمع في الشرق الاوسط وجعله على النمط الغربي ، ديمقراطيا — لا بد وان تجلب من المضار ما يفوق النفع .

اذن فما هي نصيحة استاذ السياسة لمواجهة هذا المرض المزمن ؟ يخصص قدوري دراسة طويلة عن (سعد زغلول) والبريطانيين فيها يتابع مسار الاحداث في مصر من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٤ وذلك من خلال برقيات الموظفين البريطانيين في مصر ، وهو يوجه النقد العنيف لاولئك السياسيين الانجليز الذي اقتنعوا بأن ثمة حركة ثورية في مصر ، ونصحوا باتخاذ مواقف متعاظمة معها ، وتعديل نظام الحماية لصالح مؤسسات مصرية يحكمها دستور ونظام برلماني ، ولديه ان هؤلاء السياسيين حسبوا أنهم — بذلك — يحافظون على المصالح البريطانية من ناحية ، وبعضهم من ناحية اخرى تصرف وفقا لعقائده الليبرالية .

فماذا كانت النتيجة ؟ « لقد استطاع اللنبي عام ١٩٢٢ ان ينتزع تصريح فبراير المشهور من حكومته في لندن التي كانت تعارض اصداره بشدة ، وبهذا بدأت التصفية الطويلة والاليمة والمهينة لمركز بريطانيا في مصر والتي انتهت باحداث نوفمبر ١٩٥٦ غير المتوقعة . »

هذا عن المصالح البريطانية . اما الليبرالية فلم تستفد شيئا من هذه التصفية ، لان ثمن حقيقة بسيطة وواضحة هي أن هذه المناطق التي يقال أنها تعاني اليوم من الامبريالية لم تعرف طول

الجزء الاكبر من تاريخها سوى الحكم الاجنبي ، وأنه حتى مجيء القوى الغربية لم تكن خبرتها في أنواع الحكومات سوى خبرة الحكم المتغطرس الجشع الاستبدادي غير المسؤول ، ولقد تحققت نبوءة كرومر في أنه تحت شعار المؤسسات الحرة ستظهر أسوأ شرور الحكم الشخصي .

ويقول قدوري في دراسة اخرى في نفس الكتاب ان أنصار الليبرالية في الغرب الذين كانوا يدعون الى ادخال الاصلاحات في الشرق هم أنفسهم الذين كان من رأيهم ان الطريق الوحيد لتطبيق هذه الاصلاحات هو الحكم الاوروبي المباشر ويعلق المؤلف على ذلك بأن التحول عن الاعتقاد في ادخال اصلاحات تشرف عليها اوربا الى اعتقاد في حكم ذاتي وطني — هذا التحول يمثل لحظة هامة وذات مغزى في انحطاط المذهب الليبرالي .

المنطقة اذن لا تفهم الا لغة الردع ، واول تنازل من جانب القوى سيكون البداية لسلسلة من التنازلات لا تنتهي ، وستكون الخاتمة تصفية كاملة للمصالح الغربية ، فليس ثمة تيار ثوري يستند الى جماهير لها مطالب وطنية واضحة ومحددة .

ولقد كان من اكبر اخطاء اللنبي انه قبل — دون فحص — الرأي القائل بأن سعد زغلول يعبر عن رأي أغلبية المثقفين المصريين . كما لو « ان « المثقفين المصريين » — هكذا يقول المؤلف — كانوا كيانا معروفا او من الممكن تبنيه ، وكما لو أن آراءهم — مهما تكن طبيعتها او طريقة التعبير عنها — كانت لها اهمية رئيسية او غالية ، وكما لو أنه كان هناك أصغر قدر من المعنى في مثل هذا الموقف الحديث — الا باقصى قدر من التسبب والخداع عن التعبير والمعبرين » .

فكيف يقدم استاذ السياسة احداث هذه الفترة الى قارئيه ؟ ان سعد زغلول لم يذهب الى المعتمد البريطاني الا بدفعة من السلطان فؤاد الذي كان وقتئذ في صراع مع المعتمد البريطاني على حكم مصر ، ومن هنا مصلحته في استغلال الشخصيات المناوئة لبريطانيا واثارة المتاعب لها .

ولكن الكاتب نفسه يقدم وقائع اخرى — ففي بداية مارس ١٩١٩ كانت مصر بلا وزارة ، حينئذ زار سعد زغلول القصر على رأس وفد وقدموا التماسا للسلطان يطلبون فيه أن يمتنع هذا الاخير عن تأليف وزارة جديدة طالما ان سلطات الاحتلال تقف في وجه المطالب الوطنية ، **الا ان فؤاد رفض** ان يستقبل الوفد ، وفي نفس الوقت طلب من المقيم البريطاني ان يحميه من اهانات اخرى ولحماية كرامة السلطان صدر قرار باعتقال سعد زغلول وثلاثة من زملائه وتم نفيهم الى جزيرة مالطة . وهو تصرف أبدى السلطان بشأنه عميق شكره الى المقيم البريطاني .

هل يستطيع القارىء ان يستخلص من ذلك شيئا عن أصالة الثورة الوطنية المصرية العظمى؟ يبدو أن هذه الثورة تشكل عقبة ضخمة في طريق الدارسين المتخصصين في تشويه تطور الكفاح المصري ، فليس قدوري اول من حاول مسخ وجه ثورة سنة ١٩١٩ من قبله حاول ناداف صفران ذلك .

ثم يجيء قدوري ويقول ان ممثلي بريطانيا اخطأوا مرتين في اكتشاف التنسيق بين فؤاد وسعد ، الاولى عند زيارة هذا الاخير للمعتمد البريطاني ، والثانية حين اتخذوا اجراءات العنف ضد سعد زغلول ، لانهم في ذلك كانوا ضحية خداع من الملك (!) الذي كان يهدف — في رأي الكاتب الذي يستهين بعقلية قرائه — الى اشعال الثورة في البلاد ضد الانجليز ، بسبب نفي هؤلاء الزعماء. ولكنه يعود فيورد رأي فؤاد في مفاوضات لجنة ملنر مع سعد وزملائه ، لقد أبدى السلطان دهشته لوجود رغبة في تقديم تنازلات تمثل هذا الاتساع لصالح اناس أشعلوا ثورة ضده وسببوا مثل هذه الاضطرابات للحكومة البريطانية في العام الماضي . وفي دراسة اخرى في نفس الكتاب نجد أن قدوري يقول ان الملك كان يشعر بالمرارة لان الانجليز فرضوا دستورا على النمط البلجيكي على المصريين الذين لم يكونوا قط مستعدين للحكومة البريطانية .

ويجهد القارىء عبثا عن تتبع مظاهر التنسيق المزعومة (!) التي يتحكم من خلالها في مسار ثورة الشعب المصري ، ويفسر بها المؤلف هذه الثورة . ويطلق الكاتب بعد ذلك احكاما عصبية على الثورة المصرية فهي تبدو لديه ثورة موجهة من أعلى ، هذا في البداية على الاقل اما جماهير المدينة والفلاحون فقد كانوا يتحركون لا بسبب مطالب وطنية واقتصادية ولكن مدفوعين « بالكليشيهات »

التي تعلمت الطبقة الرسمية استخدامها من اوروبا.

وفي رأيه ان الردع العنيف كان الاجراء الذي يجب ان تتخذه السلطات البريطانية دون ابطاء او تردد ، ويصف تدوري الاقتراح الذي بعث به تشاتام من القاهرة الى وزارة الخارجية البريطانية بالسماح لوفد مصري بالسفر الى اوروبا بأنه «تنازل ورضوخ للشعور المحلي» ويواصل الكاتب استخدام هذا التعبير كلما تضمنت برقيات مسؤول بريطاني في القاهرة احداث الثورة كما تجري فعلا ويقدم على أساس ذلك الاجراء الطبيعي الذي تفرضه اراء الجماهير .

على أن نقد الكاتب يصل الى الذروة حين يجد ان بلفور وزير الخارجية البريطانية يوافق على اقتراح سفر الوفد ويصف قراره هذا بأنه « رضوخ جوهري » ولتبرير هذا الحكم يقدم تحليلا لشخصية بلفور — ففي رأي تدوري ان وراء امتيازه العاطفي والثقافي يكمن الجهل وعدم الاكتراث والخفة ، ولم يكن يقرأ اوراقه ولم يكن يعرف الحقائق ولم تكن له رؤية للمستقبل .

هكذا ، ويبدو ان تدوري أحسن على الفور بما يمكن ان يعنيه هذا الحكم على صاحب التصريح المشهور قبل الحرب العالمية الاولى بشأن الوطن القومي الصهيوني — فاستدرك متسائلا عما اذا كان قرار بلفور بتأييد المطالب المصرية يتضمن دليلا جديدا على ما سببته الحرب من اثار مدمرة على جهاز الحكم البريطاني ؟ ان بلفور بهذا الاجراء قد أثبت في رأي المؤلف عدم قدرته على الوصول الى قرار مستند الى معلومات كافية بل اتخذ اجراء يتضمن تغييرا فجائيا في السياسة بلا تبرير على الاطلاق ولا يتسم بسلامة التمييز .

ويلقي المؤلف بقارئيه في تيه مظلم بسبب التخبط المغرض الذي يتسم به عرضه للاحداث المصرية في هذه الفترة .

لقد كان الاجراء الواجب اتخاذه منذ البداية هو القمع العاجل — كان يتعين اتباع ذلك بواسطة ونجت من أول مقابلة ، بل أن هذه المقابلة ما كان ينبغي ان يجري فيها سوى السخرية بالزائرين (!) ولهذا كان يتعين تغيير ونجت وقد كان .. وحل محله اللنبي .. وكان المنتظر ان يكون اكثر حزما وحسما كي يعيد الكرامة البريطانية باجراءات قوية، فهو رجل قوي قادر على هزيمة الوطنيين، وقد ارسل الى مصر بسبب مهابته العسكرية . الا ان اللورد تبنى حين وصل الى مصر — سياسة بلفور ، وتابع كلايتون الذي كان يرى أن المبادىء الوطنية والرغبة في الاستقلال قد ضربت عميقا في جميع الطبقات ، ومن هنا ضرورة ان تبدي بريطانيا مزيدا من التعاطف مع الاماني الوطنية لتقبل الطلبات المعقولة لان سبب الاضطراب في رأي كلايتون كان راجعا الى انكار الاستقلال والسيادة والعلاج هو في التعامل مع سعد زغلول وزملائه للوصول الى تسوية سياسية على أساس المبادىء التي نادوا بها .

يقول الكاتب ان اللنبي اقر بمجرد وصوله اراء كلايتون ويشيتهام . ما رأي استاذ السياسة في ذلك ؟ اللنبي لم يكن في عمقه المعهود بالنسبة للسياسة المصرية وقبل دون تمحيص الرأي القائل بأن سعد زغلول يمثل رأي اغلبية « المثقفين المصريين » ، كما لو أن هؤلاء كانوا كيانا معروفا او من الممكن تبنيه .. الى اخر كلامه الذي سبق ان اوردناه . وتزداد دهشة الكاتب لموقف اللنبي ويعرض الاحداث بطريقة تبرر هذه الدهشة فحين وصل اللنبي الى مصر كانت أشد الاضطرابات قد انتهت ، وقد قضى تماما على التهديد الموجه للقبضة البريطانية في مصر ، وبدأ الوطنيون ييأسون من النجاح واعتبر الجميع ان وصول اللنبي يعني مقدمة لضم البلاد الى المستعمرات البريطانية وأنه دليل على أن معاملة المهيجين ستكون بحزم خصوصا بعد انذار القائد العسكري باتخاذ اجراءات قمع تؤدي الى آلام رهيبة تعانيها البلاد، وان على الجميع نسيان سعد زغلول تماما وتركيز جهودهم لتشكيل وزارة ، فهذا هو المدخل اللازم لاعادة الهدوء .

الا يكون الافراج عند سعد زغلول في هذه الظروف والتوقعات تنازلا غير متوقع .

ويبدو أن اللنبي — في رأي تدوري — حسب أنه بذلك كان يقرن العنف باللين كي يضع حدا لما تصور انه العقبة الرئيسية في تسوية المسألة المصرية ولكنه اثبت تماما انه على خطأ ، فلقد أساء المصريون فهم الموقف كله مفسرين عمل اللنبي على أنه تنازل من جانب السلطة البريطانية ، وأدى ذلك الى ضراوة لم تحدث من قبل ، بل

لم يكن من الممكن تخيلها ، وحسب المصريون أنهم يستطيعون دائما تكرار اساليبهم للحصول على مزيد من المكاسب ، واخطأ اللنبي في حساباته وظهر ذلك سريعا بوضوح ، ومن حسب انهم معتدلون واعتقد أن سياسته كان من المفروض أن تغريهم — صاروا مترددين في التعاون مع سلطات الحماية طالما انها قد كشفت عن حمقها .

ولم يكن حظ ملنر عند استاذ السياسة بأسعد من حظ اللنبي . فلديه ان ملنر ولجنته كشفوا عن شكهم المميت في شرعية مركز بريطانيا في مصر ذلك الشك الذي بالاضافة الى الخطأ الاصلي الفادح الذي ارتكبه اللنبي دمر البناء الذي شاده كرومر باقتدار ومهارة ، وكلما انساق ملنر الى الرمال المتحركة التي صارت اليها المفاوضات المصرية اخذ يهدىء نفسه بمجرد الكلمات وبالاعتقاد في أنه اذ يعطي لسعد زغلول او لفؤاد او للمعتدلين المزعومين فانه بذلك يعمل لصالح المصريين محققا بذلك اهداف عمل كرومر .

أما قدوري فهو يرى في ذلك كله آراء ذات طابع خيالي وهمي وتردد نغمة عاطفية تكشف عن انعدام الصلة بالواقع وهي ان لم تكن نتيجة ضعف فكري — الا انها نتيجة انهيار عصبي وضعف ارادة الحكم ، وهي الامور التي صارت واضحة داخل الطبقات الحاكمة البريطانية بعد اهوال الحرب العالمية الاولى والتي جعلت انحلال الامبراطورية البريطانية شيئا قبيحا ومدمرا — سواء للرعايا او الحاكمين على السواء .

اما السير رولاند لندساي فان آراءه الخاصة بتخفيف القبضة البريطانية على شؤون الحكم في مصر فتمثل مدى تأثر لندساي بالكليشهات المتداولة في عصره وقد أظهر جهلا خطيرا بما يمكن ان تؤدي اليه الخطابة السياسية ، ولدى المؤلف استاذ السياسة أنه ليس من المبالغة القول بأن لندساي كان « انهزاميا » في المسائل المصرية بكل ما في الكلمة من معنى .

ويورد المؤلف ضغوط اللنبي لاصدار تصريح ٢٨ فبراير المشهور ، فقد كتب المعتمد يقول ان الموظفين البريطانيين في الحكومة المصرية من رأيهم الاستجابة للمطالب المصرية وذكر أن هؤلاء الموظفين قد تصرفوا في العامين الماضيين على أساس الاعتقاد بأنه سيتم اقرار سياسة تقوم على التنازلات الليبرالية من جانب بريطانيا وانهم على هذا الاساس قد أعطوا مختلف الوزراء وغيرهم ممن كانوا على صلة بهم هذا الانطباع ، وأنه لو تم اقرار سياسة مغايرة فانهم لن يكونوا قادرين على الاحتفاظ بثقة الوزراء المصريين او القيام بخدمات نافعة في المستقبل .

ويصب استاذ السياسة جام غضبه على هؤلاء الموظفين ويندهش بسبب هذا المسلك منهم . ويتساءل عما اذا كان هؤلاء الموظفون باعطائهم الانطباع للمصريين بأن سياسة من التنازلات الليبرالية سيتم اقرارها — قد تجاوزا حدود وظائفهم لانه ليس من سلطتهم ان يحددوا السياسة البريطانية او يفسروها .

ثم صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٨ ، وبعد عام صدر الدستور المصري وتألفت الوزارة وفي نهاية عام ١٩٢٤ قتل السردار المصري .

ويسخر قدوري من اللنبي وهو يسير في شوارع القاهرة على رأس صفوف الجند البريطانيين تصحبهم الطبول والابواق العسكرية . ويورد قدوري تشبيها مليئا بالاستهزاء والشماتة : « كان اللنبي — وهو يستخدم الذراع الغليظة متأخرا — يشبه صبيا يضع يده على أنفه لاغاظة مناوئيه » .. وارسلت الحكومة البريطانية سير أوستن تشمبرلين ينتقده ويعترض على تصرفاته وفي النهاية قدم اللورد — في سخط وهياج — استقالته .

هكذا يقدم المؤلف تصوره عن الحياة السياسية المصرية ، وواضح أنها تساند الاستعمار في صورته النقية الاولى — الحكم المباشر بواسطة سلطة الاستعمار واستخدام أساليب القهر الصريحة . وثمة سؤال يفرض نفسه كيف يمكن لمثل هذا الرأي ان يبديه مثل هذا الاستاذ في الثلث الاخير من القرن العشرين ؟ وبتعبير اخر — هل يتصور المؤلف أن لرأيه هذا فرصة لان يطبق في المنطقة في الظروف الحالية ؟ بحيث تستعيد « القوى » قبضتها على المنطقة وتمارس فيها تسلطها وحكمها المباشر ؟ الاجابة على ذلك كله ستتضح بعد عرض المجموعة العربية من الدرجة التي يضمها الكتاب .

يقدم المؤلف دراسة عن « الاقليات » في ظل

الامبراطورية العثمانية وفي اعقاب انحلالها ، ولابراز وجهة نظره في الموضوع ينتقي ما حدث للارض في تركيا ولليهود والاشوريين في العراق . وفي دراسة اخرى عن « الدين والسياسة » يعرض لموقف المسيحيين في النضال القومي العربي . والكاتب هنا لا يقدم دراسات تاريخية وحسب ، ولكنه في حقيقة الامر ينظر الى ما يجري اليوم في المنطقة ، ويبدي بشأنه رأيا — يقدم اسانيده من التاريخ، فبعد ما عرض لما حدث للارمن والاشوريين واليهود يقول أن هذا ينبغي ان ينذر اليوم الغرب الذي يحاول أن يبني في الشرق اوطانا فيها يمكن أن يتعايش المسلمون والمسيحيون واليهود ، ويضيف « لقد كانت الدولة العثمانية قائمة على نفس التنظيم بطريقة تحقق الدقة لهذا الهدف المرغوب فيه ولكن الامبراطورية العثمانية كانت شيئا يعتوره النقص . كانت محافظة متحجرة وضيقة الافق لم تكن تعرف شيئا من الخصوبة والمرونة والفرص الموجودة في التقاليد الاوروبية .»

استاذ السياسة — اليهودي العراقي — هنا يكشف تماما الارض التي يقف عليها ، انه يتبنى في المشكلة التي يطرح الشكل العلماني لحلها الموقف الصهيوني بلا تحفظ ويسخر الدراسة التاريخية تأييدا له . يريد أن يقول ان النموذج الصهيوني هو وحده الذي يتفق واوضاع الشعوب في المنطقة وتفكيرها وتقاليدها . وهو في نفس الوقت يحاول أن يجعل هذه الاوضاع وطريقة مواجهتها مشابهة لما واجهه اليهود في اوروبا — الامر الذي أدى الى ظهور الحل الصهيوني هناك .

فطبقا لما يقوله عالم الاجتماع الاسرائيلي ايزنشتات ، تعرض اليهود في اوروبا الى نوعين من التصفية : اما التصفية الروحية والثقافية بسبب القضاء على حياتهم التقليدية والطائفية بواسطة القوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الجديدة ، واما التصفية الجسدية والاقتصادية والسياسية بسبب عدم اندماجهم تماما في المجتمع، وعدم قدرة المجتمع الحديث على استيعاب هذا العنصر الغريب .

ومن خلال دراسته عن « الاقليات » يبرز المؤلف ما حدث للارمن واليهود العراقيين والاشوريين على انه تصفية مادية ، اما في دراسته عن « الدين والسياسة » فهو يقدم صورة التصفية الثقافية الروحية ، وفي جميع الاحوال فأن النتيجة النهائية هي أن الحل القومي قد فشل في المنطقة تماما باستثناء واحد . ففي نظر ايلي قدوري « اللعنة الحقيقية » التي وفدت من الغرب الى الشرق لم تكن الامبريالية وذلك أنه « ثمة حقيقة بسيطة وواضحة ، ان المناطق التي يقال اليوم انها تعاني من الامبريالية لم تعرف طوال الجزء الاكبر من تاريخها سوى الحكم الاجنبي — وحتى مجيء القوى الغربية ، لم تكن خبرة هذه المناطق في أنواع الحكومات سوى خبرة الحكم المتغطرس الجشع الاستبدادي غير المسؤول اذن فليس من هذه الناحية يكون نقد الوجود الغربي في اسيا وافريقيا » .

اللعنة الحقيقية التي أتى بها الغرب الى الشرق — دون قصد منه ، هي الفكرة القومية . انها « المرض — الوباء » الذي انتشر من غرب اوروبا مارا بالبلقان والامبراطورية العثمانية والهند والشرق الاقصى وافريقيا مفترسا بنية المجتمعات المستقرة ليتركها ضعيفة وبلا دفاع في مواجهة الحكام الجدد في ظل الدول القومية الوليدة — المغامرين والجهلة ، المجردين من الخلق يسومون هذه المجتمعات مزيدا من الفظائع والوحشية » .

ويقدم المؤلف النموذج التقليدي لكلامه هذا : الجماعات التي كانت تتكون منها الامبراطورية العثمانية ، ويعرض الكاتب للارمن والاشوريين ويهود العراق ، الارمن احمد السلطان عبد الحميد انتفاضاتهم بوحشية بالغة ، والاشوريين تركتهم بريطانيا لحكام العراق الجدد بعد استقلاله، اما يهود العراق فانهم تعرضوا للاضطهاد ثم المذابح عام ١٩١٤ ، ولم ينقذهم الا مجيء بعثة صهيونية من فلسطين تغريهم وتجبرهم كي يهاجروا ، وانتهى الامر بتصفية الطائفة اليهودية من العراق .

ويهاجم المؤلف اولئك الغربيين الذين كانوا يأملون خيرا من ادخال الاصلاحات في الامبراطورية العثمانية هؤلاء « جهلة ومتسرعين » وكل فريق ناصر فئة ومن هنا الفظائع التي ينطوي عليها مبدأ تقرير المصير القومي وما أدى اليه من هدم هذه الطوائف الصغيرة ذات الخبرة السياسية الضئيلة ، ثم يورد النص الذي سقناه فيما سبق خاصا بانذار الغرب وهو يحاول اليوم ان يكرر التجربة .

هذا عن التصفية الجسدية للطوائف . اما عن التصفية الثقافية فقد خصص لها تدوري دراسة بعنوان « الدين والسياسة » يقول في بدايتها « ان احدى المعالم المعروفة جيدا في السياسة الفلسطينية اثناء الانتداب هي أن المسيحيين واغلبيتهم ارثوذكس — برزوا متضامنين مع المسلمين في الكفاح ضد الصهيونية . لقد اكدوا ان المسلمين والمسيحيين كانوا جزءا من الامة العربية ، وان هذه الحقيقة جعلت تضامنهم طبيعيا وحتميا ولم تنحرف الطائفة المسيحية الارثوذكسية قط عن الالتزام بمبادىء القومية العربية والنضال القومي ، وفي حين واصل البريطانيون تقسيم فلسطين على النحو العثماني التقليدي طبقا للعقيدة الدينية — كان المراقبون يندهشون للتضامن بين المسلمين والمسيحيين، الذين تجاوزوا التميز القديم بين الفريقين . وفي اطار القومية العربية التحم الجميع ووجدوا فيها انتهاء بتجاوز التبعية الطائفية القديمة » .

هنا نجد دحضا واقعيا للفكرة الصهيونية التي تنادي بعدم امكان التعايش بين الاديان ، ولهذا يعرض تدوري نتيجة التجربة : أن الالتحام الذي يتجاوز الدين ، في اطار القومية — لم تكن نتيجته الا تصفية ثقافية للاقلية . ويقدم الكاتب دليلا على ذلك — حالات الصراع بين بعض المفكرين المسيحيين وطوائفهم ، الامر الذي ادى بهؤلاء المفكرين الى ترك طوائفهم التقليدية بالاضافة الى ان الطابع الاسلامي غلب القومية العربية فأصبحت تضيق عن استيعاب غير المسلمين استيعابا كاملا .

ويواصل المؤلف هجومه على المسيحيين في المنطقة — فعن طريقهم انتقل الفكر المعادي للسامية من اوروبا الى الشرق الاوسط خلال القرن التاسع عشر اذ نقل هؤلاء عقائد اللاهوت المسيحي التقليدية المعادية لليهود من اوروبا وبذلك اختلطت معاداة اليهودية بمعاداة الساميةبمعاداة الصهيونية من خلال الجماعات المسيحية التي كانت على دراية بالادب الغربي المعادي للسامية .

ويتشفى استاذ السياسة في هؤلاء المسيحيين لان حماسهم الملتهب لم يجدهم كثيرا وانتهى الامر الى كارثة مع تقسيم فلسطين ونزوح الفلسطينيين ومن بينهم نسبة كبيرة من المسيحيين الى خارجها .

وفي تخابث مكشوف ينهي هذه الدراسة « قد يقال انهم لو ظلوا بعيدين عن الصراع العربي الصهيوني وعن القادة المسلمين غير الاكفاء فأن الكارثة ما كانت تحيق بهم على النحو الذي حدث » كأن من بقي داخل اسرائيل من العرب مسلمين ومسيحيين صارت له الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يرضى عنها استاذ السياسة .

أين هذا الاستثناء اذن من هذا الفشل العام في تطبيق الحل القومي بين شعوب المنطقة؟ يخصص تدوري دراسة عن « السير هربرت صموئيل وحكومة فلسطين » يعرض فيها لانجازات المعتمد البريطاني الاول في فلسطين بعد الانتداب ويبرز نجاح التجربة . هنا لا نجد المؤلف يتمسك بموقفه السابق بشأن الفكرة القومية : اللعنة الوافدة من الغرب الى الشرق الاوسط ، على العكس تماما انه يعرض الانجازات التي حققتها « القومية اليهودية » من خلال الصهيونية على أرض فلسطين بارتياح تام ، ولا يثير الكاتب قط اي نقد للشعور الاوروبي بالزيف من نحو اليهود وهو الشعور الذي كان وراء مناصرة الصهيونية واسرائيل فهذا الشعور بالذنب في هذه الحالة — مشروع وله ما يبرره — على عكس الحال حيث لم يتخذ موقف المناصرة للحق العربي . فحين عهد لويد جورج الى هربرت صموئيل — وهو يهودي — في ابريل ١٩٢٠ بالاشراف على حكومة فلسطين في بداية عهد الانتداب « كان يدرك تماما ان يقدم هذا المركز الى شخص متعاطف مع الصهيونية وسيجهد لانجاح البرنامج الصهيوني ثم يورد الكاتب بعضا من مواقف صموئيل المبكرة في اقتراح اقامة دولة يهودية في فلسطين في اثر انضمام تركيا الى المانيا في الحرب العالمية الاولى ويورد مقتطفات مما كان يكتبه صموئيل في مدح العبقرية اليهودية ويقدمه للوزراء الانجليز فيخلص منها الى ان « هذه الكلمات تكشف بوضوح عن صهيوني مقتنع بالنظرية يقبل التحليل الصهيوني للمشكلة اليهودية دون تحفظ » ، وظل طول الحرب وحتى تم تعيينه — سواء كان في منصب رسمي او لم يكن — متعاطفا مع الحركة الصهيونية ، ومقدما لها كل المساعدات التي يستطيعها ، فاذا سئل عن كيفية توفيقه بين عواطفه الصهيونية ومهامه في السياسة البريطانية فأن الاجابة التي يقدمها هي

انه لم يجد ثمة تعارضا يحتاج الى حل او توفيق ومن هنا فأن اختياره ليكون اول معتمد بريطاني في عهد الانتداب لم يحدث الا لانه كان معترفا بـه كنصير متحمس للصهيونية ، ويقول الكاتب ان سجل اعمال صموئيل في هذا المنصب يمكن أن يقدم الدليل على سلامة اختيار لويد جورج له والواقع ان هذا الاخير كان بدوره متعاطفا مع الصهيونية فهو صاحب وعد بلفور وعلى أساس هذا الوعد كانت بريطانيا تعلن أنها الاحق في أن تعهد لهـا عصبة الامم بالانتداب في فلسطين ، وهل ثمة ما هو افضل من متعاطف مع الصهيونية لينهض بتنفيذ سياسة صهيونية .

أما هربرت صموئيل فقد كتب في مذكراته ان الحكومة عينته في منصبه وهي على معرفة كاملة بعواطفه الصهيونية — بل بسبب هذه العواطف — ولكنه يستدرك فيقول أنه لم يكن يعمل باسم الصهيونيين ولكن بأسم الملك (!) .

ويورد الكاتب مظاهر الصراع التي كانت تقوم بين رجال الحكم البريطاني في المنطقة بين اولئك الذين كانوا يعتبرون ان الوقوف في صف العرب هو الذي يحقق المصالح الانجليزية وبين الاخرين — هربرت صموئيل بالذات — الذي كان يرى الوجود الصهيوني هو التضامن الحقيقي لهذه المصالح .

اذن فبمقارنة بسيطة بين فشل الفكرة القومية وسط شعوب المنطقة الاصليين ونجاحها عند تطبيقها بواسطة الجماعات الصهيونية الوافدة — من خلال هذه المقارنة يظهر بجلاء الفارق الحضاري بين طرفي المواجهة .

والعلاج ؟ يعود الكاتب الى الموقف الذي اتخذه من النضال الوطني المصري فهو يقول دون تحفظ « ان الوسيلة الوحيدة لاجراء اصلاحات على النمط الاوروبي ، واذ كان ثمة دول سيتم اقامتها (لسنا في حاجة الى كثير من العناء لنتذكر ان الدولة المطروح اقامتها على أساس قومي في المنطقة هي الخاصة بشعب فلسطين) — فليس الا طريق واحد لذلك ، به تصبح هذه العمليات مفيدة ولا تؤدي الى كوارث ، على اوروبا نفسها ان تدير هذه الدول وان تضمن لها النجاح » . ويبدي بعض الاعتراضات التي يمكن ان تثار في وجه هذا الرأي ولكنه يعود فينذر « ان ما حدث للارمن او ليهود العراق هو ثمرة الاضطراب الذي يؤدي اليه اقتباس المبادىء الغربية وما زال من الممكن ان يحدث شبيه لذلك مرة اخرى في المستقبل » .

ما هي الاعتراضات التي يمكن ان توجه الى هذا الرأي ؟ انها في عبارات المؤلف : اولا « التنافس بين القوى » . ثانيا « ان الاوروبيين يرفضون ذلك باعتباره طريقا امبرياليا وغير اخلاقي » . واخيرا « فقدان الاعصاب والاخلاق الذي يغري باستخدام القوة والنفوذ دون مسؤولية» أما معارضة شعوب المنطقة فلا ذكر لها ضمن الاعتراضات التي تثار ضد عودة الاستعمار في شكله القديم الى المنطقة .

الاعتراضات التي يقدمها قدوري هي في حقيقة الامر اغراءات — انه يدعو القوى العظمى للتنسيق فيما بينها ، ولترك الرومانسية السياسية والتخلي عن الانهزامية وممارسة الردع بأعصاب هادئة وباردة لان هذه الشعوب قد اعتادت خلال تاريخها على مثل هذا النوع من الحكم ، ولقد اصابها المرض والازمة لان بعض الجهلة والمتسرعين والرومانسيين حاولوا معاملتها بأسلوب من الحكم لا تعرفه . وهنا يواصل المؤلف الخط الذي تبناه في جميع هذه الدراسات فهو اذ يشير الى حركات التحرر في مختلف البلاد العربية يخلص الى ان الذين كانوا من بين البريطانيين يأملون في معونة زعماء عرب كانوا في وهم كشفت عنه الايام .

الصديق المخلص الحقيقي للنفوذ الاستعماري في المنطقة كان الوجود الصهيوني في فلسطين .

هنا نستطيع ان نجيب على السؤال الذي طرحناه من قبل عما اذا كان للحل الاستعماري في صورته التسلطية ، الذي يطرحه المؤلف لعلاج مشاكل المنطقة ، فرصة لان يطبق فيها ؟ الاجابة : نعم . وما هي الوسيلة ؟ ذراع الغرب الغليظة والرادعة — اسرائيل أليست قادرة على توجيه الحملات العسكرية على النمط التقليدي القديم (الاسباني البرتغالي البريطاني الفرنسي الامريكي مع الهنود الحمر) غتملأ السكان المحليين ذعرا يضطرهم الى الهرب وتمزق الجيوش البدائية بأدوات الحرب والمعرفة الحديثة .

أليست قادرة على احتلال الاراضي وممارسة سياسة الردع خالصة صريحة .

تاريخ الهجرات الصهيونية ، ودولة اسرائيل منذ انشائها وحتى انتصارها التاريخي الحاسم عام ١٩٦٧ — والكتاب منشور بعد هزيمة يونيو — دليل على هذه القدرة .

ومن هنا تتضح فائدة هذه الدراسات . انها تحذير « اكاديمي » للغرب ، كي لا يقع هذه المرة فيما وقع فيه الاستعمار البريطاني من قبل وأدى الامر الى التصفية الاليمة والمهينة في المنطقة. اليوم فرصة جديدة لاصلاح أخطاءالليبراليين الرومانسيين — الذين صدقوا ان المنطقة يمكن ان يقوم بين شعوبها نظم حكم قوية حديثة . حذار اذن من التعاون وتكرار مسلك ونجت واللنبي ، والثقة في « ثورة » مزعومة او « اصلاح » مزعوم او حتى في وجود « معتدلين » . واثناء أية تسوية للمواقف — الراهنة — بعد ١٩٦٧ ، على رجال السياسة الغربيين ان لا يركنوا الى أي ضمان يقدم لهم من هؤلاء « المعتدلين » فهم سيعيدون — في الوقت المناسب — ما صنعه اسلافهم ايام الاستعمار البريطاني .

ولهذا فان المؤلف يخصص الدراسة الاخيرة في كتابه لمواجهة ما يراه خطأ في الفكر السياسي البريطاني الذي تتبناه الدراسات التي ينشرها بانتظام من تشاثام هاوس المعهد الملكي للشئون الخارجية ، ويقول الكاتب انه في هذه المنشورات يمكن لمن يتابعها ان يجد افكارا وفروضا واتجاهات مشتركة تكون في مجموعها مدرسة فكرية متناسقة . ويركز قدوري هجومه على هذه المدرسة في شخص مدير دراسات المعهد لمدة ثلاثين عاما — ارنولد توينبي ، فيقول انه في كتابات هذا المؤرخ نقرأ صوت الراديكالية الانجليزية وهي تعلق اعترافها بالاثم وندمها على ما سبق ان ارتكبته من مظالم تجاه العالم ، لقد غزونا وتسلطنا وتحكمنا ومارسنا الاستغلال ، والحديث عن العلاقات البريطانية العربية هو المناسبة المثلى لاعلان هذا الشعور بالاثم ، فهذه فكرة موجودة دائما في كتابات توينبي ومدرسة تشاثام هاوس ومنذ بداية عمل توينبي في المخابرات البريطانية تولد لديه اقتناع ثابت بأن معاملة انجلترا وفرنسا للعرب لم تكن مستقيمة ولا عادلة .

بالاضافة الى ذلك — فقد سلم توينبي بأن هناك رغبة في الوحدة السياسية تشمل المنطقة العربية، وكان التقسيم من صنع بريطانيا وفرنسا دون احترام لرأي ابناء المنطقة .

ما هو رأي قدوري في ذلك ؟ يعتبر المؤلف ان هذا الموقف من جانب توينبي يتضمن قبولا دون أي تمحيص بمزاعم أقلية ضئيلة ليست لها صفة تمثيلية واسعة النطاق في العالم المتحدث بالعربية ... ان الصورة التي يعرضها توينبي وزملاؤه للمنطقة وما يملأ كتاباتهم من غوامض مشحونة باخلاق الشعور بالاثم تخفي الازمة الاخذة بأعماق المنطقة ويحكم قدوري على مناصرة توينبي للحق العربي بأنها نظرة سياسية قاصرة .

ويتابع الكاتب بعد ذلك كتاب هذه المدرسة كيرك ولونجوج وجب ومن خلال ذلك يرفض بصفة قاطعة وجود وعي بالوحدة بين الشعوب المتكلمة بالعربية او ان الحدود التي وضعت عام ١٩١٨ هي حدود صناعية الامر الذي يفترض ان العالم المتكلم بالعربية يكون وحدة سياسية .

ولقد خصص قدوري في كتابه دراستين عن العلاقات البريطانية مع حركة الوحدة العربية ، الاولى تغطي السنوات ١٩١٥ — ١٩١٨، والثانية تشمل الفترة من الحرب العالمية الاولى حتى سقوط الاسرة الهاشمية في العراق عام ١٩٥٨ . وفي هذا كله يرى قدوري ان المسألة العربية ، بالمقارنة مع المشاكل الضخمة في اوروبا وامريكا تبدو صغيرة ضئيلة القيمة ، وبالنسبة للتاريخ البريطاني فان المسألة العربية ذات العمر القصير لا تظهر سوى حادثا عارضا في اطار الوجود الامبراطوري في الهند وهو يرى صدق اولئك الذين يقررون انه لو ان بريطانيا كانت قادرة على الاحتفاظ بالهند فقد كانت تستطيع الاحتفاظ بمركزها في الشرق الاوسط ويأسف لانه لا يجد هذه النظرية الباردة الواقعية في كتابات المعلقين الذين يحصرون همهم في موازنات بين النيات الطيبة والسيئة حفظ الواعد ونكثها ، بحث النوايا وفحص الدوافع . أما اولئك الذين كانوا يرون ان التخلف مع انصار الفكرة العربية يخدم المصالح البريطانية فقد اثبتت الاحداث عدم صحة ما يذهبون اليه ويعيب على السياسيين ترددهم واستحياءهم بمناسبة الاتفاقات المتعلقة باقتسام النفوذ بين القوى العظمى مثل ما حدث بشأن معاهدة سايكس بيكو ، ويبدي خشية من ان مواقف الضمير الليبرالي الحساس من هذه

المعاهدة سيتكرر فيما بعد بالنسبة لاتفاقات متشابهة .

في مقابل هذه المواقف يطرح قدوري نظرة — ليست تاريخية بقدر ما هي رأي في الاوضاع الحاضرة للمنطقة — اثناء الصراعات التي تثيرها اسرائيل حول الحدود في اعقاب حرب ١٩٦٧ واصرارها على اجراء مفاوضات لتحديدها .

يقول استاذ السياسة « ان الوحدة القائمة قبل سنة ١٩١٤ كانت وحدة الامبراطورية العثمانية، فلما انهارت هذه أصبحت جميع اقاليمها خاضعة للتشذيب ولا يمكن تحديدها الا عن طريق المفاوضات بين المصالح المختلفة — المتفاوتة في القوة والتي يمكن ان يكون لها صوت في التسوية، هذه التسوية مثل أي تسوية أخرى تكون بالضرورة في شكل حل وسط ومن غير الملائم ان يتطلب احد في التسويات السياسية ان تكون طبيعية او منطقية » .

الموقف بعد سنة ١٩٦٧ يشبه ما حدث بعد انهيار الدولة العثمانية من خلاله يمكن اجراء التشذيب والحلول الوسطى على أساس المصالح الاقوى دون اعتبار للمبادىء او المنطق او الاوضاع الجغرافية الطبيعية .

الدكتور وليم سليمان

Yehuda Karmon, **Israel: A Regional Geography,** (New York: Wily - Interscience, 1971).

ان مراجعة هذا الكتاب تهدف الى : اولا ، توضيح الطريقة التي يحاول بها الاسرائيليون عرض وجودهم الجغرافي في فلسطين وكانه استمرار تاريخي لواقع جغرافي استمر على مدى سنين طويلة ، وثانيا الاشارة الى محاولاتهم الدائمة في الخلط بين الاعمال الدعائية والمواضيع العلمية . ليس هناك من شك بعد مراجعة هذا الكتاب بأنه نوع آخر « علمي » من التزييف او على الاقل نوع من طمس الحقائق ومسح الصبغة الارتباطية بين عرب فلسطين وبيئتهم الجغرافية .

على كل او قبل التعرض للكتاب بدون الاشارة الى محتواه ، فانه من الافضل معالجة الهيكل التنظيمي للكتاب ، أهدافه ، وما جاء في فصوله . يمكن تقسيم الكتاب الى ثلاثة اجزاء رئيسية ، البيئة الطبيعية ، التطور التاريخي ، والبيئة البشرية « لاسرائيل ». ان الكتاب يهدف من التركيز على هذه المواضيع الثلاثة الى ربط الواقع الجغرافي في اسرائيل (فلسطين المحتلة) بالواقع البشري الذي يشكل بنيته « فقط » الاسرائيليون .

ان التركيز على مثل هذه العلامة لهو بدون شك ذو « طابع فريد من نوعه » في ارض « بقدم اسرائيل » .

يقسم الكتاب البيئة الطبيعية في اسرائيل والمناطق الادارية التابعة لها الى اربع مناطق رئيسية ، المنطقة الشمالية ، الوسط ، المنطقة الجنوبية ، ثم « مناطق الادارة الاسرائيلية » . على القارىء ان يلاحظ ان المؤلف يتحدث عن منطقة الضفة الغربية وغزة بالتفصيل ولكنه يشير باختصار الى الجولان وسيناء . وهو بهذا يحاول ان يدرس « التطور الاقليمي في اسرائيل بمعزل عن محاولة الربط بين المناطق العربية والقطاعات الاسرائيلية . كما انه يجب الملاحظة هنا انه في الوقت الذي يركز فيه الكاتب على مناطق الضفة الغربية وغزة يحاول عزل هذه المناطق وتقليل أهمية العلاقة بينها وبين الجولان وسيناء . ثم بدل ان يصفها باسم الضفة الغربية فانه يشير اليها تاريخيا تحت اسماء تركز على علاقتها العبرية .

ان مثل هذه المحاولات المغلوطة هي بدون شك

مقصودة وتعكس آراء وافكار المخططين الاقليميين في اسرائيل . ان محاولات التوطين في الضفة الغربية وغزة ثم طمس معالم القدس ما هي في الواقع الا جزء من خطة اقليمية منظمة طالما داعبت أحلام الصهاينة في « اسرائيل الكبرى » . ان هذه المناقشة ليست اتهاما بلا اساس ، بل ان هناك من يدعمها من حقائق واضحة . ففي سنة ١٩٧٠ صدر عن قسم التخطيط في وزارة الداخلية الاسرائيلية في القدس كتاب تحت عنوان « هضاب القدس ونابلس : ارشادات لتخطيط اقليمي وطبيعي » . والكتاب عبارة عن خطوط عريضة لمحاولات الدمج الاقليمي بين فلسطين المحتلة (اسرائيل) ومناطق الضفة الغربية وغزة. والكتاب يوزع فلسطين بأكملها الى محاور اقليمية ، كل محور له مركزه الخاص به وهو عادة مدينة كبرى كالقدس ونابلس .

ثم يتابع المؤلف بحث الاستيطان الزراعي في فلسطين وما تبعه من مشاكل التكيف البشري للبيئة الجديدة ، والى الاشارة بأن المشاكل البشرية كانت أصعب دائما من مشاكل استغلال الاراضي الزراعية ، ويشير المؤلف بشكل رئيسي الى مشاكل اليهود الشرقيين الذين يعانون من نقص في نوعية القيادة .

ان على القارىء العربي ان يدرك عدة جوانب من هذا الكتاب اذ انه اولا موجه بشكل رئيسي لقارىء غربي حاولت أجهزة الدعاية الاسرائيلية ان تبقيه قابعا في زوايا من الجهل المطبق عن حقيقة الكيان الاسرائيلي ، وثانيا فانه تحت ستار كونه « عملا علميا » يحاول القاء الضوء على قدرة خارقة لمستوطنين صنعوا من الصحراء وكثبان الرمل حدائق غناء وجنائن زراعية ، وثالثا فان الكتاب يصور فلسطين على انها بيئة جغرافية مرتبطة تاريخيا بالشعب اليهودي وهو بذلك يحذف كل اشارة الى شعب عربي تمتد جذوره في عمق التاريخ الحضاري للانسان. ان الشعب الفلسطيني في نظر هذا الكتاب هو استمرار للنظرة الصهيونية الضيقة والبالية التي حاولت تحت الخداع الدعائي ان تصور فلسطين بأنها واقع جغرافي بلا شعب اعطيت لشعب بلا واقع جغرافي .

مثال لهذه المغالطات المتعمدة والضاربة بعرض الحائط لكل اساس علمي هو الوصف التالي لعملية الاستيطان اليهودي : « انه لمن السخرية ان نلاحظ بأن المستوطنين اليهود الحديثين ، الذين هم انحدار من الاسرائيليين الذين سكنوا هضاب القدس ونابلس، قد استوطنوا المناطق الساحلية والداخلية المغطاة بكثبان الرمل والمستنقعات. ان هذه المناطق كانت مناطق « خالية » و « متخلفة » غير مستغلة من عرب الهضاب والتلال ولكنها أصبحت منتجة بفضل الاستيطان الصهيوني خلال عمليات الصرف واستصلاح التربة ، ومشاريع الري » .

ان هذا الوصف ما هو الا جزء صغير في سلسلة حلقات قدمتها المؤسسة الصهيونية تحت رداء العلم للقارىء الغربي وهدفها دائما واحد وهو طمس عروبة فلسطين وابعاد أي ارتباط بين الشعب الفلسطيني وبيئته الجغرافية ، ثم تصوير الوضع بطريقة توحي بأن الاسرائيليين لم يأتوا كطلائع استيطانية استعمارية من اوروبا وامريكا ، بل انهم سكان أصليون لهضاب الضفة الغربية ، وهم بوجودهم في هذه المناطق انما هو عودة « طبيعية » الى بيئة جغرافية اصلية طالما سكنها اليهود .

عبد الاله ابو عياش

The Letters of Chaim Weizmann, Vol. IV (1905 - 6).
Edited by Camilo Dresner and Barnet Litvinoff. (Oxford University Press and Israel University Press).

صدر في لندن اخيرا الجزء الرابع من مجموعة رسائل حاييم وايزمان ، ويحتوي هذا الجزء على الرسائل التي كتبها وايزمان وهو طالب في جامعة مانجستر ، بين سنتي ١٩٠٥ و١٩٠٦ واغلبهـــا موجه الى « فيرا » التي كانت تدرس الطب في جنيف ، والتي أصبحت زوجته فيما بعد . وتتناول هذه الرسائل ، بصفة عامة ، امورا يومية تافهة، او ذات أهمية ثانوية ، كما ان الاشارات التي تتضمنها الى الاحداث المهمة جاءت مختصرة وعابرة. فهو يصف لها مثلا مقابلة له مع آرثر بلفور في فترة مبكرة من المحاولات الصهيونية (كانون الثاني من سنة ١٩٠٦) قائلا : « قابلت بلفور اليوم ، وأجريت معه حديثا طويلا وممتعا عن الصهيونية . وقد ابدى لي انه لا يتوقع صعوبات سياسية دون الحصول على فلسطين ، بل صعوبات اقتصادية . وتحدثنا عن « الاقليمية » فشرحت له لماذا كانت غير ممكنة ، وقد وعدته بأن ارسل اليه مذكرة بهذا الموضوع » . وهذا كل ما جاء في الرسائل عن ذلك الحديث « الطويل والممتع عن الصهيونية » .

ويبدو من هذه الرسائل ان تعيين وايزمـــان محاضرا في الكيمياء العضوية في جامعة مانجستر كان مبعث تشجيع كبير له للمضي في نشـــاطه الصهيوني ، واتصالاته مع الاوساط السياسية العليا في بريطانية في ذلك العهد . ومع ذلك ، فان تقدمه في المجال الاكاديمي كان أبطأ مما توقع وايزمان لنفسه . فهو لم يصبح محاضرا أصيلا في الجامعة حتى سنة ١٩٠٧ ، وفي هذه الفترة وجد وايزمان لنفسه عملا آخر يستعين بدخله منه على مواجهة تكاليف معيشته ، فعمل مع شركة تجارية يرأسها « تشارلز دريفوس » ـــ من كبار الصهيونيين البريطانيين ومن أقوى مؤيدي وايزمان ـــ ، وبالرغم من دخله من العملين فانه كان يعيش في عسر شديد بسبب اضطراره الى ارسال بعض المبالغ الى « فيرا » والى حضور المؤتمـــرات الصهيونية من وقت لآخر . ولذلك فان وايزمان كان يستبق الوقت احيانا للسفر الى لندن واقتراض مبالغ صغيرة من صديقه « موزس فاستر » .

وأخذ وايزمان يشعر ـــ وهو في مانجستر ـــ انه منقطع عن العالم وعن المراكز الحيوية للنشاط الصهيوني ، ويجد هذه المدينة غير مستثيرة ، ومسيرة الحياة فيها بطيئة ، كما انه كان يرى يهود مانجستر مجموعة خاملة ضيقة الافق ، وزعماء الصهيونيين في لندن (أمثـــال ليوبولد غرينبرغ وجوزف كاون) أشبه بالهواة ، واهتمامهم بالحركة الصهيونية سطحيا وفهمهم لها ضحلا .

ان موجة الاعتداءات التي انتشرت في روســـيا ضد اليهود على أثر فشل ثورة سنة ١٩٠٥ هي التي انتزعت وايزمان من حالة القنوط التي سيطرت عليه زمنا . وخلال هذه الفترة كان وايزمان يحارب « زانغويل » و « غرينبرغ » و « الاقليميين » الذين يدعون الى توطين اليهود في يوغندا او امريكا الوسطى او الجنوبية . وفي تشرين الاول ، حينما اشتدت موجة الاعتداءات على اليهود في روسيا القيصرية (البوغرومات) فان رســـائله كانت تعكس ما استولى عليه من يأس ، لبقائه متفرجا مكتوف اليدين ، وعاجزا عن مدهم بأية مساعدة . وكان نشاطه قاصرا على محاربـــة « الاقليميين » و « الاندماجيين » الذين كانوا يرون ان الطريقة الوحيدة لحل مشكلة اليهود تكمن في اندماجهم الكلي بسكان البلاد التي يعيشون فيها .

واذا كانت محاولات « الاقليميين » لم تسفر عن أية نتيجة ايجابية ، فان احلام الصهيونيين بتحسن احوال اليهود في روسيا القيصرية انتهت بالخيبة ايضا . ويظهر من رسائل وايزمان انه لم يكن حسن الظن بـــ « دافيد ولفسن » الذي خلف هرتزل في رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية . وفي المؤتمر الصهيوني السابع انتخب وايزمان لعضوية « لجنة العمليات » ودافع عما كان يراه من ان النشاط الصهيوني « العملي » في فلسطين يجب ان يسير جنبا الى جنب مع الدبلوماسية ، من أجل اثارة اهتمام الجماهير اليهودية واجتذابها نحـــو الصهيونية .

وفي نهاية هذا الجزء نشهد تحسنا ملحوظا يطرأ على أحوال وايزمان الشخصية . فهـــو يتزوج « فيرا » ، وتنتهي مزلته في مانجستر ، ويحصل على درجة « الماستر » ، ويتطلع للحصول عـــلى « الدكتوراه » .

وبالرغم مما يطغى على هذا الجزء من مجموعة رسائل وايزمان من الامور الشخصية ، وقلة المعلومات التاريخية الاخرى التي تضمنها ، فانه — مع ذلك — يعد من الوثائق التي لها أهميتها في دراسة تاريخ الحركة الصهيونية ، ومسيرة وايزمان ، وهو يلقي بعض الاضواء على عدد من النقاط التي كانت غامضة او مجهولة . ولعل من أبرز هذه النقاط ، وأكثرها دلالة ، هي ان وايزمان ، خلال أشهر اليأس والقنوط التي مرت به في سنة ١٩٠٥ ، كان يفكر في الهجرة الى فلسطين بصورة جدية . ولا شك في انه لو لم يقرر البقاء في انكلترة اخيرا ، فأغلب الظن ان الحركة الصهيونية لم تكن لتحصل على وعد بلفور (بصيغته التي صدر بها على الاقل) ذلك الوعد الذي تمكن وايزمان من حمل بريطانية على اصداره بالحاحه المتواصل ، وبما قدمه للمجهود الحربي البريطاني من خدمة اتخذها سلما لاتصالاته ، وثمنا لذلك الوعد الغريب الذي أصدرته الحكومة البريطانية واهبة به ما لا تملك ، الى من لا حق لهم فيه . ولو هاجر وايزمان الى فلسطين فعلا ، فربما كان تطور الحركة الصهيونية مختلفا جدا عن المراحل التي مرت بها منذ صدور ذلك الوعد حتى قيام اسرائيل على الارض العربية ، بل حتى يومنا هذا.

نجدة فتحي صفوت

خالد علي مصطفى ، **سفر بين الينابيع** (شعر)
(منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٢)

حين نتعامل ، نقديا ، مع اي عمل فني فلسطيني (بقصد دراسته ، واكتشاف مضامينه التي يتحدد في ضوئها موقف الفنان من قضيته ، وتتضح طبيعة تعامله معها) فاننا نضع بادىء ذي بدء بعض الاعتبارات الموضوعية التي تتعلق بعمل كهذا : **أولا** : ان هذه القضية قد دخلت حياته من بابها الاوسع . وعلى هذا فلا يمكن ، بحال من الاحوال ، النظر الى شخصيته (الفنية) بمعزل عن معطيات هذه القضية . **ثانيا** : ان نتاجه ، في جوهر تكوينه ، ليس الا استجابة طبيعية لما وجهه عبر رحلة الحياة .. وردا على تحديات مصير يواجهه . **وثالثا** : فان هذه « الاستجابات » و« الردود » ترتبط ارتباطا مباشرا بطبيعة الموقف الذي اتخذه الفنان ، ويتخذه من القضية ، من خلال جميع اطوارها . فهي عند « فنان السجن » — الواقع تحت سطوة الارهاب الصهيوني — استجابات تحد مباشرة وعنيفة . وهي عند « فنان المنفى » تتراوح بين احد اتجاهين : احتراف الحنين والذكرى ، من خلال ما يلتهب في اعماقه .. او الشوق الى لقيا الارض ، والعودة اليها ، حتى ولو عن طريق الشهادة . وفي الموقف الاخير يكون النزوع الى تغيير ما هو قائم كبيرا ، عبر الحلم بشرط انساني افضل .. مسن خلال وعي دقيق لطبيعة القضية .

لقد حمل واقع النكبة والتشرد الى الانسان الفلسطيني عذاب النفي ، وقسوة الاغتراب ، وأزمة التشتت ، ومأساة الضياع .. واخيرا توهج النفس التي تمردت على واقعها لتحيل الصمت والانتظار الى تحرك فعلي مرتكز على أسس واضحة (ايديولوجية ونضالية) ، والنفي والتشتت الى لقاء على ارض واحدة .. وحرقة الاغتراب الى عمل يومي منظم . وضمن هذه العلاقات الجديدة ، والمؤثرة في مسار القضية على اكثر من صعيد ، ولو قدر الانسان الفلسطيني الجديد ، ليخلق طاقة هائلة تنبثق من هذا الواقع ذاته ، وتتجسد اليوم في صيغتين : صيغة الثورة الفلسطينية المسلحة ، وصيغة الكلمة الفلسطينية المناضلة التي تأبى الا ان تمثل واقع الثورة ، او ، على الاصح ، تقترب منه ، بعد أن تمثلت واقع التشرد ، والنواح ،

والبكاء المازوم .

لقد كان للواقع الفلسطيني — بكل ما انطوى عليه ، عبر رحلة تمتد من التشرد الى الثورة — ان ساهم مساهمة فعلية في ابتداع وصياغة «الشخصية الفلسطينية » ، ان على صعيد النضال ، او على صعيد الفكر ، او على صعيد الكلمة والعطاء الفني . وتعاملنا هنا مع « الكلمة الشاعرة » ، من خلال مجموعة شعر لواحد من ابناء القضية .

لعل أخصب تجربة عاشها الشعر العربي في ربع القرن الاخير هي « التجربة الفلسطينية » التي مثلت عاملا كبيرا من عوامل الحيرة ، والقلق ، والتساؤل .. والثورة ، ايضا ، في الحياة العربية .. وقف الانسان ، بفعلها ، على تخوم عالمين : عالم الهزيمة والانكسار ، وعالم الرفض والثورة .. فتشكلت منهما أضخم دراما انسانية ، كان الشاعر حيالها في موقف المشدوه مرة ، غير مصدق ما يرى .. وفي موقف من يعيش غصة روحية ، مرة اخرى . وفي موقف ثالث راح يتمثل الانسان والثورة ، ككل متوحد ، وموحد لقضية واحدة ، باجتماعهما ، على هذا النحو ، يتشكل محورها الحقيقي . وفي كل من هذه المواقف الثلاثة حاول الشاعر ان يجعل من شعره اكتشافا للذات ، والحقيقة معا .

أضع هذا منطلقا لأبدأ الحديث عن مجموعة الشاعر خالد علي مصطفى : « سفر بين الينابيع » التي أرادها « سمفونية » تتشكل من خمسة أناشيد .. تكاد تقتصر ، في منظورها الشعري والرؤيوي ، على نوع من « تجسيد واقع الحال » الذي يمتزج فيه السرد بالاحاسيس والمشاعر . وهو ، من هذه الزاوية ، يجيء اقرب الى « القصيدة الفلسطينية » في طورها الثاني ، اذا استثنينا أسلوب التناول الذي اختلف قطعا . وكان « خالدا » هو الوريث لتلك « النشوة الفنية » المحرضة ، الداعية ، المتأسية .. وان لم يكن وريثا لصدى الاشجان التي فاض بها الشعر الفلسطيني .. انما ورث منها « الحالة » المتمثلة بالوصف والتجسيد . وكأني به يمثل « النموذج الثالث » الواقع بين تيارين عرفهما الشعر الفلسطيني : تيار الكفر بالحياة ، والنقمة ، والالام .. وتيار الايمان بالنضال والثقة بالانتصار الاخير للثورة التي بدأت . اذ يأتي شعره ليمثل الحياة التي يرفدها التياران .. لا باتجاه دفع شعره الى موقع جديد .. وانما بالصور المستخلصة من عيش الحالتين ، وتمثلهما :

من البداية يقدم لنا الشاعر « خلاصة سفره » :

« ظامئا عدت من سفري والينابيع ثوبي
ورثت كل وشم يلوح على جسدي
ورثت شموع القوارب قبل انتهاك الحصاد ،
فكان التجلي

وردة ، والهبوط
خرقة خضختها علي يدي .
بين هذا وذاك ارتحلت
فاستحالت دمائي طريقا وزاد » ..

.. ليكون « الظمأ » شعاره ، و« السفر » داره ..

وبحسب هذا « المفتتح » الذي يتقدم « خمس سفرات » ، وربما هو يقدم تلخيصا لها ، يمكن تحديد ابعاد المجموعة ، او محاور تجربتها بـ :

— الظمأ الملح الذي أصبح رفيق الشاعر في رحلته ، حيث تمزقت الطرق في أقدامه ... وهنا يكون نداء الارض :

«أرضنا — جزر العشق — تسأل عشاقها موعظة
بعدما هجر الضوء أكواخنا »
(قصيدة « القاتل الفدائي »)

— ثم تجلي واقع هزيمة الانسان في مسيرة حياة لم يكن له فيها اختيار .. واستسلامه لحالة من خدر الضياع :

« خلعتنا العشيرة من صلبها
فأتينا المقاهي نحدث حصرانها
حالمين بغزو يفك الرهائن عن
شمسنا الملجمه »
(القاتل الثائر)

— وبين واقع الظمأ للمجهول ، والسعي وراءه .. وبين الهزيمة والضياع يقف الفداء (الثورة) بديلا :

(فاستحالت دائي طريقا وزاد ..)

.. فيه الحل لمعضلة قائمة :

.. « وأعالج قفلا على شفتي بعدما
خالط السوط جلدي ،
ونما الشوك تحت لساني

نسي الماء صورة مستقبلي
وطوى مستهل الكتاب عن الفرس الجامحة
حاطبا عشتي الابدي طعاما
لينابيعه المالحه »

(القاتل الثائر)

ومن خلال هذا التفسير الذي نستخلصه عبر هذه المحاور الثلاثة ، سننظر للديوان بهدف تقويم تجربته (فنيا وموضوعيا) ..

عندما اقرأ عملا شعريا ، فان اول ما افترضه ، للحكم له او عليه ، هو مدى تحقق العالم الذي يتحدث عنه الشاعر ، او يبنيه من خلال شعره ، او يحاول تغييره .. وهو عالم افترضه خصبا بحكم اختياره أساسا لتعامل شعري ، يبني عليه الشاعر رؤياه .. اذ الشعر ، في تكوينه الحقيقي ، ليس الا ضربا من الرؤيا ..

وشعر هذه المجموعة يقوم على « الرؤيا الفلسطينية » ، لكننا نجد الشاعر يعتد هذه الرؤيا في اطار لغوي يمسح الحدود بين الاشياء ، حتى لتبدو متساوية . وفنيا يقوم شعره على تعامل موحد مع كل الاشياء ، وكأن قصائده خطوط تلتقي جميعها عند نقطة واحدة ، او هي تنطلق من هذه النقطة ، لتتشعب امتداداتها . فهو « بموضع » تجربته بحيث يمزج التلقي الخارجي بالاحساس الذاتي .. ولكن هذا « الاحساس » يحجر ما يتلقاه ، لتبقى الاضاءات الداخلية قليلة .. ومن هنا تفتقد القصيدة ما يسمى بـ « التفجر الداخلي » لتجربة كهذه .. لتفرق في تفاصيل كثيرة لا تجعل للقصيدة بؤرة محددة ، ويطغى عليها حشد من الصور .. والصور الذهنية المجردة مما لا طاقة لتكوينها الداخلي به .

هذا ذاته يقود شعر خالد علي مصطفى الى الوقوع في أحابيل كثيرة ..

— فهو في الوقت الذي يبتعد فيه عن « الشعر الهتافي » ، يقع في احبولة « المعاضلة اللفظية » ، والنحت .. ليجعل قصيدته تبدو وكأنها جسم منحوت بدقة تقترب من دقة مهندس ! ، ولكنه لا يضع « الاحجار » في مواضعها ..

لنتأمل هذا « التضمين اللفظي » البارد :

« للناقة الذمول حيزوم سفينة
أغرقها ابن يامين في الدمع .
وجدتها في جبل التوباد
يطردها الحداة شرق النهر حيث تزهر الاوتاد »

(رسالة القاتل الى أهله وذويه) .

— ونتيجة الضياع في متاهات اللفظ المجرد ، تبدو صوره وهي تعاني نفس المعضلة .. لتتبدد — وبسبب من هذا — صورة ذلك العالم الذي كان يطمح ان يقطره في قصيدته . ان تمثله للغة ، بصيغتها التي عرفتها مع اكثر نماذج الشعر العربي سلفية ، لم يكن في صالحه ، او في صالح شعره .. ذلك ان هذا التمثل جاء ، وفي كثير من الاحيان ، تمثلا ناقصا ، لم تتحقق فيه حريته الفنية ، ولم يظهر ابداعه وأصالته .

لنتأمل :

« البحر في خاصرة الثياب ينحني
مقبلا كل مآقي الصخر ، يبتني
من حجرة المياه منزلا ، ويعتني
بالعشب خوف الهاجره . »

(رسالة القاتل الى أهله وذويه)

.. فهل هي اكثر من تراكم صوري ، لفظي ؟
أو :

« أيتها الذاكرة التي سطت على بقايا الماء في الضريح » ..

أو :

« .. أي صوت ورث الاشباح
عن الكهوف خوف ان يختمر الزيتون في الجراح »

أو :

« فاستراح كل جرح
على أخيه ، أشعلا قنينة التاريخ والزمان في المساجلات »

(القصيدة نفسها)

.. ان الدلالة الرمزية ضعيفة في مثل هذه الصور المجردة ، المبنية على استعارة جامدة .. وهي صور جاءت بعين العقل .. مبنية على ادراك حسي .. فلم تبلغ المستوى الذي يمكن ان تكون فيه « تحت امكان الرؤية الكاملة » لتوحي « بالعيني المحسوس دون ان تسقطه بشكل نهائي وتوضحه » (اوستن وارين — نظرية الادب) .

وحتى حين تقترب صوره من جوهر موضوعه ، فانها لا تتجاوز حدود التقريرية :

« كنت اعمى وحيدا
قادني من يدي الدليل في الصحراء .
أغرق الليل وجهي ، فقال الدليل :
ـ « قد عبرنا سياج الحديقه
هو ذا النبع لا تبئس ! »
مثرت قدماي ، سقطت ، فلامس وجهي صديقه
وتراخت على الرحل أهدابي .
عندها صحت الشمس في عيني
فرأيت الدليل يوقع حلفا مع الصحراء » .

.. لكن ايماضا شعريا يطلع من بين هذا التهشيم لكل الابعاد المحركة ، الذهنية والشعورية، حين يقول :

« كانت الارض منفية والسماء
ركبتها عيون الدليل على ما تشاء
فضح الرمل سر المكان
فسياج الحديقة والنبع اسطورتان ! »

هنا فقط يتحقق ذلك التلاؤم الحميم بين المعطى والاحساس ، في سياق شعري يحافظ على تتابعه، ولا يجزىء نفسه في تفصيلات وامتدادات جانبية ..

ان الشاعر يمسك ، وفي كثير من الاحيان ، بداية مسار قصيدة جيدة التركيب (الرؤيوي في الاقل).. لكنه يبدد هذا ، ويضيعه في « تراكيب صورية » لا تقوم بينها تلك العلاقة من امتزاج العقل والشعور (الاحساس الداخلي) بما يمكن ان يخدم تنامي القصيدة ، تجربة وبناء . وفي حالة كهذه تصبح القصيدة « صياغة شكلية » . بينما الشعر الحقيقي ، او الشعر الذي يكتب في عصر كهذا ، يقوم ، او يفترض به ان يقوم على توازن وانصهار ثلاثة عناصر : التجربة ، والرؤيا التي تشكل هذه التجربة على نحوها الخاص ، واللغة .. حيث يتحقق ما يمكن ان نعبر عنه بالتلاحم بين « الصيغة » التي تتخذها التجربة ، وبين « الجوهر » الذي يشكلها ، او تتشكل من خلاله ... لتصبح اللغة ، كما يصبح الرمز والاستعارة ، جزءا من هذه التجربة .

ان لغة كهذه التي يستخدمها الشاعر لغة يتقلص تحت غطائها الثقيل مخزون كبير من المشاعر، وتكبت تحت وطأتها وبفعل صلابتها حوافز كبيرة . فهي لغة متعسفة على الشعر .. كثيرا ما كبتت قدرات « النطق العصري » للشعر في فم الشاعر..

هذا ذاته يؤكد « مسألة شكلية » اخرى في شعر خالد .. هي أنه في أغلب قصائد مجموعته هذه يجمع بين : معطيات التجربة الشعرية الجديدة (من حيث المفهوم) ، والقيم الشعرية الكلاسيكية (البناء اللغوي . الاستعارة . الاسلوب السردي) التي كانت تمازج النماذج الاولى التي تفجرت عنها حركة الشعر الجديد . والشاعر واقع تحت تأثيرات هذه القيم ، على الرغم من انتمائه الى جيل جديد في الكثير من قيمه . وعلى الرغم من تطور حركة الشعر الجديد في السنوات العشر الاخيرة تطورا ملحوظا ، ألغى الكثير من اعتبارات المرحلة الاولى (الخمسينات) ، الا ان شاعرنا ، كما يبدو ، ما يزال متشبثا بها ، بهذا الشكل او ذاك .

من هنا لم تستطع المجموعة ان تقدم مصطلحا شعريا خاصا بها .. وان تكن هناك ملامح لوجه غير واضح القسمات . فقد بدا ضعيف القدرة على استيعاب تراث القضية (النفسي والانساني) .. ليظل جانبيا في اكثر ما كتب ، سواء في معاناته ، او في قلقه ، او في أزمة تشرده التي ظلت ، بالنسبة له ، أزمة تشرد ، ولم تستحل الى ثورة . والتمرد الذي يظهر هنا وهناك على « واقع التشرد » ، يظل حبيس الوضع ذاته ، على الرغم مما يعتمده من تمويه صوري ، ورمزي . وهذا يشير الى « طبيعة موقف » يتخذه الشاعر ، يبدو فيه قليل الامل ، او التفاؤل بالكثير مما يحدث .. وكأن الصورة القائمة للخروج ما تزال في عينيه .. وهذا ما جعل الانسان ـ القضية يبدو وكأنه شبح في ذهنه . وهي « حالة » قد تكون لها ظروفها الفكرية (الموقفية) والموضوعية التي لا نستطيع ان نقطع بها في موقف كهذا ..

تبقى هناك الدراسة التي ألحقها الشاعر بمجموعته هذه ، والتي كتبها الاستاذ علي عباس علوان .. وهي دراسة تحاول ان تقدم بعض الاضاءات في « تفسير » القصائد .. وهي تفسيرات أجدني أخالفه في كثير مما جاء فيها . كأن يجد « ان دور اللاوعي في تشكيل بناء (سفر بين الينابيع) اكبر من دور الوعي المهندس » .. وهي مغالطة يرتكبها الناقد ، اذ الشاعر يقدم نقيضها في شعره .

اما « الغموض الكثيف والتعقيد الشديد اللذين يلفان صور الشاعر ولوحاته العامة ، والكبيرة »..

فأجدني أخالفه الرأي والموقف ثانية في « حيرته الشديدة » في تعرفه على المراحل الفنية للعمل . ذلك أن غموض القصيدة في هذه المجموعة ليس غموضا متأت من تعقيد رؤيا الشاعر .. وانما هو غموض سببه عدم الوضوح الرؤيوي ... وان كنت اتفق معه في ان « موضوع القصيدة العام يطرق النموذج العربي الانساني للثائر الفلسطيني من خلال تجربة الشاعر الشخصية » (وهي تجربة ضيقة المدى ، محدودة الابعاد ، تنطوي على كثير من التردد والشك ، ولا تكاد تمتلك حوافز اليقين الثوري) .. ولكنني لا اجد تلك « المحاور الثلاثة » ، التي وجد الناقد هذا الموضوع يدور حولها ، « محاور جدلية » . فالجدلية ، كما يطرحها الفكر الماركسي ، تجعل من الفكرة تعبيرا عن الواقع ، وانعكاسا له .. على ان لا يقلل هذا من فاعلية الفكرة في الواقع ..

ثم ان الشاعر لم يقدم لنا من خلال هذه « الجدلية » ، التي يفترض الناقد وجودها في شعره ، اية « معرفة موضوعية يقينية » بالقضية التي شكلت محور شعره .. اضافة الى انتفاء عناصر التغير والتداخل والتناقض في تجربته ، والتي هي من أسس ومقومات « الموقف الجدلي » ، و« النظرة الجدلية » .

من هذا الاستخلاص يمكن القول بأن ما يحاول الناقد تقديمه من « تفسيرات جدلية » للقصائد ، عبر ثلاثة محاور ، هي تفسيرات تدور في فضاء من المعنى الذي لا يجد قرينته في القصائد . فما يراه من وجود « محور جدلي بين الذات والموضوع، ويتطور الى الخاص والعام ، ثم الى الوجدان الفردي والوجدان الاجتماعي ، وبالعكس » .. هو محور وهمي ... وان كان هناك محوران تتحقق بعض سمات هذا المفهوم (الجدلي) فيهما ، هما :

— المحور الذي « يدور بين محاولة الوصول الى الثورة والسقوط ، وبين شمس المستقبل التي يجدها في الرؤيا والحلم » .. وان كانت المسألة اكثر وضوحا في قضية « محاولة الوصول الى الثورة والسقوط » منها في « شمس المستقبل » .

— والمحور الذي يراه متحققا « ما بين رفض الموت — الهزيمة » ، وبين « مواجهة اليأس والانسحاق والدمار الانساني للوصول الى خلاص العالم » ... وهو أمر غير متحقق بشكل واضح.. باستثناء بعض الاضاءات التي لم تفصح عن نفسها من خلال وعي فعلي لموقف كهذا ..

وباستثناء الصفحات الثلاث الاولى من الدراسة (٢١ صفحة) ، فان ما تبقى ليس اكثر من تفسير للقصائد . وكأني بالشاعر ، وقد ارتأى حشر مثل هذا التفسير في ديوانه ، انه أراد تقنين منظور القارىء لشعره .. وربما انقاذا لنفسه من لوم ما قد يجابه به .. وهي مسألة لا تمتلك التبرير ، كما لا تمتلك المسوغ الحقيقي لها !

ماجد صالح السامرائي

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

تجربة البحث عن افق

مقدمة لدراسة الرواية العربية بعد الهزيمة

بقلم : الياس خوري

وهي محاولة لتحليل تطور البنية الروائية العربية في بحثها عن افق تعبيري يحمل تحولات المرحلة .

اطلبه من : مركز الابحاث — قسم التوزيع
ص.ب ١٦٩١ — بيروت .

الفلسطينيون كما يبدون في الذهنية الاسرائيلية

عبد الحفيظ محارب

(١)

نظرة المستشرقين الاسرائيليين تجاه مستقبل الشعب الفلسطيني

في غمرة الحديث عن التسوية السياسية للصراع العربي الاسرائيلي عقب حرب اوكتوبر ، اخذت اقلام المستشرقين الاسرائيليين ، كما درجت في السابق ولكن بشكل اكثر ، تنهمك في معالجة هذا الصراع ، للخروج باستنتاجات وفي بعض الاحيان بتوصيات ، بغرض المساهمة في توجيه السياسة الاسرائيلية تجاه جملة الموضوعات ذات الصلة بالنزاع . ولسنا هنا في مجال تحليل وجهة نظر هؤلاء تجاه الصراع ، بل نحن بصدد القاء الضوء على وجهة نظرهم تجاه موضوع معين غدا يعرف باسرائيل بـ « الكيان الفلسطيني »، وقبل الخوض في هذا الموضوع ، نجد من المفيد تسجيل الملاحظات التالية :

١ ـ اهتمام السلطات الاسرائيلية بالمستشرقين بسبب الحاجة الملحة الناجمة عن الصراع العربي الاسرائيلي ، لدراساتهم واستنتاجاتهم وتوصياتهم، ولذا ، فانهم من اكثر الباحثين قربا من الاستخبارات العسكرية لحاجة هذه الى تقييماتهم للاوضاع في العالم العربي ، وليس غريبا ان يكون الدكتور يهوشفاط هركابي ، من بين المستشرقين البارزين ، من اوائل رؤساء الاستخبارات العسكرية .

٢ ـ ازاء هذه المكانة التي يحظى بها هؤلاء المستشرقون نجد ان نصيب مكانة تحليلاتهم واستنتاجاتهم ـ وخاصة المنشورة منها ـ تقل عن المكانة الاولى ، فهي في احيان كثيرة تبدو متناقضة ، وفي أحيان اخرى مغلوطة . وفيما يتعلق بالتناقض ، فان ذلك يعود الى وجهات النظر الصهيونية المتباينة في المجتمع الاسرائيلي تجاه الصراع العربي الاسرائيلي،ومن الطبيعي، والحالة هذه ، ان تنحى وجهة النظر التي يتبناها كل واحد الى التوصل الى استنتاجات وتوصيات مغايرة . وعلى سبيل المثال فاننا نجد ان المنطلق لوجهة نظر هركابي يكمن في الفهم القائل بأن الظروف الراهنة ليس فيها ما يمكن من التوصل الى سلام حقيقي للنزاع، لان العرب لايزالون يصرون في أعماق نفوسهم على ازالة اسرائيل ، ولذا فانه يوصي بتوفير عمق استراتيجي أي بالتوسع في الاراضي العربية . أما الدكتور متنياهو بيلد فانه يرى العكس من ذلك ، اذ يرى ان « الضم الزاحف » و « الاحتفاظ بالمناطق » لا يوصلان الى السلام ، ولذا فانه يوصي بالامتناع عن سياسة الضم والتوسع .

وعلى صعيد المغالطة فهنالك نوعان منها ، الاول يتمثل في مجانبة الحقيقة في التحليل بدون قصد لاسباب ذاتية تعود في الاساس الى حالة الحرب التي يمر فيها المجتمع الاسرائيلي ، حيث تتدخل العواطف القومية وتتداخل في توجيه الكاتب وتخرجه عن دائرة البحث العلمي ، او كما يقول رؤوبين ماروز احد المهتمين في القضايا العربية في مجلة « حوتام » ٧٣/١١/٢٣ : « من المعروف انه يوجد في اسرائيل اشخاص يتبوأون مكانة مرموقة في عالم الاستشراق . واذا ما استثنينا كون هؤلاء الاشخاص علماء مشهورين فاننا نجدهم يعملون في موضوع يعتبر الحل الصحيح لاحجياته بمثابة قضية حياة او موت بالنسبة للشعب الاسرائيلي . وعليه

فان تمسكهم بعدالتهم ولياقتهم لاثبات نظريتهم وتوجههم ، يصبح من الشدة بحيث يتجاوز المجال البحثي العلمي الصحافي السائد في معظم الاحيان في قاعات مكتبات الجامعات ، وذلك بفضل **التداخل العاطفي والقومي لدى المستشرقين الاسرائيليين بما يدور حولهم** » . وهنالك امثلة كثيرة على مغالطة الواقع تتمثل في التحليلات الجمة قبيل حرب اوكتوبر والتي أجمع كاتبوها بدون استثناء على أن الحرب بعيدة الوقوع ، وان كل ما يقال من تهديدات يجيء « للاستهلاك المحلي » ، او أن ما يجري من تحشدات في الجانب العربي « ناجم عن الصراعات الداخلية » .ومثال اخر على تسرع المستشرقين الاسرائيليين في الحصول على استنتاج خاطىء يتمثل فينظرتهم تجاه الاجتماع الثلاثي الذيعقده السادات والاسد مع الملك حسين لتحييده او زجه في المعركة، عشية حرب اكتوبر ، هذه النظرة التي رأت في هذا الاجتماع فقط « محاولة ناجحة من قبل الملك حسين للخروج من عزلته » . والاتكى من ذلك انهم اخذوا يركزون على تاريخ انعقاد الاجتماع الذي صادف وعقد في الذكرى الثالثة لمجزرة ايلول ، ليخرجوا باستنتاج بأن الملك تمكن من انتزاع اعتراف كل من مصر وسوريا بانتصاره على « المخربين » ، ولم يدر ببال احد منهم بالرغم من الايحاءات الكثيرة ، بأن هذا الاجتماع يجيء في سلسلة الاعدادات للمعركة من قبل مصر وسوريا ، ولعل سبب ذلك يعود الى تجاوز هؤلاء في كثير من الاحيان المجال البحثي العلمي الصافي « بفضل التداخل العاطفي والقومي لدى المستشرقين الاسرائيليين بما يدور حولهم » كما أشرنا .

أما على صعيد مجانبة الحقيقة عن قصد فهنالك امثلة كثيرة ، نكتفي بذكر ثلاثة منها لالقاء ضوء على المنطلقات الخاطئة المتعمدة والتي تجيء لخدمة هدف اعلامي تريده المؤسسة الحاكمة او لاستهواء اذان الجمهور الاسرائيلي ، دون ان يكون لها نصيب في الصحة والواقع :

(١) التصوير الخاطىء خلال حرب اوكتوبر للدور الذي تقوم به القوات العراقية على جبهة الجولان ، فقد ركز المعلق العسكري هرتسوغ حديثه اثناء المعركة وجاراه عدد من المهتمين بالقضايا العربية عن المهمة « الحقيقية » للوحدات العراقية وأكد أن هذه المهمة تتمثل في العمل على تغيير نظام الحكم في سوريا لاختلاف وجهات نظر جناحي البعث في سوريا والعراق ، ومساعدة « المخربين » للتسلل للاردن بغرض قلب النظام هناك .

(٢) النظرة للامور من خلال مقولات للمستشرقين عفا عليها الزمن ، كالتركيز على العوامل الطائفية للخروج باستنتاج خاطىء ومضلل ، مثل قول البروفيسور موشيه ماعوز رئيس معهد العلوم الشرقية في الجامعة العبرية في القدس اثناء تقييمه للخطوات التي يمكن ان يتخذها الرئيس حافظ الاسد قبل حرب تشرين « ... على حافظ الاسد العلوي ، لكي يكون مقبولا لدى الاكثرية الاسلامية في سوريا ، ان يثبت طيلة الوقت انه كاثوليكي اكثر من البابا ، وكأبن لاقلية طائفية عليه أن يكون على رأس المتطرفين ، وبناء على ذلك فان **الاعتقاد المعقول** ، انه الى جانب محاولته تغذية الوطنية السورية ، لن يتردد الاسد في اتخاذ اعمال متطرفة **واستعراضية** » .

(٣) تشويه سمعة الاعداء بالصاق تهم اليهم بغرض الطعن في المبادىء التي ينادون بها ، مثل الصاق تهمة « التكسب من استمرار الصراع » التي الصقها احد المهتمين بالشؤون العربية ، برئيس اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ناجي علوش، ومنير شفيق احد الكتاب الفلسطينيين البارزين ، ليطعن من خلال هذه الفرية موقفهما الرافض لمؤتمر جنيف . فقد ذكر روبين ماروز في ملحق « عل همشمار » ١٩٧٤/٢/١٥ اثناء معالجته لوجهات النظر الفلسطينية المتباينة تجاه المعطيات الجديدة لحرب اكتوبر ، وبعد أن حلل وجهة النظر الاولى ، ذكر « لقد ثار المثقفون الذين **يتكسبون من استمرار الصراع** » .. مثل ناجي علوش ومنير شفيق ... ضد اتفاق فك تلاحم القوات ومحادثات جنيف » .

نعود الان للحديث حول نظرة المستشرقين الاسرائيليين الى القضية الفلسطينية على ضوء المعطيات الجديدة الناجمة عن حرب اوكتوبر . سنكتفي في هذا التقرير عرض اراء اربعة من المستشرقين الاسرائيليين تجاه هذا الموضوع ، هؤلاء الاربعة هم البروفيسور شمعون شمير رئيس كلية التاريخ في جامعة تل ابيب ورئيس معهد شيلوح للدراسات الشرقية ، البروفيسور موشيه ماعوز رئيس معهد العلوم الشرقية في الجامعة

العبرية في القدس ، ميخائيل اساف من انصار الحزب الحاكم ، الدكتور متياهو بيلد يسار صهيوني .

يعتقد البروفيسور شمير في مقالة له نشرت في هآرتس ٧٤/٢/٢٢ ان « الهوات بين رؤوس مثلث التناقضات» ويعني اسرائيل والاردن والفلسطينيين، قد تقلصت قليلا ، ويعزز وجهة نظره بالوقائع التالية :

« أ — يبحث الملك حسين عن جسور مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وهو على استعداد اليوم للاعتراف بها كممثلة للشعب الفلسطيني بالنسبة لموضوعات معينة .

ب — يميل رؤساء منظمة التحرير الفلسطينية بشكل اكثر الى قبول فكرة اقامة دولة فلسطينية في أعقاب المفاوضات في جنيف .

ج — ان القيادة الاسرائيلية ، اذا ما حكمنا حسب النقاط الـ ١٤ للتجمع [التي تبناها بعد حرب تشرين وجاءت بمثابة برنامجه الانتخابي] مستعدة الان ان ترى الفلسطينيين كاحدى القضايا التي ينبغي ان تجد لها حلا في التسوية مع الاردن » .

وفي حين نجد أن شمير يعتقد بتقلص الهوة بين الاطراف الثلاثة ، اسرائيل والنظام الاردني والمقاومة الفلسطينية نتيجة معطيات اوكتوبر ، ويستدرك « ان هذه التطورات لا تعبر ، مهما كانت اهميتها، عن تبدل جوهري في مواقف الاطراف الثلاثة ، نجد في المقابل ان البروفيسور موشيه ماعوز ينكر ان يكون قد طرأ لين على الموقف المبدئي لما يسميها — خلافا لبروفيسور شمير — « منظمات التخريب » فقد جاء في مقال له في صحيفة هآرتس ٧٤/٢/٢٢ : « لم تؤد حرب يوم الغفران الى تليين الموقف المبدئي لمجموعة منظمات التخريب الفلسطينية ، هذا الموقف الذي يدعو الى تصفية دولة اسرائيل عن طريق الكفاح المسلح ، واقامة دولة عربية فلسطينية على كامل ارض اسرائيل الغربية ، وفي الواقع ، عززت الحرب هذا الموقف » ... ويؤكد ماعوز على « ان الخلاف الذي انفجر مؤخرا بين منظمات التخريب الفلسطينية بخصوص موقفها تجاه مباحثات جنيف واقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية لا يدور مطلقا حول مبادىء هذه الاستراتيجية ، المقبولة لدى جميع المنظمات . ان الخلافات في وجهات النظر بين سائر المنظمات الفلسطينية يدور حول التكتيك ، أي التوقيت والمراحل لتصفية اسرائيل » .

ومن ناحية احتمال قيام دولة فلسطينية ، فقد أعطى كل منهما تصورا مختلفا في بعض الجوانب ومتشابها في جوانب معينة ، يعتقد شمير انه ينبغي على اسرائيل ان تعمل للتوصل الى تسوية مع النظام الاردني والفلسطينيين معا في وقت واحد « فبدون تسوية مع الاردن ، من الصعب تصور كيف يمكن احلال ترتيبات امنية ملائمة على امتداد الحدود الشرقية لاسرائيل ، وابعاد خطر نمو قوة متطرفة مرتبطة مع انظمة عربية راديكالية ومع الاتحاد السوفييتي ، ولكن بدون تسوية مع الفلسطينيين لن يكون من الممكن اضفاء اية شرعية على هذه التسويات ، تمكن مصر ودولا عربية اخرى من التقدم نحو تسوية سلام مع اسرائيل ». ولذا فان الحل حسب رأي شمير يحتاج الى « ابداء خيال وجرأة سياسيين » بحثا عن قاسم مشترك يجمع بين مثلث التناقضات ، الذي تقلصت الهوة بين تناقضاته نتيجة حرب اوكتوبر كما يعتقد . فهو يرى ان « هنالك عناصر كافية في مشروع حسين الفدرالي ، وفي المصالح العملية للفلسطينيين ، وفي المشاريع الاسرائيلية ، مثل مشروع الون ، لتبريد تجربة هذه الطريق » .

أما ماعوز فيرى ان معطيات اوكتوبر قد دفعت اكثرية المنظمات الفلسطينية الى تبني ما يسميه « الدولة المرحلية » ويوعز هذا التغيير الى عدة عوامل منها الضغوطات المصرية والسورية والروسية الموجهة لمنظمة التحرير الفلسطينية لكي تلين من موقفها ، ورغبة المنظمة اقامة « سلطتها على اجزاء من ارض اسرائيل الغربية » (فلسطين) للحيلولة دون ضم هذه الاجزاء الى المملكة الاردنية ضمن اطار تسوية اسرائيلية اردنية .

كيف تنظر اسرائيل الى هذه الدولة؟ يعتقد ماعوز انه « من ناحية اسرائيل ، فمن المحتمل انها ترى في اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة خطرا شديدا لامنها، الى جانب أمل ضعيف جدا لتسوية النزاع العربي الاسرائيلي » ولاثبات وجهة نظره ، ومن ثم للخروج باستنتاج وتوصية يقول ماعوز .. « ان دولة فلسطينية في الضفة الغربية

والقطاع تكون ذات سيادة قولا وعملا ، قويـــة ، تسيطر عليها منظمات التخريب وعلى رأسها منظمة التحرير الفلسطينية — المقبولة لدى الدول العربية ومعظم الجمهور السياسي الفلسطيني — الممثـل المعترف به للشعب الفلسطيني ، دولة كهذه ، قد تتحول خلال مدة وجيزة الى كيان قومي عدواني ، يتمتع بتأييد وتسليح من قبل الاتحاد السوفييتي ، يكون بمثابة سوريا جديدة . ان هذا الكيان سيشكل في الظروف العادية قاعدة لاعمال مزعجة بـــدون انقطاع ضد اسرائيل ، وسفك دم سكانها — ظاهرة موسعة وكاملة للفدائيين — فيأواسط الخمسينات — وحين صدور التعليمات ، تتحول حدود هذه الدولة الى خطوط هجوم سهلة جدا للجيوش العربية نحو قلب دولة اليهود » .

اذن ما الحل بالنسبة لاسرائيل : يعتقد ماعوز « ان التسوية التي تعتبر اهون الشرين من ناحية اسرائيل تتمثل في « الحل الاردني » للمسألـــة الفلسطينية . وبكلمات اخرى تسوية تكون معتمدة على ضم مشروع الون مع « مشروع حسين » بعد تعديله . وبمقتضى هذه التسوية تجرد الضفـــة الغربية من السلاح وتعاد الى المملكة الاردنية او « المملكة المتحدة » عقب تعديلات علـــى الحدود وترتيبات أمن مناسبة » .

من الملاحظ ان شمير وماعوز يلتقيان في نهـــاية المطاف على حل « حسين — آلون » الا ان شمير يختلف عن زميله بتطعيم هذا الحل « بالمصالـــح العمليـــة » للشعب الفلسطيني . ومن الجديـــر بالذكر هنا هو أن ماعوز ، علاوة عن تجاهلـــه « للمصالح العملية » للشعب الفلسطيني ، نجده يبدي تخوفا من احتمال سيطرة الفلسطينيين فـــي المستقبل البعيد على الاردن ، اذ يقول « انه مـــن المحتمل ان يسيطر العنصر الفلسطيني على الدولة الموحدة بالقوة او بطريق ديمقراطي ليقيم الشخصية الفلسطينية الكاملة . ان احتمالا كهذا ، مع انه يحمل بين طياته مخاطر لامن اسرائيل ، ليس وشيك الوقوع ، ويمكن تطويقه في الوقت المناسب » .

اما ميخائيل أساف ، وهو اقل مـــن زميليه السابقين شأنا في عالم الاستشراق فيرى كما جاء في مقالة له نشرت في صحيفة دافار ١٩٧٤/٣/١ تحت عنوان « تخبطات الكيان الفلسطيني » ان هناك أربعة خيارات امام الفلسطينيين .

« أ — انضمام من جديد للاردن باضافة (او بدون) القطاع .

ب — ابراز الكيان الفلسطيني من خلال الاتحاد الفدرالي مع الاردن .

ج — اقامة دولة فلسطينية مستقلة .

د — دولة فلسطينية مستقلة — مرتبطة بالاردن وباسرائيل او باحداهما » .

يتهرب أساف من معالجة وتحليل الخيارات أ ، ب ، د ، ويكتفي بالقول « ان الرأي السائد حتى الان يدعو الى عدم العودة الى المملكـــة الاردنية كالسابق » ومع ذلك يضيف « ان هنالك ميلا قويا بين صفوف الجيل البالغ والتقليدي وأصحـــاب الاملاك داخل المناطق المحتلة لقبول اقتراح حسين الداعي الى اقامة اتحاد فدرالي اردني فلسطيني بما في ذلك قطاع غزة مع تأمين اكبر قدر مـــن الاستقلال الذاتي للحكم المحلي الفلسطيني » . وفيما يتعلق باقامة دولة فلسطينية مستقلة فيرى اساف ان ذلك بمثابة عودة الى مشروع بورقيبة لعام ١٩٦٥ الذي يعتمد على اسلوب المراحل ، ويعتقد ان هـــذا المشروع يثـــير بالفعـــل قلقـــا وتخوفات كثيرة لدى ساكن المناطق المحتلة ، ذلك «لان هذا المشروع في حالة تطبيقه لن يجلب السلام، ذلك أن عرفات استنادا الى دعم مصر ومؤتمـــر الجزائر سيعتبر نفسه مخولا لتوجيه هذه الدولـــة المستقلة ، **هذا في الوقت الذي يعتبر هو وانصاره في نظر سكان المناطق المحتلة كاناس مـــن الخارج يريدون السيطرة باسم الثورة العربية** » ليصل بعد ذلك الى استنتاج بأن الاردن علاوة على سكان المناطق المحتلة لا يقبل به ، كما وان اسرائيل ترى فيه خطرا يهدد سلامتها ، لانه « ليس هنالك شك ان الكتلة التي يعتمد عليها الملك في الاردن لا زالت قوية ، وهذه الكتلة ليست على استعداد للتنازل عن المناطق ولو بشكل فدرالي فقط (عقب استفتاء شعبي) فكم بالحري تكون مسألة عدم اقامة دولة فلسطينية مستقلة مسألة مهمة بالنسبة لاسرائيل » ويفسر اساف هذه الاهمية بقوله : « من الواضح ان نظرية المراحل ، التي تضمن وجود صداقات وحروب بدون انقطاع بين العرب واليهود في المستقبل ، ستقوي وتعزز من قيام الدولة الاخرى التي يمتلك فيها عرفات والمخربون وزنا كبيرا مهما كان موقفهم الان » .

من الملاحظ ان السادات الذي ذكر بأن هنالك اربعة خيارات ماثلة امام الفلسطينيين اخذ ينسف تلك الخيارات الواحدة بعد الاخرى ولم تمتد يد النسف الى الخيار الاخير — « دولة فلسطينية مرتبطة بالاردن او باسرائيل او باحداهما » .

مقابل هؤلاء المستشرقين الثلاثة ، يقف متنياهو بيلد طارحا فكرا مختلفا ومميزا دون الخروج عن المفاهيم الصهيونية . وقد عبر بيلد عن فكرته في قال نشر في صحيفة معاريف ١٩٧٤/٢/١ تحت عنوان « المشكلة الفلسطينية على جدول الاعمال ». يعتقد بيلد انه يتوجب على اسرائيل خلال المرحلة القادمة بلورة موقفها من القضية الفلسطينية ويتمنى « ان يكون من بين الاوهام الكثيرة التي تطايرت في حرب يوم الغفران الوهم القائل بأن بوسعنا دفع القضية الفلسطينية « تحت البساط » واخفاءها عن انظار العالم » لاعتقاده « ان المشكلة الفلسطينية ، بدون شك، ستصبح المشكلة المركزية في المرحلة القادمة من الاتصالات بيننا وبين الدول العربية ، وبناء عليه لا يكفي ان نعود كما درجنا في السابق ونكرر الحل المفضل بالنسبة لنا فقط ، بل ينبغي ان ندرس الحل الذي يأخذ بالحسبان مصالحنا الحيوية وينطوي ايضا على اشباع لطموحات ورغبات الطرف الاخر الاساسية » .

ويرى بيلد ان من اخطر الامور التوهم بحل القضية من خلال تسوية مع الاردن ويقرر « بامكاننا حل القضية الفلسطينية فقط من خلال اتصال مباشر مع الفلسطينيين انفسهم وبموافقة مصر » . لاعتقاده ان حل القضية الفلسطينية من خلال الاتفاق مع النظام الاردني من شأنه ان يؤجج الصراع العربي الاسرائيلي في المستقبل « وحتى لو نجحنا في نهاية الامر في التوصل الى حل متفق عليه مع الاردن فان هذا الحل لن يضع حدا للنضال الفلسطيني بل يجعله اكثر شدة وهذا هو السبب الرئيسي لاعتبار « الحل الاردني » حلا مرفوضا ».

من المعروف ان السياسة الاسرائيلية المعلنة تؤكد على ضرورة عدم تواجد جيش عربي غربي نهر الاردن في حالة التسوية وتدعو الى حل القضية الفلسطينية من خلال التوصل الى اتفاق مع الاردن يعيد اليه السيطرة الاسمية على الضفة الغربية ، ومن المناسب ان نذكر هنا تساؤلا تطرق اليه متنياهو بيلد ، من سيقمع سكان الضفة الغربية وقطاع غزة في حال انسحاب الجيش الاسرائيلي وعودة السلطة الاردنية اليها بدون جيش ؟ ذلك ان بيلد يرى ان الدور الاساسي للجيش الاردني يتمثل في قمع الفلسطينيين « ليس هنالك اي مبرر اليوم لنتجاهل حقيقة كون المهمة الاساسية للجيش الاردني قبل حرب الايام الستة ، انها كانت قمع السكان الفلسطينيين ، كما وان تشكيلاته كانت موجهة الى هذا الهدف اكثر من هدف الدفاع عن الضفة الغربية امام اسرائيل » . ويغدو السؤال ملحا لاعتقاد بيلد بأن السكان الفلسطينيين سيثورون في حال عودة النظام الاردني الى الضفة والقطاع ، حينئذ ستجد اسرائيل نفسها امام خيارين مؤسفين ، وخيار ثالث خطير ، الاول ، السماح لجيش الملك بالعودة الى مناطق مملكته غربي النهر ، الثاني ان يلقى على كاهل الجيش الاسرائيلي مسؤولية قمع السكان المتمردين ، والثالث والاخطر ، عدم دخول جيش اسرائيل او جيش اردني لقمع السكان المتمردين .

وازاء ذلك يعتقد بيلد انه من الافضل لاسرائيل ان توافق على فكرة اقامة دولة فلسطينية تعترف بحق اسرائيل في الوجود من خلال اتفاق مع مصر . ولذا فانه يطالب بتغيير السياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة بغرض تشجيع ظهور زعامة فلسطينية تكون مستعدة لتأخذ على عاتقها دورا نشطا سواء في صياغة الموقف الفلسطيني او في تمثيل الفلسطينيين في جنيف .

(٢)
مستقبل الشعب الفلسطيني كما يرتسم في الذهنية الصهيونية بجناحيها المعتدل والمتطرف

قبل حرب اوكتوبر كانت النظرة الاسرائيلية تجاه القضية الفلسطينية او تجاه « الفلسطينيين » كما يحلو لمعظم الكتاب الاسرائيليين ، تتمحور حول وجهتي نظر ، الاولى تقول بأن لا وجود للشعب الفلسطيني ولا وجود لهوية او شخصية فلسطينية كما كانت تتفوه غولدا مئير وموشيه ديان وبعض

العناصر الرسمية المتطرفة ، والاخرى تقول عكس ذلك ، اي بوجود شعب فلسطيني وشخصية فلسطينية ، ويتزعمها عناصر معتدلة من حزب العمل وحزب مبام وكذلك بعض رجال الفكر مثل متتياهو بيلد وعاموس كينان وشمعون سمير .

كان الحوار بين الفريقين يتركز في الاساس ، وتحت ظلال التفوق العسكري الاسرائيلي في المنطقة ، بين وجود الشيء وعدمه ، مع محاولات طفيفة لايجاد علاج في حالة « وجود الشيء » . لقد وصل الفريق الاول ، وهو الاقوى والمسير لمجريات الامور في اسرائيل الى اعتناق فكرة « العدم » من خلال الغطرسة التي خلقتها معطيات حرب حزيران، ووصل الثاني الى فكرة « الوجود » من خلال الدفاع عن « الاخلاقية الصهيونية » ولكن مع الانكار بالحق لهذا « الموجود » .

اما بعد حرب اوكتوبر ، وبفضل استمرارية الثورة الفلسطينية ، فقد تغيرت الصورة، واصبحت تتناسب وتتلاءم مع الوضع الجديد ، هزيمة نسبية للتفوق العسكري ، واهتزاز في مفاهيم ونظريات ومنطلقات ، مما أدى بالفريق الاول الى زحزحة موقفه السابق وجعله متأرجحا بين « الوجود والعدم » ، وخير دليل على ذلك ما يعرف بوثيقة الاربعة عشر بندا ، التي تحدثت عن وجود « الشخصية الفلسطينية » دون الحديث عن وجود الشعب الفلسطيني . ومن الجدير بالذكر ان انصار هذا الفريق كفوا منذ حرب اوكتوبر عن ترداد مقولتهم السابقة المتعلقة بالشعب الفلسطيني والتزموا الصمت ، الامر الذي مكن الفريق الاخر ، الاضعف ، من توجيه النقد اللاذع ، دون ان يلاقوا ردا من قبل الفريق الاول . ومن بين الانتقادات اللاذعة تلك ، ما ورد على لسان رئيسة تحرير صحيفة « دافار » حانا زيمر (دافار ٧٤/٣/٢٢) حين شبهت ما درج على ترداده اولئك ، قبل حرب اوكتوبر ، بذاك القروي الذي زار حديقة الحيوانات في المدينة الكبيرة « وعند مشاهدته عنق الزرافة الطويل وقف مشدوها ، وقرر : لا يوجد شيء كهذا ! »

كان من نتيجة حرب اوكتوبر ، والمعطيات الجديدة التي تمخضت عنها ، ان غدت فكرة الدولة الفلسطينية هي مثار الجدل والحوار بين وجهات النظر الاسرائيلية القائمة الان والتي يمكن تقسيمها تجاه هذه النقطة الى ثلاث : ١ — وجهة النظر الرسمية التي لا زالت متمسكة بـ « الحل الهاشمي » مع الاعتراف بالشخصية الفلسطينية . ٢ — وجهة نظر المتحمسين مع قيام دولة فلسطينية ضمن الاراضي الفلسطينية التي احتلت في حرب حزيران ١٩٦٧ . ٣ — وجهة نظر المتطرفين .

سنركز الحديث في هذا التقرير حول وجهتي النظر الثانية والثالثة .

يقف على رأس المجموعة الداعية الى اقامة دولة فلسطينية ، بعض العناصر اليسارية الصهيونية من حزب مبام شريك حزب العمل في « التجمع العمالي » وكذلك عناصر معتدلة من حزب العمل وبعض رجال الفكر . بيد انه من الجدير بالملاحظة هنا انه لا توجد صورة واضحة عن هذه الدولة وحدودها في كتابات هؤلاء ، بينما الشيء الواضح فقط هو ان حدودها لن تكون حدود الرابع من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ، ناهيك عن اشتراط قيام هذه الدولة بحسن الجوار والتعايش مع الكيان الاسرائيلي مع الاخذ التسام للحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني ، او حتى « حقوق اللاجئين في العودة او التعويض » ، هذا علاوة على تخوفاتهم وتحفظاتهم تجاه الدولة الفلسطينية ، ففي مقال للكاتب المبامي « مردخاي أورين » تحت عنوان « لا مناص من قيام دولة فلسطينية » (عل همشمار ٧٤/٣/٢٩) يخلص الكاتب في نهاية المقال بتساؤلات واستفراء حين يقول : « هل تقف اسرائيل في وجه العالم كله مدعية بأنه لا مكان لدولة ثالثة ؟ هل تستمر في طلب « الحل الهاشمي » حتى بعد ان تنازلت المملكة الهاشمية او انها في طريق التنازل عن حل كهذا من خلال نظرة سياسية موضوعية ؟.. ربما كانت الامور تتطور بشكل آخر لو ان اسرائيل انتهجت خلال الاعوام الاخيرة سياسة تتسم بمزيد من المبادرات الايجابية (الاستجابة للمفاوضات مع الاردن ، التأثير على الضفة الغربية من خلال انتهاج خط ديمقراطي سياسي) وتحررت من الوهم القائل بأن ليس هنالك قوة بوسعها زحزحتنا عن « ارض آبائنا » . والان يبدو انه يتوجب علينا دفع ثمن تقصيرنا السياسي الخطير ، التقصير في توجهنا الخاطىء الى المملكة الاردنية والضفة الغربية » ليصل بعد ذلك الى الاستقراء : « يبدو ، انه يتوجب علينا ان نعد انفسنا من الناحية النفسية والسياسية لقبول — سواء عن طيب خاطر او بدون

طيب خاطر — قيام دولة فلسطينية ، مع الامال والمخاطر الكامنة فيها . وعلينا ان نهتم في تحصين أمن حدودنا ، وضمان وحدة القدس عاصمة اسرائيل . كما وينبغي علينا ان نبدي استعدادنا للسلام وحسن الجوار ، والتعاون مع الدولة الجديدة عندما تقام في نطاق احلال السلام في المنطقة » . اما بالنسبة لموضوع تمثيل الفلسطينيين وبالتالي طبيعة نظام هذه الدولة ، الذي تجاهله مردخاي اورين ، فقد مسه زميله في الحزب امنون كابيليوك في مقال له تحت عنوان « في اعقاب مقابلة حواتمه لصحيفة اسرائيلية » (عل همشمار ٢٩/٣/ ٧٤) حين قرر بأن المنظمات الفلسطينية هي الممثلة للفلسطينيين بقوله « بدون مشاركة الفلسطينيين لن يكون سلام في المنطقة . والفلسطينيون المعترف بهم كممثلين للشعب الفلسطيني من قبل الدول العربية ، واكثرية دول العالم، **هم عرفات ورفاقه.** هذا هو الوضع ، سواء كنا نحبذه ام لا . وربما لو حدث وقامت فئة تمثل الفلسطينيين في المناطق في الفترة الواقعة بين حرب الايام الستة وحرب يوم الغفران لكانت قضية التمثيل مختلفة . وهذا أيضا بحد ذاته يعتبر تقصيرا ليس بسيطا لسياستنا » . الا ان البروفيسور أفني سجرا ، الذي يرى « بأن النظرية القائلة بدولة عربية واحدة وفقط واحدة بين حدودنا والصحراء ، هي سخيفة ، سخيفة . لان تجزئة الامة الفلسطينية بالذات هي التي تمنحنا امكانية تجزئة الثمن السياسي الذي نستطيع طلبه من الفلسطينيين مقابل موافقتنا بأن يقيموا دولة في الضفة الغربية (وربما) في قطاع غزة » يعتقد بنظرية جديدة تتمثل في الاعتراف بـ « حقوق الفلسطينيين المشروعة » ويعني بهذه الحقوق اقامة دولة في الضفة الغربية وربما في القطاع مقابل اعتراف الفلسطينيين بـ « خوفنا المشروع » . وخوف البروفيسور « المشروع » او الهاجس الذي يلاحقه ويراوده يتمثل في جورج حبش ، فهو يقول (يديعوت احرونوت ٢٩/٣/٧٤): « ان المبدأ الاساسي الذي ينبغي ان يسود سياستنا تجاه الفلسطينيين يجب ان يكون ليس مبدأ « مناطق مقابل أمن » بل اعترافنا في حقوقهم الشرعية مقابل اعترافهم بتخوفاتنا الشرعية ، ومن الواضح ان مخاوفنا من دولة فلسطينية يقف على رأسها مثلا ، جورج حبش ، ستكون اكبر بكثير من مخاوفنا من مصر والاردن » .

من الملاحظ ان المتمشين مع قيام دولة فلسطينية ضمن الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ هم من التيار الصهيوني المعتدل ، هذا التيار الذي رافق نشوء الحركة الصهيونية ، ونشوء ما يعرف باليشوف اليهودي في فلسطين وظهور دولة اسرائيل حتى الان ، وكان ولا يزال يعمل على تلطيف الحركة الصهيونية واظهارها بمظهر معتدل بهدف تقوية الغرسة الصهيونية رويدا رويدا ، وبتعقل لتمكينها من النمو الهادىء القوي ، ومن هنا تجيء المطالبة بالاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني ، ومنحه دولة مشروطة ضمن الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ استمرارا لمواقفه السابقة واضعا في عين الاعتبار المعطيات الجديدة لكل ظرف . وقد عبر البروفيسور « تسفي البيلج » في مقال له (يديعوت احرونوت ١٧/٢/٧٤) تحت عنوان « ينبغي ان لا نطمس الرؤوس في الرمال » عن هذه الاستمرارية للتيار الصهيوني المعتدل بقوله : « ان الذي يدعي ذلك (اي القول بعدم وجود شعب فلسطيني) لا يتصف بفهم قيم الحركة الصهيونية ، وغير متعمق في جوهر هذه الحركة . ان الصهيونية لم تخلق الشعب الفلسطيني ، ولم تجعله شعبا من لا شيء. من المؤكد ان القادة الصهيونيين سيكونون سعداء اكثر لو انهم وجدوا ارض اسرائيل خالية من العرب الا انهم فهموا الواقع ، وعلى ضوء ذلك كان الواقع منطلقا لوجهة النظر الصهيونية ان الرؤية الموضوعية التي ميزت الصهيونيين منذ جيل او جيلين ، يفتقر لها الزعماء الحاليون لاسرائيل ، آنذاك لم يغرقوا في الاوهام ، بينما في هذه الايام يبدو لمهندسي الدولة انه يمكن بواسطة الهراء محو واقع قائم » .

وجهة نظر المتطرفين : واجه المتطرفون فكرة اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بالرفض القاطع من قبل بعض الكتاب ، وبالقبول المدروس من قبل البعض الاخر ! بالنسبة لفئة الرفض القاطع ، نجدها تشدد على ان قيام دولة فلسطينية ضمن الاراضي الفلسطينية المحتلة يعني تصفية اسرائيل على مراحل ، او كما يقول أوري دان (معاريف ٢٦/٣/٧٤) «لقد وافق كل من عرفات وحواتمه على الفكرة القائلة بنشوء وضع دولي من شأنه ان يساعدهما في تلقي قسم من « الاراضي المحتلة » بدون حرب بل بواسطة حل سياسي اي الذهاب الى مؤتمر جنيف » . ويضيف : انهما

ينطلقان بذلك من الفهم القائل بأنه لا يمكن تصفية اسرائيل من خلال « الاعمال الارهابية » حتى ولو تعاظمت تلك الاعمال ، ولكن يمكن الحصول على الضفة والقطاع من خلال مؤتمر جنيف ، ليصل بعد ذلك الى القول « بالنسبة للهدف النهائي لا يوجد فارق بين مفاهيم جورج حبش وياسر عرفات واحمد جبريل ونايف حواتمه ، يوجد فقط فارق في التكتيك . وحتى الان لا يوجد بين قادة الفلسطينيين شخص يملك القوة والنفوذ ، على استعداد للدخول في مفاوضات مع اسرائيل ، من خلال رغبة صادقة للتوصل الى حل سلمي حقيقي مع تنازلات متبادلة ، هل يمكن دولة اسرائيلية وفلسطينية من العيش جنبا الى جنب . حتى الان لم يظهر اريه اليآف فلسطيني » ولذا فان الكاتب يتوقع اذا ما اقيمت دولة فلسطينية ، بأن « الصراع سيستمر بشكل اسهل عندما تكون الضفة الغربية بيد الفلسطينيين ، **وتستخدم كنقطة انطلاق للمرحلة القادمة من النضال ضد اسرائيل** » . ومن هنا تأتي معارضة الكاتب للدولة الفلسطينية .

وقبل الانتقال الى الاسباب التي يتسلح بها كاتب يميني اخر في معارضته للدولة الفلسطينية ، تجدر الاشارة الى الجملة التي وردت على لسان اوري دان والقائلة « حتى الان لم يقم اريه اليآف فلسطيني » ، وكان اليآف قد خرج بافكاره الصهيونية المعتدلة من الخط العام للمشروع الصهيوني . لسنا هنا بصدد عرض وتحليل آراء اليآف وافكاره ، الا انه لاهمية هذه الافكار في الساحة الاسرائيلية سنقدم عرضا تحليليا لها في تقرير اخر من « شؤون فلسطينية » .

اما الاسباب التي يوردها كاتب يميني في معارضته لقيام دولة فلسطينية ، فتتلخص بما لا يخطر على البال في الدور « الشيطاني الاستعماري ... » لهذه الدولة ، ذلك ان الكاتب اليعيزر ليفني يرى في مقال له تحت عنوان « اعدام عقب تعذيب متواصل » (معاريف ٧٤/٣/٢٦) انه « مع تأسيسها ستكون هذه الدولة الفلسطينية بمثابة مرجل للشياطين ، وللمؤامرات الدولية ، والمكائد الاستعمارية ، بما في ذلك الاستعمار الصغير ، كفرنسا وبوغوسلافيا وتجار السلاح على مختلف انواعهم ، يد الجميع فيها ، ويدها في الجميع ، والهدف الاول والحاسم لهذه الدولة الفلسطينية سيكون واضحا : تصفية اسرائيل ، وتبدأ العملية بواسطة اعمال الشغب على الحدود ، وتسلل « المخربين » داخل اسرائيل ، اعمال ارهابية مكشوفة ، واعمال قتل خافية . وسيطلب من المناطق المأهولة بالعرب في « المثلث الصغير » والجليل للانضمام الى فلسطين ، كما سيستدعى الشباب العرب لتأدية واجبهم الثوري ، وستكون هذه بمثابة تعذيب مستمر حتى تغدو دولة اسرائيل في نظرهم جاهزة للاعدام . ان فلسطين ليست فقط تجيء لتكون دولة قتلة ، بل آلة قتل : قتل الدولة اليهودية » .

الا ان « آلة القتل » هذه يمكن ان تكون آلة لتصفية القضية الفلسطينية وراغبا للتوسع الاسرائيلي في الاراضي العربية كما يستشم من اراء وافكار بعض الكتاب الاسرائيليين المتطرفين مثل البروفيسور يوسف دان الذين يواجهون فكرة قيام دولة فلسطينية بالقبول المدروس كما ذكرنا سابقا .

بروفيسور يوسف دان « ووحدة فلسطين — أرض اسرائيل » : في غمرة الاحاديث الجارية حول الكيان الفلسطيني والدولة الفلسطينية المرتقبة ، أثرى البروفيسور يوسف دان تلك الحوادث بتقليعة جديدة تتسم بالطرافة ، وتعبر تعبيرا حسنا عن محاولة التفكير الصهيوني في التكيف وفق المعطيات الجديدة وتسخيرها لصالحه ، مخضعا استراتيجيته لمراحل ، لا ترحم اشد المتعاونين معه ، حتى ولو أصروا على البقاء حتى النهاية يقدمون له العون والخدمة .

ينطلق البروفيسور يوسف دان ، ويقف في الصف الاول من الجناح اليميني الصهيوني ، من النظرة القائلة بأن فلسطين هي ليست تلك المنطقة الواقعة بين نهر الاردن والبحر المتوسط ، بل تلك المناطق الواقعة — حسب القانون الدولي كما يدعي البروفيسور — « بين البحر الابيض المتوسط وبين العراق والسعودية ، نفس المنطقة التي تسيطر عليها الان كل من اسرائيل والاردن » . وبعد ان يحدد دان الخريطة الفلسطينية (أرض اسرائيل) يطرح سؤالا من هم الفلسطينيون ، ويجيب مقسما الفلسطينيين الى ثلاثة اقسام : (١) عرب سكان فلسطين الذين يسكنون فيها (٢) عرب ليسوا سكان فلسطين ويسكنون فيها (٣) عرب فلسطينيون

هاجروا من فلسطين ويسكنون في بلدان اخرى . وحسب رأيه يصل عدد سكان فلسطين اليوم الى اربعة ملايين معتبرا ان معظم سكان الاردن هم فلسطينيون . اما بالنسبة « للعرب الذين ليسوا من سكان فلسطين ويسكنون فيها » فانه يقصد العائلة الهاشمية مع مجموعة صغيرة من العشائر البدوية التي قدمت معها من الحجاز الى عمان .

ويقول الكاتب في مجال تحليله لهذه الفئة غير الفلسطينية في مقالة له نشرت في يديعوت احرونوت ٧٤/٣/٢٩ « على رأس هذه المجموعة يقف وريث عبدالله الملك حسين الهاشمي . واذا ما تحدثنا عن الكولونيالية في الشرق الاوسط فان مملكة حسين هي النموذج الواضح للعمل الامبيريالي الكولونيالي للاستعمار البريطاني ، الذي يعمل لتأمين مصالحه الضيقة على حساب شعوب المنطقة، واذا ما تحدثنا عن الغرسة الغريبة في فلسطين، فان عرب فلسطين ليسوا غرسة كهذه ، وكذلك ليس يهود ارض اسرائيل العائدين الى وطنهم بل الاسرة الهاشمية، حكام الحجاز الذين طردوا على يد ثورة ابن سعود ، واقام لهم الاستعمار البريطاني حصنا وملجأ في العراق وشرق الاردن » .

وبعد ان ينفي الكاتب وجود خلفيات تاريخية للكيان الاردني او الشخصية الاردنية التي حاول الملك عبد العزيز خلقها من خلال « الشعب الفلسطيني » في شرق الاردن « بواسطة الحزازات والالاعيب التي لا نهاية لها » يصل الى النقطة الاساسية التي يسعى اليها وهي « ان فلسطين — ارض اسرائيل هي ، اذن ، وطن لشعبين . ان واقع كون الشعبين يخوضان صراعا دمويا منذ جيلين يشكل مأساة ، كما أن واقع كون قسم كبير من وطنهما — حوالي ٧٠ ٪ — خاضعا لسيطرة حاكم اجنبي ، توج على يد استعمار اجنبي فظ يشكل مأساة اخرى » ليخرج بعد ذلك بنصيحة او دعوة « عرب فلسطين ويهود اسرائيل الى التعايش جنبا الى جنب في فلسطين — ارض اسرائيل » كلها ، ولكنه يقرن التعايش في فلسطين الكبرى ، بتقسيمها بين شعبيها الى دولتين ، اذ يقول : « ليس هنالك ادنى شك ، بأنه يتوجب على عرب فلسطين واليهود الموجودين في اسرائيل ان يتعايشا جنبا الى جنب في دولتين مستقلتين تقسمان بالضرورة فلسطين الى قسمين ، يهودي وعربي ، ولكن قاعدة هذا التقسيم يجب ان تكون فلسطين كلها ، بما في ذلك الجزء الذي سلب منها على يد الاسرة الهاشمية بفضل حراب الجيش البريطاني » .

ومن اجل التوصل الى حل « حقيقي وعادل لقضية الشعبين » يرى البروفيسور ضرورة ازالة ادعائين من الاذهان ، الادعاء القائل « كأن الفلسطينيين نفوا من بلادهم » لان هذا القول حسب رأي البروفيسور غير صحيح لان الفلسطينيين يعيشون في فلسطين الكبرى — ارض اسرائيل ، باستثناء اقلية خارج فلسطين والادعاء القائل « بوجود شعب اردني يحكم بواسطة اسرة ملكية شرعية ، الاسرة الهاشمية » لاعتقاده ان ذلك « بمثابة حدث عابر يقوم بفضل المكائد والخداع والرقص الحذر على الحبل الرفيع » .

يبدو للوهلة الاولى وكأن الكاتب يقف ضد النظام الهاشمي من الناحية المبدأية ، لكونه نظاما اشيد على حراب الجيش البريطاني ولخدمة المصالح البريطانية الاستعمارية ، الا انه سرعان ما يكشف موقفه الذي يمثل الفكر الصهيوني اليميني الناكر لجميل الاسرة الهاشمية ، تماما كما وقفت الاجنحة اليمينية الصهيونية في اواخر فترة الانتداب تجاه السلطات البريطانية ، فبالرغم من المسبات والاهانات التي يكيلها يوسف دان للنظام الاردني نراه يستدرك في مقاله ويدعو الى عدم ادارة ظهر المجن للنظام الاردني في الوقت الحاضر ، لان خدماته وأدواره لخدمة اسرائيل لم تستنفد بعد ، اذ يقول : « ان هذا لا يعني بأنني اوصي بعمل اسرائيلي لطرد الملك حسين ، ففي هذه الساعة ينبغي ان لا نتغاضى عن واقع كون حكم الملك **يقدم مساعدة عظيمة** لمنع النشاط التخريبي على امتداد حدودنا الشرقية الطويلة ، لان ذهابه في هذه الساعة من شأنه ان يجلب قوات كبيرة عربية واجنبية الى حدودنا هذه ، ويعرض أمننا لخطر كبير . ان السياسة الحكيمة تتطلب اتخاذ تسويات تكتيكية مع الواقع ، ينبغي عدم تأبيدها على المدى البعيد » .

يمكن تلخيص ما يريد ان يقوله البروفيسور دان بالتالي : فلسطين الكبرى الواقعة بين العراق والسعودية والبحر المتوسط اي المنطقة التي يسيطر عليها النظام الاردني واسرائيل هي وطن

للفلسطينيين ولليهود « فلسطين — ارض اسرائيل » وكحل للصراع الدامي بين « الشعبين » يجب تقسيم هذه البلاد الواسعة بينهما حيث تقام دولة فلسطينية مستقلة ودولة اسرائيلية يجمعهما الوئام والسلام في « فلسطين — ارض اسرائيل » .

اذا استثنينا المغالطات التاريخية التي يقع فيها الكاتب بغرض توظيفها لخدمة فكرته ، نجد انه يسعى لخدمة التوسع الصهيوني في الارض العربية ، بتقليعة ونمط جديدين ، ذلك الاعتراف بحق الشراكة لحركتين على وطن ، يحاول الكاتب تضخيه حجمه ، يتطلب تقسيمه مناصفة بين دولتين ، تبتلع الاولى الممثلة لمجتمع المهاجرين والمستوطنين كل فلسطين ، وربما ايضا المرتفعات الجبلية لشرق الاردن المحاذية للنهر ، لتنحصر الثانية الممثلة للمجتمع الفلسطيني خلف تلك المرتفعات بحكم ويمقتضى المناصفة والتعايش بين عرب ويهود « فلسطين الكبرى ارض اسرائيل » . وخشية ان يفهم من اكتفاء دعوته بفلسطين ، ترك البروفيسور دان المجال مفتوحا امام شهوة التوسع في اراض مصرية وسورية حين قال : ان التقسيم يجب ان يشمل خريطة الانتداب البريطاني لعام ١٩٢٠ ، اي فلسطين وشرق الاردن ، مع امكانية حدوث تعديلات على الحدود مع سوريا في هضبة الجولان ، ومصر في سيناء . ولكنه لم يفصح اذا كانت متطلبات المناصفة تستدعي ايضا ، اقتسام الشعبين اللذين يسكنان في فلسطين الكبرى ، تلك الاراضي !

(٣)

منطق وآراء اليآف تجاه مصير الشعب الفلسطيني

عندما يبحث المرء في افكار وآراء اليآف تجاه الشعب الفلسطيني ، يعاني من صورتين تحومان حول مخيلته ، تعبران عن موقفين شبيهين من حيث الجوهر الا انهما يختلفان حول التفاصيل والمنطلقات . الاول موقف الحبيب بورقيبة الذي عبر عن نفسه في المشروع الذي يحمل اسمه والقائل بأن حل القضية الفلسطينية يتأتى من خلال مفهوم جديد ، تعتبر فلسطين بموجبه ليست تلك البقعة التي احتل قسم منها عام ١٩٤٨ ، واستكمل القسم الاخر عام ١٩٦٧ فحسب ، بل تشمل ايضا شرق نهر الاردن ، اي ان الخريطة « الحقيقية » لفلسطين هي التي تشمل فلسطين والاردن معا ، وان نهر الاردن هو بمثابة نهر يقسم فلسطين الى شطرين شرقي وغربي وان السكان في الضفتين هم فلسطينيون ، والحل برأيه يتمثل في اقامة دولة فلسطينية على الضفتين الشرقية والغربية مع علاقات جوار حسنة مع اسرائيل . الثاني موقف البروفيسور يوسف دان والقائل بأن الخريطة الفلسطينية ليست الخريطة المتعارف عليها ، بل هي من ناحية « القانون الدولي » تلك المنطقة التي تشمل الخريطة الفلسطينية وخريطة شرق الاردن ابان فترة الانتداب البريطاني عليهما ، وان هذه المنطقة التي سماها « فلسطين — ارض اسرائيل » تحتوي على شعبين هم سكان البلاد الشرعيين ، اليهود العائدين الى وطنهم فلسطين ارض اسرائيل ، والفلسطينيين الذين يعيشون في وطنهم « فلسطين ارض اسرائيل » وان النشاز الموجود في هذه المنطقة او « الغرسة الغريبة » تتمثل في الاسرة الهاشمية التي قدمت من الحجاز ، وليس مجتمع المهاجرين والمستوطنين ، ولذا فانه يرى ان الحل الامثل يكمن في اعادة تقسيم فلسطين الموسعة الى دولتين تمثلان « الشعبين » سكان البلاد ، ليعيشا في بلدهما في سلام ووئام وحسن جوار . لسنا هنا بصدد البحث عن الدوافع المتباينة وراء الموقفين او التباين في رسم الحدود بين تلك الدولتين ، بل الاشارة فقط الى الموقفين اللذين يحشران نفسيهما لدى المرء عندما يتطرق الى آراء اليآف تجاه الشعب الفلسطيني .

وقبل البدء في الدخول الى موضوعنا هنالك بعض الملاحظات :

١ — اننا سنكتفي في هذا التقرير بالوقوف على آراء اليآف تجاه الشعب الفلسطيني كما وردت في كتابه « ارض الغزال » وخاصة في الفصل الذي يحمل عنوان « نحن والعرب الفلسطينيين » الذي صدر في صيف عام ١٩٧٢ ، وكما وردت في مقالات

له بعد الحرب الاخيرة ، وسنلحقه بتقرير آخر حول تصورات اليآف للعلاقات المستقبلية بين كل من مصر وسوريا من جهة وبين اسرائيل من جهة اخرى.

٢ — هنالك نوع من الاجماع في اسرائيل بأن اريه اليآف يعتبر من اكثر العناصر في حزب العمل اعتدالا وبأنه « حمامة » وديعة ، وقد حدا هذا التصور الى دفع بعض الكتاب الاسرائيليين الى القول بأنه « لم يظهر حتى الان اليآف فلسطيني » بعد أن اعتاد هؤلاء على القول انه لم يظهر بين العرب مجموعة كمجموعة « متسبين » وكأن اليآف يحمل فكرا متمايزا نوعا ما عن جوهر الفكر الصهيوني السائد .

ويبدو ان النظرة الاجماعية تلك قد اجتازت الحدود وأخذت تفعل فعلها في الجانب الاخر .

٣ — ان خوضنا لهذا الموضوع لا يجيء ردا على ادعاءات بعض الكتاب داخل اسرائيل او دحضا لتصور خاطىء ، بل استكمالا لمحاولات تهدف الى القاء الضوء على المواقف الاسرائيلية المختلفة تجاه مصير الشعب الفلسطيني من خلال حلقات متتالية، في سبيل خلق وعي أفضل ، لمواقف التيارات الاسرائيلية ، ولا سيما في هذه الفترة الحرجة .

٤ — أن صفة الاعتدال والتطرف ، او كنية « الحمائم والصقور » في اسرائيل هي صفة عائمة متموجة ، وليست ساكنة ، ففي كثير من الاحيان يكون « المعتدل » متطرفا تجاه كثير من الموضوعات ويكون « المتطرف » متساهلا تجاه كثير من الموضوعات ، وفي بعض الاحيان يتداخل التطرف والاعتدال في جميع الموضوعات ! ومن هنا ، فاننا، سنجد اليآف ليس من عداد الفئة الاولى او الثانية، وانما من فئة اخرى تجمع خصائل الفئتين يتداخل فيها الاعتدال والتطرف ، وربما يجده البعض ، خلافا لما يشاع عنه ، متزمتا متطرفا لا يختلف في شيء من حيث الجوهر عن البروفيسور اليميني يوسف دان تجاه الموضوع المطروح .

يعتبر اليآف من الشخصيات المركزية التي ساهمت في المشروع الصهيوني في فلسطين قبل وبعد قيام اسرائيل ، فقد كان له نشاط بارز ابان الانتداب في تسريب اليهود الى فلسطين من خلال « تهريبهم » بواسطة السفن عن أعين سلطات الانتداب، ثم شغل مهمات أخرى بعد قيام الدولة، حيث اوكلت له مهمة تشجيع هجرة يهود الاتحاد السوفييتي ، وتعزيز العلاقات الاسرائيلية الايرانية كما اوكلت اليه مهام تصنيع قرى التطوير واستيعاب المهاجرين ، الا ان أهم مركز شغله في حياته علاوة على كونه عضوا في الكنيست ، تربعه لفترة على منصب السكرتير العام لحزب العمل .

نصل الان الى وجهة نظر اليآف تجاه الشعب الفلسطيني . ومن الطبيعي ان يكون مدخل اليآف للموضوع بتساؤل حول وجود او عدم وجود الشعب الفلسطيني باعتبار ان هذا الموضوع « مشحون بمواد متفجرة من الناحيتين العاطفية والسياسية » فهو يقول : « ان قضية الفلسطينيين (هل هم قائمون بالفعل ؟ من هم ، الى أين تصبو أنظارهم ؟ ما هي نظرتنا تجاههم) ، مشحونة بمواد متفجرة لدرجة كبيرة حتى غدت تقريبا مشكلة داخلية بالنسبة لنا ، وعقدة تلازمنا ، بدون انقطاع ، وخاصة عقب حرب الايام الستة » .

ثم ينتقد اولئك الذين يتغاضون عن وجود القضية والذين ينكرون وجود الشعب الفلسطيني ، لان ذلك حسب رأيه لا يفيد في شيء ، لينتقل بعد ذلك الى قضية تسمية الامور بأسمائها ، وفي هذه الناحية يحاول اليآف تذكير الاسرائيليين بقادة العرب الفلسطينيين « المتطرفين » الذين وضعوا نصب أعينهم هدف تصفية اسرائيل ويقولون بأن « اسرائيل ليست دولة حقيقية ، وليس الشعب اليهودي شعبا حقيقيا » كما وتتردد على ألسنتهم « العصابات الصهيونية » ليصل بعد ذلك الى القول بأن قسما من الاسرائيليين يحاولون الاجابة عليهم بنفس الاسلوب : لا يوجد فلسطينيون ، ولا توجد فلسطين » ويصف كثير من الاسرائيليين هؤلاء بـ « العصابات » او بـ « المخربين » ، وهنا يدافع اليآف عن قضية تسمية الامور بأسمائها ، فبالنسبة للشعب الفلسطيني الذي ينكر وجوده البعض ، والذي يطلق عليه « الحياديون » اسم « عرب البلاد » او عرب ارض اسرائيل ، يقترح تسميته باسمه ، أما فيما يتعلق بالفدائيين فيطالب بعدم الصاق كنية « العصابات »او « المخربين » بهم ويدعو الى تسميتهم بالمقاتلين الفلسطينيين او المنظمات الفلسطينية المسلحة، ومع ذلك ، وبالرغم من الحماس الظاهر في قضية الاسماء فان اليآف يقع في بعض الاحيان في نقيض ما يدعو اليه ،

فبعض الاحيان ترد على لسانه كنية « مخربين » او « أهل البلاد » مع انه يتهم القائل بهذه النعوت بأنه « يتعرف قبل كل شيء ، ظلما بالنسبة للجيش الاسرائيلي ولاجهزة الامن الذين قاتلوا ويقاتلونهم من خلال تعريض أنفسهم للخطر وبأكبر قدر من المقدرة والجرأة . ان هذه هي حرب قاسية باناس قساة ، تسيطر عليهم المرارة ، واثقين بأنهم يقاتلون من أجل قضية عادلة ، ولا تنقصهم بالبتة ، الجرأة والفهم » ...

بعد قضية الاسماء والصفات والنعـــوت ، وتحاشيه من ولوج قضية الكنية العالقة بفلسطين واراض عربية اخرى « ارض اسرائيل » ، يتطرق اليآف الى أصل الفلسطينيين ، ومن اين قدموا الى هذه البلاد ليصل بعد سرد تاريخي بسيط الى القول بانه « قبل مئة عام لم يكن السكان العرب في البلاد شعبا عربيا متميزا ، ولم تكن له مطامح سياسية منفصلة » وقد شملت اليقظة القومية العربية التي برزت في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين « عرب البلاد » مثلما شملت مصر وسوريا ولبنان ، الا انه يعتقد بأن ولادة المشروع الصهيوني مع ولادة اليقظة القومية العربية في المنطقة اذكت وجسدت الروح القومية لدى « عرب البلاد » . وبعد الحرب العالمية الاولى « انتصبت في البلاد في وجه حركة البعث اليهودي ، حركة قومية عربية فلسطينية » الا ان هذه الحركة فشلت في تحقيق أهدافها وهزمت في عام ١٩٤٨ . ويرجع اليآف أسباب الفشل والهزيمة الى رفض الحركة الوطنية الفلسطينية قبول المشروع الصهيوني وتصميمها على « القاء اليهود في البحر » او كما يقول : بسبب عدم تساهلها وعدم رغبتها في اعطاء الصهيونية ولو شبر ارض تحت نفس الشمس ، وفي نفس البلاد . وبسبب عقدها العزم على القاء اليهـــود في البحر جلبت الى نفسها هزيمة قاضية » . ومن الجدير بالذكر ان جملة « القاء اليهود في البحر » قد اوردها اليآف مرات كثيرة عندما يتحدث عن رفض الحركة الوطنية الفلسطينية او العربيـــة للمشروع الصهيوني .

ثم ينتقل الكاتب الى « المأساة » التي حلت بالشعب الفلسطيني ويعترف بمدى فداحتهـــا ، والذنب في ذلك طبعا يعود الى عدم التمشي مع الفكرة الوليدة ، ويرى ان من بين العوامل التي زادت شدة المأساة ، تحـــول نصـــف الشعـــب الفلسطينـــي الـــى لاجئـــين ، « واحتـــــلال » غزة على يد الجيش المصري « واحتلال » الضفة الغربية على يد رجال المملكة الهاشمية « وبقاء » قسم من العرب الفلسطينيين داخل دولة اسرائيل، هذا علاوة على ان الدول العربية لم تعمل على استيعاب الفلسطينيين استيعابا حقيقيا باستثناء المملكة الاردنية التي لم تستطع الا ان « تستوعب » العرب الفلسطينيين الذين زاد عددهم على عدد الاردنيين الاصليين ، ويرى ، انه منذ ان ضمت المملكة الاردنية اليها الضفة الغربية ، شـــرع الفلسطينيون « بضم » الضفة الشرقية عـــلى الصعيدين الديموغرافي والاجتماعي . ولو استمر هذا الوضع ولم تحدث حرب حزيران ، فان اليآف يعتقد بأن المملكة الاردنية كانت ستتحول الى دولة فلسطينية ، وكان يمكن لهذه الدولة ان تحل القضية الفلسطينية ، الا انه يستطرد قائلا : « ولكن ليس هذا ما يريده الزعماء العـــرب الفلسطينيون الشباب ومؤسسو « فتح » وسائر تنظيمات المقاومة . ذلك انهم ارادوا وفق نظريتهم المكتوبة « الميثاق الوطني » « العودة » والانتقام. لقد ارادوا دفع العرب الفلسطينيين والعالم العربي كله الى جولة ثالثة ورابعة وخامسة ضد اسرائيل لقد ارادوا ابادتها ليحلوا محلها ». وبعد ذلك يتحدث عن ظاهرة الفدائيين ، ويحذر اسرائيل من تقليل خطورة هذه الظاهرة بقوله : « ينبغي على اسرائيل في أي حال من الاحوال ان لا تستخف وتنتقص من ظاهرة المقاومة المسلحة الفلسطينية... وينبغي ايضا ان لا يستهان بهذه التنظيمات مـــن ناحية المعنوية والجرأة ، ذلك اننا نقترف خطأ كبيرا اذا لم نر ، انهم نجحوا على الاقل لفترة معينة ، في رفع معنوية العرب بشكل عام ، والعرب الفلسطينيين بشكل خاص ، وغدوا بمثابة رمز للبطولة والفداء ... » ليعيدنا بعد ذلك الى قضية الاسماء والى قضية وجود او عدم وجود الشعب الفلسطيني ، ويقرر مرة اخرى بانه موجود قائلا : « ان الشعب الفلسطيني يمتلك تاريخا خاصا به ، وله ذكريات خاصة به ، حروب ، تضحيات ، آلام وابطال ، براعم شعر وأدب خاصة به ، كما يمتلك هذا الشعب منطقة متصلة ومركزية تضم أكثرية ، كما ان لهذا الشعب الذي يصل تعداده الى ثلاثة ملايين ، منفى وشتات يخصانه ،

وقد عززت حرب الايام الستة الهوية الفلسطينية ، وتعاظم الاحساس بالكارثة المشتركة عقب هزيمة اخرى وعقب تضحيات اخرى ولاجئين اخرين » .

كتلخيص لما سبق يمكن القول ان اليآف ركز على ثلاثة امور :

١ — الشعب الفلسطيني قائم موجـــود . ٢ — ضرورة تسمية الامور بأسمائها مع انه في بعض الاحيان لا يتقيد بذلك . ٣ — اظهار وابراز مأساة الشعب الفلسطيني .

تستوقفنا هنا ملاحظة قبل الدخول في القسم الاخر من اراء اليآف ، تتمثل في اعتراف الكاتب بالمأساة التي لحقت بالشعب الفلسطيني ، وبالرغم من انه يوعز أسباب هذه المأساة الى الحركـة الوطنية الفلسطينية لرفضها بشكل مطلق المشروع الصهيوني ، الا ان المأساة تتردد كثيرا في كتابه لدرجة قد يشعر معها البعض — واسمح لنفسي القول بانني قد شعرت — بأن « عقدة الذنب » التي طاردت الشعب الالماني لما اقترفته الحركة العنصرية النازية بحق اليهود في الحرب العالمية الثانية ، قـد اخذت تطارد اليـآف ، الا انه بعد الوقوف على الجوهر وليس على الشكل ، يتضح العكس تماما . ففي حين نجد ان عقدة الذنب الالمانية كانت بين العوامل التي دفعت المانيا الى مســـاعدة حركة عنصرية تكفيرا عن ذنوب حركة عنصريـة اخرى ، نجد اليآف لا يسعى الى التكفير او يتحرك من خلال وخزة ضمير ، وانما يسعى الى شيء اخر ، هو نفس الشيء الذي سعى وعمل من أجله وطبقه قادة اليشوف الصهيوني في فلسطين ، ولكن هذه المرة في الضفة الشرقية والغربية .

الدولة الفلسطينية

بعد تطرقه للمعطيات الجديدة لحرب حزيران ١٩٦٧ ، وما تأتى عنها من احتلال اسرائيل لاراض عربية واسعة ، وسياسة اسرائيل تجاه تلـك المناطق ، يتحدث عن وجهة نظر اسرائيلية تجـاه مصير المناطق العربية المحتلة تدعو « الى العمل بأقصى سرعة لاستيطان هذه المناطق ، ان تبنى فيها قرى ومدن يهودية وان تضم بشكل واضح لدولة اسرائيل المستقلة ، لكي تغدو جزءا لا يتجزأ من صلب اسرائيل ، وبذلك يستكمل العمل التاريخي لاعادة ارض اسرائيل الغربية كلها للشـــعب اليهودي » . وفي مجال تعليقه على تفكير هـــذا التيار اليميني الصهيوني « انه ليس هنالك شك بأن هذه النبرات تنطوي على استقامة ... » ولكنه يعتقد بأنها لا تنطوي على حـل للقضيـة الفلسطينية ، ليصل بعد ذلك الى دعوة الاسرائيليين الى عدم تبادل التهم بين أصحاب وجهتي النظـر بقوله : « ومثلما لا يجوز — ويا ويلنا اذا وصلنا الى ذلك — ان نلصق صفة « الخيانة » بجميع اولئك الذين لا يفكرون بمفاهيم « ولا شبر » ، لا يجوز ايضا ان نلصق بدون تمييز صفة «الشوفينية والتوسعية » بأولئك الذين يعتقدون بانه ينبغي عدم التنازل واعادة مناطق في ارض اسرائيـل الغربية » .

اذن ما هو الحل الذي يقترحه اليآف ويوصي اسرائيل ان تسير على منواله ؟ هنا نبدأ باستشفاف الجوهر . يجيب الكاتب : « ان الطريق التي ينبغي على اسرائيل ان تسير فيها هي ان تعلن مبدئيا عن استعدادها لاعادة (« لاعادة » وليس « للانسحاب » ، ذلك انه يوجد فرق كبير بين هذين المفهومين) **معظم** مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة للعرب الفلسطينيـين ، لكي يقيموا لهم عليها وعلى **الضفة الشرقية** للاردن دولة مستقلة ذات سيادة » .

وقبل الخوض في طبيعة الدولة ومدى استقلاليتها وسيادتها والشروط المصاحبة لقيامها تجدر الاشارة هنا الى ملاحظتين ، الاولى هي ان اليآف يرى ان فلسطين « أرض اسرائيل » تشمل فلسطين وشرق الاردن ويعيش تحت كنفها شعبان لكل منهما حقوقه التاريخية على تلك الارض ، والثانية انه يرى في الحل الذي يعطيه او التصريح الذي يطلب من حكومة اسرائيل ان تتبناه ، تصريحا — كما يقول — شبيها بتصريح بلفور ولكنه هذه المرة صادر مـــن اسرائيل وموجه للشعب الفلسطيني ، هو أقصى ما يمكن ان تذهب اليه اسرائيل ، لانها بذلك قد تنازلت كثيرا ولا يمكن لها ان تتنازل أكثر من ذلك . وربما يتبادر الى الذهن تساؤلات حول هـــذه التنازلات خاصة وانه يشترط في تصريحه « عودة معظم ... » ويفسر « الاعادة » بأنها لا تعني « الانسحاب » ويعرض اراضي دولة عربية الى شعب طرد من وطنه ، هذا فضلا عن شروطه التي سنتحدث عنها فيما بعد ، لقيام دولـــة فلسطينية .

تتمثل هذه التنازلات في المفهوم الاسرائيلي لخريطة ارض اسرائيل والحقوق التاريخية لليهود على هذه الخريطة . فهنالك ثمة نظرتان اساسيتان تجاه الحقوق والخريطة ، الاولى توراتية تعتبر ان الخريطة تمتد بين نهر الفرات ونهر مصر الكبير (البعض يقول نهر النيل ويقول آخرون وادي العريش) وتربض فوقها الحقوق التاريخيـــة ، والاخرى ارض الاثني عشر سبطا وحدودها غير واضحة المعالم ، الا ان اليآف يحددها كالاتي : تمتد من سفوح جبال لبنان وجبل الشيخ في الشمال وحتى البحر الاحمر وخليج ايلات وعتسيون جابر في الجنوب ، من البحر الكبير ، البحر المتوسط وحتى الحدود الشرقية لاراضي سبطي رؤوبين وجاد ونصف سبط منشية أي حتى مرتفعات الجـــولان والجلعاد والباشان » .

ويعترف اليآف بأن هذه الخريطة تتسم بعدم الوضوح ، ويعرفها بشكل أوضح : « ان هذه المنطقة هي بشكل او بآخر مطابقة لحدود ارض اسرائيل الغربية وشرق الاردن ابان فترة الانتداب » وفي أحيان كثيرة يعود ويزيد الوضوح دقة ويجعلها مطابقة تماما لحدود فلسطين وشرق الاردن ، وان حقوق اليهود التاريخية تمتد على هذه الرقعـــة بالذات . وبما ان العرب قد سكنوا في هذه المنطقة طيلة فترة تزيد على الالف وثلاثمائة عام ، فانه لا يعتبرهم « عابري سبيل » كما يقول ، بل لهم حقوق تاريخية في فلسطين ارض اسرائيل ، ومن هنـــا تجيء دعوته الى « تصريح بلفور » جديد من قبل اسرائيل تجاه الفلسطينيين ، تتنازل فيه اسرائيل كثيرا ، تتنازل عن « تحقيق حقوقها التاريخية على بقية ارض اسرائيل » أي تتنازل عن **تحقيق** حقوقها على الاراضي التي ستقام عليها الدولة الفلسطينية.

ويعتقد اليآف ان موقفه هذا يعتبر استمرارا لمواقف قادة المشروع الصهيوني ، ويعزز ذلك بقوله ان « قادتنا » اقترحوا على قادة العرب تقســـيم هذه الارض « نحن نقيم على جزء منها دولة يهودية وانتم تقيمون على جزئها الاخر دولة فلسطينية ، الا ان قادة العرب الفلسطينيين اجابوا : لن يحدث ذلك ابدا ! نحن أصحاب البلد ، ونمتلك الحقوق عليها ، ليس لكم شبر ، وستلقوننا في البحر » ويضيف انه في عام ١٩٤٨ لم يقبل العرب التقسيم وقالوا مرة اخرى « لا ، لا توجد لكم حقوق على هذه الارض ، اننا سننازلكم ، وبمؤازرة الـــدول العربية سنلقيكم في البحر » ثم يأخذ بتبرير الموقف الاسرائيلي تجاه القضية الفلسطينية ويقول ان اسرائيل عرضت تعويضات على اللاجئين ، ليصل بعد ذلك الى القول بانه يجب العودة على هذا الاسلوب الذي اتبع حتى حرب الايام الستة : « هنالك مكان بين البحر والصحراء في أرض الاثني عشر سبطا ، لدولة اسرائيل ولدولة عربيـــة فلسطينية ، مقابل السلام ، سنتنازل عن **تحقيق** قسم من حقوقنا التاريخية على هذه البلاد ، واذا كنا جميعا نؤمن بان لنا حقوقا تاريخية قومية في شرق الاردن ايضا ، فانه من المؤكد ، ينبغي علينا ان نعود ونكرر استعدادنا للتنازل عن **تحقيقهـــا** مقابل السلام ، لكيلا **يسألوننا ، وبحق** : هل نحن حقا على استعداد للتنازل عن **تحقيق** أية حقوق ، او ان رغبتنا الحقيقية هي ان نضم لاسرائيل ليس فقط الضفة الغربية وقطاع غزة ، بل ايضا عندما « يحين الوقت » اراضي شرق الاردن » ؟

الحقيقة ان السؤال الذي يقفز من خلال الوقوف على صورة طرح اليآف للحل ، ليس ذاك السؤال الذي اورده ، وليس هو العالق في ذهن الانسان العربي او غير العربي ، بل ، ما هي الحـــدود التاريخية والحقوق المتأتية عنها لليهود ؟ هل هي الحدود التوراتية ، واذا كان الامر كذلك فهل تنتهي عند وادي العريش او نهر النيل ؟ هل هي الحدود غير واضحة المعالم للاثني عشر سبطا ، واذا كان الامر كذلك فما هي هذه الحدود ؟ هل تنتصر على الخريطة الفلسطينية وشرق الاردن ابان الانتداب ؟

ان طرح هذه الاسئلة يفرضها منطق الحل الذي يقدمه اليآف ، والاجابة عليها تريح شعوبا كثيرة وتزيل عنها شبح التوسع ، واقتطاع أجزاء من اراضيها ، واذا ما بقيت الخريطة مبهمة مطاطة تمتد حينا الى تلك البقعة لتشمل بعد ذلك بقعة اخرى ، فانها ستكون سيفا مسلطا على المنطقة وورقة مساومة لاحتلال او لتكريس احتلال اراض عربية ، كأن تقول اسرائيل مثلا لمصر وفق منطق اليآف : ان لنا حقوقا تاريخية على أجزاء معينة في مصر ، واننا مستعدون للتنازل عن « تحقيق » تلك الحقوق مقابل ابقاء سيطرتنا على سيناء او أجزاء منها . او كأن تقول للبنان مثلا في حالة

احتلالها لنهر الليطاني وجنوب لبنان : اننا على استعداد للتنازل عن « تحقيق » حقوقنا على سفوح جبال لبنان ، ونكتفي بما استعدناه من حقوق لنا مقابل السلام . او ان تقول لسوريا : هضبة الجولان بأيدينا الان وهي من ضمن مجال حقوقنا التاريخية واننا مقابل السلام مستعدون للتخلي عن « تحقيق » حقوقنا التاريخية في الباشان ، وحوران مقابل تقسيم الهضبة . هذه أمثلة اوردناها تنسجم مع منطق اليآف ، ولكي لا يبدو بأننا نظلم منطق الرجل باعطاء الامثلة ، فاننا سنقف على رأيه في الحل تجاه مرتفعات الجولان السورية . يقول اليآف : « من الناحية الثانية علينا ان نقول للسوريين ان حكم الجولان بالنسبة لحقوقنا التاريخية ، هو كحكم ارض الاثني عشر سبطا ، اننا نمتلك ، وكذلك السوريون ، حقوقا كاملة على هضبة الجولان » ويرى الكاتب ان الحل يكمن في استعداد اسرائيل للتنازل عن « تحقيق » حقوقها التاريخية على اجزاء معينة في الاراضي السورية مقابل تقسيم الجولان ، بحيث تسلخ من الاراضي السورية مناطق في الهضبة لتضم الى اسرائيل (سنتوسع في هذا الموضوع في تقرير لاحق) .

من هنا فان السؤال المطروح ، ما هي حدود أرض اسرائيل قبل ان يكون هل اسرائيل مستعدة للتنازل عن تحقيق حقوقها التاريخية في هذه المنطقة أو تلك ! هل يمكن ان يتبلور اجماع اسرائيلي وصهيوني حول الحدود التاريخية خاصة وانه قد مر اكثر من ٧٥ عاما على المشروع الصهيوني الرامي الى استعادة الحقوق التاريخية للشعب اليهودي في ارض اسرائيل دون ان يكون هنالك اجماع واضح على حدود واضحة لتلك « الارض »؟ ولنفترض ان اليآف سيعجز عن ايجاد موقف اسرائيلي وصهيوني واضح موحد تجاه الحدود التاريخية وما يترتب عليها من « حقوق تاريخية » بحكم وجود تصورات وشطحات مختلفة ضمن الحركة الصهيونية واسرائيل تجاه تلك الحدود (أحيانا تصل الشطحات الى حد اعتبار اوغندا بمثابة ارض اسرائيل ، كما فكر ذات يوم مؤسس الحركة الصهيونية هرتسل) فهل يعجز عن تفسير عدم استطاعته التخلص من ازدواجية الشخصية وبالتالي ازدواجية المواقف بالنسبة له هو بالذات ، فهو من ناحية يرى ان ارض اسرائيل هي تلك المنطقة التي تشملها خريطة الانتداب البريطاني على كل فلسطين وشرق الاردن فقط ، ومن ناحية اخرى يرى ان الجولان هو من ضمن ارض اسرائيل ، ويطالب بتبسيمه مع ان الجولان هو أرض سورية ولم يكن ضمن خريطة الانتداب البريطاني بل ضمن خريطة الانتداب الفرنسي على سوريا ، وهذا الامر لا يجهله اليآف .

نعود الان لاستكمال الحديث عن « وعد بلفور » الاسرائيلي للشعب الفلسطيني بخصوص اقامة دولة فلسطينية على معظم الضفة الغربية وقطاع غزة وجميع الاراضي الاردنية والذي يدعو اليآف اسرائيل للاخذ به .

يقول اليآف ان هذه الدولة ستكون « مستقلة ذات سيادة » الا انه يرفق الاستقلال والسيادة بشروط ، ويكبلها بقيود ، لا تمس الاستقلال والسيادة فحسب ، بل تمس صميم الدولة بالذات وأهم هذه الشروط :

١ ــ اقتطاع أجزاء معينة من الضفة الغربية وقطاع غزة وضمها بشكل رسمي الى اسرائيل ، فهو يريد ان يعيد « معظم » وليس « جميع » وما بين المعظم والجميع يعطى لإسرائيل ، ومما تجدر ملاحظته هنا ان اريه اليآف يبقي حدود تلك الاراضي التي يشترط ضمها لاسرائيل كحدود خريطة ارض اسرائيل ، مبهمة غير واضحة المعالم .

٢ ــ اقتطاع مدينة القدس العربية وضمها الى اسرائيل ، فهو يشترط « ان تكون القدس كلها (هنا حدد الخريطة بكل وضوح ع. م) كمدينة كاملة وموحدة وهي الان عاصمة لاسرائيل ، وستبقى كذلك . في السابق ولغاية حرب الايام الستة كانت القدس مقسمة الى مدينتين ، وبما اننا لم نرضخ في أي يوم لحظر الوصول الى المبكى والحي اليهودي في المدينة ، لن نرضخ ثانية الى الى ذلك . لن نسمح بتقسيم هذه المدينة ، لن نسمح بأن يسيطر عليها حاكمان ، لن نعيد اليها سلطة عربية دنيوية ، ولن نكشف مرة اخرى شوارعها ومبانيها وسكانها ومؤسساتها للقناصة . وان هذا الثمن ، وهو ثمن غال ، ينبغي على العرب الفلسطينيين دفعه مقابل السلام معنا...»

٣ ــ تجريد الضفة الغربية وقطاع غزة من السلاح تجريدا كاملا ومطلقا ، لا لبس فيه ، ولا يكتفي اليآف بتعهد مكتوب من قبل الفلسطينيين باحترام هذا التجريد ، بل يرفق « التجريد المطلق »

بـ « ضمانات فعلية » يسمح بموجبها للقوات الاسرائيلية بالاشراف على الضفة الغربية . فهو يقول في هذا الخصوص : « ان هذا التجريد المطلق للقطاع وللضفة ، ينبغي ضمانه ليس فقط من خلال الاتفاقات المكتوبة ... بل ايضا من خلال الضمانات الفعلية ، والضمانات الفعلية هي اشراف اسرائيل او اشراف مشترك لدولتين ، ويمكن له ان يتم من خلال قواعد او بواسطة دوريات مشتركة على الخط الذي سيوقع عليه في الضفة ، وبشكل شبيه ايضا في قطاع غزة » .

وخشية ان يتهم اريه اليآف بأنه يمس بذلك سيادة الدولة الفلسطينية ، يقول في مجال تبريره : « لكي لا يمس استقلال الدولة الفلسطينية ، والى جانب ذلك منح اسرائيل أكبر قدر من الامن يمكن تحديد فترة استخدام هذه القواعد والدوريات المشتركة لعشر او عشرين سنة ، وبعد انتهاء هذه الفترة سيكون موضوع القواعد والدوريات المشتركة مفتوحا مرة اخرى للمفاوضات ، حتى يحين الوقت الذي يرى فيه الطرفان ، انها قد مضى وقتها ولا ضرورة بها » .

من الملاحظ ان القواعد الاسرائيلية في الضفة الغربية والقطاع لن تزال بعد فترة معينة محددة سواء كانت هذه الفترة عشر او عشرين سنة ، بل تكون خاضعة للمفاوضات من جديد ، وتزال بموافقة **الطرفين** ، اي ان الشرط الاساسي لازالتها موافقة الطرف الاسرائيلي .

٤ ــ لا يغفل اليآف اشتراط تكريس الاستيطان الاسرائيلي في جزء من الدولة الفلسطينية ، فبالنسبة لهذا الموضوع يرى « ان مصير المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة مفتوح أمام عدة احتمالات : قسم يضم رسميا ونهائيا عقب مفاوضات مع الدولة العربية الفلسطينية الى اسرائيل (على سبيل المثال غوش عتسيون) وقسم يتحول الى قواعد مؤقتة للجيش والدوريات في نطاق ترتيبات الامن بين الدولتين ، وقسم يبقى ضمن حدود الدولة العربية الفلسطينية » .

٥ ــ اضافة الى اشتراطه اقتطاع اجزاء من الضفة والقطاع وضمها الى اسرائيل ووضع قواعد عسكرية اسرائيلية ودوريات مشتركة في قطاع غزة وما تبقى من الضفة ، وضرورة تواجد مستوطنات اسرائيلية هناك ، يشترط اليآف بأن تكون الضفة الشرقية لنهر الاردن مفتوحة امام التواجد اليهودي ، لكي تتكون فيها جالية يهودية واستيطان يهودي ، أي انه يريد موضوعيا ، ان تصبح الضفة الشرقية لنهر الاردن بمثابة فلسطين اواخر القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن ! ولكن بدون نزاعات وصراعات ، بل وسط جو من « العلاقات الوثيقة ــ الاقتصادية والتجارية ... » فهو يقول : « بشكل عام ، من المفترض ، ان يكون في الدولة العربية الفلسطينية ، سواء في الضفة الغربية أم في الضفة الشرقية جالية يهودية قائمة ، ذلك انه من غير المعقول ، خلافا لما هو قائم في جميع بلدان العالم ، ان تكون الدولة الجارة بالذات ، دولة التوأم بالنسبة لنا ، « نظيفة من اليهود » . الواقع لا يحتمل ذلك . ان العلاقات الوثيقة ــ الاقتصادية والتجارية والاخرى ، التي ستسود بالضرورة بين الدولتين عقب السلام ، ستؤدي مع مرور الزمن ، وبموافقة الدولة العربية الى استيطان يهود في مدن الضفة والقطاع **وشرق الاردن**. وبوسع هؤلاء ان يبقوا مواطنين اسرائيليين ، ذلك انهم بحكم أعمالهم واشغالهم يقيمون مؤقتا في الدولة العربية ويحافظون على جنسيتهم الاسرائيلية ، وسيكون هنالك من سيحولون اقامتهم الى اقامة دائمة ويصبحون مواطنين في الدولة العربية ، ويقومون بالواجبات كسائر مواطنيها ، وكما هو الحال في اسرائيل حيث توجد هنالك أقلية عربية يبلغ تعدادها مئات الالوف ، وافقوا على التجنس بالجنسية الاسرائيلية ، فانه من الممكن ايضا ان تتشكل مع مرور الزمن ، وفي ظروف السلام ، أقلية من بضعة الاف او عشرات الالوف من اليهود في الدولة العربية المجاورة » .

ان اشتراط اليآف بتواجد يهودي في الضفة الشرقية علاوة على الضفة الغربية والقطاع « استيطان يهود في مدن الضفة الغربية والقطاع **وشرق الاردن** » أي ضمن اراضي الدولة الفلسطينية المقترحة بحجة واهية وهي انه من غير المعقول ان تكون الدولة الجارة والتوأم نظيفة من اليهود في الوقت الذي يتواجد فيه اليهود في جميع دول العالم يثير سؤالا : لماذا يسعى اليآف ويبذل قصارى جهده لـ « تنظيف » بلدان العالم من اليهود بغرض جمعهم في اسرائيل ، ويتباكى من قيام أي يهودي

بالهجرة من اسرائيل الى بلدان العالم ، في الوقت الذي يدعو فيه الى هجرة « عشرات الالوف من اليهود » الى دولة معينة ؟ هل نظرة اليآف الى هذه الدولة المقترحة ، هي كنظرته الى سائر دول العالم او انه لا يزال يعتبرها بمثابة جزء من « أرض اسرائيل » تنازلت اسرائيل عن تحقيق حقوقها عليها ؟

ليس منطق اليآف هو الذي يثير السؤال السابق بل الحجة الواهية التي اعتمد عليها ، فوفق منطقه تبقى اراضي الدولة الفلسطينية المقترحة جميعها شرقي وغربي النهر ضمن مجال الحقوق التاريخية لليهود ، ذلك انه دعا الى تنازل اسرائيل « عن **تحقيق** جزء من حقوقنا على ارض اسرائيل » وهذا لا يعني في أي شكل من الاشكال التنازل عن الحقوق ذاتها ، وبين التنازل عن « تحقيق » الحقوق ، والتنازل عن الحقوق ، مجال واسع يمكن اليآف من الدعوة لتواجد استيطاني يهودي على الضفتين .

طبعا ، لم يكتف اليآف بالحجة الواهية آنفة الذكر ، بل اعتمد ايضا على حجة اخرى تتسم بالمغالطة والخطورة معا ، فهو يقول بما انه توجد أقلية عربية في اسرائيل، ينبغي كذلك، وفي المقابل، ان تكون هنالك أقلية يهودية في الدولة الفلسطينية. للوهلة الاولى يبدو الامر منطقيا بالنسبة لاولئك الذين لم يقرأوا حرفا عن القضية الفلسطينية . ولكن السؤال من الذي عمل على خلق الاقلية العربية ؟ لقد خلقت الاقلية العربية نتيجة ظهور أقلية يهودية صهيونية في فلسطين في اواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، فهل لا يؤدي ظهور أقلية يهودية في الاردن بالاضافة الى الضفة والقطاع الى خلق اقلية عربية هناك في القرن الواحد والعشرين ؟

واذا ما أخذنا بعين الاعتبار توقعات اليآف لعدد سكان اسرائيل بعد عشرين عاما (٩ ملايين نسمة) فاننا سندرك حجم الاقلية اليهودية في الدولة الفلسطينية المقترحة ، هذا فضلا عن الاماني التي يعلقها اليآف على الدولة الفلسطينية لكي يتخلص من الاقلية العربية في اسرائيل ، من خلال استقطاب تلك الدولة لمن يشاء من ابناء الاقلية العربية . حول ذلك يقول اليآف : « اذا ما قامت بالقرب منا دولة عربية فلسطينية تقيم علاقات سلام معنا ، سيشعر العرب الاسرائيليون أنفسهم مواطنين اسرائيليين ، وكتابعين ايضا لشعب فلسطيني ، له هويته الخاصة به ، ومن المحتمل ان تكون لدى قسم منهم رغبة في الانتقال ، مؤقتا او بشكل دائم الى الدولة العربية الفلسطينية ، وهذا من حقهم. ومن المحتمل ان تبقى أكثريتهم بين صفوفنا . ولكونهم بين ظهرانينا ، فانهم سيشكلون جسرا بين الدولتين ، مثلما تشكل الاقليات والمستوطنات اليهودية في الدولة العربية الفلسطينية جسرا كهذا » .

الى جانب تلك الشروط والقيود ، لا يتوانى اليآف عن رسم صورة مضيئة للتطور الحضاري المرتقب لدولة الفلسطينية المقترحة ، هذا التطور الذي يشمل جميع الميادين والمجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، والذي من شأنه ان يقفز بتلك الدولة الى المراتب العليا من التطور الانساني ، بقدرة قادر او بقدرة خيال اليآف وطبعا بالتعاون مع اسرائيل . ولعل الكاتب استهدف من وراء تقديم تلك اللوحة الحضارية البراقة للدولة الفلسطينية ثلاثة امور : ١ ـ حل قضية اللاجئين داخل الدولة الفلسطينية الواسعة المزدهرة . ٢ ـ اثارة لعاب ضعاف النفوس من ابناء شريحة البرجوازية الفلسطينية . ٣ ـ اثارة المطامح الكامنة بين صفوف البرجوازية الاسرائيلية. يرسم الكاتب اللوحة بالشكل التالي: « اذا ما منح هذا الشعب الذي يمر في طور التكوين سندان لمطرقته على شكل دولة ، فانه قادر على تحويلها خلال مدة قصيرة الى دولة تستوعب بشكل مشرف جميع اللاجئين ، وتصل ، وربما تكون الاولى من بين الدول العربية ، الى العصر الحديث بوسعهم اقامة زراعة عصرية متطورة ، تصدر معظم انتاجها الى اوروبا والاقطار العربية ، واقامة مدن جديدة وتطوير القائمة منها في الضفتين والقطاع . كما بوسعهم ، بواسطة مساعدات دولية ، تأسيس صناعة عصرية ، واشادة موانىء ومطارات جديدة، وتطوير السياحة ، واقامة مؤسسات في ميادين البحث والعلم ، ورفع شأن الثقافة والفنون في بلدهم، وان يكونوا بمثابة الدولة العربية النموذجية التي تخطو بكبرياء وشمم نحو القرن الواحد والعشرين ، بل أكثر من ذلك : يمكن لدولتهم المستقلة من خلال تعاونها معنا الوصول الى اقامة

منشآت جبارة تدفع دولتهم واسرائيل معا الى الامام .

ان دولة اسرائيل الواقعة على شواطىء بحرين، وجارتها العربية الفلسطينية الواقعة هي ايضا على شواطىء ، بوسعهما مع مرور الزمن خلق سوق مشتركة ، قد تكون بمثابة حجر الرحى للدول العربية وغير العربية . وبامكان الدولتين ان يصبحا منطقة سياحية ، من أجمل واعظم المناطق في العالم . كما بوسعهما دمج المنشآت البحرية وكذلك خدمات المواصلات والطيران في كل منهما ، والقيام بتزويد الخدمات والمعرفة الفنية والاموال للمنطقة بأسرها ، وربما ايضا لخارج المنطقة ... » .

ربما يتبادر الى الاذهان بأن وجهة نظر اليآف التي اوردناها تجاه مستقبل الشعب الفلسطيني ، قد تبلورت ونشرت قبيل حرب اوكتوبر ، أي في صيف ١٩٧٢ ، وانه من المحتمل ان تكون المعطيات الجديدة للحرب الاخيرة قد أحدثت تعديلات على مواقفه السابقة ، اسوة بما حدث لكثير من المواقف سواء داخل اسرائيل او خارجها ، الا ان ذلك لم يحدث بالنسبة له ، وجميع مقالاته بعد الحرب تؤكد ذلك . فبالنسبة لمستقبل الشعب الفلسطيني قال اليآف في مقالة له نشرت في معاريف بعد الحرب (٧٣/١١/١٩) « ينبغي علينا التوجه للعرب الفلسطينيين والاردن الذين تكمن بهم جذور النزاع ، ونقول لهم باننا سنتقاسم ميراث آبائنا وآبائهم ، ارض اسرائيل الكبرى ، من البحر الى الصحراء على ضفتي الاردن ، كما ويتوجب علينا ان نكون على استعداد لمفاوضة مندوبين معتمدين من قبلهم لخلق أساس لدولة ، وربما دول لهم تضم شرق الاردن ومعظم مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة ، شريطة ان تكون الضفة والقطاع مجردتين من السلاح وتحت مراقبة مشتركة » ، أما بالنسبة للقدس فيدعو الى ابقائها موحدة وعاصمة لاسرائيل مع تأمين حرية الوصول الى الاماكن المقدسة ، وفيما يتعلق باللاجئين فيدعو الى توطينهم في الدولة الجديدة .

لم يعدل او يغير اليآف من آرائه ، لايمانه بالفوائد الجمة التي تجلبها تلك الاراء للكيان الاسرائيلي ، فهو يرى « ان هنالك ضرورة بتصريح كهذا تجاه أنفسنا ، وتجاه العرب وتجاه العالم ، وسيكون لهذا التصريح الذي هو بمثابة « تصريح بلفور » للعرب الفلسطينيين ، أهمية بسيكولوجية ، ومع مرور الوقت ، أهمية فعلية عظيمة ...» ومع ان هذا التصريح ، لا يختلف في جوهره عن تصريح بلفور من الناحية العملية والموضوعية ، بل استكمال له ، ولكن صادر هذه المرة ليس من قبل وزير خارجية بريطانيا ، بل من قبل منظر حزب العمل الاسرائيلي سابقا ، تحت ستار انه موجه للشعب الفلسطيني ، مع انه موجه بالفعل لخدمة مجتمع المستوطنين والمهاجرين، فان اليآف لا يكل ولا ييأس من الدعوة له ، مدركا صعوبة الطريق ، ممنيا نفسه ان تحدث معجزة ، اذ يقول : « حقا، ان تصريحا اسرائيليا كهذا اليوم ، أشبه بخطاب من فوق منصة مسرح مضاءة ، امام مشاهدين صامتين يجلسون في الظلام ، ولكن هنالك دلائل أولية ، بانه سيقوم ، وسط الظلمة والصمت ، عرب فلسطينيون شجعان ليقولوا : نحن على استعداد للتحدث معكم ، ونقيم السلام معكم ».

[٤]

كيف ينظر اليآف الى حل النزاع مع مصر وسوريا

وفق المنطق الذي طرحه اليآف لايجاد حل للصراع العربي الاسرائيلي ، واحلال السلام ، وتمشيا مع هذا المنطق الغريب ، يخال للمرء بأن اليآف سيقول لمصر : الان نقع سيناء بأيدينا واننا نملك حقوقا تاريخية في الاراضي التي تقع غربي نهر النيل ، باعتبار ان هذه الاراضي هي جزء من خريطة ارض اسرائيل الكبرى التي وعد الله بها نسل اسرائيل واننا مستعدون للتنازل عن تحقيق الحقوق التاريخية لبني اسرائيل على الاراضي الواقعة بين القناة والنيل ، مقابل تقسيم سيناء واحلال السلام بيننا ، كما نفعل مع الفلسطينيين والسوريين . ان هذا التخيل الذي يفرضه منطق اليآف غير وارد عند صاحبنا ، لانه لا ينظر الى مصر من خلال الخريطة التوراتية او خريطة

الاثني عشر سبطا او أية خريطة خرافية أخرى ، بل من خلال منظور آخر ، من خلال فهمه وادراكه بأن مصر هي مركز الثقل في المنطقة سواء في الماضي او الحاضر ، وان ما يحدث فيها سلبا او ايجابا ينعكس بالضرورة على سائر الدول العربية ، ولذا فانه يعفيها من الترهات الخرافية المتمثلة في الحقوق الوهمية، في محاولة منه لتطويقها وتحييدها وعزلها عن العالم العربي .

يعتبر اليآف في كتابه « أرض الغزال » في الفصل « اسرائيل ومصر » ان النزاع مع مصر ينطوي على جانب كبير من الخطورة . يقول في مطلع حديثه: « اذا كانت قضية العرب الفلسطينيين هي القضية الشائكة والمأساوية ، وحلولها هي حلول طويلة الامد في الصراع بيننا وبين العرب فان النزاع والحرب بيننا وبين مصر هي القضية الكبرى من زاوية القوى المتداخلة فيها ، والاخطر على المدى القصير ، وحبلى بالاخطار الفورية على صعيد المنطقة والعالم » . ثم ينتقل للتحدث عن العلاقات التاريخية بين مصر واليهود ، وعن ظهور موسى في مصر ، ومن ثم خروج اليهود من هناك الى سيناء ، حيث وقعت « الحادثة التاريخية » هناك ، وبعد ذلك يمر مرا سريعا على التطورات التي مرت على مصر ، ليصل الى فترة محمد علي، وظهور الحركة الوطنية المصرية ، حتى وقوع ثورة يوليو وبروز عبد الناصر ، « وتوريطه » لمصر ، لتغدو في طليعة الدول العربية المتصدية لاسرائيل، وسقوط سيناء في أيدي القوات الاسرائيلية ...

تصد الكاتب اثناء عرضه ، التركيز على ان سيناء كانت ولا تزال بمثابة « موقع » هجومي او دفاعي ، وعلى ان القضايا الداخلية هي التي تستحوذ على تفكير مصر ، ليخرج بعد ذلك بأن كراهيتها للصهيونية لا تصل بها الى حد الجنون : « حقا ان مصر وقفت على رأس الجامعة العربية ، الا انهم في كراهيتهم للصهيونية لم يكن زعماؤها متطرفين حتى درجة الجنون ، مثل الفلسطينيين والسوريين والعراقيين... » وفيما يتعلق بالقضايا المتعلقة بين مصر واسرائيل فانه يمسخها الى قضيتين اثنتين ، متجاوزا واقع مصر العربي ، القضية الاولى غزة ، والثانية سيناء .

بالنسبة للاولى ، يرى انه لا توجد لمصر في قطاع غزة أية « حقوق » وان « احتلالها » الذي استمر ١٩ عاما لا يمكنها من الادعاء بان لها حقوقا في القطاع ، لان هذه الفترة تعتبر بمثابة « حدث عابر فقط في الصراع الطويل بيننا وبين الفلسطينيين » .

أما أصحاب الحقوق في قطاع غزة فهم « الفلسطينيون واليهود فقط » ويذهب اليآف أبعد من ذلك ، اذ يرى ان الشعب الفلسطيني والشعب المصري شعبين مختلفين وأكثر من ذلك « غريبين » . فهو يرى ان « للعرب الفلسطينيين ولنا فقط حقوقا في قطاع غزة . واذا كان الامر يحتاج الى برهان بأن المصريين والعرب الفلسطينيين هما شعبان مختلفان ، او حتى غريبان عن بعضهما البعض ، فان سني الاحتلال المصري لغزة هي برهان قاطع على ذلك » . ثم يأخذ بكيل التهم على المسلك « الاحتلالي » المصري الذي عبر عن نفسه « في كل شيء » ، ويضرب امثلة على ذلك ، مثل عدم منح الفلسطينيين الجنسية المصرية ! كما ان « المحتلين » لم يعملوا لمصلحة السكان الفلسطينيين بشكل عام واللاجئين بشكل خاص ، بل استخدموا القطاع كورقة ضغط ضد اسرائيل وقاعدة تهديد لها ، ليقرر بعد ذلك « ان أي طلب من جانب مصر للعودة الى القطاع هو بمثابة تهديد لكيان اسرائيل » . ان مستقبل ومصير قطاع غزة ، مسألة تخصنا نحن والعرب الفلسطينيين فقط . أما قضية ان يكون جزء منها او معظمها او كلها، جزءا من دولة عربية فلسطينية ، فهي موضوع للمفاوضات بيننا وبين الزعامة الفلسطينية او الفلسطينية الاردنية ، وفي أية حال سيكون هنالك فصل سياسي **وجغرافي** بين قطاع غزة ومصر » .

بهذا الشكل يجد اليآف حدا للقضية الاولى ، « احتلال » مصر لقطاع غزة لا يمنحها حقوقا تاريخية او راهنة ، والشعبان الفلسطيني والمصري مختلفان وغريبان عن بعضهما البعض ، والحقوق على القطاع يتمتع بها الاسرائيليون والفلسطينيون وفي أية حال سيكون هنالك فصل سياسي وجغرافي بين القطاع ومصر .

ان الهدف من وراء الفصل السياسي واضح ، فهو يسعى وراء الاستفراد بالشعب الفلسطيني من خلال عزل مركز الثقل في المنطقة ، أما قضية الفصل الجغرافي بين مصر والقطاع فهي غير واضحة ، ومناقضة لنظرة اليآف تجاه مستقبل

ومصير سيناء . ذلك ان الفصل الجغرافي في هذه الناحية يتطلب اقتطاع شريط من سيناء عند مشارف رفح ، ومنحه لطرف ثالث للفصل جغرافيا بين القطاع ومصر ، ومع انه لا يفصح عن هوية الطرف الثالث المرشح ليكون عازلا جغرافيا ، فاننا لا نحتاج الى جهد جهيد لمعرفة هذا الطرف الذي لا يمكن ان يكون مصريا او فلسطينيا .

أما القضية الثانية الاساسية في نظر اليأف فهي قضية مستقبل ومصير سيناء . وبعد ان يغوص في تاريخ سيناء وعلاقتها بمصر ، يصر على ان هذه الارض الخالية والصحراوية كانت ماضيا وحاضرا فقط بمثابة « موقع » ، وفيما يتعلق بالحقوق التاريخية عليها فانه « من الصعب القول بان شبه جزيرة سيناء كانت « تابعة » في يوم من الايام الى أي شعب » ويرجع سبب ذلك الى ندرة سكانها ومياهها ولكونها ممرا حيويا لشعوب ودول كثيرة . وليس من المعروف اذا كان المنطق الاليآفي ينسحب على صحار اخرى كثيرة في العالم أم يقتصر فقط على سيناء دون الربع الخالي او بادية الشام مثلا .

اذا كان الوضع كذلك فالى أي بلد او أية جهة تتبع سيناء ؟ يعود الكاتب هنا الى قضية الحقوق التاريخية ليعفي اسرائيل من هذا الحق، مع ان الخريطة التوراتية تشمل جميع سيناء والاراضي المصرية الواقعة شرقي النيل ، ويقول بهذا الخصوص : « بيد ان شبه جزيرة سيناء لم تشمل ضمن ميراث الاثني عشر سبطا ، ومن هذه الزاوية ، لا تقع ضمن مجال الحقوق التاريخية القومية للشعب اليهودي . ليس اليها تاق وصلى اليهود في المنفى ، ولم تكن ضمن حدود الاهداف الصهيونية الحديثة . ولو لم يحول المصريون شبه جزيرة سيناء الى قاعدة لهجوم عسكري ضد اسرائيل التي بعثت من جديد ، لم يكن ليخطر على بالنا احتلالها وشملها ضمن حدود مناطقنا » .

ويعود اليآف مرة اخرى ويكرر عدم وجود حق تاريخي لاسرائيل في سيناء ، ويقرر بأن مصر تمتلك هذا الحق بفضل سيادتها على سيناء عند مطلع هذا القرن : « لم تدّع الصهيونية ابدا لنفسها حقوقا تاريخية قومية في شبه جزيرة سيناء ، ولسنا ندعي هذه الحقوق اليوم . ان تثبيت شبه جزيرة سيناء كمنطقة خاضعة للسيادة المصرية قد جرى قبل أكثر من ٦٥ عاما . ومنذ ذلك الحين لم يحتج شخص على ذلك . كما انه بالنسبة لمؤسسي المشروع الصهيوني ولنا لم تكن هنالك اية نوايا للاحتجاج على ذلك . لقد كنا على استعداد بأن نرى في الحدود الدولية كحدود ثابتة بيننا وبين مصر ، وان نوقع معها على معاهدة سلام على هذه الحدود في عام ١٩٤٨ وكذلك طيلة سني قيام اسرائيل حتى حرب الايام الستة » .

بعد ذلك يصل الكاتب الى الحل المرفق باشتراطات ، أهمها اذا استثنينا تبادل السفراء واقامة العلاقات التجارية والثقافية والسياسية والرياضية ، سحب مصر يدها من القضية الفلسطينية وابقاء هذه القضية « بيننا » وبين الفلسطينيين ، ويكمن الحل في التصور التالي لاليآف : « لو ان وضعا جديدا يطرأ — وهذا الامر يبدو لنا اليوم غير ممكن — تغير فيه مصر ، حكومة وشعبا نظرتها الينا تغييرا جذريا ، حيث يجلسون معنا على مائدة المفاوضات ويعقدون — اتفاق سلام ، لو كانوا يتبادلون معنا السفراء ، لو ان سفننا تمر في القناة ، وتجارنا يجلسون في القاهرة وتجارهم في القدس ، لو ان سواحنا يصعدون على الهرم ، وسواحهم يجوبون مستديرة ديزنجوف، لو كانوا يجرون معنا مباريات في كرة القدم وكرة السلة ، باحثوهم يعلمون في جامعاتنا ، وباحثونا يجلسون في معاهدهم العلمية ، أكثر من ذلك ، لو ، استنادا الى تصريحنا تجاه العرب الفلسطينيين ، يسحبون يدهم ، ويبقون هذه القضية بيننا وبين هؤلاء ، لو ان **كل** ذلك يحدث فجأة ودفعة واحدة ، حيث تقوم بيننا علاقات سلام حقيقي ، **حينئذ** علينا ان نعيد شبه جزيرة سيناء الى مصر » . لا يكتفي اليآف بهذه الاشتراطات المصاحبة لعودة سيناء الى مصر ، بل يضيف شرطا آخر يتمثل في « تجريدها من السلاح تجريدا كاملا وبضمانات متبادلة من قبلنا ومن قبل المصريين » .

لن نقف على الاشتراطات الاولى لوضوحها التام ، وانما سنقف قليلا حول الاشتراط الاخير في محاولة لاستجلائه .

يدعو الكاتب الى تجريد سيناء تجريدا تاما من « جنودكم وجنودنا » ولضمان ذلك ، يقترح اشرافا مصريا اسرائيليا على سيناء ، ويقول بهذا الخصوص

موجها كلامه الى المصريين مباشرة : « يحتمل ، انه عن طريق المفاوضات بيننا سنصل الى حلول على شكل اشراف متبادل او اشراف مشترك ، او دوريات مخططة في ارجاء سيناء لو لفترة محدودة على كل ممر حساس في شبه جزيرة سيناء ، ويحتمل ان يصل على مائدة المفاوضات رجالنا ورجالكم الى استنتاج بأنه من أجل تجريد تام للجزيرة ينبغي هدم ، قبل اعادة ، كل معسكر ، وكل مطار ، وكل قاعدة ، أكثر من ذلك ، كل طريق كل جسر ، كل بئر وكل انبوب مياه . ولكن ربما ايضا ، من خلال المفاوضات سيعثر الطرفان على طريق آخر : عدم هدم ما هو قائم بل تحويل شبه الجزيرة بمنشآتها وقاعدتها الجبارة الى شبه جزيرة للسلام ، تكون طرقاتها طرقا جميلة ، وممراتها ممرات سلام ، وربما يقوم خبراء الجانبين باعادة ربط شبكات المواصلات وخطوط السكك الحديدية — الى مصر غربا والى اسرائيل شرقا — وتحويل المطارات الى تشكيل مصري اسرائيلي للطيران المدني ، وكذلك تحويل جميع ارجاء شبه الجزيرة الى قاعدة جبارة للسياحة الدولية حيث ستستقبل مئات الالوف والملايين من السياح والمصطافين في طريقهم الى القاهرة والاسكندرية او للقدس وتل ابيب » .

أي ان سيناء « الموقع » ينتظرها خياران ، الاول تحويلها الى ربع خال جديد ، حيث تهدم فيه الطرق والابار مع اشراف مصري اسرائيلي للحفاظ على حرمة تجريدها من السلاح ، او ان تتحول الى جنة عدن تستقبل السياح والمصطافين من خلال تعاون مصري اسرائيلي . وفي كلا الحالين يرى اليآف ان هنالك ضرورة بابقاء مضائق تيران تحت السيطرة الاسرائيلية . يقول بهذا الصدد : « اذا قلنا نحن ، على سبيل المثال ، ان السيطرة على مضائق تيران مسألة حيوية بالنسبة لنا ، فينبغي على المصريين ان يدركوا بأننا لا نتحدث عن شرم الشيخ تلك التي أبتوها لنا ، بل عن شرم الشيخ التي أقمنا فيها ميناء ومطارا جديدين ، وقاعدة عسكرية بحرية ممتازة أشدناها ، والتي ينبغي علينا الحفاظ عليها ليس فقط ضد تهديد مصري ، بل ايضا في وجه أي تهديد من قبل عنصر أجنبي ، عربي او آخر ، سواء كان قائما اليوم او **قد يقوم في المستقبل** ، ويريد خنقنا في مضائق تيران او في البحر الاحمر او في باب المندب . وفي مقابل ذلك ، اذا ما قال المصريون بأن شرم الشيخ هي جزء من سيناء وأن جميع سيناء هي جزء من مصر ، فانه من الضروري ايجاد حل يرضي الطرفين ، ويمكن العثور على مثل هذا الحل عن طريق استئجار شرم الشيخ لمدة طويلة او باشكال قانونية كثيرة اخرى » .

نصل هنا الى بيت القصيد او « بيت التناقض » الصارخ في المنطق الاليآفي ، فهو من ناحية يعترف بالسيادة المصرية على جميع ارجاء سيناء ، مشفعا ذلك بشرط تجريدها تجريدا تاما ومطلقا من السلاح مع اشراف مصري واسرائيلي للحفاظ على حرمة « التجريد المطلق » ، ومن ناحية اخرى يدعو الى احتفاظ اسرائيل بشرم الشيخ ضد أي تهديد موجه لاسرائيل سواء كان قائما في الوقت الحاضر او « قد يقوم في المستقبل » (هذه الجملة الاخيرة تعني ان منطقة شرم الشيخ ستبقى تحت السيطرة الاسرائيلية الى أبد الابدين) مع وجود ميناء ومطار وقاعدة بحرية ممتازة . والسؤال الذي يطرح نفسه ، الا يعتبر التواجد العسكري في شرم الشيخ والقاعدة البحرية الممتازة عملا مناقضا لدعوة اليآف بتجريد سيناء تجريدا مطلقا وتاما ؟ ولنفترض جدلا بأن العلاقات السلامية حدثت بين مصر واسرائيل كما يتخيلها اليآف ، فهل وجود مطار عسكري وقاعدة بحرية اسرائيلية في شرم الشيخ موجهان ضد الدول العربية الاخرى ، او لحماية اسرائيل من تلك الدول لا يعتبر بمثابة عمل ماس بالسيادة المصرية ؟ والاهم من ذلك كله ، هل يمكن لمصر ، وهي صاحبة السيادة على سيناء ان تبني مطارا عسكريا او قاعدة بحرية عسكرية في سيناء او هل يحق لها ان « تستأجر » من ذاتها قطعة ارض خاضعة لسيادتها لتشيد عليها قاعدة بحرية ، ولنقل ليس ضد اسرائيل ، بل ضد عدو « قد يقوم في المستقبل » ؟

لم تحدث الحرب الاخيرة تغييرا على موقف اليآف تجاه الحل مع مصر ، فقد ذكر في مقالة له نشرت في معاريف ٧٣/١١/٩ : « بهامة منتصبة وباعتزاز ودون التزحزح عن شبر واحد ، علينا ان نقول للشعب المصري العظيم ، اننا سنعيد اليه سيادته على مراحل وبعد مفاوضات ... وبعد التجريد التام لشبه الجزيرة وتحت مراقبة مصرية اسرائيلية مشتركة ، ومع وجودنا في المضائق ، هذه المراقبة

تزيل من قلوبنا تدريجيا الشكوك الرهيبة التي ازدادت بعد حرب يوم الغفران » .

في ختام تقريرنا لعرض آراء اليآف تجاه الحل مع مصر لا بد من الاشارة ثانية الى انه يحاول في حله — سيادة مصرية اسمية على سيناء وسيطرة اسرائيلية على بعض اجزائها — تطويق وعزل مصر ، كمركز ثقل عن العالم العربي ، ويدعوها الى التخلص من « عقدة » صلاح الدين وبيبرس ، والانكباب على قضاياها الداخلية ، وعدم التخوف من التوسع الاسرائيلي ، وعدم التدخل في القضية الفلسطينية « علينا ان نقول لهم بشكل واضح اننا لا نسعى للتوسع في سيناء ، لاننا لا نريد الاحتفاظ بها الى الابد ، وكذلك لانها بالنسبة لنا ليست المكان الذي نحل فيه مشاكل ملايين مهاجرينا، اننا نطلب من المصريين ان يتفهمونا ويدرسوا ماضينا ، ومصيرنا ، وخاصيتنا وأهدافنا . وان يثقوا بأننا لسنا فقط لا نريد «التوسع على حسابهم» بل ان قضية العرب الفلسطينيين هي قضيتنا أكثر مما هي قضيتهم ، واننا سنجد لها حلا غير اعتيادي ، في الوقت الذي يظهر فيه شركاء لنا من بين صفوفهم » .

باختصار ، انه يريد ويسعى الى عزل وتحييد مركز الثقل ، ويدفعه في ذلك عقدة او هاجس صلاح الدين وبيبرس ، ليستفرد بالفلسطينيين والسوريين.

اربه اليآف والحل مع سوريا

يبدو ان اليآف عندما كتب الفصل الخاص بسوريا (السوريون الذين يواجهوننا مصدر التحرش والتحريض) كان غاضبا او ان مجرد ذكر كلمة سوريا تثير لديه الغضب لدرجة يصبح معها بعيدا جدا عن الموضوعية ، فالشعب السوري في نظره « خليط من هذا البشر الذي يسمى الشعب السوري » ومع ذلك فان غضبه لا يؤثر على الحل الذي يقترحه والمنسجم مع نفسه تماما .

يقول اليآف فيبداية حديثه عن الصراع مع سوريا: اذا كانت قضية العرب الفلسطينيين هي الاصعب ، وقضية مصر هي الاعظم والاخطر ، فانه يمكن القول ان قضية علاقاتنا مع سوريا هي التي تثير الغضب الاكبر . ليس لان السوريين يغضبوننا أكثر من العرب الاخرين ، بل لانهم يغضبون ايضا الشعوب العربية المتورطة معنا في النزاع الدامي ، يغضبون العرب الفلسطينيين والمصريين واللبنانيين ، فمنذ بداية النزاع والسوريون بؤرة لاقصى التحرش والتحريض ضدنا ، واذا ما كانت الدول العربية تمر في سياق عدم الهدوء المستمر على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، فان سوريا هي النموذج الواضح في هذا المجال » .

ربما يكون الكاتب واضحا في منطقه الذي يعيد غضبه وغضب الاسرائيليين من سوريا لكونها تشكل « بؤرة لاقصى التحرش والتحريض ضدنا » الا ان الامر الضبابي — كضبابية ارض اسرائيل — هو كيف يغضب السوريون الشعوب العربية ، الفلسطينيين والمصريين واللبنانيين ؟

ثم ينتقل المنظر السابق لحزب العمل الى أسباب « عدم الهدوء » في سوريا ويعيده الى العوامل التاريخية الخاصة بها ، فهو يرى ان سوريا قد تعرضت مرات عدة لغزوات من قبل شعوب مختلفة ، وابقت هذه الشعوب فيها « نسلها ونفوذها » ليقول بعد ذلك وكانه يتحدث عن بلد لم يسمع به انسان ، انها « تتشكل من قبائل وشعوب كثيرة تحركها روح الكراهية والعداء ، تتنافس فيما بينها على السيادة والسلطة » كما وانها في الوقت نفسه « تعتبر بؤرة ومهد حركة القومية العربية المتطرفة جدا... » ويرى بأن الهوة بين « الخليط البشري » الذي تسيره روح الكراهية والعداء والتنافس ، ومطامح حركة القومية العربية واسعة . ليقرر بعد ذلك أحد الاسباب التي تدفع السوريين لـ « التحرش والتحريض » : « من هنا ندرك بحثهم الدائم عن عدو خارجي يمكن ان يكون بمثابة كبش المحرقة لغضبهم واحباطهم الداخلي ، وفي نفس الوقت بمثابة عامل موحد ومكتل لهذا الخليط البشري الذي يسمى بالشعب السوري » .

وتجدر الملاحظة هنا ان اليآف الذي بذل قصارى جهده في الدفاع عن قضية تسمية الامور بأسمائها ، وانتقد اكثر من مرة اولئك الاسرائيليين الذين يصفون العرب بأنهم « خليط من ... » لم يلزم نفسه بهذا النقد ، فعندما يتحدث عن الشعب السوري يتحاشى تماما ذكر كلمة شعب ويكتفي بكلمة « السوريين » ، ومن هنا فان السؤال المطروح ، هل الشعب السوري موجود او نصف موجود ؟

ثم يتطرق الكاتب الى الكراهية المتأصلة بين صفوف السوريين تجاه الحركة الصهيونية ، وبعد ان يتحدث بشكل سريع عن فترة الانتداب الفرنسي، ينتقل الى فترة الاستقلال مركزا حديثه عن « التحرشات » السورية من خلال هضبة الجولان ، ليصل الى سقوط الهضبة بأيدي الجيش الاسرائيلي ، تلك الهضبة التي « أغضبت » الاسرائيليين كثيرا والتي لا يهتم السوريون باعادتها بل يسعون الى « القاء العصابات الصهيونية في البحر » انهم غير معنيين ابدا باعادة هضبة الجولان ، ولم يقولوا ابدا انه اذا ما أعيدت الهضبة « سيقيمون سلاما » مع اسرائيل ، فبالنسبة لهم لا زالت الصيغة القديمة قائمة ... ان اسرائيل غير قائمة ، فقط هنالك عصابات صهيونية وينبغي القاؤها في البحر » .

ولذا فان الحل الذي يقترحه اليآف لازالة اثار « الغضب » واحلال السلام مع سوريا ينبع من مصدرين، الاول أخف وطأة: «الامن الاستراتيجي»، ولا يتحدث حوله كثيرا ، والمصدر الثاني : خريطة ارض اسرائيل — خريطة الاثني عشر سبطا ! وفي هذا المجال يتوجه للسوريين كما توجه للفلسطينيين من قبل : « من الناحية الثانية علينا ان نقول للسوريين ، ان حكم الجولان بالنسبة للحقوق التاريخية ، كحكم ميراث الاثني عشر سبطا ، نحن وكذلك السوريون نمتلك حقوقا كاملة على هضبة الجولان . لقد كنا على استعداد للتنازل عن تحقيق هذه الحقوق ، ولم نتحدث عنها البتة طيلة السنون حتى حرب الايام الستة ، ولكن الان يجب علينا ان ننظر الى هضبة الجولان كـ« رقعة » وان نفكر عن حل تقسيم يضمن لنا سيطرة عسكرية في الحصون على الجبل من ناحية ، ويزيل تخوفات السوريين الكبيرة الناجمة عن مرابطتنا مقابل دمشق من ناحية اخرى . هذا الحل ينبغي ان يمكننا من الاحتفاظ بقبضة استيطانية على الجبل ، ويمكن السوريين من اعادة لاجئيهم — ليسوا كثيرين — او قسما منهم الى الهضبة ، وسيكون هنالك مكان لهم من خلال الاستيطان الحديث ».

اما فيما يتعلق بالمستوطنات الاسرائيلية القائمة فحكمها ومصيرها ايضا كحكم ومصير المستوطنات الاسرائيلية الواقعة في الاراضي الفلسطينية ، ولا يمكن ان يكون غير ذلك وفق المنطق الاليآفي ، لان هذه المستوطنات جميعا سواء الواقعة في الضفة او القطاع او هضبة الجولان انما تقع ضمن خريطة الاثني عشر سبطا ، ولذا فان « مصير المستوطنات اليهودية في الهضبة سيكون في المستقبل كمصير المستوطنات اليهودية في مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة ، قسم منها سيكون ، عقب السلام ، داخل حدود دولة اسرائيل ، وقسم سيكون ، مهما بدا هذا الامر خياليا اليوم ، داخل سوريا التي تعيش بسلام مع دولة اسرائيل » .

وكما ان حرب اوكتوبر لم تحدث تغيرا او تبدلا في نظرة اليآف تجاه الحلول المستقبلية مع الفلسطينيين والمصريين ، فانها لم تحدث نظرته ايضا تجاه الحل المستقبلي مع سوريا . ففي مقالة له في صحيفة معاريف ١٩٧٣/١١/٩ يرى الكاتب انه «يجب علينا ان نتوجه للسوريين ونقترح عليهم تقسيم الجولان ، وتوطين لاجئيه ، وبعد مفاوضات على مراحل ، يجري تجريد المنطقة وخلق مراقبة متبادلة تجاه المناطق التي تعاد » .

*

هذه باختصار خريطة الفكر الاليآفي ، مستمدة من خريطة او مجموعة خرائط وهمية خرافية ، تسعى وتهدف لخلق خريطة امبريالية اسرائيلية في قلب الوطن العربي ، نتركها للقارىء والتاريخ ليحكما عليها .

ثقافة

ماذا تقول الكلمات ؟

ماذا تقول الكلمات ؟

حين يسقط الجسد على الارض ، ويستقر الرصاص في الفم . ماذا تستطيع الكلمات ان تفعل؟

حين يتحول سلاح النقد الى نقد السلاح ، تتراجع الكلمات لتتحول الى رصاص يبحث عن فاعليته ، خارجا من بحار الدماء التي تنزف داخل جسد التمرد والثورة .

ماذا تقول الكلمات ؟

على أطراف القافلة الفلسطينية التي علمتنا ان الكلمة جسد يخرج منه الرصاص . تتجمع الكلمات لتشهد ان الكلمة سلاح . وان نقد السلاح هو الجزء المتمم لسلاح الكلمات . وان الثقافة فاعلية نضالية ، تخترق حجاب الموت الى الموت نفسه . فكمال ناصر ورفاقه الذين سقطوا وعلى جسدهم يخلط الحبر بالدم ، رسموا للثقافة العربية مجدا نقف أمامه لنتمثل دروسه .

ماذا تقول الكلمات ؟

حين يصبح الادب شكلا من أشكال الموت. صليبا على مدرجات الرصاص نحمل الكلمات ونخترق المدرجات ، وصولا الى شكل الموت . هنا الفعل لا ترقب الفعل . هنا الموت في معانقة ثورية للفرح . هنا يتراجع كل شيء ، ويقف الجسد الملطخ بالحلم الدموي وحده . ويصبح للكتابة مذاق الارض نفسها ، ويلون الدم جميع الاوراق ، حيث تستقر الاقلام في البنادق .

---

* كمال ناصر : **الآثار الشعرية** . اعدها وقدم لها د. احسان عباس .
كمال ناصر : **الآثار النثرية** . اعدها وقدم لها ناجي علوش .
المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت .
الطبعة الاولى آذار ـ نيسان ١٩٧٤ .

عندما نقف أمام ذكرى كمال ناصر ورفاقه ، لا نتساءل عن الموت ، بل عن شكل الفجيعة التي جبلت الجسد بالاوراق واخرجت زمنا جديدا يصل الارض بأجساد الرجال . لذلك حين نقرأ كلمات كمال ناصر نكتشف ان الموت لا يسمح للكتابة بالتعامل مع النصوص كما تتعامل مع الشعر عادة. بل تصبح الكتابة لحظة تأمل للجسد الذي تتناثر عليه الابجدية في مئة احتمال لشكل القصيدة . لا نستطيع ان نتعامل مع كمال ناصر بوصفه شاعرا او كاتبا . انه جسد يؤشر للاحتمالات جميعا ، ويرسم بين لحظة واخرى صرخة نسميها شعرا او ذكريات ، لكنها صرخة لا تكتشف شكل الشعر ، بل تبحث عن شكل الموت . هكذا نصطدم حين نكتب عن آثار كمال ناصر باستحالة اي شكل من اشكال النقد . فلقد ترك القصيدة امكانية وذهب يبحث عن الثورة . تاركا لجسده حرية الصليب .

نفتح الكتابين ونقرأ . تخرج القضية عارية ، ونسمع صراخ الحقد الذي ينفجر :

« أما يعود اللاجئون او ان يموت اللاجئون »

ونستمع الى الجراح وهي تغني ، تكتشف كيف يصبح الموت بابا للوصول الى الارض ، وكيف تمشي قافلة الشهداء نحو الثمار :

« وقل لوحيدي ، اذا زار قبري
وحن لذكري
بأني سأرجع يوما اليه
لاجني الثمر !! »

وعندما يخفت الصوت في مخاطبة حميمية مع الام ، فان المعركة وحدها هي الافق . هي المصير وقد تجمع في زمن اللحظة الواحدة . لذلك يسكت صوت الحنين ويرتفع صوت التحدي :

« صلبت مصيري هناك
هناك بين الشعاب
وألمحه باسما هازجا

يرفرف بين الحراب
مصيري مصيرك بين الحراب
وهذا الذهاب !! »

اذا كان شعر كمال ناصر يتمحور حول الوطن ، فان لهذا التمحور عذابات لحظات الفشل والعزلة . تلك اللحظات التي يستجمع فيها المناضل كل الحنين الى النضال ، طعم المرارة الذي يمتزج فيه صوت العزلة ، بالصبر والالم . هنا يتخلى كمال ناصر عن الكلمة — الصدى ليبحث عن الكلمة الحميمة التي تصل الحزن بالانتظار :

« يا من رأى مظلتي تضيع
تهجرني في موسم البكاء والدموع
تهجرني ،
ومقلة السماء لم تزل
تجتاحني ،
تغمرني ،
بالماء والصقيع » .

يشير د. احسان عباس في مقدمته الى أزمتين كبيرتين تعصفان بهذا الشعر . « أزمة الخضرمة »، و« أزمة الموضوع الكبير » . والواقع ان التعامل النقدي مع هذا الشعر مستحيل ، لاننا نكتشف ان كمال ناصر لم يكن يهتم للانصراف الى العمل الشعري ، لصقل صوته الشعري والاهتمام به . لذلك جاءت قصائده لحظات استراحة تتحلق حول اولوية الممارسة ، فهي شهادة على الجسد الذي ينزف حبا ودما .

في احدى افتتاحيات « فلسطين الثورة » يكتب كمال ناصر مقالا بعنوان « على طريق الشهادة » بعد استشهاد غسان كنفاني « عبرة جديدة يجب ان يعمقها استشهاد غسان في نفوسنا ، وهي ان لا ننتظر الموت والاستشهاد احيانا . بل نمشي اليه ، يجب أن نمشي اليه في كل مكان قبل فوات الاوان وحتى لا نعطش كما عطشنا في أيلول ، وتشرين ، وكانوا على مدار الاعوام نحن ومعنا كل الشرفاء والثوار في العالم ... »

هكذا كانت افتتاحيات فلسطين الثورة . محاولة من موقع المسؤولية الثورية للتشديد على ضرورات العمل الفلسطيني الاولية . الوحدة الوطنية ، ضرورة استمرار الثورة . اكتشاف عبر النضال الثورية لا سيما في فياتنام . وبروحية مسؤولية الكلمة تحولت « فلسطين الثورة » التي كان كمال ناصر يرئس تحريرها الى أداة حقيقية من أدوات النضال .

في القسم الاخير من الآثار النثرية ، نقرأ مجموعة من الصفحات بعنوان « على صدوركم باتون . مذكرات اسير فلسطيني في السجن الكبير » . نتعرف على الشق الآخر من « سداسية الايام الستة » التي كتبها اميل حبيبي ليؤرخ بشكل فني مذهل للاحتلال ، من قبل عرب المناطق المحتلة ١٩٤٨ . هنا ، مع مذكرات كمال ناصر نكتشف القسم الثاني ، الطرف الآخر ، وقع الهزيمة على أهل الضفة الغربية ، والبدايات الصعبة للمقاومة الجماهيرية والمسلحة. نقرأ عن اللقاء بمدن فلسطين وقراها . تلك الرعشة الوطنية التي خلقها الاحتلال في سكان المناطق المحتلة بعد الهزيمة . ونكتشف مع كمال ناصر التجارب النضالية المريرة التي عاشها العرب في اسرائيل ، وعن الروح القومية العالية التي لا تلين ولا تستسلم . الحوار الوحيد الممكن كان ذلك الحوار الذي أجراه كمال ناصر بوصفه معلما في الضفة مع موشي دايان . عندما بدأ دايان جولاته الارهابية المبطنة في المناطق المحتلة . هنا نكتشف ان الحوار كان مقدمة القتال الذي لا بد منه . فالحوار مستحيل كما في قصص كنفاني ، لان القتال وحده والمقاومة الجماهيرية المسلحة هو الذي سيسحق العدو . في السجن الكبير ، نكتشف مع تجربة كمال ناصر شباب الثورة العربية وهو يولد من جديد ، في اصرار الشعب الفلسطيني على رفض الذل والانسحاق . هكذا وببساطة كاملة تصبح الكلمات مجرد اشارات للايصال ، والتركيب يمزج بين الطابع الصحفي السريع وطابع الذكريات الحميمة ، لنتعرف على آلام الولادة الاولى بشكل واضح وبسيط . يخرج الينا البطل الفلسطيني وهو يمسك بالسخرية حين لم يكن هناك بندقية ويجلس على شاطىء حيفا ، ثم حين يلتقي بالنصف الاخر من جسده المزق ، تعود اليه الحياة مبشرة بالقتال الذي يعيد صنع الانسان من جديد .

في « مذكرات اسير فلسطيني » ، نكتشف لماذا طرد كمال ناصر من الارض المحتلة . ولماذا اطلقت الرصاصات في فمه . ونكتشف ان الشعب يستطيع كل يوم ان يجدد شبابه ، لان الثورة قادرة على خلق مسار خاص وجدلية ثورية خاصة .

لم نكتب نقدا ادبيا لآثار كمال ناصر . فالصرخة الحادة لا تبحث لنفسها عن اطر تصب فيها . تخرج هكذا ، عندما تكون الحنجرة مهددة بالانفجار او الاختناق . فيخرج الصراخ عاليا ليؤلف التزاما ثوريا وتوترا قادرا على التمرد .

يرتفع صوت الشهيد فينا ، فنحمل الرسالة ، تصنع الاجساد التي سقطت على الارض ، شكل الرؤيا المستقبلية . فالشعر هنا ، يصبح رسالة مباشرة ، وتتحول الكتابة الى التزام من موقع المسؤولية الجماهيرية المباشرة . فكمال ناصر رسم بكلماته اطار الالتزام ، ثم جاء دمه وجسده ، ليعطي لهذا الاطار حجم الموت .

« يصيح ملء دربنا
يصيح ملء شعبنا
يصيح ملء حشدنا
رسالة الشهيد ... ان ينتصر الشهيد » .

عندما سقط القادة الثلاثة في شوارع بيروت ، كانوا يحملون في دمهم بذرة التجدد . كتبوا بحناجر عشرات آلاف الذين خرجوا لوداعهم قصة الاستمرار والصمود . فهم جزء من قافلة طويلة من الاجساد التي تلتف على الارض وتعيد اليها حرارة العشب وارتعاشة اللقاء . فالقافلة التي تصدرها القادة الثلاثة ورفاقهم تستمر في العطاء وتنتشر لتشمل الارض العربية بأسرها . هنا تتجدد الثقافة فيما يتجدد كل شيء. فرغم كل المحن ، والمصاعب ، يرتفع الصوت العربي ليرسم من داخل الاطار الدموي لوحة الاستمرار والتخطي .

صيادون في شارع ضيق

قبل ان يجتمع ابطال جبرا ابرهيم جبرا في « السفينة » ويشهدوا بشكل تراجيدي لنهاية حلم التطور التحديثي الذي حملته شرائح من المثقفين والبرجوازيين . كان صوته يبحث في شارع ضيق من شوارع بغداد عن تفسخ الطبقة الاقطاعية وضرورة خروجها من المسرح بشكل عاجل . لذلك اختار المؤلف لروايته اطارا محددا بغداد بعد هزيمة ١٩٤٨ . ورسم الدائرة التي تتحرك داخلها أحداث روايته ... شبكة معقدة من الشخصيات تنتمي في غالبيتها الى نفس الطبقة الاجتماعية — الاقطاع — أو زعماء العشائر . وجعل صيغة المفرد التي تجري على لسان البطل ، تغلف الرواية بأسرها ، وتروي الاحداث من منظورها الشخصي. وترك الطبقة الاقطاعية تتفتت من داخلها ، جاعلا من بطله جميل الفران — الفلسطيني المثقف الذي درس في انجلترة وعاد الى وطنه ليجده حطاما وعائلته تحولت الى جزء من جيش اللاجئين — شاهدا من الداخل والخارج على هذه العملية المعقدة . فهو في الخارج ، لانه لا ينتمي الى الآلية الخاصة التي تفتت هذه الطبقة وتجعلها تنهار . وهو في الداخل ، لانه يلعب دور المسرح الثقافي لهذه العملية . ويتحكم كذلك بالتقاط المشاهد التي تعرض أمامنا ، في لوحة بالغة الغنى والدلالات ، من لوحات ادبنا العربي الحديث .

١ — صيغة المفرد والاسقاط الثقافي :

الصيغة الوحيدة التي يستعملها الكاتب في سياق روايته هي صيغة المتكلم المفرد . فتجري الرواية بأسرها على لسان البطل ، رغم ما يتخللها من الحوارات التي تحل هنا محل شريط الذكريات او التأملات الذاتية . رغم ان هذا الشريط لا يغيب بشكل كامل عن سياق الرواية ، فيأتي بشكل سريع ، ليشير الى لحظة لا بد من استرجاعها ، حتى تكتمل دلالات الموقف الدرامي الذي يقودنا اليه الكاتب . ولا يشذ عن هذه القاعدة العامة سوى في لحظتين . **الاولى** حين يستلم جميل الفران رسالة من حبيبته سلافه ، حيث نقرأ الرسالة عبر المؤلف . **والثانية** حين نتوقف لقراءة مذكرات عدنان

---

* جبرا ابراهيم جبرا ، **صيادون في شارع ضيق**، ترجمة محمد عصفور ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى كانون الثاني ١٩٧٤ .

طالب، الشاعر قبل وبعد أن يقتل عماد النفوري والد سلافة ورمز الاقطاع في الرواية، ان هـذا التشديد على الصيغة الواخذة في الرواية بأسرها يحمل في الواقع معنيين :

أ — ضرورة جعل العامل الثقافي — السياسي المتمثل بجميل الفران جزءا من العمل الروائي ، مع احتفاظه بالقدرة على الحركة وعلى حمل وجهة نظر الكاتب نفسه في أغلب الاحيان .

ب — افساح المجال امام الشخصيات الاخرى بالتعبير عن نفسها بواسطة الحوار ، الذي يصل الى حدود الكشف عن نوازع الشخصيات الرئيسية في الرواية ، ويحل دائما مكان الحدث الخارجي الذي يجري على اطـراف علاقة جميـل الفران بالعائلة الاقطاعية التي نشهد تفسخها وانهيارها في نهاية الرواية .

ضمن هاتين الوجهتين يتحرك عاملان اساسيان من عوامل التغيير الذي يصفع المجتمع العراقي في اعقاب هزيمة ١٩٤٨ .

العامل الاول هو **فلسطين** ، بكل ما تمثله من وقع الهزيمة علـى مجتمع لم يتخلص بعد مـن السيطرة الاستعمارية . فلسطين حاضرة هنا في ذكرياتها ، ودلالاتها على استحالة المصالحة مع الغرب الامبريالي « لقد سرقوا مسيحنا ورفسونا في اسناننا » كما يقول جميـل الفران للكاهن . وتتحول فلسطين الى رمز للهزيمة العربية الشاملة. هنا لا يأخذ هذا الرمز مدلولا سياسيا فقط ، بل يتحول الى رمز اجتماعي . ضرورة التخلص من العادات والتقاليـد التي تمنـع مسيرة التقـدم الاجتماعية . لذلك تأتي ليلى — خطيبة جميل في فلسطين — من بين انقـاض بيتها الذي هدمـه الصهاينة ، تخرج من قبرهـا لتتحول الى رمـز اجتماعي كامل : « تلك الليلة حلمت انني رأيت ليلى مرتدية عباءة سوداء كبنـات بغداد ، كنت اتعارك معها يائسا طوال الليل . حاولت ان انزع عباءتها ، ولكنها رفضت ان تنتزع . حاولت المرة تلو المرة الا ان الثوب الاسـود تشبث بجسدها بعناد . فضحكت . ضحكت كما كان من دأبها دائما ان تضحك قبل ان يضع لغم الديناميت اليهودي حدا لضحكها وضحكي » . يتحرك هذا العامل في خلفية الرواية ، بوصفه رمزا صارخا على ضرورة التغيير . لكن جبرا ، لا يقحمه في كل شيء ، بل يترك الاحداث تتراكم لتؤدي بنفسها الى العودة الى هذا العامل .

العامل الثاني هو **الثقافة** . الثقافة هنا بمعناها الغربي الحديث . لكنها تتحول الى صيغة العلاقات الاجتماعية . فقدرة جميل الفران على ترك حياة النزوح مرهونة بكونه درس دراسـة عالية في انكلترة . وسيصبح استاذا في احدى كليات بغداد. وعلاقاته الاجتماعية في بغداد تتوزع في اتجاهين : اتجاه اساسي يتمثل في العلاقة مع سلمى الربيضي وعالمها الذي سمح له بالوصول الى سلافة بصفته استاذا يعطيها دروسا خصوصية. هنا تبدأ العلاقة بالانعكاس الاجتماعي للثقافة ، سلمى مثقفة ، وسلافة تدرس الانكليزية . هذا الانعكاس هو الذي يلعب دور المفجر الرئيسي للعلاقات الاجتماعية . فالمثال الثقافي العقلانـي يفسخ العلاقات داخل الطبقة الاقطاعية ويؤشر الى انهيارها . كما انه يشير الى امكانية اخـرى للنظر الى العلاقـات الاجتماعية ، وللتعامل مع الزمن . ففي الحوار الذي يجريه جميل الفران مع توفيق نجل احد زعماء العشائر نكتشف الاصرار على التعامل مع الزمن بوصفه تحركا سريعا . والرفض القاطع لمفهـوم الزمن السكوني البدائي . واتجاه ثانوي ، يمثل العلاقات التي يقيمها جميل الفران مع شلة مـن المثقفين في بغداد . هنا نكتشف ضرورة التغيير من خلال التخبط امام اكتشاف طرق هذا التغيير . وهنا يأتي المثال الثقافي العقلاني ليتحد مع ضرورة اجتماعية ملحة ، يمثلها تحرك الطلاب ، ومحاولة المثقفين الاندماج بالحركـة الاجتماعية بطـرائق وأساليب مختلفة . وحين نصل الى حرقة الفشل ويكتشف المثقف الانتحار فانه يرتد الى الاقطاعي ليقتله عوض ان يستسلم .

يتوحد هذان العاملان بشكل رمزي في شخصية جميل الفران . فهو الممثل الشرعي الوحيد للهزيمة بوجهها الايجابي . وهو المثقف الغربي الوحيد الذي يجمع احتراف العمل الثقافي بتمثل كامل للثقافة الغربية . لذلك يتزايد دوره كلما توغلت الاحداث في الوصول الى لحظة الانفجار الاجتماعي . فهو حين يصبح الملجأ الوحيد لسلافة بعدمـا رفضت مشروع تزويجها بالقوة وتمردت عليه يتساءل « ما هي علاقاتي بهذه الميلودراما المؤلمة » لكن هذا التساؤل نفسه يقوده الى مزيد من الالتزام بمصير

ابطاله حتى يتوحد هذا المصير بمصير الرسالة التي يحملونها جميعا ، وتتقدم الحركة لتصل الى الرفض الكامل لقيم المجتمع القديم والاصرار على بناء قيم اجتماعية جديدة .

هنا يصبح لصيغة المتكلم المفرد مبررها الحقيقي، لانها تسمح لهذين العاملين (فلسطين والثقافة) بالتوحد ، داخل مسار انفجاري يلعب فيه الوعي (الثقافي) الدور الاساسي المحرك. فالتناقض داخل الطبقة السائدة لا يأتي كانعكاس لصراع طبقي حاد في المجتمع ، بل هو انعكاس للتفاوت بين مستوى تطور الوعي (الثقافة) ومستوى التطور الاجتماعي. ومن داخل هذا التفاوت يحدث الانفجار . أي ان الحركة المركزية في الرواية تفترض الجانب التغييري وحده في الثقافة الحديثة ، وتفترض بالتالي ان هذا الجانب يتناقض بشكل حاد مع العلاقات الاقطاعية. لذلك تستخلص دروس فلسطين بضرورة تحديث المجتمع .

٢ ــ الثوابت وعجلة الحركة :

تضع الرواية على أطرافها ثوابتا تجعل للحركة ايقاع التطور المتوازن . فالحركة الاجتماعية ، التي تتطور في الرواية ، تتوقف عند ثوابت محددة، لتأخذ منها توازنا غنيا يسمح لها بالمتابعة . الثابت الاساسي هنا هو فلسطين . لا تلعب القضية الفلسطينية دورها في الرواية بوصفها الخلفية التي تحدد حجم الحركة فقط . بل يستعين بها المؤلف ، ليسمح لنفسية بطله بالتطور في اتجاه واحد ، نحو الاندماج بالحركة الاجتماعية . لذلك تأتي ليلى خطيبته القتيلة لترمي بظلها على تطور علاقته الجديدة بسلافة « كنت لا ازال أسمع من بعيد التنهدات الطويلة من خلف الباب المغلق، وانتشرت أصابع ليلى الصفراء كالحاجز أمام عيني » . لكن هذه الاصابع لا تلبث ان تكتسب حيوية ولونا لانها تتوحد بجسد سلافة ، وتصبح فلسطين اطار التغيير ومحركه الرئيسي في آن . هذه اللازمة التي تتكرر في سياق الرواية تصل في النهاية الى اندماج البطل الكامل في عملية تغيير اجتماعية معقدة ويخفت صوتها تدريجيا حتى لا تعود متميزة في خاتمة الرواية . كما تلعب أصوات باعة اليانصيب دور ثابت سماعي ، يسمح للفواصل بين حركات الرواية بضبط هذه الحركة من جهة وتقطيعها الى أصوات متعددة مؤتلفة داخل موقف واحد . فالثوابت هنا لا تمنع عجلة الحركة ، بل تؤكدها ، لانها تعطيها شكلا تطوريا لا ينحل بالتوازن الدقيق المفترض في عمل روائي واقعي . بل هو يشحن هذه الواقعية بأفق الاستمرار من داخل الصيرورة . من هنا تصبح الحركة واقعية تتطور بتطور المواقف نفسها ، وتأتي الاحداث لتشكل من ضمن تطور الحوادث نفسها ، انعطافات تصل الى حدود الانعطافات المفاجئة ، (كما في نهاية الرواية عندما تهرب سلافة من منزل والديها الى بيت جميل) . لكن القدرة على ربط هذه الانعطافات بثوابت محددة ، تحفظ للعمل الروائي وحدته التطورية بشكل عام ، بل وتجعل من هذه الانعطافات نقاط تلاق بالتجربة الاساسية التي تحرك العمل الروائي بأسره . فانهيار القيم الاجتماعية ، وتداعي العلاقات الانسانية يسمحان لنقاط التوازن (ذكريات فلسطين ورسالة شقيق جميل عن وضع النازحين وأصوات الباعة) بشد مفاصل الرواية الى اطار اوسع وأكثر شمولا . اطار المعركة العامة مع العدو .

٣ ــ حول مفهوم التغيير :

اذا كان القانون الاساسي الذي يحدد تطور الرواية (قانون التفاوت بين التطور الثقافي والواقع الاجتماعي) صحيحا ، فان مفهوم التغيير يرتبط هنا بسد فجوة التفاوت هذه عبر ثورة اجتماعية كاملة . لذلك يلعب المثقفون هنا هذا الدور الكبير ويجري اهمال أي اطار صراعي آخر . فحين يصف جميل الفران مظاهرات الطلبة والشعب ، فانه يبقى اولا خارج هذه المظاهرات ، ويتعامل معها بالتالي بوصفها أحداثا خارجية . فيصفها وصفا خارجيا مئة بالمئة مهملا كل الآلية النفسية الفردية والجماعية التي تتحكم بالمظاهرات الصدامية . ولذلك ايضا يأتي مفهوم التغيير في درجتين ، النقد، ومحاولة ردم الهوة .

أ ــ **النقد** : يأخذ النقد شكل رفض القيم الثابتة التي لم تعد تجاوب على متطلبات الحياة الحديثة . « قال عدنان مفسرا : نحن نعيش في المدن ولكننا نتبع شريعة الصحراء . والتقاليد القبلية الشريرة تمسك بتلابيبنا . سمعت ما قاله البدوي » . هكذا يبدأ النقد من العادات الاجتماعية ليصل الى المستوى السياسي . فالنضال يفترض العقلانية والتكنولوجيا « قلت هذا لا يقنعني .

اعتمدنا دائما على الرعاع بدون فائدة . وهذا هو سبب فقدنا للجزء الافضل من فلسطين. ان البندقية الواحدة في اليد المدربة ، لافضل من ألف رجل يصرخون بالشعارات في الشوارع » . هكذا يأخذ النقد شكلا شاملا . فهو دعوة كلية لتبني القيم البرجوازية . لا بد من تحديث المجتمع وفرض نتائج هذا التحديث على المستوى الاجتماعي . لكن هذا النقد الذي لا ينظر الى اولوية التفاوت ، لا يتنبه الى المزالق التي يقع فيها . فهي مزالق الديمقراطية البرجوازية التي تصل الى نقطة تجد فيها نفسها موحدة مع الاقطاعية التي ثارت عليها أو تقف في نفس المواقع الفكرية . فجميل الفران ، الثوري ، يستعمل نفس التعبير — الرعاع — الذي يستعمله عماد النفوري — الاقطاعي — في تبرير عدم ارساله لابنته الى الجامعة . « لن اجعل الناس يقولون ان ابنتي قد ذهبت للمدرسة مع حشد من الرعاع » .

ب — الممارسة ومحاولة ردم الهوة : تأخذ عملية ردم الهوة شكلا واحدا . انفجار الطبقة الاقطاعية نفسها ، وقيام مثقفيها بالاجهاز عليها من الداخل . أي ان التناقض « الثقافي » هو المحرك الرئيسي لعجلة التاريخ هنا . هكذا يتحول عدنان المثقف المتحدر من اسرة اقطاعية من مجرد متسكع « بودليري » الى ثوري حقيقي حين يقوم بنفسه بقتل عمه عماد النفوري ، مفسحا المجال أمام تتابع حلقة الانفجار التي تصل الى مقاومة يائسة يقوم بها أحمد الربيضي زوج خالة سلافة لتفادي زواج سلافة — المسلمة — بجميل — المسيحي . لكن هذه المحاولة تتحطم أمام انهيار العائلة الاقطاعية نفسها . فسلمى زوجة الربيضي هي نموذج هذا الانهيار ورمز لجميع تمزقاته .

هكذا يأتي ردم الهوة من داخل انفجار العلاقات نفسها ، ويتحقق التغيير من داخل المفهوم الثقافي الذي تمثله علاقة جميل بسلافة .

٤ — لعبة الشعر :

« أسرع ، أسرع ، أسرع ، والا فاتك الركب ، فاتك الحب ، الحرية ، العذاب . أسرع ، أسرع. انها تفوتك . أقول لك انها تفوتك » . هنا في يوميات عدنان طالبا ، يقع الشعر على أطراف الرواية . أي انه لا يدخل في صلب حركتها المركزية الا من الاطراف . اي بعد التخلي عن الصيغة الرئيسية التي توحد السياق الروائي ، والسماح للتجاوز بأن يأتي هنا معبرا عن لحظة التفجر المركزي في الرواية . هنا يصل الصوت الثقافي الى ذروته المأساوية . المأساة بأسرها ، عدم الفعالية ، الوصول الى حافة الانتحار ومحاولته فعلا ، تؤدي الى سلسلة من التأملات الشعرية التي تدين ممارسة اجتماعية بأسرها ، وتطرح بدائلها لحظة فشل الانتحار امام غريزة الحياة . فتكبل الحياة دورتها ، لتصل الى التضاء الكامل على معوقات التقدم . تبقى لعبة الشعر خارج بناء الرواية . نتعرف على الشعراء وعلى مشاكلهم الاجتماعية ، لكننا ننتظر حتى نهاية الرواية حتى نقرأ شيئا من نتاجهم الشعري . هكذا يحافظ جبرا بشكل دقيق على مستلزمات بناء رواية واقعية — فكرية . أي ان البناء الروائي الواقعي يأتي لخدمة حاجة فكرية ، شخصيات فكرية . وهنا يلعب الحوار الدور الرئيسي . فالحوار هو مفتاح فهم الرواية . فنحن لا نكتشف الشارع الضيق من خلال الاحداث وحدها ، بل بواسطة الحوار الذي يجري على ألسنة شخصيات الرواية ، فينتقل الحدث من حدود السيكولوجية الذاتية الى عمومية الحوار الشامل . فالبناء الواقعي الذي لا يسمح للغة باكتشاف منطقها الخاص ، يقوم باخضاع شامل لجميع عناصر الرواية ، حتى نصل الى لحظات التحول التي يبشر بها بطل الرواية .

تأتي ترجمة رواية « صيادون في شارع ضيق » التي كتبت أساسا بالانكليزية وصدرت عام ١٩٦٠ ، ضرورية لدراسة تطور الرواية العربية . « فهي ملك الادب العربي قبل ان تكون ملك اللغة التي كتبت بها » كما يشير الى ذلك مترجم الرواية محمد عصفور . اذ انها تقع وسط هم البحث عن محركات التغيير الاجتماعي الذي تحاوله روايتنا العربية منذ ولادتها . لذلك تأتي الترجمة العربية لتضيء جانبا هاما من تطور البناء الروائي العربي ، وتسمح بالكشف عن مفاصل التجربة التي تحاولها روايتنا العربية .

تتلخص الاشكالية العامة التي تطرحها هذه الرواية في مسألتين :

١ — كيفية فهم عوامل التغيير الاجتماعي . يأتي هنا البناء الروائي الواقعي ، ليصف لنا حياة طبقة اجتماعية في علاقاتها الخاصة ، مركزا على

السلوك الاجتماعي والاخلاقي . اي ان واقعية جبرا لا تصل الى نهايتها لتكشف لنا علاقة هذه الطبقة ببقية الطبقات الاجتماعية الا تلميحا وبشكل سريع . مما يؤكد الفرضية الاساسية التي ذهبنا اليها في اعتبار آلية التغيير عند جبرا آلية ثقافية بشكل اساسي . وهذا ما يعود فيؤكده لنا الدكتور فالح في انتحاره على ظهر « السفينة » . هكذا تتلخص الواقعية بالافكار والمواقف . ويخفت صوت الفجيعة الفلسطينية في عملية اندماج سريعة بالتغير الاجتماعي .

٢ — الشخصيات المتعددة النوازع ، والتي نكتشف انها تنتمي في آخر تحليل الى نفس الطبقة الاجتماعية . لكنها تنفصل عنها في مسار تدمير الذات ، داخل تفسخ شامل. نكتشف قدرة الروائي على تحريك عدد كبير من الشخصيات في تواز مذهل مع تطور احداث الرواية .

في خاتمة الرواية ، يرتفع صوت جميل الفران ملخصا : « خلال الاشهر الطويلة التي تلت ، وبينما كنا ننتظر ، وبينما كان امثال عدنان وحسين وتوفيق يقذفون بأنفسهم على صفوف من السيوف السياسية والاجتماعية ، كانت الحدآت والغربان تطير أسرابا ناعقة فوق غياض النخيل التي تعمر ارضا تتجدد ببطء يوما بعد يوم » .

هكذا ، تصبح الخميرة الفلسطينية عامل تغيير هادىء وبطيء . لذلك يتراجع الشعر امام الواقع، يخفت صوت البحث التشكيلي ليرتفع مكانه صوت الحوار العقلاني . وتكتشف الرواية نفسها ارض ممارسة ايديولوجية ، لكنها هنا ، لا تسمح لجميع التناقضات بالبروز ، لانها خاضعة لنطق مسبق محكم الاغلاق .

عندما نعيد قراءة جبرا نكتشف بعده عن خط الرواية الفلسطينية الملتزمة (كنفاني ، حبيبي) ، فهو يحمل التزاما من نوع خاص . لذلك يغلب عنده الطابع الثقافي على كل شبكة الممارسة النضالية ، ويخفت صوت اللاجئين امام أصوات الطبقات القديمة .

البحث عن
زمن جديد

يقيم حيدر حيدر في زمنه الموحش ، حالة زمنية جديدة في تركيب الرواية العربية . فهو لا ينطلق من الذات ليتوقف عندها ، او ليجعلها محورا ترجسيا للعلائق مع الاخرين ، بل يمد الذات على مساحة شاسعة من العلاقات والخيبات ، حيث تصبح الانا ، مكانا نسمع في داخله صوت ارتطام العالم بالموت . شبكة من العلاقات تبدأ بالأنا (الراوي (وتمتد لتشمل منى وميساليا ، امينة، سامر ، وائل حتى نصل الى لحظة الانفجار مع صوت مناحيم بيغن الذي يرتفع ليمزق اوصالنا الاجتماعية ، لنصل في النهاية الى مراثي ارميا ومراثي الزمن العربي .

الشعر والحدث الروائي

تبدأ الرواية بالشعر ، صراخ يصل لحظة الموت بامتداد كاسح على جسد الآخرين . « ها هم قادمون من الجبال والسهول زحفا باتجاه المدن . في عيونهم غضب ، وعلى جباههم غبار ومجد منتظر . في الريح تخفق راياتهم وأصواتهم الجليلة تملأ سمع العالم ... مباركة الفقراء والرعاة ، والمنبوذين والحفاة ، وجميع الذين هبوا على صوت التاريخ فيموا شطره فجر ذلك اليوم المدهش » . وتنتهي في لحظة شعرية كذلك ، حيث ينحل كل شيء في زمن الهزيمة : « حزينا وعميقا أتاني صوت صمت الجرح :

للحزن وقت

وللرعد وقت » .

وبين هذين الحدين ، تمتد اللغة الشعرية بشكل دائري ، لتقوم بالتقاط لحظة الحزن كاملة في علاقات مجموعة من المثقفين ، يوحدهم زمن موحش، يمتد على اجسادهم ، يخترقها ، ويجعل للفشل

---

* حيدر حيدر : **الزمن الموحش** ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٣/١٢/١ .

طعم الجنس الذي تحترق في داخله شهوة الحياة . شهوة الحياة هي مفتاح اللحظة الشعرية في رواية حيدر حيدر . حيث تمتد الى ما لا نهاية . تهز البرك الآسنة ، تحرك الخفايا ، ثم حين تلملم اغراضها لتمشي ، نكتشف اننا لم نكن خارج لحظة واحدة محددة . فالزمن المتداخل الذي تصيغه أحداث الرواية، يعطي شعورا بالرتابة الصحراوية. تتحرك الرغبات في رمل لا تصله مياه البحر المالحة . لكن الزمن عوض ان يتثاقل ليلف دفعة واحدة الماضي والمستقبل فانه يقع في لحظة حاضرة . لذلك كانت الكتابة الشعرية انفجارا داخل موقف واحد . أي انها لا تدعي لنفسها قدرة على صياغة حدث روائي داخل سلسلة من المواقف . بل تكتسفي بالمواقف ، تكسرها من داخلها في زمن سيكولوجي متحرك . نحن امام مجموعة من الاحداث . علاقات اجتماعية . خواطر . لكننا حين ننتهي من قراءة الرواية ، ونحاول القبض على احداثها لنستعيدها، تفلت الاحداث من بين ايدينا ، ولا يبقى سوى الصوت الشعري الذي يوحد ازمانا متداخلة في انشداد كامل نحو الداخل. لا هدف للحدث الروائي سوى الوصول الى أحد امرين : الحلم او الكابوس . لذلك لا يعلق في الذاكرة سواهما . ونعيد نحن صياغة هذا الحلم او الكابوس في حياتنا اليومية . هنا يقفز الشعر حاملا لغة الدلالات ، ثم ينكسر امام الدلالات نفسها ، أي لا يبقى من الشعر سوى دلالاته وتسقط اللغة وحيدة في الخارج . نحن مع حيدر وابطاله في عالم غريب من الرموز والدلالات . ننساق خلف الحلم ، ثم حين تأتي العناصر الواقعية التي تلتقطها الرواية من احداث سياسية عشناها يفلت الحلم من أيدينا ونبقى في كابوس مرعب ، تعتصره شهوة الحياة . « في الحالة النواسية بين الشهادة والانسحاب كنت أتع » . ويصير العربي « في خسر » .

داخل الموت

هذه العلاقات التي تجعل من الحدث الروائي ، مجرد صدى للشعر ، تقوم بنقلنا الى داخل الموت، حيث نعود الى عملية اكتشاف ذاتية حادة : « العربي مصاب بعقدة استخلاب الالم » . ثم حين نصل الى فلسطين ، نستمع الى رؤيا الضحايا :

« وقلت بسرعة : انك احد ابطال فلسطين

وقال : بل قل أحد الضحايا

وهمهمت : ولكن ما الفائدة » .

هكذا نتعرف على علاقات الضحايا وهي تتلمس الافق ، وسط دخان كثيف من الشعارات الكاذبة . وتتوالى الدوائر . والناس في داخلها يبحثون عن نقاط ارتكاز ، لا نجدها خارج علاقاتهم ببعضهم . أي تتسع هذه الدوائر دون ان تتكسر فيضيق الخناق . وتتحرك الاحداث برتابة حتى تصل الى سكونية كاملة في نهاية الرواية . لا يتداخل الزمن من أجل الولادة ، بل يتداخل كما في لحظة الموت . هنا تقع الرواية بأسرها . الخيبة كاملة تجثم بجسدها ولا تتزحزح ، لذلك لا قيمة للزمن . القيمة لسيكولوجيا الخيبة التي تنسحب من منى الى أمينة ، وتصل الكبت بالعجز ، فيتجمع الامل الثقافي بأسره حرقة .

ماذا يقع داخل هذا الزمن الميت سوى الموت نفسه ؟ وما قيمة العلاقات التي لا تستطيع الخروج من جدار الموت ؟ قيمتها في وجودها نفسه . لا قيمة خارج هذا المنطق الموحد . وأخيرا يصل البعد الروائي تاريخنا بسكونية الحاضر ، عند هذه اللحظة ، يتشقق الشعر ، ويبدأ في الامتداد حتى يسلب اللحظة فجائيتها .

المدى الطويل

يكتب حيدر حيدر على مدى شاسع ، لا يضغط اللحظة ، بل يتركها تنساب بين الاصابع . فيتكرر الحدث الواحد بصيغ مختلفة . وتتكرر المواقف . ويدخل الملل ركانا ليس له من حيث المبدأ . هذا المدى في الكتابة يحمل موقفا ، يكرر ، وليس النقد هنا . لكن التكرار حين يفقد معناه الرتيب ويصبح مجرد رتابة ، فانه يسلب رواية الموقف موقفها نفسه . ويجعلنا نضيع داخله متاهة من الاحداث التي يمكن حذف بعضها دون الاخلال بالرؤية الواحدة التي تجعل من هذا العمل رواية تجدد في صياغة الحزن والشهوة .

يلعب التكرار في بداية الرواية ، دور القدرة على طي المواقف داخل الانا . لكن حين يصبح سمة عامة ، يعيق الجانب الاخر من الرواية . جانب الحركة الخلفية ، الحركة الواقعية ، التي تتجاوز الزمن السيكولوجي. فلو تحرك هذا الجانب بفعالية اكثر ، لاستوعب الحركة الرتيبة وقعرها في آلية واقعية مركبة . لكن اعاقة هذه الحركة في

ظل كابوس الصراخ الشعري وحده ، جعل من الدوائر عالما ذاتيا ، شهادة شعرية . لكنه حرم العمل بأسره من القدرة على التكامل . ورغم ان حيدر يتوقف في بعض اللحظات ليستعمل التضاد والتوازي (الكبت الجنسي والكبت السياسي) لكنه حين يقف عند التضاد والتوازي ولا يخترقهما الى منطق الحركة ، فانه يسرق من الموقف في الرواية قدرته على الامتلاء .

مع حيدر حيدر ، تنطلق التجريبية من القصة القصيرة والشعر لتصل الرواية بجدارة . نحن لسنا أمام رواية واقعية مشوهة — نصف واقعية او ربع واقعية — بل نحن امام سياق جديد . محاولة لبناء الرواية من داخل اللحظة الشعرية نفسها . هذه المحاولة هي التي جعلت للقصة القصيرة مدى القدرة على التجاوز . وهي هنا تفتح للرواية العربية منافذ تعبيرية جديدة . أي ان الانعطاف الهائل الذي يفرض نفسه على القصة القصيرة ، ينتقل الان الى الرواية مع محاولة اختراق جديدة ، تساهم في تأسيس بداية ممكنة للرواية العربية .

في قمر رواية حيدر حيدر ، تجلس فلسطين ، الحرب ، وهي حين تبقى خلفية للرواية ، تؤشر للمزاوجة بين الفعل المغير والواقع الموضوعي ، ولن تتكامل هذه المزاوجة الا بمزيد من الايغال في التجربة ، ومزيد من التخلي عن المواقف الاسقاطية. حيث تبلور التجربة الجديدة نتائجها ، وتكتشف بالممارسة الابداعية نفسها القدرة على التجاوز وانتاج رواية عربية جديدة ، تشارك في بلورة البحث عن اطارات ثورية ، من ضمن عملية البحث الشاملة التي تفجرها صراعاتنا الوطنية — الطبقية.

مواقف

بعد توقف عن الصدور دام حوالي سنة كاملة . أصدرت مجلة « مواقف » عددها الجديد ٢٧ ، واضعة نفسها في عودتها الى الصدور، دوريا ، داخل صميم المشكلات التي تعصف في حياتنا الثقافية . أي ان المجلة كما يقول ادونيس «ليست مؤسسة او تنظيما ، انها مناخ تلتقي فيه الطلائع ، الفنية بخاصة والثقافية بعامة ، لكي تقول ما لا تستطيع قوله في أي مكان آخر ». ضمن هذا المناخ الثقافي الطليعي ، تتعدد المواقف وتتصارع على أرض الحوار الديمقراطي المعلن . وهذا يسمح للمشكلات الاساسية بالبروز والتبلور . ان محاولة القاء نظرة سريعة على محتويات العدد ، تسمح لنا باكتشاف ظاهرتين متلازمتين .

١ — الظاهرة الاولى التي يمكن ان نسميها الهم الفلسطيني او الالتزام الثوري العام ، والتي تظهر واضحة في سلسلة المقالات القصيرة بعنوان « حرب تشرين ، ما قبل وما بعد » . شارك في كتابتها ، سمير الصايغ ، عصام محفوظ ، مهدي عامل ، زاهي شرفان ، عباس زكي ، ناهدة الدجاني وحليم بركات . هنا تتعدد المواقف والاجتهادات والرؤى الفكرية والثقافية ، لكنها تلتقي جميعا عند قاسم مشترك هو البحث من ضمن واقع الحركة الثورية العربية المعاصرة ، عن المجاري الرئيسية التي يسير فيها الواقع وعن حركة الصراعات الوطنية والطبقية التي تحدد أشكال هذه المسيرة .

٢ — الظاهرة الثانية التي تتمثل في خط «مواقف» الفكري والثقافي العام ، هذا الخط الذي تمثله تعددية الاهتمامات وتعددية المناهج الفكرية التي تبلور هذه الاهتمامات في دراسات وبحوث نظرية وتطبيقية ، تعالج المسائل الاساسية في ثقافتنا العربية، الصورة الشعرية ، المسرح ، اعادة النظر في تقييم الثقافة العربية الحديثة ، تجتمع لتشكل ارضا لصراعات ايديولوجية حادة ، يجمعها منبر ديمقراطي ، وارادة للحوار ولاستخلاص النتائج المترتبة على هذا الحوار وتحمل مسؤولياتها.

في صلب هاتين الظاهرتين ، تنمو الممارسة نفسها . اي الانتاج الثقافي ، شعر ، رواية ، قصة ، لتؤكد على طابع اساسي ، هو الطليعية في طرح المسألة ليس فقط تحت مجهر الممارسة النظرية ، بل داخل الانتاج نفسه . لذلك نتعرف على صوت شعري جديد ، عباس بيضون ، يمسك

باللغة ويجعلها نشيدا ثوريا يتداخل مع صراعات جماهيرنا . لا يقف على شرفة الاحزان ، بل يقف داخل الارض التي تسيل عليها الدماء . في نبرة شعرية تجمع البساطة الى الرؤيا المتحركة لتصبها في بيان شعري ثوري . كما نتعرف على الطاهر بن جلون ، في روايته « حرودة » ونستمع الى شكل يمكن ان يتخذه الصوت الثقافي في المغرب ، ونجلس مع ريتسوس داخل آلام الشعر نفسه .

ليس هناك ظاهرة ثقافية تستطيع ان تعزل نفسها عن ارض الصراعات الواقعية . فالممارسة الثقافية ، هي ممارسة للصراع الطبقي ، داخل المستوى الايديولوجي . اي أنها نقل وتنمية للصراعات التي تجري على ارض الممارسة الجماهيرية نفسها . من هنا تتحدد أهمية أي منبر ثقافي في قدرته على ان يكون أحد أطراف هذا الصراع ، أو معبرا عن أكثر من طرف واحد . و « مواقف » كما تطرح نفسها في همها الفلسطيني (السياسي) والثقافي ، تريد ان تكون ممثلة لاكثر من طرف واحد . انها مجموعة من المواقف التي تمثل اطرافا طليعية ديمقراطية وثورية منخرطة في الواقع وفي صراعاته (هذا لا يقود الى التبسيط والى الوصول الى دراسة تمثيلية الاحزاب السياسية هنا). لكن الحوار الايديولوجي والثقافي، لا يمكن ان يجري هكذا بلا ضوابط تقوده الى تحديدات أكثر عينية وواقعية . أي ان ايصال النقاشات ووجهات النظر الى نهايتها المنطقية ، من خلال اعادة تقييم شاملة لثقافتنا العربية هي التي تقود من ضمن اشكالية البحث نفسه الى تحديد صارم للمناهج المختلفة وتبرر بالتالي الممارسة النظرية والادبية ، بوصفها ليست ترفا او نخبوية تستعين بالورق لتبرر عزلتها . بل هي في الواقع ممارسة نضالية وثورية، لانها تشارك من داخل موقعها نفسه في صياغة الاسئلة الاكثر جذرية من ضمن محاولة الاجابة عليها .

ان المنبر الثقافي ، الذي يضع نفسه في صلب الهم الفلسطيني والتغييري، بوصفهما اطارا لعملية واحدة ، هي الثورة العربية ، يبتعد دائما عن الكلام المرسل الكثير ، الذي يغطي حياتنا الثقافية، بركام التنظيرات النجة ، التي لا تجد أسسا نظرية تستند اليها ، فتبقى معلقة في فراغ ثقافي واسع ، تسمح بها خفة في العمل لا يفسرها سوى الغياب شبه الكامل للعمل العلمي الجاد ، الذي لا يمكن ان يجد طريقه في البلاد التابعة في المؤسسات « العلمية » التي لا وجود لها خارج شكلها الرمزي الحالي ، لذلك لا يتطور هذا البحث ويخترق ركام الورق والكلمات الفارغة الا داخل العملية الثورية نفسها . هذه العملية لا تتوقف ابدا . تخفت او تتراجع في بعض الاحيان ، لكنها تبقى المحرك الوحيد لعجلة المجتمعات البشرية . من هنا ضرورة ايجاد وخلق منابر ثقافية جدية ، تستطيع استيعاب التجربة الواقعية لا سيما على مستوى الاداب والفنون والعلوم الانسانية . من هنا تنبع ضرورة « مواقف » بوصفها احد المناخات الممكنة لتبلور هذه العملية المعقدة . ومن هنا ضرورة السير بالعملية الى نهايتها المنطقية . التحديد الصارم ، حتى لا يكون الانتاج الثقافي في فراغ ، بل داخل الثورة نفسها . وكجزء اساسي وفعال من الصراعات الطبقية — الوطنية التي تحدد مسيرة المجتمع العربي .

الادب والمعركة

لقد كانت ولادة اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ضرورة من اجل ايجاد هيكل تنظيمي، يضم في صفوفه الكتاب والصحفيين المرتبطين بالثورة من ضمن ضرورة ايجاد الاشكال التنظيمية الجماهيرية المرتبطة بحركة المقاومة . من هنا كان نشر ابحاث ومقررات هذا المؤتمر ضرورة هامة . لانها تحمل سمة التوجهات الاولى التي وضعها هذا التنظيم الجماهيري .

ان الالتزام الاساسي ، المبدئي والسياسي ، بأهداف الثورة الفلسطينية ، وبضرورة تصعيد النضال والمشاركة فيه ، هي السمة الرئيسية التي تطبع وثائق المؤتمر بطابعها . وهذه النقطة الايجابية

---

* اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين : **الادب والمعركة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، كانون الثاني ١٩٧٤ .

المبدئية ، يجب ان لا تحجب ضرورة مناقشة المسائل الفرعية والتي تدخل هنا ضمن المهمات الاساسية التي يضعها اتحاد الكتاب على نفسه . بوصفه شريحة اجتماعية ، تساهم من خلال الحركة الثورية في الوعي الجماهيري العام. وفي الانتاج الايديولوجي الذي يقوم به الكتاب عادة . ورغم العوائق الكثيرة والصعوبات التي جرى تخطيها ، فان ضرورة مناقشة محتويات وثائق المؤتمر ، تتأكد من ضرورة اخضاع ممارساتنا الفكرية للمناقشة الواسعة ، لان المناقشة الديمقراطية وحدها هي التي تفسح للفكر الثوري ، مجالا واسعا للنمو ولكسب مواقع جديدة .

لذلك فاننا لن نناقش الموضوعات التنظيمية والمهنية والسياسية ، على أهميتها البالغة . لكننا من خلال الالتزام بأطروحات الحركة الثورية الفلسطينية الاستراتيجية ، سوف نحاول القاء بعض الاضواء على الموضوعات الثقافية او الابحاث التي قدمت الى المؤتمر .

تبدأ الابحاث بدراسة د. نادرة السراج « سميرة عزام في ذكراها الرابعة » . والدراسة محاولة للتعريف بالقصاصة الفلسطينية وبمساهمتها على المستويين الادبي والسياسي ، مع تركيز على تطور القصة القصيرة في أدب عزام . والواقع ان هذه الدراسة تقوم بسد نقص كبير ، لانها تعرف بشكل واضح على جزء هام من الادب الفلسطيني ، بقي غائبا عن الكثير من الدراسات النقدية . لكن د. سراج كانت تستطيع ان تضع انتاج عزام داخل سياق القصة القصيرة العربية والفلسطينية ، حتى نستطيع من داخل اللوحة العامة ، اكتشاف موقع سميرة عزام في أدبنا المعاصر . ورغم هذا النقص ، فان الدراسة تبقى وثيقة هامة ، تصلح ان تكون أساسا لدراسات نقدية لاحقة ، تقوم بعملية تبويب الادب الفلسطيني وتقييمه بشكل عام .

ثم تأتي دراسة أحمد خليفة « عالم القضية الفلسطينية في أدب غسان كنفاني » ، ليرسم لوحة بيانية عن تطور أدب كنفاني ، الذي يرافق تطور القضية الفلسطينية في انعطافاتها المختلفة . وهذه الدراسة هي جزء من الملف الذي نشرته « شؤون فلسطينية ١٣ » عن أدب كنفاني بعد استشهاده .

واخيرا تأتي أكثر دراسات المؤتمر أهمية واثارة للجدل « الادب والفن في معركة التحرر الوطني » التي كتبها ناجي علوش . ان طموح دراسة علوش هو الوصول الى اطار مبدئي عام لدور الادب في حرب الشعب الوطنية . لذلك يبقى البحث عاما وغامضا في سمته الغالبة ، رغم انه يحاول الوصول الى ثلاثة مقاييس معيارية :

١ — المقياس الاول هو اطار عام للنظرة الماركسية الى الادب ، مفهوم الانعكاس ، مفهوم كون الادب والفن معبران عن الصراعات الاجتماعية ، فهناك أدب الاسياد وهناك أدب العبيد . ثم يصل الى نتيجة العلاقة الوثيقة بين الادب والفن والسياسة . « لان جبهة الادب والفن جزء اساسي من الجبهة السياسية الشاملة » .

٢ — ثم ينتقل الباحث الى تحديد المعركة على الصعيد السياسي على أساس ثلاث مهمات : معركة ضد السيطرة الاجنبية ، معركة ضد الابادة القومية ، معركة من أجل الاستقلال والوحدة والتقدم ، تصب هذه المهمات الثلاث في المعركة الاساسية او المركزية التي هي الصراع ضد الصهيونية والامبريالية المتمركز في القضية الفلسطينية . يسمح هذا التحديد السياسي بالانتقال الى نمذجة سريعة للثقافة العربية في مراحلها المختلفة . وهنا تغلب العمومية على التحليل بشكل واضح . فيعطي ناجي علوش صورة سريعة للتطور العام للثقافة العربية منذ محاولات التتريك مرورا بالغزوة الاوروبية الغربية وحتى السيطرة الامبريالية الاميركية . تفترض هذه النمذجة ثلاث مهمات : أ — معركة ضد السيطرة الثقافية الاجنبية . ب — معركة ضد العدمية القومية . ج — معركة من اجل ازدهار الثقافة .

٣ — بعد هاتين المقدمتين ، نصل الى دور الادب والفن في المعركة لنكتشف ثلاثة ادوار : أ — **التعبئة الثورية** : بوصفهما محرضين ومعبئين . ب — **خلق الرأي العام** . ج — **تكوين الوعي** . ترتبط هذه الادوار الثلاثة بمهمتين : الالتزام . « انه ليس التزاما تجريديا ولا عائما . انسان هذا الالتزام معروف ومحسوس وقضاياه قضايا سياسية واجتماعية يعيشها مجتمع معين في مرحلة تاريخية » . الالتحام بالجماهير أي الالتزام بقضاياها اليومية والمصيرية . ثم نصل على اساس هذا الدور الى ما يسميه علوش بالمدرسة **الواقعية**

الثورية . تنمو هذه المدرسة داخل الكفاح الوطني وهي تعتبر **المقياس السياسي** ، مقياسها الاول في الحكم على الادب والفن . وتتحدد مواقفها من التراث بضرورة تمثله والاستفادة من ينابيعه . وتؤكد اخيرا على كون الالتزام مصدرا لانتاج أدب وفن خالدين .

حاولنا ان نقدم تلخيصا شاملا لاهم الافكار الواردة في بحث ناجي علوش ، والتي تمثل في الواقع تيارا فكريا ادبيا لا بد من الوقوف عنده قليلا .

١ ــ الواقع ان المنطلقات الاساسية التي يفترضها هذا البحث صحيحة من حيث المبدأ . ولا تزال هذه المنطلقات تخوض صراعات حادة من اجل دحر المفاهيم الميتافيزيقية والبرجوازية في ميداني النظرية الادبية والممارسة الادبية والفنية . غير ان ميدان معركة هذه المنطلقات ، ليس التحليل العام ، بل النقاشات الواسعة التي في تعاملها مع موروثنا الثقافي ، ومع الانتاج الادبي والفني الحالي ، تستطيع من خلال الالتزام الثوري انتاج تحليل تفضيلي صحيح يصلح ان يكون مقياسا نقديا . اي ان المنطلقات المبدئية وحدها لا تكفي ، لانها تسمح بأكثر من تفسير على ساحة مستوى نظري غير دقيق وغير محدد . من هنا كانت ضرورة نقل هذه المنطلقات الى ساحة التاريخ الثقافي العربي والممارسة الحالية ، لاغنائها وتوسيعها .

٢ ــ على ضوء الملاحظة الاولى ، فان نمذجة تاريخ الثقافة العربية الحديثة تصبح عملية بالغة التعقيد . فالعلاقة بين تطور المستويين السياسي والاقتصادي من جهة وتطور المستوى الثقافي الايديولوجي ليست علاقة تساو او توازٍ ، بل هي تحمل جميع سمات التطور المتفاوت . ويعود هذا الى طبيعة التطور العربي الذي جرى من خلال الارتطام بالكولونيالية اولا ومن ثم بالامبريالية ، وتطور مفهوم المهمات من الحفاظ على التراث القومي وخاصة اللغة الى محاكمة هذا التراث على ضوء حاجات التغير الثوري . وهذا يعني ضرورة دراسة تطور نشوء شرائح المثقفين في المجتمع العربي . تغير المفهوم من علماء الى مثقفين مرتبطين بجهاز الدولة (محمد علي) على المنهجية الغربية . ثم تعددية النشوء باختلاف انماط واساليب المواجهة مع الاستعمار وانحلال جهاز الدولة الذي حاول محمد علي اقامته في مصر . ان دراسة هذه العملية المعقدة وفرز نتائجها الكاملة ، تسمح بنمذجة للتيارات الثقافية العربية ، اي ان ادانة هذه التيارات لا يمكن ان تتم من خارج فهم مسار عملية التطور هذه وصولا الى مهمة التصدي للغزوة الاسرائيلية الاميركية .

٣ ــ وهذا يعني ان المقاييس النقدية للممارسة الادبية والفنية لا تأتي الا من مسارين مؤتلفين :

أ ــ التطور العام للمفاهيم العلمية التي يعاد انتاجها على المستوى الثقافي ــ الادبي . هذا التطور هو في بلادنا التابعة ثمرة علاقة تطور حركة المثقفين بالمستوى السياسي النضالي . اي لا يمكن ان نبحث عنه خارج الممارسة السياسية اساسا . وهذا التطور يعكس نفسه على الممارسة الادبية التي تعود بدورها لتشارك في صياغته .

ب ــ الاشكال المختلفة التي يأخذها الادب والفن . هذه الاشكال ، لا تأتي بشكل اعتباطي . انما هي ثمرة التعامل المعقد مع الممارسة الادبية والفنية نفسها . من هنا فان المقاييس النقدية لا يمكن ان تسقط من خارج هذه الممارسة ، والا تحولت الى مجموعة من المفاهيم العامة التي تريد احداث ثورة في الشكل الادبي دون ان تجد الارض التي تقف عليها . فالتطور العام في الادب العربي الحديث (استحداث الرواية والمسرح) لم يكن فقط نتيجة ارادية لاستعارة هذه الفنون من الغرب . بل جاء كذلك تلبية لحاجة موضوعية (توسع المدن ، التعليم ، العقلنة ...) التي لولاها لبقيت الرواية معلقة في فراغ التقليد . من هنا فان تجاوز الممارسة الادبية والفنية لا يتم الا داخل هذه الممارسة نفسها .

تقودنا هذه الملاحظات الى التوقف عند مفهوم المدرسة الواقعية الثورية . اذ انه كمفهوم نظري يبقى بالغ الغموض . أي ماذا يميزه نظريا عن « الواقعية ــ الاشتراكية » سوى استبدال المعطى الطبقي بالمعطى الوطني . هذا الغموض الذي يرافق مفهوما نظريا جديدا يعامل بسرعة بالغة ، ينسحب على نمط الممارسة الادبية التي يفترضها . فمن هم الممثلون الادبيون لهذا المفهوم ؟ اذا كان هناك من تطبيق انتاجي لهذا المفهوم فان المناقشة تصبح أوضح ونستطيع من خلال النماذج الادبية نفسها دراسة ملامح هذه المدرسة . غير ان الدعوة التي

يحملها هذا المفهوم تصبح خطيرة جدا اذا لم تأخذ بعين الاعتبار مسألتين هامتين :

١ — علاقة الادب والفن الثوريين بالجماهير لا يمكن ان تتم خارج النضال الثوري . وهذا يعني ان آلية هذا النضال الخاصة ، سوف تفرز وعيا متقدما لا يستعير الثقافة « الشعبية » الا ليقوم بنقدها واعادة انتاجها داخل منطق رؤيوي مستقبلي . هذا يعني ان النتيجة المباشرة للثقافة الطليعية لا تأتي بسهولة او حتى بشكل مباشر وواضح . بل تتداخل بمهمة اعادة النظر بشكل شامل بالممارسة الادبية المعاصرة وعلى ارض المهمات الثورية .

٢ — يفترض النضال الايديولوجي صراعات محددة داخل بنية الايديولوجية السائدة نفسها . فالايديولوجيا السائدة تحمل داخلها جميع تناقضات المجتمع وان كانت تقوم بعملية تنظيم لهذه التناقضات في سبيل تغليب مفهوم عام للصلح الاجتماعي الذي تسيطر عليه الاتجاهات الرجعية بشكل عام . لذلك فان النضال من اجل تحليل هذه التناقضات وتفجيرها من خارجها ، يصبح مهمة نظرية وعملية في آن . اي ان الانتاج الايديولوجي الثوري في ميدان الادب والثقافة بشكل عام يستطيع من خلال اعادة محاكمة الاشكال الايديولوجية السائدة اي من خلال النقد ان يقوم بانتاج اشكال ممارسته الخاصة . من هنا فان دور الادب والفن على مستوى شرائح المثقفين يبقى بالغ الاثر لانه ينعكس بشكل مباشر على الممارسة العملية التي تقودها جبهة وطنية مفترضة يلعب فيها المثقفون في المجتمعات الكولونيالية والتابعة دورا هاما . فتثوير الثقافة لا يؤدي الى الابتعاد عن الجماهير ، لانه يفترض تثويرا في وعي الجماهير من خلال اعادة انتاج تجربة الجماهير نفسها .

عدا عن هذه الابحاث الثلاثة يضم الكتاب دراسة خليل حنا « القضايا المهنية للكتاب والصحفيين الفلسطينيين » ودراسة د. سعيد حمود « الوضع الراهن للثورة الفلسطينية ومهماتها » ودراسة فريد الخطيب « دور الاعلام في مرحلة التحرر الوطني ».

يطرح كتاب الادب والمعركة ضرورة عقد ندوات الى جانب مؤتمرات الاتحاد ، تكون مجالا واسعا للنقاشات التي تستخلص دروس الممارسة الادبية الفلسطينية والعربية . لان النقاش الديمقراطي الواسع كفيل وحده ببلورة الاتجاهات الثقافية التي تلتقي على أرض الثورة .

حول الممارسة النقدية

كيف تستطيع الممارسة النقدية الاحاطة بالمسألة التي تطرحها ، محافظة على طابعها العلمي العام ؟ هذا هو السؤال الاساسي الذي يخرج منه قارىء دراسة د. احمد سليمان الاحمد : « الشعر العربي والقضية الفلسطينية غير أن هذا السؤال الاساسي ، لا يلبث ان يتحول الى سلسلة من الاسئلة التفصيلية حين نشرع في تحليل الدراسة بشكل هادىء : كيف يستطيع العمل النقدي ان يربط بين مسألتين مختلفتين من حيث التركيب الشعر والقضية الفلسطينية ، دون ربطهما ضمن اطار البنية الفوقية ، كاطار صراعي . أي ان هذا السؤال يؤدي الى طرح المسألة في نقاطها المبدئية.

هل الشعر هو مجرد تواز مع الواقع السياسي او الاقتصادي . أو أن العلاقة بينهما ، هي اكثر تعقيدا من هذا . بعد هذا التساؤل المبدئي ، نصل الى تساؤل عملي ، لماذا هذا السياق الواحد ؟ هل صحيح اننا نستطيع ان نضع الشعر العربي منذ مطلع القرن وحتى يومنا هذا ضمن سياق واحد؟ ولماذا ؟ الم تحدث في شعرنا الحديث والمعاصر انقطاعات تدفعنا الى التساؤل حول شرعية السياق الواحد ؟ . وأخيرا نصل الى أكثر الاسئلة صعوبة وتعقيدا : ما هو الشعر ؟ طبعا نحن لا نطرح هذا السؤال في الفضاء لكننا نطرحه من ضمن مبحث د. الاحمد نفسه . اي هل يحدد الشعر موضوعه ، بشكل اساسي ، ام ان الشكل هو الذي يحدد الشعر ؟ أي هل يتحدد الشعر من خارجه ، في علاقاته بموضوعاته ، ام يتحدد من داخله ، وتصبح الموضوعات اطارا لهذا الشكل الذي نسميه

---

* د. أحمد سليمان الاحمد : **الشعر العربي والقضية الفلسطينية** ، منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، دمشق ١٩٧٣ .

شعرا ؟ ان مشروعية طرح هذه المسألة هنا تكمن في طريقة معالجة المؤلف للشعر ، اي في تأكيده على أولوية الموضوع . الجواب الجاهز على هذا التساؤل هو في رفض التساؤل نفسه ، أي في القول كما يقول اغلب الدارسين والنقاد انه لا يمكننا فصل الموضوع عن الشكل . لكن هذا الجواب الجاهز والذي ينقذ من المآزق يفترض تطبيقا نقديا . وهذا ما لا نجده الا نادرا . عدا عن انه لا يلغي المسألة ، لانه لا يجيب على اشكالية عامة ، تفترض الادب بشكل عام شكلا للصراع الايديولوجي .

١ — يبدأ المؤلف بتحديد وجهة دراسته . « لا شك ان اية دراسة لشعرنا العربي المعاصر تظل ناقصة اذا لم تعالج الخط الفكري الذي قطعه هذا الشعر انطلاقا من وعد بلفور الى النكسة ». بعد هذا التحديد الحصري لوجهة الدراسة يبدأ البحث في اتجاهين :

— الاتجاه الغالب ، الذي يحاول قراءة الشعر العربي في موقفه من وعد بلفور وهزيمة ٤٨ ، وفي ثوريته وتفجعه .

— اتجاه آخر ، لا ينفصل عن مسار هذا الاتجاه ، يحاول ان يتوقف ، بسرعة كبيرة على الشكل الشعري . فلا يتوقف سوى عند المفهوم النقدي العربي القديم . أي دراسة المحسنات اللفظية ودلالات الكلمات ، دون الوقوف عند الشكل الشعري بشكل متكامل سوى في بعض اللمحات الخاطفة .

وأخيرا نصل الى خاتمة الكتاب ، حيث يقيم الناقد موازنة بين شاعر كلاسيكي هو بدوي الجبل، وشاعر « حديث » هو نزار قباني ، ليؤكد على افضلية شعر بدوي الجبل بشكل كاسح .

٢ — ضمن هذا الهيكل الذي تتدرج فيه الدراسة ، يمكننا ان نسجل بعض الملاحظات :

أ — في القسم الاول الذي يمتد من وعد بلفور الى النكسة ، لا نجد بنية واحدة ، او مجموعة من البنى التي توحد المقاطع الشعرية التي يثبتها المؤلف . أي ان التمييز لا يتم الا من خلال طابع اقليمي لا أعتقد انه يصح ان يكون معيارا نقديا . الشعر في سوريا أو لبنان او العراق كما يقول المؤلف ، بل ربما تكون اشكالية البحث عن وحدة « الفكر الشعري » من خلال وحدة الايديولوجية السائدة والشكل السياسي المتقارب في هذه الاقاليم والذي يسمح باكتشاف نقاط تناقض واحدة في البنية الاجتماعية العربية في العشرينات والثلاثينات مقياسا ممكنا . فالتقسيم الذي اختاره المؤلف هو أسهل الاحتمالات النقدية المتوفرة.كما انه حين تطرق للبحث في الشعر الفلسطيني — طوقان — محمود — الكرمي ، فانه لم يتوقف لحظة لدراسة متأنية عن الوضع الفلسطيني القائم برمته.بل حاول اكتشاف نصوص تشير الى دلالات فكرية متفاوتة في فهمها للمسألة الفلسطينية . ان هذا المنهج الذي اختاره المؤلف ، ينعكس انعكاسات سلبية جدا ، على سياق البحث بأسره . أي انه يزيل عنه طابع جهد الاضافة الذي تفترضه الممارسة النقدية بوصفها ممارسة ، ليحولها الى تجميع لنصوص شعرية . وحتى في هذا التجميع نفسه ، فاننا نفتقد الجهد الشمولي ، ومحاولة عقد المقارنات على أسس فنية .

ب — ان الزاوية الضيقة التي وضع فيها المؤلف نفسه منذ البداية ، تنعكس انعكاسات سلبية على مجمل الدراسة . فهو لا يبدأ من تطور الحركة الشعرية الحديثة منذ شوقي ، ولا يتوقف عند دراسة المفاهيم المختلفة التي يمكن ان تنتجها المدارس الشعرية التي نشأت في هذا القرن . بل قام بعملية دمج تعسفية ، بين مختلف التيارات الشعرية . وهنا نصل الى نقطة هامة . ما هو اثر التحولات الفنية في بنية القصيدة على فهم المسألة الفلسطينية ككل ؟ لا جواب في سياق الدراسة ، سوى محاولات وعظية تصحح مفاهيم بعض الشعراء ، حول قضية النضال الفلسطيني .

ج — كما ان المؤلف ، لا يتوقف عند الدور « الجماهيري » الذي لعبه هذا الشعر ، بوصفه شعر منابر . بل لم يحاول طرح مسألة الشكل الشعري من خلال مفهوم فعالية الشعر ، اي علاقته بالناس وبالنضال اليومي . لذلك لم يتوقف مثلا عند ظاهرة الاناشيد الشعرية التي استعملها بعض الشعراء ، كقالب يستطيع ان يتسع لمهمة التعبئة الجماهيرية التي كانت تجري في شتى اشكال النضالات .

د — وأخيرا ، لا بد من ملاحظة ، بعض الغيابات الكبيرة من دراسته ، لا سيما فيما يتعلق بالشعر الفلسطيني بعد هزيمة ١٩٤٨ . هنا لا نجد اثرا

سوى لفدوى طوقان وعبد الكريم الكرمي . أما يوسف الخطيب ومعين بسيسو وغيرهما ، فلا وجود لهما في هذه الدراسة النقدية . ان هذا التعسف النقدي ، يبقى بلا مبرر . فالاختيار ليس خطأ في حد ذاته ، اذا جاء ضمن رؤية فكرية محددة ، تريد ان تثبت توجها نظريا عاما في النقد ، وتتخذ بعض الامثلة لاثبات صحة هذا التوجه . أما حين نكون أمام دراسة عامة ، تريد الوصول الى اكتشاف توجه فكري شامل ، فان الغيابات الكبيرة ، لا تجد تبريرها سوى في تعسف نقدي ارادي .

٣ ــ تسمح هذه الملاحظات بالوصول الى النقطة الثانية الاساسية التي يطرحها المؤلف . الشعر بعد « النكسة » . هنا تصل الغيابات الشعرية الى ذروتها ، الانتقاء تعسفي مئة بالمئة ، والا كيف يبرر المؤلف وقفته القصيرة عند درويش والقاسم وقباني وبدوي الجبل وتوفيق زياد وملك عبد العزيز وخليل الخوري دون غيرهم من الشعراء العرب . وهو حين يقوم بالاشارة الى انتاج هؤلاء الشعراء فانه لا يتوقف عند انتاجهم ليدرسه لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون ، سوى بعض الملاحظات العامة المعروفة جدا ، والتي لا تضيف جديدا ، ابتداء بالثناء على مقالة درويش « انقذونا من هذا الحب القاسي » هذه المقالة التي اصبحت لازمة عند جميع المتعاطين بالنقد في بلادنا ووصولا الى الموازنة بين بدوي الجبل وقباني .

أ ــ ان الملاحظة الاساسية التي ترتفع هنا تلقائيا ، تأتي لتضع علامة استفهام كبيرة على المنهجية التي يتبعها الناقد منذ بداية بحثه . فالتركيز على الموضوع وحده ، ورفض الاعتراف بثورة الشكل والمضمون التي احدثتها حركة الشعر المعاصر منذ السياب والبياتي وحتى اليوم ، يؤدي الى معاملة الحركة الشعرية ، بوصفها وحدة منطقية ، ويؤدي بالتالي الى اعدام التيارات التجديدية في الحركة الشعرية المعاصرة . والوقوف عند شعراء الارض المحتلة لا يجد هنا تبريره الا في « الحب القاسي » الذي لا يبرر فنيا والذي يشارك الناقد في تبني رفضه .

ب ــ حاولت سلمى الجيوسي (شؤون فلسطينية ٣٠) اعتبار عام ١٩٤٨ بوصفه عام التحولات الكبرى في الشعر العربي ، اي انها افترضت ان بدايات التحول ظهرت مع ضرورة التغيير الجذري التي برزت واضحة بعد الهزيمة . ان هذا المنطلق يفترض مراجعة جذرية للحركة الشعرية العربية في سبيل اعادة اكتشاف نمذجتها . غير ان د. احمد سليمان الاحمد لا يتوقف عند ظاهرة التجديد اساسا ، لذلك لا يبحث عن اسبابها . من هنا يسقط الشعر العربي بأسره ، ولا يتوقف الا عند شعر الارض المحتلة . وبعض النماذج الشعرية الهزيلة، التي لا تعبر عن المجاري الرئيسية لحركتنا الشعرية المعاصرة . هكذا يسقط جميع الشعراء . ولا يبقى في سبيل سحق الشعر سوى عقد مقارنة بين شاعرين : بدوي الجبل الذي يمثل احدى قمم الكلاسيكية الشعرية وبين نزار قباني .

٤ ــ حين نصل الى هذه المقارنة التي لا يبررها السياق العام ، فاننا نتساءل اولا عن مبرر عقد مثل هذه المقارنات . ثم نرفع سؤالا آخر : لماذا نزار قباني وحده ؟ لماذا لا يأخذ ادونيس او درويش او البياتي او ... هنا وفي السؤالين لا نجد جوابا عند المؤلف . ثم نقرأ . نكتشف ان المقارنة تدور في محورين : المعنى والمبنى ، كما يقول القدماء . نتوقف عند المعنى لنجد معيار القيم الاخلاقية متصدرا . « الشاعر ــ رغم كل شيء ــ لا يستنيم الى اليأس » . وقباني « لا يحاول أن يستخلص شيئا ايجابيا وانما همه أن يكتب لشعره الرواج ». ثم حين نصل الى المبنى نرى ان بدوي الجبل « يأتي الى المعاني ويخلع عليها من شاعريته واسلوبه » . « بينما يصف نزار في « الاستجواب » اساليب التعذيب والقمع بما لا يعدو ما يجيء في الاحاديث العادية » . ثم يختم هذه المقارنة بتبني قصائد لابي سلمى يدمج فيها القتال بالشاعر المقاتل .

ان هذا الاسلوب في عقد المقارنات ، لا يؤدي الى نتيجة ، لانه يضع النتائج امامه دون المقدمات. فبدوي الجبل الذي هو فعلا قمة كلاسيكية لا يمكن مقارنته بأي شاعر حديث آخر تخلى عن الشكل الكلاسيكي جزئيا كما فعل قباني او كليا كما يفعل غيره . فالمقارنة مستحيلة من حيث المبدأ . والواقع ان التجديد الجذري الذي يعصف بشعرنا لا يمس الشكل وحده ــ التخلي عن الديباجة العربية ــ لكنه يصل الى المضمون ليتشكل داخل الصورة او الرمز . اي داخل ما نسميه بالموقف الشامل . « اذا فقد الشعر ديباجته الصافية، لم يبق شعرا. ان الديباجة الصافية وطن الشعر اذا صح

التعبير .. » هكذا يقول بدوي الجبل (مواقف ١٨/١٧) . وهو حين يحدد الفرق بين الشعر والنثر يعود الى القيم القديمة « الوزن والقافية اولا ، والابداع والالهام والنغم » . بين هذا المفهوم للشعر الذي يتبناه الناقد كذلك وبين المفاهيم الجديدة التي طرحتها الحركة الشعرية المعاصرة مسافة شاسعة ، لا يستطيع موضوع كبير وبالغ الاهمية كموضوع كتاب د. الاحمد ان يتجاوزها . لذلك تبقى ضمن دائرة تقليدية لفهم الشعر ، تساهم في اضاءة بعض الجوانب الهامشية . لكنها لا تستطيع مس الموضوع الاساسي . الانقلاب الكبير الذي نعيشه على المستوى الشعري .

حين يطرح كتاب د. الاحمد ، جميع هذه الاسئلة ، فانه يستفز الحركة النقدية الجديدة على بلورة اجوبتها بشكل مكثف وواضح . اي بلورة مفهوم العلاقات الداخلية في النص وارتباطها بمفهوم الشكل الايديولوجي وبحلقة الصراعات العنيفة التي تخوضها الجماهير على جميع الجبهات . من هنا تكمن مهمة اعادة طرح الاسئلة مجددا للوصول الى رؤية متكاملة ، تستطيع ان تتعامل مع الحركة الادبية ، دون استنزاف خاصيتها الاساسية اي فنيتها . هذه الموضوعة تفترض اساسا تعاملا نقديا مع موروثنا النقدي حتى تتم بلورة موقف منه لا يكتفي بتجاهله او الارتماء في احضانه ، بل يدرسه بوصفه ظاهرة تاريخية محددة .

ان العلاقة الوثيقة للشعر العربي بمسألة النضال الفلسطيني ، تبدو دائما كظاهرة خاصة ، فالشعر العربي ينفجر داخل الجسد الفلسطيني مفجرا جميع ثوابته،في سبيل الوصول الى الصوت الشعري الذي ينزف دما . لذلك تبدو المسألة التي يطرحها د. الاحمد في كتابه بحاجة الى الكثير من الدراسات .

الياس خوري

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

احصاءات فلسطينية

اعـــداد

اليـــاس خوري

لاول مرة يصدر كتاب شبه شامل عن احصاءات الفلسطينيين في جميع البلاد العربية وفي فلسطين المحتلة ... وهي عن النواحي الاجتماعية والسكانية والديمغرافية والاقتصادية والتعليمية للفلسطينيين في كل قطر عربي . وهناك احصاء عن الفلسطينيين المستفيدين من خدمات الاونروا من النواحي التعليمية والوظيفية والخدمات الاجتماعية .

نحو ٤٠٠ صفحة من الجداول بعشر ليرات لبنانية . يضاف اليها اجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في اوروبا ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

اطلبه من : مركز الابحاث ــ قسم التوزيع .
ص ب ١٦٩١ ــ بيروت .

رسالة من الضفة الغربية

ج. هـ. جانسن

خص الصحافي الهندي ج. هـ. جانسن « شؤون فلسطينية » بهذه الرسالة التي بعث بها من الارض المحتلة .

قمت في نهاية نيسان (ابريل) بأول زيارة الى القدس والضفة الغربية منذ حرب تشرين (اكتوبر)، وهي رابع زيارة اقوم بها منذ حرب حزيران (يونيو) ، وربما كانت العاشرة منذ ١٩٦٠ الى الاراضي الواقعة تحت السيطرة الاسرائيلية . وهذه المرة وجدت روحا تختلف الاختلاف كله في الضفة الغربية بل أنها اكثر اختلافا ، من الناحية النفسية ، بين الاسرائيليين ذاتهم .

كان الوجه الاكثر مدعاة للكآبة في الزيارات الى القدس بعد ١٩٦٧ هو ان الاسرائيليين تركوا الانطباع البالغ الغطرسة بأنهم سيبقون هناك الى الابد . وكان الامر الاسوأ هو أن بعض الفلسطينيين أعطوا الانطباع احيانا بأنهم يقبلون بذاك الادعاء كحقيقة واقعة . هذه المرة وجدت ان الفلسطينيين قد رفضوا ذلك الاحتمال ، وبعض الاسرائيليين على الاقل ابتدأوا يشكون في (أبدية) حكمهم للقدس .

كان هذا جزءا من ثقة جديدة بالنفس بين أبناء الضفة الغربية في أعقاب حرب تشرين (اكتوبر). وهي ثقة بالنفس لا تنبثق من الاعمال البطولية للجيوش العربية فحسب ، ولكنها ناشئة ايضا عن خبرتهم المباشرة لفقدان الاسرائيليين لاعصابهم .

ولنبحث اولا في ردة الفعل الفلسطينية ، تبرز الثقة الجديدة بالنفس في فعلي ايمان يتمسك بهما الفلسطينيون تمسكا شديدا . أحدهما هو ان الاسرائيليين سيخرجون من الضفة الغربية بنهاية السنة ، والاخر هو ان القدس ستكون عاصمة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة . ومن الطبيعي ان يعني هذا ان الضفة الغربية لن تعود الى الحكم الهاشمي ، وكان هذا ايضا يؤخذ على انه أمر مفروغ منه . وبدا لي ، انا الاتي من الخارج ، حاملا بعض المعرفة عن مدى اتقان الاسرائيليين لتكتيكات التأجيل و « خلق حقائق جديدة » و «أمور واقعة » ، وكأن هذين الاعتقادين مغاليان في التفاؤل وربما كانا من قبيل التفكير الرغبي ليس الا . واعتقد انه كان ثمة بعض التفكير من هذا النوع في موقف الضفة الغربية ، وهذا أمر مفهوم، ومحتوم بالفعل . لقد كنت في القدس قبيل « عيد الاستقلال » الاسرائيلي ، وبدا كأن الاسرائيليين تعمدوا رفع أكبر عدد ممكن من أعلامهم فوق المباني العامة في القدس العربية . ومجرد رؤية رموز الاحتلال تلك ساعدت المرء على ادراك مدى الحاجة اليائسة التي يشعر بها ابناء الضفة الغربية للتخلص من الحاكم الاسرائيلي . وكان بامكان هذا التوق اليائس الى التحرير ان ينتج التفكير الرغبي . ولكن كانت هناك ، ايضا ، حجج عقلانية لدعم الاعتقادات الفلسطينية . كانت الحجة الاولى ان عمليات صنع السلام قد استجمعت زخما قويا ، بصورة رئيسية لان الدولتين المتفوقتين مصممتان على ازالة فوضى الشرق الاوسط ، بحيث انه من غير الممكن ايقاف هذه العمليات بمجرد ترتيب مصري او سوري . ثانيا ، لا يمكن ان يكون هناك حل سلمي نهائي دون تسوية للمشكلة الاساسية ، مشكلة الضفة الغربية والقدس اللذين كانا وجهين من اوجه القضية الفلسطينية ، وهي بدورها كانت السبب الاصلي للوضع المعقد كله في الشرق الاوسط . لذلك لن يكون سلام دون انسحاب اسرائيلي هناك ، ولن تكون ثمة تسوية دون سلام . ولكن ستكون هناك تسوية ، ولو فرضت فرضا بالضرورة : لذلك سيكون هناك انسحاب . هذا فيما يتعلق بالحجج الايجابية .

أما الحجج السلبية فكانت ترتكز على فقدان الاسرائيليين لاعصابهم بعد تشرين الاول (اكتوبر) الماضي ، فقد ارتعد الاسرائيليون مما حدث آنئذ الى حد انهم، ولاشهر بعد ذلك، تركوا الفلسطينيين وشأنهم الى أقصى حد ممكن . فقد أوقفوا عمليا تنميرهم واستئسادهم ووخز الابر والمضايقات . ولما عاد الوجود الاسرائيلي ، ببطء ، ليؤكد نفسه من جديد ، كان من نوع مختلف ، فقد خفت الغطرسة والسلوك السيء . والروح التوكيدية الجديدة للفلسطينيين ، التي كانت ستجلب التوبيخ وحتى العقاب في الماضي ، صار يصغى اليها الان بتهذيب على الاقل . وكما قال لي احد ابناء الضفة الغربيـــة : « عندما تكون لدي أية معاملات مع المسؤولين الاسرائيليين الان ، انفخ دخان سيجارتي في وجوههم » — وهي ايماءة تافهة ، وربما كانت مراهقة بعض الشيء ، ولكنها ذات دلالة بالغة رغم ذلك . ذلك انه عندما يفقد المحتل الاجنبي ارادته في الحكم ، المرتكزة على ايمانه في قدره الامبريالي ، فان نظام الاحتلال ذاك ينهار .

واستنادا الى ما سمعته من مصادر معلوماتي الاسرائيلية الخاصة ، يمكنني القول بوثوق ان هناك ، يقينا ، بين طبقات الانتليجنسيا والمثقفين الاسرائيليين شكا عميقا على الاقل في قدر اسرائيل الصهيوني ، أي الامبريالي ، ومع ان مكوثي في القدس كان قصيرا ، للاسف ، فانني لم أتطلب وقتا أطول لاكتشف ان الاسرائيليين والمجتمـــع الاسرائيلي قد سببت لهما حرب تشرين (اكتوبر) هزة أعمق بكثير مما حملتنا على الاعتقاد كل التقارير الخارجة من اسرائيل . والاسئلة التي تطرح وتناقش باسهاب في الصحف والراديو والتلفزيون هي التالية : ما هي غاية اسرائيل ؟ ما هو موضع دولة صهيونية في الشرق الاوسط ؟ هل يجب ان تكون اسرائيل في الشرق الاوسط على الاطلاق ؟ هل الصهيونية حركة قومية أم وكالة ســـفريات ؟ (أنا ، شخصيا ، سررت بنوع خاص لهذا السؤال الاخير اذ كنت قد الفت كتابا حاولت فيه ان اثبت أن الصهيونية هي مجرد وكالة سفريات وليست حركة قومية) . وابديت ملاحظة حول عمق الشك الذاتي لمصادر معلوماتي الاسرائيلية فأجابوا جميعا بأنني ، كغريب ، لا يسعني ان افهم الى أي حد عميق هزت حرب تشرين (اكتوبر) اسرائيل وما زالت تهزها ، وقال لي احدهم : « كانت زلزالا ، والارض عينها مادت تحت أقدامهم ومـــا زالت تتحرك ». وحين سألت عن سبب ردة الفعل ، المفرطة في نظري ، أعطيت ثلاثة أسباب . اولا ، الصورة الفجائية والمفاجئة للهجوم العربي ، نظرا لعدم وجود أي تزايد في التوتر قبله . ثانيا ، وهو الامر الاهم ، كان الفرق بين حالة الحرب والمزاج السائد في اسرائيل قبلها . فذاك المزاج كـــان اقتناعا راسخا بأن اسرائيل قد حققت أخيرا هدفها النهائي — السلام لجيل آخر على الاقل ضمن حدود مثالية . ثم جاءت الحرب التي تبين انها اول حرب حقيقية خاضتها اسرائيل ابدا ، فهي المرة الاولى التي اضطر فيها الجنود الاسرائيليون الى خوض قتال ضار قتلوا فيه وتشوهوا بأعداد كبـــيرة . واكتشفوا انهم في حين ابتهجوا وتفاخروا بالنزهتين العسكريتين لعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ ، فانهم لم يحبوا اطلاقا الحرب الحقيقية ، والقتال الحقيقي. من يحبهما ؟ ولذا عاد الجنود الاحتياطيون المثقفون الشبان حاملين معهم أسئلة : اذا كنا سنجبر على خوض حرب من هذا النوع ، حرب قاتلة حقا ، مرة كل خمسة أعوام او ستة ، وستكون دموية أكثر على الارجح في المرة التالية ، فأي نوع من الدول هي تلك الدولة التي زجتنا في حالة كهذه ؟ لماذا يكون لي أي دور في هذه الحالة الرهيبة ؟ ومن هنا الزيادة الصغيرة ولكن البالغة الدلالة في الهجرة من اسرائيل . ومن هنا ، ايضا ، ادراك أقسام كبيرة من القيادة الاسرائيلية ، ومن الانتليجنسيا ورسال وسائل الاعلام بأن حلا وسطا مع العرب ، وخصوصا مع الفلسطينيين ، هو الطريق الوحيدة الى السلام . وأضيف بسرعة هنا ان الحل الوسط يتصور استمرار اسرائيل كدولة يهودية منفصلة ، أقل اقتصارا على اليهود ، ولكن ليس بالضرورة كدولة صهيونية. واني أشك في ما اذا كان هناك ، حاليا ، أكثر من ٢٠٠ اسرائيلي يقبلون بفـــكرة دولة علمانية ، ديموقراطية ، وقد قرئت مقالـــة نايف حواتمة على نطاق واسع وبصورة جدية ولكنها لم تكسب انصارا كثيرين ، هذا اذا كسبت أي نصير . ولكن حينما سألت الاسرائيليين اذا كان هذا الموقف الجديد يعني انه يمكن الان التوصل بسهولة وسرعة الى تسوية كان الجـــواب ، المستغرب ، « كلا » . وشرحوا قائلين ان السبب هو انه ، في حين حدث اهتزاز كبير للافكار المكونة

سلفا على صعيد رجل الشارع الاسرائيلي ايضا ، فهو لم يؤد الى الاستنتاج المنطقي بأنه لا بد من القيام بتغييرات وتسويات في سياسة اسرائيل العربية . وكان الامر الوحيد الذي افضى اليه هو الاعتقاد بأن قوات الدفاع الاسرائيلية ، في المرة التالية ، يجب ان تكون أكثر يقظة ، ويجب ان تضرب اولا ، وتربح الحرب بسرعة ودون خسائر كبيرة في الارواح . وهكذا استنتجت مصسادر معلوماتي الاسرائيلية : « يجب ان نخوض حربا أخرى لنعلم شعبنا ان الحرب من نوع حربي عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ لم تعد ممكنة ، وكل حروبنا من الان فصاعدا ستكون حروبا دموية . وربما احتاج الامر لحرب او حتى لحربين أخريين ليتعلم شعبنا تلك الامثولة . وبعد ان يحدث هذا سيكون الشعب الاسرائيلي ، فضلا عن قيادته ، مستعدا للسلام . وفي الوقت الحاضر ستجد القيادة صعوبة فائقة لاقناع الشعب الاسرائيلي بفكرة تسوية حل وسط » .

وباختصار ، لقد وقعت القيادة الاسرائيلية في فخ دعاوتها هي المعادية للعرب . فقد نجحت أيما نجاح في غسل أدمغة الاسرائيليين وجعلهم يعتقدون ان العرب لا يريدون الا التصفية المادية للشعب الاسرائيلي . فان رجال المقاومة ، بالنسبة لهم ، هم مجموعة غيلان تأكل الاطفال في الفطور . وما حدث في كريات شمونة عزز هذا الموقف بالطبع . وان خمس عمليات أخرى من نوع عملية كريات شمونة يمكنها ان تجعل السسلام مستحيلا مسن الجانب الاسسرائيلي . لكن عشر عمليسات من نوع عملية كريات شمونة يمكن ان يكون لهسا تأثير حرب أخرى — فتجعل حتى أكثر الاسرائيليين عنادا وخوفا يدركون ان تسوية حل وسط ليست أفضل فحسب بل هي محتومة .

لنعد الى ابناء الضفة الغربية . ان ما يحبون رؤيته هو دولة فلسطينية ضمن حدود تقسسيم ١٩٤٧ . واذا ما أصر الاسرائيليون على عدم تسليم الاراضي المحتلة الا للملك حسين ، فلا بد عندئذ من القبول به مؤقتا ، لكن أي استطلاع للرأي العام سيسفر عن أكثرية ساحقة تؤيد الاستقلال التام . وبعد بضعة أعوام قد تختار الضفة الغربية ان يكون لها ارتباط رسمي من نوع ما مع الضفة الشرقية . وكان هذا ، ايضا ، هو رأي كل أبناء الضفة الشرقية الذين تحدثت اليهم ، ولاحظت انهم يسلمون تماما بفكرة استقلال الضفة الغربية .

وفي الختام ، لا بد لي من ذكر فعل ايمان آخر بين ابناء الضفة الغربية . وهو ان منظمة التحرير الفلسطينية هي ممثلتهم الوحيدة ويجب ان تذهب الى جنيف كوفد منفصل ، لكي تعبر امام العسالم عن السيادة الفلسطينية الجديدة . ووجدت هذا الايمان مؤثرا ومفاجئا في آن معا ، لانني اعتقد انه ما يزال على منظمة التحرير الفلسطينية ان تكسب هذا الايمان وتستحقه . وعندما أتيت على ذكر الخلافات في الرأي بين المنظمات المختلفة ، أزاحها أصدقائي في الضفة الغربية جانبا بنفاد صسبر غاضب . قالوا : « لقد مضى وقت مثل هذه الامور ، وما عليهم الا الالتقاء معا ». وذاك الرأي ، الاتي من الفلسطينيين الذين تحملوا بشجاعة سبعة أعوام من الاحتلال الاسرائيلي الصارم ، يحسدد هدفا يحتم الواجب على منظمة التحرير الفلسطينية ان تحققه .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

معلوت : اختبار الارادة الفلسطينية

أذاعة اسرائيل في اللغة العبرية لخصت أحداث اليوم الخامس عشر من ايار كما يلي : « يوم من القلق والفزع يمر علينا اليوم . فان يوم ١٥ أيار ١٩٤٨ ، يوم اعلان دولة اسرائيل ، أصبح ذكرى للعدوان في العالم العربي . وقد ذكرتنا الشرطة وحذرتنا من هذا التاريخ ، منذ بضعة ايام . واليوم هو ١٥ ايار . وكنا أمس فقط قد أتممنا ذكرى مرور ثلاثين يوما على مجزرة كريات شمونة. واليوم نتابع بقلق وفزع أحداث النهار ، منذ ساعات ليل أمس وصباح اليوم » . ومنذ ما قبل الخامس عشر من ايار بمدة كافية كانت وكالات الانباء تتناقل الاستعدادات الاسرائيلية تحوطا لمواجهة الهجمات الفدائية المتوقعة في ذلك اليوم . وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعت المقاومة الفلسطينية ان تثبت انها قادرة على تجاوز تلك الاستعدادات التي كانت جدرا من ورق أمام تصميم الارادة الفلسطينية ، وهنا صلب المعجزة الفلسطينية . المعجزة ؟ بلى اذا استحضرنا ان تاريخ الشعب الفلسطيني المعاصر — بخلاف تاريخ كل شعب آخر — هو تاريخ نضاله ولا شيء سوى نضاله بكل ما يتمخض عنه هذا النضال من افراح انتصارات او مرارات هزائم ، المشمولة جميعا (الانتصارات والهزائم) بناظم واحد هو ، منذ ان كان هذا الشعب فلسطينيا، تصميم الارادة وارادة التصميم. والخامس عشر من ايار الاخير كان اختبار تصميم الارادة الفلسطينية امام استعدادات العدو من جهة فاجتاحتها هذه الارادة ، وامام محاولات الاستسلام التصفوي من جهة ثانية ، فاثبتت انها قادرة على النعل فيها وهزها حتى الجذور .

الخامس عشر من ايار كانت امتداداته في القدس حيث اكتشفت صواريخ موجهة الى قلب المدينة ، وفي ميناء حيفا حيث شب حريق في خزان نفط ، وفي الجليل الاعلى حيث وقع هجومان احدهما على أحد منازل المستوطنين والثاني على سيارة ركاب، غير ان الخامس عشر من ايار كانت قمته في معلوت، المستعمرة الصهيونية القريبة لترشيحا العربية ، وقد اوصل ذلك اليوم قمته وحدة الشهيد كمال ناصر التابعة للجبهة الديمقراطية الشعبية . زياد عبد الرحيم وعلي احمد حسن واحمد صالح نايف ، افراد الوحدة ، قاموا في الساعة الرابعة من فجر ذلك اليوم باحتلال مدرسة في معلوت واحتجاز الطلاب فيها البالغ عددهم نحو مئة ، وطلبوا مقابل اطلاق الرهائن ان تفرج اسرائيل عن ستة وعشرين مناضلا معتقلا في سجونها . هنا مفصل مهم في العملية. ان قائمة المناضلين المطلوب اطلاق سراحهم تضم مناضلات ومناضلين فلسطينيين ، ولكنها تضم كذلك اسمي يهوديين (رامي ليفنه ومالي ليبرمان) كانت السلطات الاسرائيلية قد حكمت عليهما بالسجن لانتمائهما الى تنظيم « الجبهة الحمراء » التي ضمت عربا ويهودا غيرصهيونيين ويعادون اسرائيل. المفصل هنا ان الثورة اثبتت مصداقية شعارها (الهدف : اقامة دولة ديمقراطية يتعايش فيها الجميع دون تمييز بسبب دين او جنس)، ومصداقية الثورة تجلت في انها لم تميز بين المناضلين بسبب دين او جنس .

السياق اتخذ الشكل التالي . أبلغت الوحدة الفدائية القيادة الاسرائيلية عن قرارها في كيفية تنفيذ اطلاق سراح المعتقلين : « لقد اخترنا لتنفيذ الشروط بيننا كلا من سفير رومانيا وسفير فرنسه ومندوب الصليب الاحمر الدولي . كلمة السر سيأخذونها لدى الافراج عن رفاقنا المعتقلين ثم الاتصال بنا . لديكم الوقت الكافي من الان حتى

الساعة السادسة مساء فقط . يجب ان ينفذ الاتفاق بالخطوات الاتية : ينقل رفاقنا بواسطة طائرة خاصة الى مطار دمشق . سيأخذ السفراء ومندوب الصليب الاحمر الدولي كلمة السر بعد الافراج عن رفاقنا ويستطيع الوسطاء الاتصال بنا على انفراد وان أي اتصال بنا من دون كلمة السر مرفوض . سنطلق فقط نصف المحجوزين فور الافراج عن رفاقنا ونقلهم الى دمشق ثم ننتقل نحن والنصف الباقي والسفيران ومندوب الصليب الاحمر في الباص الى أحد المطارات . سنفرج عن النصف الاخر بعد ان نصعد جميعا الى الطائرة وسنبقي السفيرين ومندوب الصليب الاحمر الدولي حتى نصل الى دمشق » . وعند الظهر اعلنت الاذاعة الاسرائيلية ان الحكومة الاسرائيلية في جلستها صباح اليوم نفسه قررت ان تفرج عن الفدائيين المطلوبين .

هل كانت اسرائيل تنوي فعلا تنفيذ هذا القرار ؟ هناك شك كبير في ذلك بل جزم بعكسه ، فالحركة الصهيونية التي أسهمت في اطعام اللحم اليهودي للافران النازية من أجل تحقيق غاياتها ، هي الصهيونية نفسها الان التي تستبيح مضغ لحم أطفالها ولا تتنازل عن تلك الغايات . ان الفطرسة الاسرائيلية التي انتهكت في تشرين — لا تزال بحاجة الى اكثر من تشرين كي تعترف بأنها قابلة للهزيمة ، ومستعدة لتقديم تنازلات والاعتراف بانتصارات الاخرين . اسرائيل تدرك ولا شك ان التنازل الاول هو بمثابة الضربة التي تدحرج كرة الجليد من قمة الجبل الى قعر حضيضه والتي تكبر بمزيد من التنازلات حتى التسليم الاخير . وهكذا كان يبدو منذ البداية ان الموافقة لم تكن تستهدف سوى المناورة وكسب الوقت . لقد « خدعت القيادة الاسرائيلية [كما جاء في بيانات الجبهة] سفيري رومانيا وفرنسه باتخاذهما كتغطية لاهدافها الاجرامية . نقد استمرت طوال اليوم ، وخصوصا في فترة بعد الظهر ، في ابلاغ السفيرين بأنها تجهز طائرة لنقل المناضلين الذين طالبنا بالافراج عنهم. وطلبت في البدء ان يتم توجيه الطائرة نحو بوخارست فرفضنا الطلب الذي يهدف الى كسب الوقت بسبب بعد المسافة . ثم ادعت اسرائيل انها لا تملك طائرات وانها تنتظر طائرة تابعة للامم المتحدة تأتي من القاهرة ، وعادت اسرائيل في الساعة الخامسة والربع وابلغت سفير فرنسه وسفير رومانيا في تل ابيب ان المناضلين الاسرى غادروا بطائرة اسرائيلية الى قبرص ، وطلبت الحصول على كلمة السر التي يتم بموجبها التفاهم مع الفدائيين في شأن اطلاق سراح الرهائن » . كان الخداع واضحا اذن لقيادة الجبهة الديموقراطية التي كانت تجري اتصالاتها من خلال سفارة فرنسه في دمشق وعندما لم تخدع القيادة ولا الوحدة الفدائية اتخذت الحكومة الاسرائيلية قرارها في الساعة الخامسة والنصف تقريبا كما صرح بذلك وزير الاعلام الاسرائيلي ، أي قبل نصف ساعة من الموعد النهائي المحدد . وكان يتوجب على الحكومة ان تختار بين امرين ، كما قال بيرس ، اما ان تنتظر لنهاية الساعة السادسة فتخاطر بحياة جميع الاولاد ، او ان يتم اقتحام المبنى . و « اتخذ قرار اقتحام المدرسة » ، كما أعلنت جولدا مئير للاذاعة الاسرائيلية . وفجر الرجال الثلاثة أنفسهم ومن حولهم بعد ان قاتلوا القوة المهاجمة .

لقد اوجز نايف حواتمة ، الامين العام للجبهة الديمقراطية ، الاستخلاص الرئيسي للعملية كما يلي : « ان عملية ١٥ ايار المجيدة تمت صباح الذكرى السادسة والعشرين لاغتصاب جزء من وطننا الفلسطيني مؤكدة ان الوطن الذي يقف ابناؤه للدفاع عنه لن يضيع وسيتحرر مهما بلغت التضحيات . ان عملية ١٥ ايار المجيدة تؤكد الارادة الفلسطينية الثورية التي ترفض محاولات كيسنجر ، رسول الامبريالية الاميركية ، لتمرير حل استسلامي تصفوي على شعبنا وقضيته الوطنية المقدسة » . (حديث لـ « النهار » ٥/١٦) . ولم يكن هذا الاستخلاص تحليلا فقط ، وانما تجسد واقعا في ردة فعل كيسنجر تجاه العملية . ففي تعازيه لجولدا مئير قال « اننا نعتقد ان عنفا كهذا لا يمكن ان يكون له أي تأثير سوى عرقلة السلام في الشرق الاوسط » ، و « السلام » هنا هو شكل التصفية التي تريد اميركا الخروج بها . واذا كانت هذه العملية قد تمكنت — على السطح — من تأجيل هذا «السلام» يوما ، بتأجيل سفر كيسنجر الى دمشق يوما ، فان تفاعلاتها الحقيقية وعواقبها والمضامين التي حملتها والتي أبرزها تصميم الشعب الفلسطيني على القتال ورفض شكل التسوية الاميركية — كل

ذلك سيجعل حلم التسوية كابوسا ، والمقاومة اثبتت انها قادرة على ذلك ، قادرة على ان تكون الصاعق الذي يفجر الاوضاع من أجل اعادة ترتيبها بما يخدم مصلحة حركة التحرير العربية .. ولقد بدأت العواقب تتفاعل منذ اللحظة التي بدأت فيها اسرائيل بغاراتها الجوية على مخيمات الفلسطينيين والقرى اللبنانية في اليوم التالي مباشرة لعملية معلوت . فقد اثبتت هذه الغارات الانتقامية — الابادية (مخيم النبطية تعرض لثلاث غارات ابادية متتالية خلال ساعات) حقيقة النقيضين اللذين لا يمكن ان يستمر الواحد منهما في الوجود الا بفناء الاخر : الفلسطينيون واسرائيل . وكما عززت عملية معلوت روح الانتقام في اسرائيل ، فان التجارب السابقة التي مرت بها حركة المقاومة في تعاملها مع الجماهير الفلسطينية وانعكاس عذابات هذه الجماهير ايمانا باهداف حركة المقاومة ونهجها، هذه التجارب تجعل الاطلالة على المستقبل من خلال الغارات الاسرائيلية الاخيرة واثقة وواضحة: المزيد من الالام يعني المزيد من التصميم الفلسطيني على ان تكون الارادة الفلسطينية هي في المقام الاول لدى حسم الارادات المتناقضة وتقرير المصير.

القمة الفلسطينية

المجلس الوطني الفلسطيني حسب قواعد العمل فيه والقصد من وجوده هو الجهة التشريعية الشرعية الفلسطينية التي تحدد الخطوط العامة واحيانا التفصيلية لكي تنهج نهجها القيادة الفلسطينية ، كما انه رسميا هو السلطة العليا صاحبة القرار في الشأن الفلسطيني ، كذلك من ناحية عملية فان المجلس هو الحكم في ما يعرض عليه من وجهات نظر واجتهادات يخرج منها على الاغلب بموقف توفيقي ضمن اطار ميثاقه الوطني وبرامجه العامة . ومن خلال تجارب المجلس الوطني — وخاصة دوراته الاخيرة — فان آلية صنع القرار فيه كانت تتجه نحو الاخذ بما هو متفق عليه باجماع في ظل الحرص على الوحدة الوطنية دون ان يسمح للاختلافات المذهبية او التكتيكية ان تنتهك أسس هذه الوحدة او تقوض — واقعا او احتمالا — صورتها التي تحرص الفصائل جميعا على ابقائها سليمة . ومن هنا كان يجري تطويق جميع التعارضات التي تنشأ ، لاسباب ذاتية او موضوعية ، وحصرها في أضيق نطاق وعدم السماح لها بأن تتصاعد الى درجة الاختلاف المؤثر على صورة اللقاء الجبهوي الذي ناضلت الفصائل جميعا من اجل الوصول اليه وارتضت بمنظمة التحرير وأجهزتها التشريعية والتنفيذية ان تكون اطاره .

هكذا من خلال هذا التقليد في العمل الفلسطيني تتوضح أسباب تأجيل انعقاد المجلس الوطني — دورته الثانية عشرة — غير مرة كان آخرها الى مطلع حزيران . فالقضايا المفروض ان تواجهها هذه الدورة جرى حولها حوار عريض وكثير، وخلال أشهر عدة ، دون ان يتم التوصل بشأنها الى موقف موحد — او حد ادنى من الموقف الموحد — يحفظ للمجلس الوطني قدرته على ممارسة دوره ضمن قواعد العمل فيه والاعراف التي تتحكم بهذه القواعد ، ودون ان يتحول هذا الحوار الى **خلاف رسمي** تكرسه الجهة التشريعية الرسمية . وبذلك فان التأجيل كان — في واحد من جوانبه — **محاولات ايجابية** لتدارك الصدع اكثر منه **هروبا سلبيا** من مواجهة الحقائق . كما كان التأجيل — في جانب منه آخر — مرتبطا بما يجري في المنطقة من أحداث، خاصة ترقبات ما يجري في الجانب السوري . فاذا كان من الخطأ الايحاء باستمرار بأن الموقف السوري هو مفتاح الموقف الفلسطيني ، فانه يظل صحيحا والى أبعد مدى ان التطورات في سوريا — من ناحية تاريخية ومن حيث تحليل المعطيات العربية والفلسطينية الراهنة — **تترك** آثارها الواضحة في الصفحة الفلسطينية سلبا وايجابا . وبذلك فان انتظار ما تسفر عنه مساعي فك الالتحام على الجبهة السورية ، بالاضافة الى اشتعال هذه الجبهة في حرب هي خامسة بالتأكيد ، ونتائج ذلك كله على الموقف العربي والاخر الفلسطيني كانت سببا آخر في تأجيل عقد المجلس الوطني .

غير ان القضايا الملحة التي أفرزتها حرب تشرين كانت تقتضي من المقاومة اجابات محددة واضحة تأخذ في الاعتبار متغيرات الساحة العربية (والدولية ايضا) ولكنها في الوقت نفسه تسترشد بالمصلحة الوطنية الفلسطينية اولا واخيرا ، وهو شأن لخصه الاخ ابو عمار أكثر من مرة بقوله ان القرار سيكون فلسطينيا . لقد استحدثت مسائل بعد حرب تشرين ، منها ما أخذ بالفعل حيز التنفيذ ومنها ما زال في نطاق الامكان (ان يكون او لا يكون)

وقد جرى تقدير بأن بعضه واقع فعلا . وعلى الجانب الفلسطيني تلخصت هذه المسائل باثنتين : مصير الارض الفلسطينية التي ساد اعتقاد بشأنها بأن اسرائيل منسحبة منها (أو من بعضها) والموقف من المشاركة في الجهود الدبلوماسية المفترض فيها ان تؤدي الى ذلك الهدف ، وهي مشاركة ترتبط بالتالي وبالضرورة بمؤتمر جنيف المعتد ، حضوره أم عدم الحضور . وكان الحوار الفلسطيني ـ الذي هو ديموقراطي وصحي ـ يستهدف الاجابة على هاتين المسألتين بالتحديد ، وكان لا بد ان يصل الحوار الفلسطيني الى الحسم فيهما من خلال اطره الشرعية التي يمثل المجلس الوطني المقام الاول فيها والرسمي ، بحيث يظل للمجلس ـ وهنا التعارض ـ تقاليده القديمة في العمل : الحد الادنى من وحدة الموقف .

من هنا اكتسبت اجتماعات القادة الفلسطينيين في بيروت في الشهر الماضي أهمية خاصة ، فهي المحاولة الاكثر مسؤولية للخروج باجابات محددة تلتقي حولها الافكار المتباينة جميعا ، على المسائل المطروحة في الساحة الفلسطينية . وقد بدأ اجتماع القادة في بيروت في ٨ ايار (مايو) بحضور قادة الفصائل جميعا وعدد من القياديين المستقلين . وقد ذكرت وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) في يوم الاجتماع نفسه « ان هذه الاجتماعات ستستمر عدة ايام للتوصل الى القرار الفلسطيني المنشود». وحاولت بعض المصادر الصحافية ان توحي بأن الاجتماع كان بطلب من اندريه غروميكو ، وزير الخارجية السوفياتي ، في اثناء لقائه بالاخ ابوعمار في دمشق في وقت سبق الاجتماع (« النهار » ٥/٩) الا ان الاخ محمد زهدي النشاشيبي ، سكرتير اللجنة التنفيذية ، اوضح ان الدعوة الى الاجتماع « كانت بمبادرة من جميع اعضاء اللجنة التنفيذية للوصول الى تصور موحد حول النضال المرحلي للشعب الفلسطيني مع ضرورة استمرار النضال من أجل تحقيق الهدف الاستراتيجي وتحديد المهام المرحلية للنضال » («المحرر» ٥/١٠) ، كذلك أكدت الجبهة الديمقراطية في بيان لها (« المحرر » ٥/١١) انه « جرى تقرير عقد هذه الاجتماعات من خلال اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قبل أكثر من اسبوع »، كما ذكرت صحيفة « بيروت » (٥/١٠) المقربة من مصادر جبهة التحرير العربية ان اللجنة التنفيذية دعت الى الاجتماع في جلستها المنعقدة في ٢ ايار .

ما الذي دار في تلك الاجتماعات التي عقدت في الايام ٨ و٩ و١١ ايار ؟ ذكرت « وفا » (٥/٩) « ان النقاش والحوار الذي دار قد اثمر ... أرضية مشتركة يمكن القول ان الجميع **بدون استثناء** يستطيعون من خلال الوقوف **فوقها الوصول** الى نتائج حاسمة فيما يتعلق بالقرار الفلسطيني واتجاه هذا القرار » . وأكدت الوكالة الفلسطينية ان هذه الاجتماعات سوف تحقق للقيادة الفلسطينية ان تذهب الى المجلس الوطني الفلسطيني وهي تملك **توجهات واحدة** تستطيع من خلال طرحها على المجلس اغناء هذه التوجهات وصولا **الى القرار الفلسطيني الحاسم** » . وقد أبرزت الصحف أنباء هذه الاجتماعات واوردت بعض تفصيلات عنها . فذكرت « المحرر » (٥/١٠) ان المصادر الفلسطينية أكدت « ان الاجتماع الاول سادته روح ايجابية **واتفاقات شاملة** حول كل ما طرح في الاجتماع **بشكل** يكرس الوحدة الفلسطينية بما يكفل مصلحة الشعب الفلسطيني وحقوقه ، خاصة فيما يتعلق بمؤتمر جنيف والسلطة الوطنية على أي جزء من الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها والرد على ما أعلنه الملك حسين في خطابه الاخير يوم الاول من ايار ». وذكرت « السفير » (٥/١٠) انه « برز في الحديث **شبه اتفاق على موضوع السلطة الوطنية** » وان الدكتور جورج حبش قال « ان لا احد يمكن ان يعترض على شعار السلطة الوطنية ولكنه ركز على ضرورة تحديد المهمات » . كما أعلن ياسر عرفات انه يرفض مطلقا قرار مجلس الامن ٢٤٢ لانه لا يمكن ان يكون اساسا لاية تسوية يقبل بها الشعب الفلسطيني ، كما اكد « **ان المنطلق الاول لدينا هو رفضه [القرار ٢٤٢] ورفض كل تسوية او لقاء او مفاوضات يكون هذا القرار اساسها** » وقد عزز الدكتور حبش في حديثه « **الاجماع الفلسطيني على عدم حضور مؤتمر جنيف على اساس قرار مجلس الامن ٢٤٢** » . من خلال المصادر الصحافية اذن يمكن القول ان التوجهات داخل الاجتماع كانت كما يلي : **شبه اجماع على قيام السلطة الوطنية ، الاستمرار في رفض قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ ، رفض حضور مؤتمر جنيف اذا كان على اساس هذا القرار .**

وقد اثار ما نشرته « النهار » (٥/١٠) تحت عنوان « محضر مؤتمر القمة الفلسطيني » ونسبت فيه كلاما للسادة ابو عمار وجورج حبش ونايف حواتمه وابو حاتم وزهير محسن وابو اللطف وماجد أبو شرار ، اثار ردود فعل مختلفة وغاضبة من جانب المقاومة . فقد صرح ناطق اعلامي فلسطيني تعقيبا على ذلك بقوله « ان هذا التصرف من « النهار » يسيء اساءة بالغة الى الجهود المبذولة لرص الصفوف في الساحة الفلسطينية كما انه يتضمن جملة مغالطات وتحويرات مكشوفة مما يتنافى مع الامانة الصحفية » (« المحرر » ٥/١١) كذلك أصدرت اللجنة التنفيذية بيانا (٥/١١) قالت فيه « ان جميع فصائل الثورة الفلسطينية وهي تعي كامل مسؤوليتها وتدرك أهمية تبلور الموقف الفلسطيني الموحد وتسعى اليه تجاه جميع القضايا المطروحة على ساحة المنطقة ، تود ان تناشد جميع وسائل الاعلام العربية عدم نشر أي اخبار عن أي اجتماع لا تصدر من رئيس المجلس الوطني ، وهي في مناشدتها هذه تدين وتحذر مقدما من كل مخالفة لمضمونه » . وقد ذكرت « السفير » (٥/١٢) انها علمت « ان لجنة تحقيق قد شكلت لمعرفة مصادر توزيع الانباء المتضاربة حول اجتماعات قيادة المقاومة ولاتخاذ الاجراءات المناسبة لمنع تكرار ذلك » .

هذا ، وقد نقلت « وفا » (٥/١١) تصريحا للسيد خالد الفاهوم جاء فيه «استأنفت القيادة الفلسطينية في الساعة ١٠،٣٠ من صباح اليوم اجتماعها الذي بدأته يوم الاربعاء الماضي ، وذلك لمناقشة كافة الظروف التي تمر بها القضية الفلسطينية على ضوء التطورات في المنطقة . وقد سادت الاجتماع نفس الروحية البناءة التي سادت الاجتماع السابق، والمتوجهة نحو تحقيق وحدة الموقف الوطني الفلسطيني . وقد تم خلال هذا الاجتماع الاتفاق على جملة قضايا أساسية ستكون مدار بحث وصياغة بين لجنة مصغرة تضم الاخوة أبو عمار والدكتور جورج حبش ونايف حواتمة وزهير محسن وعبد الوهاب الكيالي وعبد المحسن ابو ميزر وأحمد جبريل » . وقد ذكرت « السفير » (٥/١٢) ان مهمة « اللجنة السباعية » التي تشكلت هي غربلة المناقشات والخروج منها بموقف موحد جماعي يستند الى ما اتفق عليه خلال الاجتماعات او ما يمكن الاتفاق عليه لاحقا .

الجديد في الموقف الاردني

كانت عناصر الموقف الاردني تجاه مسألة التمثيل الفلسطيني حتى نهاية شهر نيسان (ابريل) الماضي كما كشفت عنها تصريحات حسين والمسؤولين الاردنيين والبيان المصري ــ الاردني المشترك الصادر في ٤/٦ كما يلي : ان الضفة الغربية جزء من المملكة الاردنية وبذلك فليس من حق منظمة التحرير ان تتحدث بشأنها ، غير ان المنظمة يحق لها التحدث عن حقوق الشعب الفلسطيني التي تتجاوز « مسؤولية » الملك ، أي كل ما ليس له علاقة بالضفة الغربية . وهكذا فان الاعتراف الاردني بمنظمة التحرير لا يعني ان المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وانما النظام الاردني شريك في هذا التمثيل ، ونصيب النظام في هذه « الشركة » فلسطينيو الضفة الغربية وشرقي الاردن . من هذه الحيثيات « يوافق » الاردن على ذهاب وفد من المنظمة الى جنيف ، بعد ان كان الموقف الاردني في السابق ان الوفد الفلسطيني يجب ان يكون ضمن اطار الوفد الاردني ، غير ان هذه الموافقة مشروطة بألا يكون من اختصاص الوفد بحث مسألة مصير الضفة الغربية ، لان الوفد الاردني سيكون قد بت فيها في دورة سابقة في غياب وفد المنظمة . (راجع شهريات « شؤون فلسطينية » العدد ٣٣) .

كانت هذه هي عناصر الموقف حتى ٥/١ عندما القى الملك حسين خطابا لمناسبة عيد العمال برزت فيه النقاط التالية :

لقد أكد الملك ان اعترافه بمنظمة التحرير قائم منذ ان قامت المنظمة في العام ١٩٦٤ ، غير انه عاد الى التمييز بين « مسؤولياته » ومسؤوليات المنظمة في مؤتمر جنيف . فوجود وفد المنظمة في مؤتمر جنيف « أمر طبيعي كي يبحث في ما يتعدى صلاحياتنا ومسؤولياتنا المحددة في نطاق قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ . ويستطيع وفد المنظمة ان يطالب بالحقوق الشرعية لشعب فلسطين ، تلك الحقوق التي نصت عليها قرارات الامم المتحدة على مدى القضية » . ويلاحظ ان الملك حصر حقوق شعب فلسطين الشرعية بتلك التي نصت عليها قرارات الامم المتحدة ، وهي قرارات لم يكن لها علاقة بالضفة الغربية من حيث انها جزء من المملكة الاردنية من وجهة النظر الدولية ، كما ان

« المسؤوليات » التي سيضطلع بها الملك تقع في نطاق قرار مجلس الامن ٢٤٢ الذي يتعامل مع الاراضي **العربية** المحتلة (الضفة الغربية هنا) التي هي من « صلاحياته » واختصاصه . وهكذا يفهم رفض الملك « كل محاولة بعيدة او قريبة ، اسرائيلية او عربية ، تلتقي بوعي او بغير وعي لجعل التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف يتمثل بغير منظمة التحرير بالذات » ، يفهم من خلال ارتباطه بما سبقه عن تمثيل المنظمة لما يتعدى « صلاحيات » الملك و « مسؤولياته » وهو هنا منسجم مع المواقف السابقة التي أشرنا الى عناصرها .

غير ان الجديد الذي دخل في الموقف الاردني هو ما عبر عنه الملك بقوله : « اذا اتجهت ارادة الدول العربية وقادتها الى ايجاد **وضع جديد** يلتقي على منظمة التحرير الفلسطينية **وحدها** مسؤولية البحث والسعي والعمل **لاسترجاع الارض الفلسطينية المحتلة بما فيها الضفة الغربية والقدس** ، والحقوق الفلسطينية ، وضع يكون من شأنه تغيير المسؤوليات وتبديل الاوضاع ، فلا نملك ازاءه أمام الاخوة العرب ، اذا اتجهوا الى الاخذ بمثل هذا القرار ، الا ان نستجيب **لاجماعهم** ونعتبره اعفاء لنا من مسؤولياتنا وتجعل الحكم على هذا القرار للتاريخ وحده » .

ان عناصر الموقف كما تبدو هنا هي كما يلي : لم يصرح الملك باعترافه بأن المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني بل أبدى استعداده للقبول بأن تكون مسؤولية المنظمة « البحث والسعي والعمل لاسترجاع الارض الفلسطينية المحتلة بما فيها الضفة الغربية والقدس » بجانب « الحقوق الفلسطينية » ، وقد جعل هذا الاستعداد مرهونا باتجاه الدول العربية الى ايجاد **وضع جديد** بمعنى **قرار جديد** فيه **اجماع جديد** . وفي هذه الحالة يتنازل الملك عن « مسؤولياته » تجاه الضفة الغربية ليكون **استرجاعها** من مسؤولية المنظمة ، وهي مسؤولية تقع ، كما يفهم من نص الخطاب ، ضمن اطار مؤتمر جنيف ، وبذلك فان هناك تضمينا بأن الاردن لن يذهب الى جنيف وهو ما اعتبره الملك « اعفاء لنا من مسؤولياتنا » . وهذه المسؤولية عن استرجاع الضفة الغربية في هذا الاطار هي الجديد الوحيد — في تقديرنا — في الموقف الاردني وليس الاعتراف بالمنظمة كما حاولت الصحافة — المصرية على الاخص — ان توحي . فان اعتراف الملك بأن المنظمة هي الممثل الشرعي **الوحيد** للشعب الفلسطيني سيفتح المجال واسعا امام التساؤل عن « **حق** » الملك ونظامه ليس في تمثيل فلسطينيي الضفة الشرقية فحسب وانما في **حكمهم** ايضا . وبذلك فان صميم مسألة **الرعوية الاردنية** للفلسطينيين في شرق الاردن ، وبالتالي مسألة الكيان الاردني نفسه حيث فيه الفلسطينيون — ديموغرافيا — أكثرية السكان ، ستكون مطروحة للبحث .

ما هي الاسباب التي دفعت الملك الى اتخاذ موقفه « الجديد » هذا وهو جديد بقدر ما هو مرهون بشروط حددها الملك . يمكن هنا ان يطرح عدد من التفسيرات ، احدها او بعضها او هي مجتمعة ، تلقي ضوءا على هذا الموقف المستجد .

١ — باسترجاع الاسلوب التاريخي الذي واجه به الملك تيارات المعارضة او الحركة الوطنية في البلد نستنتج ان اوضح خاصيات هذا الاسلوب ان الملك كان احيانا يضطر لاحناء رأسه للعاصفة عندما يجد ان موقعه أضعف من ان يقاومها والا تقتلعه من جذوره ، وبذلك فهو يقدم بعض التنازلات ، او التراجعات ، تربصا لفرصة قادمة ينقض فيها على المعارضة او الحركة الوطنية من موقع متمكن . أبرز تجاربه في هذا الصدد كانت في العامين ١٩٥٦ و١٩٥٧ عندما اضطر أمام مد الانتفاضة الجماهيرية التي حدثت في اواخر العام ١٩٥٥ في اثناء مسعى بريطانية لضم الاردن الى حلف بغداد ، اضطر الى التراجع امام الحركة الوطنية والى تقديم بعض التنازلات كان أبرزها طرد الجنرال كلوب من الجيش والسماح باجراء انتخابات حرة أسفرت عن قيام حكم وطني. غير انه عاد فانقض على الحركة الوطنية بانقلابه المضاد المشهور في العام ١٩٥٧ عندما وجد الدعم والتأييد من جانب الولايات المتحدة بعد اعلان مبدأ ايزنهاور في « سد الفراغ » في الشرق الاوسط . ومن تجاربه البارزة كذلك انحناؤه أمام حركة المقاومة الفلسطينية ، بالتحديد بعد معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨ ، والتسليم — بالامر الواقع — بحقها في الوجود العسكري والسياسي في شرق الاردن . الا ان هذا الانحناء لم يدم زمنا الا بمقدار

ما استطاع الملك ان يعبيء قواعده داخل الجيش والعشائر ويبني ادواته القمعية التي إستخدمها بكفاءة في هجمته على المقاومة في العامين ١٩٧٠ و١٩٧١ . باستحضار هذا التاريخ هل يمكن القول ان موقف حسين الجديد — المشروط هو شكل من التراجع ، تحينا لفرصة مناسبة أكثر ، أمام ضغط فكرة حق المنظمة في تقرير مصير الارض الفلسطينية؟

٢ — بالاضافة الى ذلك — او ربما بديلا لذلك — فانه يمكن ان يؤخذ في الاعتبار لدى تفسير هذا الموقف ، ما تناقلته الانباء وركزت عليه وسائط الاعلام الفلسطينية في الفترة الاخيرة ، عن وجود تيارين داخل المؤسسة الحاكمة في الاردن (بالاخص داخل القصر) بالنسبة لما يجب ان يكون عليه الموقف من الضفة الغربية . التيار الاول يجسده حسين نفسه ويرمي الى التمسك بالضفة الغربية والابقاء على « مسؤولية » الاردن تجاهها ، اما التيار الثاني الذي ذكر انه بدأ يتبلور بعد مجازر تموز ١٩٧١ والذي يقوده الامير حسن ، فيهدف الى « اردنة » الاردن والتخلي عن كل مطالبة بالضفة الغربية والانعزال ضمن حدود شرق الاردن القديمة، وبذلك اسقاط خصوصية الاردن تجاه المسألة الفلسطينية . وقد استفاد هذا التيار من بوادر الشرخ الاقليمي في شرق الاردن الذي غذاه النظام نفسه لكسب معركته مع المقاومة . وقد كانت الانباء تشير الى تصاعد هذا التيار الثاني وازدياد تصلبه بحيث تعدى شكل ان يكون « خلافا في القصر » وانما هو بالفعل انعكاس لقواعد اجتماعية يستند اليها النظام. باسترجاع ذلك يطرح هنا الاستخلاص المتسائل : هل هذا الموقف الاخير من الملك يعتبر تنازلا للتيار الثاني — تنازلا مشروطا — ونوعا من المهادنة معه وتراجعا جزئيا امامه ؟ يضحي هذا التفسير مقبولا اذا أخذ في الاعتبار التركيز من جانب السلطات الاردنية على امكان الاستغناء عن الضفة الغربية اقتصاديا . ومن أمثلة ذلك ما نقلته صحيفة « الرأي العام » الكويتية (٥/٦) عن الدوائر الاردنية « شبه الرسمية » عن « ان الضفة الشرقية لنهر الاردن تعد اليوم قادرة على البقاء والحياة بفضل الفوسفات والنحاس بصفة خاصة ، وانه نتيجة لذلك فان المملكة الاردنية الهاشمية لن تنهار من جراء انفصال الضفة الغربية لنهر الاردن عنها » .

٣ — احد التفسيرات المحتملة لموقف الملك تتعدى العوامل المحلية والذاتية وترتبط مباشرة بما يرتب للمنطقة من اوضاع جديدة بتأثيرات من نتائج حرب تشرين ، وخاصة بالنسبة لمصير الضفة الغربية . ويبدو هذا الاحتمال ممكنا اذا كان الملك قد توصل الى « قناعة » ما بأن الضفة الغربية لن تكون من نصيبه في أية تسوية قادمة نتيجة لموازين القوى كما ظهرت بعد تشرين . وبذلك فان الملك هنا يستبق الاحداث حفاظا على عرشه من ان تطاله يد التغيير في حال تمسكه بأن يكون له نصيب من المكاسب الاقليمية في أية تسوية ، وبذلك فهو « يقنع بما له » حفاظا على الوجود نفسه .

٤ — فسر الاخ ابو أياد موقف حسين بثلاثة احتمالات : « الاول ان يكون الملك قد عرف من خلال اتصالاته بالعدو واميركه بعد كل التنازلات التي قدمها ان الانسحاب من الضفة الغربية لن يكون لانه ليس عليه اجماع . ولذلك يمكن ان يكون هذا التنازل الملكي التكتيكي لاحراج منظمة التحرير . الثاني : يريد الملك حسين ان يحرج منظمة التحرير ، او بمعنى آخر يريد ان يعرف هل ستتبنى منظمة التحرير مسؤوليتها وتتحدى الملك وتقبل بتحرير الارض المحتلة من خلال التسوية . والملك يعتقد ان هذه المناورة ستفجر الموقف الفلسطيني وستضعفه . ويعتقد الملك بعد ذلك ان الدول العربية ستلجأ الى الاردن وتتخلى عن منظمة التحرير . والثالث ان يكون هناك اتفاق بين الملك حسين وبعض الدول العربية على هذا الطرح من أجل عدم اعطاء المنظمة هذا الحق ، من خلال رفض بعض الدول العربية اعطاء المنظمة الحق في المطالبة بالاراضي التي سيجلو عنها الاحتلال » . (مقابلة مع صوت فلسطين في القاهرة نشرتها « السفير » ٥/٣) .

أي ان الموقف هنا لا يزيد عن مناورة لا تبطل الموقف الاساسي للنظام الاردني في التمسك بالضفة الغربية ، بل هي تعزز هذا الموقف وتقود اليه . ويبدو من تصريحات عدنان ابو عودة ، وزير الاعلام والثقافة الاردني ، في تفسيره لموقف حسين الاخير رائحة المناورة هذه واضحة . فقد صرح لـ«النهار» (٥/٩) ان الاردن يفرق بين امرين : « الاول هو الضفة الغربية باعتبارها جزء من المملكة نعمل لاستعادتها بمختلف الوسائل وابرزها الان علاقتنا

المباشرة بالمساعي السلمية في اطار مؤتمر جنيف والمجسدة في جولات الدكتور كيسنجر . والامر الثاني هو حقوق الشعب الفلسطيني . وموقف الاردن هو موقف الدول العربية ، أي حق منظمة التحرير في التحدث باسم الشعب الفلسطيني والسعي الى نيل حقوقه». ويظهر **الابتزاز السياسي** في شروحات الوزير الاردني بقوله « اذا **أكملت** الدول العربية اعترافها بالمنظمة كممثل وحيد وشرعي للشعب الفلسطيني وقالت انها هي الجهة الصالحة لحضور مؤتمر جنيف للتفاوض على استعادة الاراضي العربية المحتلة في الضفة الغربية فلها منا المباركة . لكن ذلك يعني ، بالنسبة الينا ، اننا خرجنا من مؤتمر جنيف ولا علاقة لنا به بعد الان » .

ومهما تكن التفسيرات ، فان موقف النظام الاردني من مسألة التمثيل الفلسطيني ومصير الارض الفلسطينية لن يتعدى مهام الوظيفة الكيانية للاردن التي صممتها تاريخيا المصالح الاستعمارية في المنطقة . وهي وظيفة دخلت في الماضي في صميم الاستراتيجية البريطانية ، وهي تدخل حاضرا في صلب الاستراتيجية الاميركية . وبذلك فان أي دور مستقبلي للنظام ستحدده طبيعة هذه الوظيفة واطارها وتتحكم به ارادة خارجة عن كل ادعاء ذاتي وهذه الارادة بدورها تظل خاضعة لجملة موازين القوى وقوانين الصراع في المنطقة .

الفلسطينيون والكويت

في شهر نيسان وايار الماضيين تعرضت العلاقات الفلسطينية الكويتية لشبه ازمة ظهرت علائمها اعلاميا . وقد بدأت هذه عندما نشرت « السفير » اللبنانية (٤/٢٧) نبأ قالت فيها ان مصادر فلسطينية مطلعة أبلغت الصحيفة ان حكومة الكويت اجرت مؤخرا اتصالات مع عدد من الدول الغربية وخصوصا فرنسا وبريطانيا لاقناعها بتأييد مشروع المملكة العربية المتحدة الاردني بدلا من دعم منظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني حسب قرارات مؤتمر القمة العربي . واضافت المصادر كما اوردت الصحيفة ان حكومة الكويت اوضحت لبريطانية وفرنسة ان سير الامور بشكل مغاير سيؤثر على الوضع العام للمصالح البترولية الغربية لديها ، كذلك فانه سبق لوفد الكويت في مؤتمر القمة العربي الاخير في الجزائر ان مارس نوعا من الضغط في كواليس المؤتمر لاقناع الوفد الفلسطيني بالتنازل عن كلمة «الوحيد» في متن القرار المتعلق بتمثيل الشعب الفلسطيني ، كما ان الوفد الكويتي الى مؤتمر القمة الاسلامي في لاهور حرص على تشجيع السيد عبد المنعم الرفاعي ، رئيس الوفد الاردني ، لتسجيل تحفظه على قرار المؤتمر الداعي لاعتماد منظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، وذكرت الصحيفة بأن الكويت كانت قد أعادت المساعدات للاردن في اثناء حرب تشرين وهي التي قطعت بعد مجازر ايلول ١٩٧٠ كما قررت في ١٣ آذار الماضي تقديم معونة للاردن مقدارها ٢٥ مليون جنيه استرليني .

ردا على ذلك نفى السيد عبد العزيز حسين ، وزير الدولة الكويتي ، ان تكون الكويت قد أجرت اتصالات لتأييد مشروع الملك حسين الخاص باقامة مملكة عربية متحدة وقال ان هذا النبأ لا أساس له من الصحة « والكويت تدعم كليا القضية الفلسطينية » (« النهار » ٤/٢٩) ، غير ان « السفير » (٤/٢٩) عادت فأكدت ان هذه المصادر الفلسطينية « وثيقة الاطلاع » قالت ان لديها ما يثبت ان حكومة الكويت تتجه الى الضغط على بعض الدول الاوروبية لتقديم دعمها السياسي لمشروع الملك حسين وتخفيف الدعم السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وان هذه المصادر لديها معلومات مستقاة من مصادر كويتية مطلعة تفيد بأن الحكومة الكويتية سوف تقوم خلال الايام القادمة بتحرك نشط لصالح النظام الاردني . وقد أبرزت « وفا » (٤/٢٩) ما نشرته السفير ووضعته تحت عنوان « مصادر فلسطينية تؤكد : الكويت تتجه لدعم مشروع الملك المؤامرة » وكانت السلطات الكويتية قد منعت في وقت سابق مدير وكالة «وفا» من دخول الكويت واحتجزته طوال الليل في المطار قبل تسفيره الى بيروت يوم ٢/٢٤ . وذكرت « المحرر » (٤/٢٥) ان « م.ت.ف. أبدت اهتماما بالغا بالحادث واعتبرته تصرفا غريبا من الحكومة الكويتية التي أعلنت تأييدها في مناسبات عديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة وحيدة وشرعية للشعب الفلسطيني ، كما خلق الحادث نوعا من الاستياء الشديد لدى قادة المنظمة الذين قرروا التحقيق في الحادث واستفسار السلطات الكويتية عن أسباب منع المسؤول الفلسطيني المذكور من

دخول الكويت ، وعما اذا كان الحادث يعتبر فرديا أم تحولا جديدا في سياسة الكويت تجاه منظمة التحرير » . وقد ذكرت صحيفة « الرأي العام » الكويتية (٤/٢٨) ان مدير « وفا » منع من دخول الكويت لانه مدون في « اللائحة السوداء » منذ ابعاده عن الكويت في العام ١٩٦٦ لأسباب سياسية .

في ٥/١ شاركت « فلسطين الثورة » في الحملة فكتبت مقالا تحت العنوان « لماذا هذا الموقف لحكومة الكويت ؟ ملايين الدنانير الى الاردن يقابلها قطع المعونة عن مدارس منظمة التحرير » . وقد ذكّرت المجلة في مقالها بالنداء الذي نشرته الصحف الكويتية قبل ذلك باسبوعين ودعا فيه مكتب المنظمة في الكويت الجالية الفلسطينية الى جمع مبلغ مئة وخمسين الف دينار كويتي لتغطية نفقات تعليم أبناء فلسطين في مدارس منظمة التحرير في الكويت . وعلقت الصحيفة على ذلك بقولها «يبدو ان الاسباب الكامنة وراء مثل هذا الاعلان ليست مالية بحتة بل ان الاسباب الحقيقية أسباب سياسية اولا وقبل كل شيء . فالكويت تريد الفلسطينيين أدوات عمل عندها ، وهذا لا يمكن ان يتحقق الا في ظل استمرار الفلسطينيين في واقعهم السياسي والاجتماعي والتعليمي نفسه ، أي بمعنى أوضح ، في ظل بقائهم مشردين ومقهورين وطنيا ، وتحت حكم النظام الهاشمي العميل في عمان ، بينما الفلسطينيون يريدون وجودهم السياسي وكيانيتهم المستقلة المتحررة من أي وصاية عربية . اذا كان ثمة شيء غير هذا فلتقل لنا السلطة الكويتية لماذا يتعلم ابناء الشعب الفلسطيني في كل البلدان العربية الفقيرة والغنية في كل مدارسها وجامعاتها بالمجان الا في الكويت الغنية ؟ ثم لماذا تقدم الكويت ملايين الدنانير الى الاردن بحجة الصمود العربي وتضن على شباب الغد الفلسطيني ، ابناء النضال والصمود الحقيقي ، ببضعة من الدنانير الكويتية ولا تلتزم لا بل تقطع المعونة التي تعهدت بتقديمها الى مدارس المنظمة » .

كانت ردة الفعل الاولى على الصعيد الكويتي ان السيد عبد العزيز حسين أكد ان بلاده تقدم تأييدها لمنظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد لشعب الفلسطيني ، كما أكد ان الكويت لن تتردد في تقديم كل المساعدات اللازمة للمنظمة وأوضح ان هناك تعاونا وثيقا بين الكويت والمنظمة وخاصة في مجال التعليم ثم نفى نبأ الغاء الكويت المنح التي تقدمها للطلبة الفلسطينيين (« وفا » ٥/٢) .

غير انه يبدو ان هذا التصريح كان يخفي خلفه جوا من الانفعال والتوتر في العلاقة الفلسطينية — الكويتية مما تطلب زيارة الى الكويت قام بها الاخ ابو مازن ، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح وعضو المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية استمرت ثلاثة ايام واختتمت في ٥/٥ . وقد ذكرت « الرأي العام » الكويتية (٥/٥) ان ابو مازن قام بزيارة للسيد سعد العبدالله ، وزير الداخلية والدفاع ، وقد دار البحث فيها حول موضوع مشكلة التعليم التي اثارتها « فلسطين الثورة » . وذكرت الصحيفة الكويتية ان « الجانب الفلسطيني أوضح ان ما حصل لا يعبر عن حقيقة العلاقة ولا عن الشعور الحقيقي الذي يكنه الفلسطينيون للكويت ، وان الكلام الذي قيل لا يعبر عن رأي قيادة المقاومة » . كما قال السيد علي ياسين مدير مكتب المنظمة في الكويت والذي حضر اللقاء ان المنظمة راغبة في حل مشكلة التعليم بمساعدة الكويت . وطرح فكرة لتوفير نفقات التعليم الفلسطيني ذاتيا ، عن طريق فرض ضريبة خاصة بمساعدة اجرائية من الحكومة ... وقالت الصحيفة كذلك ان الوزير الكويتي أكد ان مجلس الوزراء سيبحث في جلسته صباح اليوم نفسه مشكلة التعليم الفلسطيني في ضوء المقترحات والدراسات التي ستدرسها لجنة تتمثل فيها الجهات المعنية الكويتية والفلسطينية .

وقد عقد مدير مكتب منظمة التحرير في الكويت في وقت لاحق مؤتمرا صحافيا أطرى فيه العلاقات الكويتية — الفلسطينية وتحدث عن المشكلات التي يواجهها المواطن الفلسطيني في الكويت وتوسع في مشكلة التعليم « التي أثيرت أخيرا ولكنها أثيرت للاسف بصورة سيئة لا تساعد على حلها اللهم الا اذا كنا أكبر بكثير من ان تؤثر فينا مثل تلك الحملة. ونحن نعتقد ان العلاقات القائمة بيننا وبين اخواننا في الكويت وحرصنا وحرصهم على حل هذه المشكلة لا يمكن ان يتأثر بزوبعات خارجية طارئة لا تهدف الى حل المشكلة » (« السياسة » الكويتية ٥/٧). وتلخص مشكلة التعليم الفلسطيني في الكويت

حسبما ورد في المؤتمر الصحافي المذكور بما يلي : نتيجة هجرة عدد كبير من الفلسطينيين من الضفة الغربية في أعقاب ١٩٦٧ وجد نحو ٦٠٠٠ طالب في مختلف مراحل الدراسة ليست لهم أماكن في مدارس وزارة التربية الكويتية وآباؤهم من العمال الذين لا يزيد أجر الواحد منهم عن دينار ونصف الدينار في اليوم . وكان الحل ان تولت المنظمة انشاء مدارس في الكويت اضطلعت بادارتها على امل ان تنتهي المشكلة سريعا . غير ان المشكلة تفاقمت بعد أحداث الاردن ١٩٧٠ — ١٩٧١ وهجرة عدد آخر من الفلسطينيين الى الكويت ، فبلغ عدد الطلبة في مدارس المنظمة ١٥ الف طالب . وهذه المدارس تحتاج الى نصف مليون دينار سنويا لدفع رواتب المعلمين والمعلمات وهي رواتب رمزية (بين ٤٠ و٦٠ دينارا في الشهر) . وكان تأمين هذا المبلغ يتم كما يلي : ٢٥٠ الف دينار يدفعها الطلاب أقساطا . في السنوات الاربع الاولى ، وكان عدد الطلاب نصفه الان ، قدمت الدولة ٢٠٠ الف دينار في كل السنوات ، وفي السنة الخامسة قدمت ١٥٠ الفا ، وفي السنة السادسة قدمت ١٠٠ الف وفي العام الحالي قدمت ١٥٠ الفا . أما الجزء الباقي وهو ١٠٠ الف دينار فيقوم مكتب المنظمة بتغطيته بحملة تبرعات . وقال مدير المكتب « اصبح تأمين نصف المليون بالطريقة السابقة غير ممكن لاننا حين ضغطنا على اولياء الامور ليدفعوا القسط الذي يبلغ نصف التكلفة افهمناهم ان المشكلة مؤقتة وانها ستجد حلها بتحقيق مجانية التعليم او بعودتهم الى الضفة الغربية » .

كان رد الفعل الكويتي على ما أعلنه مدير مكتب المنظمة تصريحا ادلى به السيد جاسم المرزوق ، وزير التربية الكويتي (« الرأي العام » الكويتية ٥/٩) . قال فيه ان « الفلسطينيين في الكويت ليسوا لاجئين بل انهم يحتلون مراكز رفيعة في الوزارات والدوائر والشركات المختلفة وانهم ليسوا من الطبقة الاقل دخلا في هذا البلد » . وأضاف « ان الذين قبلناهم في مدارس وزارة التربية يشكلون ٣٧ ٪ من مجموع الكويتيين وان عدد الطلبة الفلسطينيين يبلغ ٣٠ الفا في حين ان معظم الجاليات العربية تساوي العدد نفسه » وحذر الوزير من « اننا لا نقبل الدس او الاثارة ويجب على الاخوان ان ينتبهوا الى ذلك » .

وبطبيعة الحال فان مثل هذا التحذير لا يفيد في حل المشكلة وانما هي تحتاج الى دراسة عميقة ومسعى جاد من جانب المنظمة لحلها . ولتبيان حجم المشكلة سنورد هنا ارقاما عن اوضاع الفلسطينيين في الكويت ومسألة التعليم بينهم (مستقاة من بلال الحسن ، الفلسطينيون في الكويت ، مركز الابحاث ١٩٧٤) .

بلغ عدد الفلسطينيين في الكويت حسب احصاء ١٩٧٠ ، ١٤٧٦٩٦ نسمة من مجموع ٧٣٨٦٦٢ نسمة (بينهم ٣٤٧٣٩٦ كويتيا) . أي ان نسبة الفلسطينيين الى مجموع السكان هي ٢٠ ٪ ونسبتهم الى الكويتيين هي ٤٢ ٪ . وقد بلغ عدد العاملين الفلسطينيين في الاحصاء نفسه ٤١١٠٢ منهم ١٨٨٣٣ في القطاع الحكومي ، ١٧٩٩٠ مستخدما في القطاع الخاص، ٣٤٥٧ يعمل لحسابه، ٧٩٦ صاحب عمل ، ٢٦ يعمل للاسرة . ومن الملاحظ ان متوسط أجور الكويتيين هو دائما أعلى من متوسط اجور غير الكويتيين (بمن فيهم الفلسطينيون) . ففي القطاع الاداري يبلغ متوسط أجر المستخدم الكويتي ١٥٣ دينارا بينما يبلغ متوسط أجر غير الكويتي ١١٢ دينارا . ويزداد هذا الفارق في قطاع العمال ، اذ يبلغ متوسط اجر العامل الكويتي ٧٢ دينارا بينما متوسط اجر العامل غير الكويتي ٣٨ دينارا .

بلغ عدد الطلاب الفلسطينيين في العام ١٩٧١/ ١٩٧٢ في المدارس الكويتية ١٨١٣٥ طالبا بنسبة ١٢،٠٤ ٪ من مجموع الطلاب العام وهي نسبة تقل كثيرا عن نسبة عدد الفلسطينيين الى مجموع السكان التي تجاوزت في ذلك العام ٢٠ ٪ . أما في مدارس منظمة التحرير فقد بلغ عددهم في العام نفسه ١٤٤٠١ طالب . منهم نسبة ٦٨،٨١ ٪ في الابتدائي ، ٢٦،١٧ ٪ في المتوسط ، ٥،٠١ ٪ في الثانوي . وتتقاضى مدارس المنظمة أقساطا من الطلاب كما يلي : في المرحلة الابتدائية تتراوح الاقساط السنوية بين ٦ دنانير لمن لا تتعدى رواتبهم ٢٠ دينارا و٤٠ دينارا لمن تزيد رواتبهم عن ١٦٠ دينارا . في المرحلة المتوسطة الحد الادنى ٩ دنانير والاعلى ٦٠ دينارا . وفي المرحلة الثانوية الحد الادنى ١٢ دينارا والاعلى ٦٥ دينارا . وبذلك فان جدول الاقساط يتأثر بالدخل ويراعي الوضع الاجتماعي لاولياء امور الطلاب . امـا رواتب

المدرسين فهي منخفضة جدا بالقياس الى مثيلاتها في الكويت وبالنسبة الى ارتفاع مستوى المعيشة هناك ، فهي في حدود ٥٠ دينارا لحامل الشهادة الجامعية و٤٠ دينارا لحامل شهادة دار المعلمين و٣٥ دينارا لحامل الشهادة الثانوية . ويضطر المعلمون الى قبول هذه الرواتب لعدم توفر فرص العمل وكمرحلة انتقالية يبحثون خلالها عن عمل افضل وهذا بالتأكيد يعكس نفسه على عطاء المعلم انعكاسا سلبيا .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

كان اهم تطور دولي بالنسبة للقضية الفلسطينية في الشهر الماضي جولة كيسنجر في المنطقة لتحقيق اتفاق لفصل القوات في جبهة الجولان. وحتى كتابة هذه السطور لم تكن جهود الوزير الامريكي قد أسفرت عن أية نتائج ملموسة على الرغم من أنها دخلت اسبوعها الرابع وشملت ما لا يقل عن عشر جلسات من المحادثات والمفاوضات مع الزعامة السورية والسلطات الاسرائيلية .

بدأ كيسنجر جولته في جينيف حيث قابل اندريه غروميكو قبل توجهه الى الشرق الاوسط . وعقد الوزير الامريكي مؤتمرا صحفيا في جينيف ذكر فيه: ١) انه ليس متأكدا من انه سيستطيع التوصل الى الاتفاق المطلوب خلال هذه الجولة . ٢) ان بلاده على استعداد للاخذ بعين الاعتبار وجهات النظر السوفياتية حول موضوع فصل القوات . وكان ذلك اشارة الى الدور الذي يفترض ان يلعبه الاتحاد السوفياتي في مساعي التسوية والى الضغط الذي مارسه والتلاحم مع سوريا والمقاومة الفلسطينية كي لا تنفرد الولايات المتحدة بالاشراف على تحقيق الاتفاق كما جرى على جبهة قناة السويس . وهذا ما يفسر قول كيسنجر في مؤتمره انه على استعداد لنقل مركز الثقل في الجهود الدبلوماسية من اجل السلام الى جينيف . ٣) ان الولايات المتحدة على استعداد لان تمنح سوريا مساعدات اقتصادية بقيمة ١٠٠ مليون دولار « حالما تلزم نفسها بالسلام وفك الارتباط العسكري » اذ ان الحكومة الامريكية تنوي اتباع سياسة « مساعدات نشطة » في المنطقة بهدف اعادة بنائها سلميا و« لمصلحة كل الشعوب فيها » على حد قول الوزير الامريكي . وقد تناولت محادثات كيسنجر وغروميكو ، وفقا للانباء الصحفية التي ترددت ، موضوع تحقيق اتفاق فصل القوات في الجولان على أساس ربطه بجدول زمني للانسحاب الاسرائيلي من كل الاراضي السورية المحتلة ومسألة نقل محادثات فصل القوات الى جينيف كي تكون باشراف امريكي — سوفياتي . وفي ٣٠ نيسان صدر بيان مشترك عن المحادثات جاء فيه ان الجانبين تبادلا الاراء حول الوضع الحالي لمفاوضات فصل القوات والتسوية السلمية في الشرق الاوسط وأنهما اتفقا على استخدام نفوذهما للوصول الى نتيجة بناءة في هذا الميدان . كما ذكر البيان تأييد الجانبين لاستئناف اعمال مؤتمر السلام في جينيف في وقت قريب .

توجه كيسنجر من جينيف الى الجزائر حيث عقد اجتماعات مع السلطات المسؤولة على اعلى المستويات . وترددت أنباء صحفية في لبنان تقول ان كيسنجر أبلغ الرئيس الجزائري بأن الولايات المتحدة تسعى لاقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة مع بعض التعديلات الطفيفة على الحدود مع اسرائيل وان مؤتمر جينيف سيستأنف اعماله في المستقبل القريب وسيكون وفد المقاومة الفلسطينية حاضرا مع الوفود الاخرى بما فيها وفود سوريا والاردن ومصر ، وعلى أثر ذلك توجه كيسنجر الى القاهرة حيث قابل الرئيس السادات وتناول معه موضوع زيارة الرئيس نيكسون الى مصر وعرض عليه مشروعا لفصل القوات في الجولان يشكل حلا وسطا بين وجهتي النظر السورية والاسرائيلية . ثم انتقل بعد ذلك الى تل أبيب حيث عقد اجتماعات مع رئيسة الوزراء ومساعديها في جو وصفته الصحافة بالفتور بسبب عدم رغبة السلطات الاسرائيلية تقديم أية تنازلات وتخوفها من ضغوط قد يمارسها كيسنجر في هذا الاتجاه . وذكر ناطق رسمي

بلسان وزارة الخارجية الامريكية ان النقاط التي بحثها كيسينجر في تل ابيب شملت خط فصل القوات ، وتبادل اسرى الحرب والافراج الفوري عن الجرحى منهم ، اقامة منطقة منزوعة السلاح بين الجانبين السوري والاسرائيلي بالاضافة الى الدور المحتمل لهيئة الامم في التسوية . ثم انتقل الوزير الامريكي الى دمشق حيث عقد اجتماعات استمرت ٧ ساعات مع الرئيس الاسد لكنها لم تؤد الى اكثر من تصريحات تقول « بأنه تم احراز بعض التقدم في المحادثات » التي كانت « بناءة وشاملة » وذكرت الاوساط الامريكية المرافقة لكيسينجر ان هذه المحادثات ركزت على الخطوط العامة لفصل القوات تاركة التفاصيل للزيارات اللاحقة. ومع أنه كان من المتوقع ان ينتقل كيسينجر من دمشق الى تل ابيب مباشرة الا ان ذلك لم يحدث اذ أنه سافر أولا الى الاسكندرية حيث اجتمع مطولا بالرئيس السادات مرة ثانية . ولم تصدر أية معلومات عما جرى في هذه المحادثات باستثناء كونها تناولت الشوط الذي قطعته جولة الوزير حتى ذلك الحين . أما القسم اللاحق من الجولة فقد امضاه كيسينجر متنقلا بين تل ابيب ودمشق (وهو ما زال يفعل ذلك حتى كتابة هذه السطور) في محاولة « لتقريب وجهتي النظر المتعارضتين » على حد قول الاوساط الامريكية المرافقة لكيسينجر . وجدير بالاشارة انه تخللت تنقلات كيسينجر بين دمشق وتل ابيب زيارات سريعة لكل من عمان والرياض والقاهرة وقبرص حيث أجرى محادثات اضافية مع غروميكو . كان الهدف من زيارة عمان اطلاع الملك حسين على نتائج محادثاته المربية — الاسرائيلية حتى حينه . وقد تناولت محادثاته هناك بالاضافة الى مشكلة التسوية السلمية في المنطقة العلاقات الثنائية بين البلدين التي وصفها بأنها ممتازة . وقد أشارت تصريحات كيسينجر الى أن المحادثات في عمان شملت أيضا مسألة ما يسمى « بفصل القوات الاردنية — الاسرائيلية » ، وموضوع المساعدات الامريكية الاقتصادية والعسكرية للاردن . اما في قبرص فقد صدر بيان مشترك على أثر المقابلة التي جرت بين كيسينجر وغروميكو جاء فيه ان موضوع فصل القوات في جبهة الجولان هو « جزء من القضية العامة لمسألة تحقيق تسوية في الشرق الاوسط » مما اعتبره المراقبون انتصارا للموقف السوري — السوفياتي حول هذا الموضوع . وفي الرياض اجرى كيسينجر محادثات استغرقت ٦ ساعات مع الملك فيصل والمسؤولين السعوديين حيث بحث معهم في جولته وما تمكن من تحقيقه وما لم يتمكن حتى حينه . وأعلن كيسينجر ان الرئيس نيكسون هو الذي طلب عقد الاجتماع بالملك فيصل وابلاغه عن تطورات محادثات فصل القوات لان الحكومة الامريكية تعلق اهمية كبرى على نجاح الجولة وعلى آراء ووجهات نظر الملك فيصل وحكومته في هذا الشأن . وتجدر الاشارة هنا الى النقاط التالية بالنسبة لمهمة كيسينجر : ١) الانباء الصحفية القائلة بأن الرئيس نيكسون بعث بثلاث رسائل شخصية الى جولدا مائير منذ بدء جولة وزير خارجيته الحالية حيث طلب من السلطات الاسرائيلية تسهيل مهمة كيسينجر مؤكدا اهتمامه الشخصي بجولته ، كما أشار على اسرائيل بضرورة التحلي بالمرونة وبعدم تحمل مسؤولية التفريط بالفرصة المتوفرة الان لاحلال الهدوء في المنطقة . ٢) في كل تنقلات كيسينجر بين دمشق وتل أبيب كانت جملة تتردد باستمرار وتقول « لقد حققنا بعض التقدم لكننا لم نتوصل الى اتفاق » . ٣) الانباء التي ترددت عن ان التعارض بين وجهتي النظر السورية والاسرائيلية يتركز حول أ) مدى الانسحاب الاسرائيلي خارج الجيب الذي احتلته القوات المعدوة في حرب اوكتوبر ١٩٧٣ وما اذا كان سيشمل هذا الانسحاب التلال الاستراتيجية المحيطة بمدينة القنيطرة . ب) اصرار سوريا على ربط اي اتفاق للفصل بين القوات بالتزام اسرائيلي بالجلاء عن الجولان بالكامل ضمن اطار تسوية شاملة للازمة . ج) مشكلة وضع قوات طوارىء دولية او مراقبين دوليين في المنطقة العازلة بين قوات الطرفين .

بالنسبة للنشاطات السياسية الامريكية الاخرى في المنطقة فقد ذكر مسؤولون رسميون في واشنطن أن شحنات الاسلحة الامريكية الى الاردن سترتفع الى ثلاثة اضعافها في السنة المقبلة بعد موافقة الكونغرس على ذلك . واوضح هؤلاء ان الاردن سيتلقى ما قيمته ١٣٠ مليون دولار من هذه المساعدات خلال ١٩٧٥ وسيخصص ١٠٠ مليون دولار من أصل هذا المبلغ للمساعدات العسكرية المباشرة بينما يتم تقديم الباقي بصورة قروض لشراء اعتدة عسكرية ايضا . وكجزء من هذا السلاح

الامريكي سيتلقى الاردن طائرات من نوع فاه (فانتوم) مقاتلة ودبابات من نوع م ٦٠ ومدفعية وسيارات مصفحة لنقل الجنود . وطلب الرئيس نيكسون من الكونغرس، كجزء من مشروع ما يدعونه بالمساعدات العسكرية والاقتصادية الامريكية الخارجية ، تخصيص مبلغ ٢٥٠ مليون دولار لمصر بهدف « دعم قوى الاعتدال في الشرق الاوسط » . وقال نيكسون في طلبه ان المساعدة المطلوبة ستعين مصر على تطهير قناة السويس وتعمير المدن القريبة منها واعادة التبادل التجاري مع امريكا .

وكان جوزيف سيسكو قد أدلى بحديث شامل في التلفزيون الامريكي تناول فيه مشكلة الشرق الاوسط من كل جوانبها حيث اوضح النقاط الهامة التالية :

(١) ان بلاده تقوم بدور الوساطة بين الطرفين العربي والاسرائيلي بناء على رغبة الجانبين لان هناك اتفاقا عاما بأن الاستقرار في المنطقة هو لصالح الطرفين المعنيين كما انه لصالح الولايات المتحدة والدول الكبرى الاخرى .

(٢) ان المضاعفات المترتبة على اي فشل قد تمنى به الوساطة الامريكية ستكون خطيرة جدا . وهذا يعني امكانية نشوب حرب اخرى في المنطقة وما تعنيه من مجابهة خطيرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

(٣) ان مفاوضات فصل القوات في الجولان ستكون اصعب كثيرا مما كانت عليه في الجبهة المصرية لان سوريا واسرائيل تتصارعان على مساحة ضيقة قريبة من المناطق الآهلة بالسكان وتتعرض كل منهما الى ضغوط داخلية .

(٤) ان الجانب العربي قد تخلى تماما عن الفكرة القديمة القائلة بضرورة انسحاب اسرائيل الى حدود ما قبل ١٩٤٨ (اي قرار التقسيم) مما يعني ان القضية لم تعد تتعدى سوى استعادة كل من مصر وسوريا والاردن للاراضي التي احتلت في حرب ١٩٦٧ .

(٥) أشار سيسكو الى وجود تفاهم واضح بين بلاده والاتحاد السوفياتي على منع نشوب اي حرب اخرى في الشرق الاوسط . كما اكد على اهمية الدور السوفياتي لتحقيق التسوية السلمية في المنطقة . واوضح ان الولايات المتحدة تأخذ بعين الاعتبار المصالح السوفياتية والاوروبية في تعاملها مع المنطقة .

(٦) بين سيسكو ان فصل القوات لا يمكن ان يكون نهاية المطاف بحد ذاته . وأبرز هنا التصور الامريكي للحل على اساس تجزئته الى خطوات متتابعة بسبب التعقيد الذي تتصف به القضية على حد قوله . لذلك قال ان موضوع القدس يجب أن يكون المادة الاخيرة على جدول الاعمال لانه حتى الان لا توجد صيغة مرضية لمعالجة مشكلة المدينة المقدسة .

(٧) بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة قال سيسكو ان هذا الموضوع يثير مشكلة من يمثل الفلسطينيين اذ أن كل من الملك حسين من ناحية والمنظمات الفلسطينية من ناحية ثانية يطالب بالضفة الغربية والقدس وذكر ان الانقسامات ما زالت قائمة ومستمرة داخل الحركة الفلسطينية نفسها ومن الضروري ان يجري نوع من التفاهم بين المنظمات الفلسطينية حول من سيتحدث باسمهم اذا اراد الفلسطينيون ان يلعبوا دورا في الاجتماعات المقبلة لمؤتمر جنيف . يضاف الى ذلك ان الدول العربية نفسها مختلفة في الرأي حول الدور الذي يجب ان يقوم به الفلسطينيون . واعترف سيسكو أنه ليس بالامكان تحقيق سلام دائم في المنطقة بدون « تلبية الاماني المشروعة للفلسطينيين » . لكنه أضاف ان هناك انقسامات عربية وفلسطينية حول موضوع هذه الاماني وكيف ستعكس نفسها سياسيا بالاضافة الى غير ذلك من الامور الهامة . كما اكد أنه اذا اتفق الفلسطينيون بين أنفسهم فسيكون لزاما عليهم ان يتفاهموا مع الملك حسين من اجل التوفيق بين مطالبهم ومطالبه .

بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي لا بد من الاشارة الى البيان المشترك الذي صدر على اثر الزيارة الاخيرة للرئيس حافظ الاسد الى الاتحاد السوفياتي والذي كان قد تأخر صدوره بسبب قيام الاسد بزيارة بعض ارجاء الاتحاد السوفياتي بعد انتهاء زيارته الرسمية في موسكو . ذكر البيان في اهم نقاطه :

(١) اتفاق الجانبين على عقد اتفاقات وبروتوكولات جديدة حول التعاون في مجالات التخطيط وتعزيز التعاون الاقتصادي والفني وزيادة حجم التجارة بين البلدين ، وحول التدابير التي تستهدف

تدعيم القدرة الدفاعية لسوريا .

(٢) التأكيد على مواصلة المشاورات الدولية والتعاون في المجال السياسي والدولي وخاصة فيما يتعلق بتطوير العلاقات السورية السوفياتية .

(٣) مناقشة الجهود الجارية حاليا من اجل التوصل الى سلام عادل ودائم في منطقة الشرق الاوسط . وتأكيد الجانبان ان اقامة مثل هـــذا السلام غير ممكن الا على اساس انسحاب القوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعـــب العربـــي الفلسطيني .

(٤) واشار البيان الى أن الاساليب الجزئية الحالية المستخدمة في البحث عن حل للنـــزاع في المنطقة لا تشتمل على المقومات الحقيقية لحـــل الازمة . وان اي اتفاق حول فصل القوات لا بد ان يكون جزءا لا يتجزأ من الحل العام لمشكلـــة الشرق الاوسط .

(٥) أكد البيان من جديد اهمية مشاركة الاتحاد السوفياتي في كل مراحل الحل وميادينه وعلى دور الاتحاد السوفياتي في تقديم الدعم الشامل لقضية العرب العادلة في المستقبل .

هذا وقد أشارت صحيفة « النيويورك تايمس » الى أن الزعيم السوفياتي بريجينيف قد أبلغ الاسد خلال زيارته ان بلاده لن تتردد في ارسال قوات برية الى سوريا لحماية مواقع الصواريخ في حال وقوع هجوم اسرائيلي ارضي على سوريا .

وأثناء جولة كيسينجر في المنطقة قام غروميكو بزيارة دمشق على رأس وفد سوفياتي لبحث القضايا المتعلقة بفصل القوات وتسوية النزاع في المنطقة. وقد أدلى الوزير السوفياتي بتصريح قال فيه انه يقوم بزيارة ودية لدمشق هدفها مواصلة المشاورات وخاصة مسألة التسوية في المنطقة وموضوع فصـــل القوات ، واكد غروميكو ان العنصر المهم في موقف بلاده هو انهاء الاحتلال الاسرائيلي لكل الاراضي العربية . وعلى أثر انتهاء الزيارة صدر بـــلاغ مشترك أشار الى ان السلام العادل والدائم فـــي المنطقة يجب ان يرتكز الى أساس هو الانسحاب الاسرائيلي الكامل من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني . كما ذكر البيان أن غروميكو أيد في المحادثات موقف سوريا الحازم من موضوع فصل القوات باعتباره مجرد خطوة نحو تحقيق الانسحاب الاسرائيلي الكامل ونحو التوصل الى الحل الشامل والعادل اللازمة في المنطقة .

على صعيد آخـــر استمر الوضع المتدهـــور للعلاقات المصرية السوفياتية على حاله وقد عبر ذلك عن نفسه في الانتقادات المصرية الموجهة على أعلى المستويات الى الاتحاد السوفياتي من ناحية وكيل المديح للولايات المتحدة ونيكسون وكيسينجر من ناحية أخرى. على سبيل المثال ذكر الرئيس السادات في مقابلة مع مجلة « شترن » الالمانية (في الاسبوع الثاني من نيسان) ان الاتحاد السوفياتي حد من شحن الاسلحة الى مصر اثناء حرب تشرين الاخيرة. وفي مقابل ذلك أكد ان السياسة الامريكية قد تغيرت تماما في الفترة الاخيرة وأنه واثق كل الثقـــة بكيسينجر باعتباره رجل حافظ حتى الان على كل وعوده . وفي مناسبة اخرى شدد السادات فـــي لقاء مع الطلاب المصريين بأنه قرر تنويع مصـــادر اسلحة الجيش المصري وانه كان على وشك الغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي التي تعتبر بحكم المجمدة حاليا . وقـــد توسع الرئيس السادات في شرح هذا الموقف فيخطاب ألقاه في اجتماع مشترك لمجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي حيث اتهم الاتحـــاد السوفياتي بالتأخر في مد مصر بالاسلحة مما دعاه لاتخـــاذ قرار باستيراد الاسلحة من مصادر متعددة اخـــرى تجنبا للاعتماد الكلي على الاتحـــاد السوفياتي . كذلك أشار الى قراره السابق باخراج الخبراء السوفيات من مصر في تموز ١٩٧٢ قائلا بأنـــه « يأمل في أن يكون الاتحاد السوفياتي قد أفـــاد من ذلك الدرس وأصبح يدرك ان سياسة مصر نابعة من مصر وهي لمصلحة مصر وليس لمصلحة اية دولة اجنبية » . وفي مقابل ذلك أشاد السادات بالتغيير الذي طرأ على السياسة الامريكية فـــي المنطقة وبجهود كيسينجر . وفي مقابلة اجرتها معه صحيفة « النيويورك تايمس » (٢٣ نيسان) ذهب الرئيس السادات الى أبعد من ذلك حيث اتهم الاتحاد السوفياتي باستغلال وضعه كمصدر وحيـــد للسلاح والذخيرة الى مصر ليمارس ضغوطا سياسية على الحكومة المصرية مما أدى الى فتور في العلاقات بين البلدين . وعبر السادات في المقابلة عن رغبته في ان توافق الولايات المتحدة على تزويد مصر

بالسلاح حيث قال « سأكون سعيدا جدا اذا كانت الولايات المتحدة مستعدة لان تبيعني السلاح ... وفي حال شراء مثل هذه الاسلحة يسر الحكومة المصرية ان توقع اتفاقات للحصول على قروض تسهل عمليات الدفع » . كذلك اشاد السادات « بالنصائح الحكيمة » التي تقدم بها الرئيس نيكسون والتي مكنت كيسينجر من تخطي المأزق في المفاوضات بين مصر واسرائيل عقب حرب اوكتوبر. كما أضاف السادات قائلا « ان الرئيس نيكسون لعب شخصيا دورا كبيرا . وهذه اول مرة تتوصل ادارة امريكية الى معرفة مصالحها الحقيقية في هذه المنطقة التي تعد من أخطر مناطق العالم . انني اثق بكيسينجر ؛ فهو مخطط استراتيجي حقيقي تمكن من تثوير السياسة الامريكية في الشرق الاوسط » . وقد علقت « النيويورك تايمس » على حديث السادات قائلة ان اكثر الدلائل تشجيعا على طريق الوصول الى تسوية مع اسرائيل هي خروج مصر من نطاق السيطرة السوفياتية » كما علق وزير الدفاع الامريكي قائلا ان بلاده تدرس من كثب امكان بيع أسلحة لمصر . وفي مقابلة مع احدى الشبكات التلفزيونية الامريكية (٢٨ نيسان) ذكر الرئيس السادات اكثر من مرة ان علاقات بلاده مع الاتحاد السوفياتي متوترة جدا . وفي الوقت نفسه رحب بأية مساعدات عسكرية امريكية يمكن أن تقدمها الولايات المتحدة . ثم عاد الى الاشادة بكيسينجر واصفا اياه « برجل المعجزات » مؤكدا بأن الوزير الامريكي « سينجح في فصل القوات في الجولان خلال جولته هذه » .

في هيئة الامم وافق مجلس الامن على قرار (٢٩ نيسان) يدين اسرائيل بسبب هجومها على الاراضي والقرى اللبنانية على أثر العملية التي قام بها الفدائيون الفلسطينيون في كريات شمونة . وقد دعا القرار كل الحكومات المعنية الى احترام التزاماتها وفقا لميثاق المنظمة الدولية والقانون الدولي . وطلب من اسرائيل الامتناع عن القيام بأية اعمال او تهديدات عسكرية ضد لبنان واطلاق سراح المدنيين اللبنانيين الذين اعتقلتهم خلال غارتها الاخيرة « واعادتهم الى لبنان فورا » . كما دعا كل الاطراف الى الامتناع عن القيام بأي عمل يمكن ان يعرض للخطر المفاوضات الجارية حاليا لاحلال السلام في المنطقة . وانزعجت اسرائيل الى حد كبير من القرار لانه لم يأخذ بعين الاعتبار وجهة نظرها مما جعل الوفد الاسرائيلي ينسحب من جلسة مجلس الامن احتجاجا على قرار الادانة وعدم اشارته الى هجوم الفدائيين على كريات شمونة . وكان ابرز ما ازعج اسرائيل في الواقع هو تصويت امريكا الى جانب القرار مما جعل العديد من الوزراء الاسرائيليين يعتبرون الموقف الامريكي صدمة كبيرة لبلادهم . فقد أعلن ابا ايبان ان تصويت الولايات المتحدة الى جانب القرار «هو عمل خطير بمغزاه السياسي والمعنوي » . واعتبره تغييرا في سياسة الولايات المتحدة التي كانت تصوت دائما ضد القرارات « المعادية لاسرائيل » . الا ان ناطقا امريكيا في الامم المتحدة نفى أن يكون الدعم الامريكي للقرار يشكل اي تحول في سياسة بلاده. ومن المفيد الاشارة هنا الا ان قرار مجلس الامن يرفع عن لبنان اي مسؤولية عن العمليات الفدائية التي تقوم بها المقاومة الفلسطينية في الاراضي المحتلة .

صادق جلال العظم

(٣) المناطق المحتلة

ما زالت المناطق المحتلة تشهد نضالا وطنيا متصاعدا لكافة طبقات وفئات الشعب الفلسطيني الرازحة تحت الاحتلال والتي لها مصلحة مباشرة في زواله.وفي الوقت نفسه، الذي تشدد فيه جماهير الارض المحتلة من نضالها وتلاحمها بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، يقوم العدو برفع درجة ارهابه وعسفه ويزيد من حملاته الارهابية ، مستهدفا في هذه الفترة النضالية المصيرية من حياة شعبنا الفلسطيني ، القادة النقابيين والعمال والطلاب ومختلف كوادر وعناصر المنظمات الجماهيرية في الارض المحتلة . واذا كان العدو يهدف من وراء حملاته الارهابية هذه الى محاصرة النشاط الفدائي وعزله عن الجماهير ، فان العدو يهدف من وراء ذلك ايضا ، تكرار محاولاته الرامية الى تمرير المشاريع المشبوهة ، والتي تتخذ في هذه المرحلة شكل الادارة المحلية او المدنية .

الاعتقالات ونسف البيوت

خلال الايام الاخيرة من شهر اذار (مارس) واوائل نيسان الماضي ، كان عدد الذين تم اعتقالهم في قطاع غزة فقط ١٥٠ مواطنا بتهم تتعلق جميعها بالقيام باعمال فدائية او الاتصال بمنظمات المقاومة الفلسطينية . ورغم انقضاء فترة التحقيق لمعظمهم ، فقد منعت سلطات الاحتلال محاميهم من الاتصال بهم . والحقت السلطات حملاتها هذه بحملة اخرى من هدم البيوت وخاصةفي حي الزيتون بمدينة غزة ، وتعود البيوت المنسوفة الى كل من: مصطفى عاشور ، مسعود سعد الراعي ، سعد الراعي ، فرحان عرفات وابنه، اسماعيل محمود الهجين ، بيت كشكو ، بيت عاشور ، بيت طلب، تدمير بيت موتور ومضخة تعود الى نمر حسين ازعاط . وذكر ان معظم هذه البيوت ليست ملكا لاي من المعتقلين وانما مشغولة بطريق الاستئجار من بعض المعتقلين .

أما في مدينة نابلس ، فقد اعتقلت سلطات الاحتلال اكثر من سبعين شخصا بعد أن القى احد الفدائيين قنبلة على دورية لحرس الحدود الاسرائيلي وفرض منع التجول في مركز المدينة . وفي جنين وطولكرم قامت السلطات كذلك باعتقال عدد من طلاب المدارس الثانوية بتهمة القيام باعمال « عدائية » للاحتلال (الشعب ١٩٧٤/٤/٥) .

وعلى اثر تصاعد حملات نسف البيوت في مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والاجراءات الخطيرة التي تحدث في القدس بحجة الحفر على الاثار ، بعثت الهيئات النسائية في الضفة والقطاع مذكرة الى السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة ، ولجنة حقوق الانسان ، وهيئة الصليب الاحمر الدولي ، وقناصل الدول الصديقة في القدس ، واتحاد المحامين العرب في القاهرة ، ونقابة الصحفيين العرب في القاهرة ايضا . وجاء في المذكرة :

١ — منذ الاحتلال وحتى اليوم والسلطات الاسرائيلية تمارس سياسة نسف البيوت وتشريد أصحابها في الضفة والقطاع ... الامر الذي ألحق التأثيرات الخطرة في الممتلكات والنفوس والاستقرار الاجتماعي ، حيث تعاظمت سياسة النسف بعد حرب اكتوبر ، ومنذ شهر ١٩٧٣/١٢ ، حتى بلغ عدد البيوت المنسوفة منذ سنة ٦٧ وللان حوالي تسعة آلاف بيت مما نجم عنه تشريد الالوف من العائلات .

٢ — لم يكن الضرر الذي الحق بكل هذه القطاعات الكبرى من المواطنين في الضفة والقطاع، يقتصر على بيوت ذوي المتهمين ، بل لقد امتد الى البيوت المجاورة . حتى انه ازاء كل بيت ينسف يتضرر معه اربعة بيوت على الاقل من بيوت السكان الاخرين في كل حي . ولم تتضرر القرى دون المدن من هذه الاجراءات . فقد نسفت السلطات في ٢٢ ، ٧٤/٣/٢٤ منزلا في رفيديا وآخر في خلة العامود . اما في القرى فنذكر على سبيل المثال ما نسف من المنازل في القرى التالية :

في دير ابو ضعيف في الضفة الغربية نسفت السلطة الاسرائيلية عشرة منازل وتضررت من هذا النسف عشرة منازل اخرى مجاورة . وتكرر هذا في قرى : كفر الديك ، جماعين ، سيلة الظهر ، بيت فوريك ، دير غزالة ، وقبلان .

وطالبت المذكرة بالعمل الجدي لوضع حد لسياسة نسف البيوت في الضفة والقطاع ولايقاف الحفريات في القدس .

وبقيت حملة الاعتقالات قائمة على قدم وساق ، فقد ألقت سلطات الاحتلال القبض على مجموعة من الشباب في طولكرم بتهمة الانتماء الى منظمة فتح . وقال متحدث باسم الجيش الاسرائيلي ان قوات الامن تعتقد بأن لهذه الجماعة صلة بوضع العبوة الناسفة التي انفجرت يوم ٤/٤ في حانوت بتل ابيب . وادعى الناطق انه عثر بحوزتهم على مواد متفجرة (القدس ١٩٧٤/٤/٨) .

وعندما انفجرت في احدى حدائق ناتانيا شحنة موقوتة يوم ٤/١٤ ، القت الشرطة القبض على ٥٠ شخصا للاشتباه بصلتهم بالحادث (الشعب ١٥/ ١٩٧٤/٤) .

ومن ناحية اخرى امتدت سياسة مصادرة الارض وتفريغها من السكان لتشمل اراضي البدو جنوبي رفح . فقد نقلت « الشعب » عن مجلة المرصاد التي تصدر في اسرائيل تقريرا تلقته الاخيرة من « عوديه ليفشز » من مستوطنة نيرعوز يقول فيه : بتاريخ ٧٣/١٠/٨ اي ثاني ايام حرب تشرين ، بدأت السلطات المحتلة بعملية سلب جديدة تشمل ٣٦ الف دونم في المنطقة المسماة « الجورة » . وتقع هذه المنطقة على مسافة ١١ كيلومترا جنوبي الشارع الجديد المؤدي الى « نيتسانا » ويسكن فيها حوالي ٨٠٠ شخص من ابناء عشيرة « السواركة » . ويقيم سكانها الان خارج السياج الذي اقامته السلطات حولها . وتعد في هذه الايام خطتان جديدتان للمصادرة ، واحدة في منطقة الجورة وأخرى في منطقة الخروبة الواقعة شمالي العريش — رفح على مسافة ٢٠ كيلومترا غربي رفح . اما برنامج الترحيل والمصادرة في رفح فهو يشمل مساحة تتراوح بين ٨٠٠ الف الى مليون دونم هي مساحة المثلث الذي تشكل العريش ونيتسانا ورفح رؤوس زواياه (الشعب ١٥/٤/٧٤).

وفي نابلس نسفت السلطات ظهر يوم ٤/١٦ منزل الحاج عادل ابراهيم الدردوك بحضور حاكم المدينة العسكري ومساعديه ، بعد أن اعتقلت نجله بسام — ٢١ سنة — قبل شهرين من تاريخه ، بتهمة قتل جندي اسرائيلي واخفاء جثته في احد المحاجر القريبة من نابلس واخذ سلاحه بالاشتراك مع تسعة اشخاص آخرين . ويذكر ان المنزل مؤلف من ثماني غرف وتعيش فيه اربع عائلات (الشعب ١٧/٤/٧٤) .

وفي القدس اعتقلت الشرطة خلال ليلة ٤/١٨ ، خمسة اشخاص من سكان القدس العربية بتهمة حادث سيارة الاجرة التي قتل فيها سائقها تسيون ابرغيل ووضعت فيها شحنات من المواد المتفجرة. والى جانب ذلك اوقفت العشرات للتحقيق معهم . وداهمت الشرطة عددا من المنازل بحجة ان اصحابها يشتبه بعلاقاتهم بالحادث دون تحديد للاشخاص المطلوبين . كما اقامت حواجز التفتيش بين شطري المدينة ، وزادت من اعمال الدورية في الشوارع والاماكن العامة . واقيمت هذه الحواجز على طريق القدس — الخليل حيث كان حرس الحدود يقومون بانزال الناس من السيارات وتفتيشهم واعتقال عدد من الشبان . وكان الامر كذلك على طريق بئر السبع — غزة ، رام الله — القدس ، البيرة — نابلس . اما في بيت لحم فقد شنت السلطات حملة اعتقالات شملت عددا من الشباب وطلاب المدارس ، وذلك اثر توزيع منشورات ضد الاحتلال في عدد من الشوارع والمدارس (الشعب ١٩/٤/٧٤) .

وعلى اثر تزايد اعمال المقاومة واصلت سلطات الاحتلال حملاتها ضد المواطنين العرب اما بتهم توزيع المنشورات او بتهم القيام بأعمال مسلحة . فذكرت جريدة معاريف ان ١٦٠ عربيا اكثرهم من ابناء المناطق المحتلة اعتقلوا بتهمة الاشتراك في الانفجار الذي وقع في بني براك وادى الى جرح ١٣ شخصا (الشعب ٢١/٤/٧٤) .

اضراب السجناء

واصل المعتقلون في سجن نابلس الاضراب الذي كانوا قد بدأوه منذ مدة . فامتنعوا عن مقابلة ذويهم بمناسبة عيد المولد النبوي احتجاجا على سوء المعاملة داخل السجون (الشعب ٥/٤/٧٤).

وقد اوجد استمرار الاضراب هذا داخل السجون حالة نشطة من التحرك الوطني الهادف الى دعم اضراب المعتقلين وكسر حد الارهاب وسوء المعاملة التي يتعرضون لها داخل السجن . فقد طالبت الجبهة الوطنية الفلسطينية المواطنين في الاراضي المحتلة دعم ومؤازرة السجناء وذويهم . وطالب بيان الجبهة ببذل كل الجهود والقيام بالحملات الاستنكارية والمذكرات لوقف التعذيب وتحسين الاوضاع في السجون واطلاق سراحهم (الشعب ٥/٤/٧٤) . وقد دفعت التحركات الجماهيرية

الداعية الى دعم مطالب السجناء المضربين الى موافقة شلومو هليل وزير الشرطة على استقبال الحاج معزوز المصري رئيس بلدية نابلس ، للبحث في مطالب السجناء . وكانت امهات السجناء قد قمن بالاشتراك مع عدد من السكان بالقيام بمظاهرات لدعم اضراب ابنائهن يوم ٧٤/٤/٥ (القدس ٧٤/٤/٨) . وفي يوم ٤/٨ اعتصم عدد كبير من امهات المعتقلين وسيدات من المدينة بدار بلدية نابلس طوال اليوم احتجاجا على اوضاع السجناء . واستقبل الحاكم العسكري خمسا منهن واستعرض معهن مطالب المعتصمات في دار البلدية فطالبن بتحسين اوضاع السجناء الصحية والغذائية وتوفير العلاج واجراء العمليات الجراحية وتوفير الكتب والمجلات والسماح لبعض الطلاب بالاشتراك في الامتحانات النهائية (القدس ٤/٩/ ٧٤) .

وفي الخامس عشر من نيسان بدأ اعتصام أمهات ذوي المساجين في قاعة بلدية نابلس ، وكان مقدرا له ان يستمر اسبوعا كاملا حتى تستجيب السلطات العسكرية لجميع مطالب المساجين . فوجه الحاكم العسكري للمدينة «اليعازر سيغب» تحذيرا لرئيس البلدية بالوكالة عادل الشكعة ، من أي اضراب او « تشويش » قد يقوم به الطلاب والطالبات ، وهدد بانه سيقمع بالقوة أي اخلال بالامن (الشعب ٧٤/٤/١٥) . واستجابة من البلدية لتحذير السلطات قامت هي بمنع أمهات السجناء من الاعتصام ، معتمدة على وعود الحكم العسكري بتسوية الاوضاع داخل السجون . فعقد ظهر يوم ٤/١٧ في مقر البلدية اجتماع بين شلومو هليل واعضاء المجلس البلدي في نابلس لاستعراض اوضاع السجناء واضرابهم المستمر . وقد عرض أعضاء المجلس على الوزير الاسرائيلي الطلبات التي كانت قد تقدمت بها أمهات السجناء من قبل . وسمح هليل لثلاثة من اعضاء المجلس البلدي بزيارة المساجين « برغبة وتكليف منه » لفهم مطالب المساجين ومن ثم رفع انطباعاتهم اليه لدراستها والبحث فيها (الشعب ٧٤/٤/١٨) .

وبالفعل قام وفد من البلدية مؤلف من عادل الشكعة وحافظ طوقان وجمال الخياط بزيارة سجن نابلس المركزي وقابل المساجين المضربين عن مقابلة ذويهم . وكانت مطالب السجناء محددة فيما يلي :

١ — ضرورة تنويع اصناف الطعام وزيادة كميته للفرد .

٢ — توفير المعاملة الانسانية مع حفظ الكرامة لكل مواطن سجين .

٣ — تحسين الخدمات الطبية وتقديم العلاج اللازم واجراء العمليات الجراحية بالسرعة الممكنة اذا لزم الامر .

٤ — توفير المزيد من الكتب العملية والثقافية بالاضافة الى صحيفة الشعب أسوة بصحيفتي القدس والانباء المسموح بهما يوميا .

٥ — السماح بادخال الكتب المدرسية لطلاب التوجيهي لهذا العام حسب المنهاج المقرر ، وكذلك كتب دار المعلمين لمن انهوا التوجيهي وغيرها من الكتب المقررة للجامعيين .

٦ — تمديد مدة تعريض اجسام المساجين لاشعة الشمس يوميا .

٧ — الافراج عمن انتهت مدة سجنهم والبحث في قضايا الموقوفين بدون محاكمة .

٨ — توسيع النوافذ التي تدخل منها أشعة الشمس .

وذكرت « الشعب » انه من المتوقع ان يعود السجناء الى مقابلة ذويهم في اوقات الزيارة المسموح بها (الشعب ٧٤/٤/١٩) .

● في محاولة للخروج من المأزق الذي وجدت اسرائيل نفسها فيه عقب حرب تشرين ، عادت لطرح مجموعة من المشاريع والقيام بعدد من الاجراءات أبرزها مشروع الادارة المحلية او المدنية ومحاولة احياء فكرة « صوت الضفة والقطاع » ، وتعيين مدراء عامين لشؤون التربية والصحة والدين تمهيدا لتشكيل مجلس مدراء عامين او ادارة تنفيذية .

١ — مشروع الادارة المحلية

جاء طرح الافكار الاسرائيلية حول مشروع الادارة المحلية ، مترافقا مع ظاهرة محلية في الضفة الغربية تلقي شكوكا واسعة حول مغزى القائمين عليها والمحركين لها . وهذه الظاهرة تتلخص في مجموعة الاستقالات والخلافات والطعون امام المحاكم لعدد كبير من مجالس البلديات. فقد نشرت «الفجر» في عددها الصادر يوم ٤/١٧ ، ان ستة اعضاء

من مجلس بلدية قلقيلية تقدموا بمذكرة الى الحاكم العام للضفة الغربية يطلبون فيها سحب الثقة من رئيس بلدية قلقيلية مصطفى نـزال . ورشحـوا بدلا منه عضو المجلس البلدي حسين صبري . وفي عددها الصادر يوم ٤/١٨ ذكرت « الشعب » ان ستة اعضاء من مجلس بلدية بيت لحم قدموا استقالاتهم الى رئيس البلدية الياس فريج ، مع نسخ للحاكم العسكري العام والحاكم العسكري لمنطقة بيت لحم . وهؤلاء هم : عفيف البطارسة ، ايوب مسلم ، ابراهيم ابو حمود ، حنا جميل ناصر ، جورج ابو ردينة ، وجورج سمور . ولم يبين الاعضاء الاسباب المحددة لاستقالاتهم . وقد اثارت هذه الاستقالات والخلافات في هذه البلديات وغيرها — دير دبوان — ردود فعل واسعة في الضفة الغربية . وتدخل عدد كبير من المواطنين لاصلاح ذات البين لقطع الطريق على أية محاولات قد يقدم عليها العدو ، مستفيدا من هذه الحالة التي عمت معظم بلديات الضفة الغربية . فقد نشرت « الفجر » تحت عنوان « لا للادارة المحلية ... ولماذا » تعليقا مطولا جاء فيه : « ان الدعوة للادارة المدنية في المناطق المحتلة ، تتجاهل تجاهلا تاما ان تقرير المصير للشعب الفلسطيني لا يمكن ابدا ان يكون محصورا في المناطق المحتلة . وعلى هذا الاساس فان هذه الدعوة تعتبر حلا اقليميا ». وقـالت الصحيفة وهـي تشير الى المتعاونين مع الاحتلال لفرض مشروع الادارة المحلية : « نستطيع القول ان هذه الفئة تلعب الورقة الاخيرة في جعبتها ، وهي على يقين من ان الخسارة عندها تساوي النهاية المنطقية حسب تطور التاريخ ومساره الطبيعي . ولذا نستطيع ان نقول كذلك ان صراعها هو صراع البقاء ... » (الفجر ٣/٤/٧٤) . وعالجت صحيفة الشعب هذه المسألة بكثير من الوضوح والمباشرة في افتتاحيتها الصادرة يـوم ٤/٢١ ، حيث قالت : « لعل ما يدعو للغرابة والتساؤل ، هذه الظاهرة التي انطلقت او افتعلت لتشمل معظم بلديات الضفة الغربيـة المحتلة ، فمن استقالات في بيت لحم وقلقيلية ، الى خلافات في نابلس واريحا ودورا ، وطعون ومحاكم في يطا ودير دبوان ، وقد يكون هنالك ما لم يعلن بعد او يعرف حتى الان . والسؤال : هل لهذه الظاهرة من علاقة مباشرة بما يخطط له من مؤامرة (الادارة المحلية) ؟ ، خاصة وان خيوط هذه الادارة قائمة في تكتم شديد رغم النفي الرسمي ... ولعل بعث الخطة المؤودة المسماة باذاعة صوت الضفة والقطاع أقرب دليل على ان المشروع يسير نحو التنفيذ بخطوات وئيدة لكنهـا غير متراجعة او مترددة... فالتلويح مثلا بانتخابات جديدة تحت شعار ان الاردن اباح للمرأة حـق الاقتراع بعد انتخابات الضفة المحتلة ، او ان الخلافات الحادة والمتفاقمة بين اعضاء هذا المجلس او ذاك تعرقل أعمال السكان وتشغل دوائر الحكم العسكري ، فلعبة مكشوفة تهدف امرين : امـا اتخاذها عامل ضغط على بعض الرؤساء والاعضاء لقبول مشروع الادارة المدنية، واما لاجراء انتخابات يتيسر للسلطات معها اخراج وجوه جديدة تكون مطواعة ، سهلة الاحتواء والولاء ... » .

٢ — اذاعة « صوت الضفة والقطاع »

ذكرت صحيفة الشعب في عددها الصادر يوم ٤/٢١ ، أن سلطات الاحتلال قامت بحبس بعض المواطنين في الضفة الغربية للعمل في اذاعة ما يسمى بـ « صوت الضفة والقطاع » حيث تخطط السلطات في هذه المرحلة لاعادة العمل من محطة الارسال في رام الله لتكون الصوت الناطق بلسان الاحتلال نيابة عن عرب الارض المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة . وقالت الصحيفة ان مدة البث ستكون في هذه الاذاعة لمدة اربع ساعات وعلى فترات صباحية ومسائية ، وستقتصر على اذاعة الانباء والتعليقات الموجهة ، وستشرف عليها لجنة تسمى « لجنة الثقافة والارشاد » .

ويربط المراقبون والمتتبعون لسير التحركـات الاخيرة بين المحاولة الجديدة هذه وبين ما يسمى بالادارة المحلية في الاراضي المحتلة ، بحيث ستكون الوجه الاعلامي لهذه اللعبة الجديدة .

ويذكر ان الفكرة كانت قد نشأت اولا عند قيام بعض المتعاونين مع الاحتلال ودعاة الحكم الذاتي تحت سيطرته بالتفاوض مباشرة مع اسرائيل حول انشاء اذاعة ناطقة باسم سكان المناطق المحتلة . لكن الفكرة نامت في حينها نظرا لعدم تجـاوب سلطات الاحتلال . ثم اعيدت الفكرة للوجود مرة أخرى عقب مجازر ايول الداميـة في الاردن ، مستغلين الفورة العارمة التي استحوذت وسيطرت على الفلسطينيين في الارض المحتلة وكرههم للنظام الاردني . وكان قد رشح لهذا الصوت المشبوه في

حينه خمسة من العرب الذين قبلوا العمل فيها ، وهم من نابلس ورام الله والقدس والخليل . ثم أعيدت المحاولة في ربيع عام ١٩٧٣ وكان مقدرا لها ان ترى الوجود في خريف العام نفسه . لكن حرب تشرين حالت دون تحقيقها ، مما اعتقد معه البعض ان الاحتلال قد صرف النظر عن هذه الفكرة نهائيا . غير ان السلطات بدأت منذ شهر اذار الماضي بجس نبض عدد من المواطنين المرشحين للعمل بها . واستمزجت في هذا الاطار حوالى ١٧ شخصا قد تختار من بينهم سبعة اشخاص بين مذيع ومراقب ومعلق ، بشرط ان يكونوا جميعا يحملون هوية الضفة والقطاع باستثناء شخص واحد من القدس سيكون مسؤولا عن التعليق السياسي في هذه الاذاعة . ويذكر ان بعض الذين فوتحوا بالامر في الفترة الاخيرة قد اعتذروا عنه ، كما ان جميع الذين روجعوا يعملون حاليا في مختلف أجهزة الاعلام الاسرائيلي من تلفزيون واذاعة وصحافة . اما الذين قبلوا بالعمل في هذه الاذاعة فهم من القدس ورام الله والخليل ونابلس وبيت لحم وجنين وطولكرم .

٣ — المدراء العامون

قامت السلطات الاسرائيلية في الفترة الاخيرة بمحاولة تعيين مدراء عامين لعدد من الدوائر ، يتكون منهم في النهاية مجلس مدراء عامين . وتقدر السلطات لهذا المجلس ان يكون ادارة تنفيذية يتمتع بمزيد من الصلاحيات . وتراهن سلطات الاحتلال على هذا المجلس في حال قيامه ان يعطي للسكان العرب في الاراضي المحتلة شعورا «بالاستقلال» النسبي عن سلطات الحكم العسكري، الامر الذي قد يجهض الشعارات الوطنية المرفوعة الان حول بناء السلطة الوطنية الفلسطينية المستقلة . والدوائر التي استقر رأي سلطات الاحتلال على تعيين مدراء عامين لها هي دائرة التعليم ودائرة الصحة ودائرة الشؤون الدينية . ولم يتوفر لدينا المزيد من التفاصيل حول هذه الخطة الاسرائيلية الجديدة . الا انه علم ، نقلا عن بعض الصحف الاسرائيلية ، ان الدكتور يعقوب السلطي ، وهو مدير مستشفى رام الله ، قد رشح لتولي منصب مدير عام عن الدوائر الصحية والمستشفيات في الضفة الغربية (الشعب ١٨/ ٧٤/٤) . وذكرت الصحف الاسرائيلية ايضا ان مستشار وزير المعارف الاسرائيلي « أوري طهون » قد اجتمع الى كل من أكرم فضة الذي عين مؤخرا مديرا للتربية والتعليم في محافظة نابلس ، وعبد الرحيم كتانة المعين حديثا مديرا للتربية والتعليم بمحافظة الخليل خلفا للمدير السابق ابراهيم قادري الذي بقي مديرا لمعهد دار المعلمين بالعروب . وقد استعرض معهم شؤون التعليم والامور الادارية الخاصة بمحافظتي نابلس والخليل، دون ذكر أية تفصيلات اخرى (الشعب ١٨/٤/٧٤).

صرف رواتب موظفي الضفة الغربية

نقلت جريدة القدس عن مصدر رسمي في وزارة المالية الاردنية ان الوزارة مستمرة في دفع رواتب ستة آلاف موظف في الضفة الغربية ، طبقا لقرار الحكومة الاردنية بشأن استئناف دفع الرواتب لموظفي الضفة ابتداء من شهر شباط (فبراير) الماضي . وقالت الصحيفة ان كل موظف يريد صرف راتبه ، يجب ان يقدم شهادة تحمل امضاء رئيسه الاداري وختم المجلس البلدي في موقع عمله في الضفة الغربية (القدس ٨/٤/٧٤) .

الا ان صحيفة الشعب ذكرت بعد ذلك باسبوع ، ان وزارة التربية والتعليم الاردنية ، لم تصرف رواتب المعلمين الذين عادوا الى الضفة الغربية عن طريق جمع شمل العائلات وزاولوا أعمالهم في الضفة . اذ اعتبرتهم الحكومة الاردنية انهم قد فقدوا وظائفهم في الاردن بعودتهم الى الضفة الغربية . كما انها لم تصرف رواتب قسم آخر من المعلمين بدون بيان الاسباب التي من أجلها لم تصرف الرواتب (الشعب ١٦/٤/٧٤). وذكرت « الشعب » في العدد نفسه ، ان بعض رؤساء البلديات والغرف التجارية والهيئات المختلفة ، قد بعثوا بمذكرة الى رئيس الحكومة الاردنية مع نسخ لوزير العدلية ووزارة شؤون الوطن المحتل في عمان ، تتعلق بقضاة المحاكم في الضفة الغربية الذين كان قد صدر قرار من الحاكم العسكري العام سنة ١٩٦٧ بفصلهم من العمل بموجب تعليمات الادارة العرفية . وطالب الموقعون على المذكرة ، ومن بينهم رئيس بلدية نابلس ورئيس الغرفة التجارية ورئيس الهيئة الاسلامية ، من رئيس الحكومة الاردنية اعادة النظر في هذا القرار ، ومعاملتهم أسوة بباقي الموظفين الذين عملوا من مختلف الوزارات والدوائر (الشعب ١٦/٤/٧٤).

أما فيما يتعلق برواتب موظفي امانة القدس الذين لم يشملهم قرار استئناف دفع الرواتب ، فقد ذكرت « الشعب » ان روحي الخطيب امين القدس الذي أبعدته سلطات الاحتلال منذ سنوات قد بذل مجهودا لدى الحكومة الاردنية لغرض حملها على الرجوع عن قرارها بتجميد رواتب موظفي أمانة القدس ، وان الحكومة لم تبت في هذا الامر بعد (الشعب ٧٤/٤/١٨) .

وتاكيدا على الكيفية التي تم صرف رواتب الموظفين بموجبها ، عاد يوم ٤/١٦ من عمان وفد من معلمي ومعلمات القدس القدامى بعد ان قضى في عمان تسعة ايام ، أجرى خلالها محادثات مع المسؤولين الاردنيين تتعلق بقرار اعتبارهم مفصولين عن العمل وبالتالي قطع رواتبهم . ولم يتوصل الوفد خلال اتصالاته هذه الى نتيجة ملموسة بصدد مسألة استئناف دفع الرواتب (الشعب ٤/١٧/ ٧٤) . وجاء في انباء صحف الضفة الغربية ، ان امرا قد صدر الى وزارة المالية الاردنية مؤخرا ، بعدم صرف راتب أي موظف في الضفة الغربية بواسطة التواكيل التي ترسل عنهم كما جرت العادة في السابق . وطالبت وزارة المالية كل موظف بفتح حساب له في أحد البنوك المرخصة في عمان ، ومن ثم تقوم المالية بتحويل الرواتب الى هذه البنوك ، وذلك اعتبارا من شهر حزيران (يونيو) (الشعب ٧٤/٤/١٩) .

وقد دفعت الكيفية التي يتم بها صرف رواتب الموظفين في الضفة الغربية ، بصحيفة الشعب الى التساؤل عبر افتتاحيتها : هل « الرواتب الاردنية: حق أم رشوة » . فقالت انه لم يعد في جعبة الحكومة الاردنية من دورات ترمي بها في الضفة الغربية غير تضية « رواتب موظفي الارض المحتلة من القسم الشرقي من فلسطين ، لتتخذ من هذه الرواتب سلعة تتاجر بها في كسب الانصار وشراء الذمم واعلان الطاعة والولاء . وواضح من هذا التهافت على استعمال هذه (الانشوطة) الاخيرة ، أنها فضلا عما أسلفنا ، ترمي الى الالتفاف من حول التمثيل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني في منظمة تحريره ، مستهدفة بذلك ، وبلغة الارقام المشتراة ، اعطاء الفكرة ان هناك استفتاء غير مباشر تمارسه الحكومة الاردنية ، بتسهيل من الاحتلال ومشاركته ، بان لها رصيدا كذا حجمه ، وكذا تعداده » .

والراتب كما ذكرت ذلك « الشعب » هو حق للموظف في الارض المحتلة من حيث المبدأ ومن ناحيتين :

الاولى : ان الموظف كان قائما على رأس عمله. وسواء أكان متقاعدا او مستمرا في عمله فهو بهذا صاحب حق مكتسب « لا يعفي الذين سلموه لسلطة اخرى من مسؤولية استمرار الاعتراف به ، لانه لم يسع للاحتلال ويأتي به » .

الثانية : ان الاموال التي تنفق منها هذه الرواتب تأتي من مصدرين : الضرائب المباشرة التي يشكل المكلف الفلسطيني بالضفة الشرقية فيها ما يعادل الثلثين ، والمعونات العربية من السعودية والكويت التي تدفع « للصمود » في الارض المحتلة بواسطة الحكومة الاردنية. ...وعليه فان الالتزام الاردني يظل قائما بالنسبة لموظفي « كادره في عهده وفق حقوقه المكتسبة ، وحتى بعد قيام الدولة الفلسطينية على أساس الحق الفلسطيني التاريخي والقومي » (الشعب ٧٤/٤/١٨) .

اختطاف يوسف نصر

في اوائل شهر نيسان وبعد مرور حوالي شهرين على جريمة اختطاف الصحفي الفلسطيني يوسف نصر — صاحب جريدة الفجر — ذكرت مصادر الشرطة الاسرائيلية ان اماطة اللثام عن « لغز » اختطاف ومصير يوسف نصر ، قد اصبح وشيكا . ففي يوم ٤/٢ مثل امام قاضي الصلح ثلاثة مشبوهين جدد هم : باجس الجعبري — ٣٠ عاما — ، شمس الدين الجعبري — ٣٢ عاما — ، سمور الجعبري — ٥٠ عاما — . وقرر القاضي توقيف هؤلاء الاشخاص لمدة ١٥ يوما . وفي الاول والثاني من شهر نيسان قامت مفارز الشرطة بالبحث عن مكان يوسف في منطقة بيت لحم وضواحي القدس . وقد احضر يوم ٤/٢ الى مقهى زعترة في باب العامود بالقدس ثلاثة اشخاص اخرين ، في عملية تشخيص احدى الاجتماعات التي عقدها مختطفو يوسف . ونقلت « الفجر » عن صحيفة معاريف الاسرائيلية خبرا منسوبا الى مصادر رسمية تحت عنوان « خاطفو يوسف نصر قتلوه قرب اريحا » جاء فيه : عقب توقيف ثلاثة متهمين يوجد الان رهن التوقيف كل المتهمين بتخطيط وتنفيذ عملية

اختطاف صاحب الفجر . وحسب ما ذكرته الشرطة فان خمسة من المتهمين اختبأوا داخل بيت يوسف نصر . ومن المفترض ان الخاطفين قد حصلوا على مفتاح البيت من زميله جميل حمد المتهم بتخطيط عملية الاختطاف . وحين دخل يوسف البيت خرج الخاطفون من مخبأهم وهدده أحدهم بالسلاح بينما شد الاخرون وثاقه وكمموا فمه. أما المتهم السادس وهو فتوح الجعبري — سائق سيارة رئيس بلدية الخليل — فقد انتظرهم في الخارج دون ان يوقف السيارة امام البيت بل قام بعدة جولات حول المنطقة حتى لا يجتذب انتباه احد من الجيران . وحسب معلومات الشرطة ، فان الخاطفين ارادوا في اول الامر أخذ يوسف الى جبال الخليل ولكنهم صادفوا في طريقهم دوريات اسرائيلية تبحث عن فدائيين ، فغيروا طريقهم وتوجهوا الى اريحا . وفي منطقة مقفرة قتلوا يوسف ودفنوا جثته . وعلم ان القتل تم على يد احد الخاطفين ، وان صفقة تمت بين الخاطفين ومخطط العملية ، اتفق بموجبها انه اذا اعترف احد الخاطفين على الاخر فان الباقين سيقضون على أسرته بكاملها . وحسب الخطة كان على بعض المختطفين السفر الى عمان لاستلام اجرتهم وهي ٢٤ الف ليرة . وقال مصدر ان عملية الاختطاف وربما القتل أغرى بهما اثنان من رجالات رام الله ، أحدهما محامي وسياسي فلسطيني معروف ، والثاني رجل أعمال ثري يعتبر من ذوي المواقف السياسية . ولم يتم توقيف اي منهما بعد . وقامت الشرطة بعرض ساعات وخواتم على أسرة يوسف للتعرف عليها . كما قامت بجلب صديقة يوسف من سجن الرملة وهي سهير هاني للتعرف على هذه الساعات والخواتم . أما شقيقة يوسف وهي عفاف العجلوني فانها تعتقد ان مختطفي شقيقها قد سلموه الى السلطات الاردنية (الفجر ٧٤/٤/٣) .

وذكرت صحيفة الشعب بعد ذلك ان احد المتهمين باختطاف صاحب الفجر قد حاول الانتحار في السجن مما ادى الى نقله الى المستشفى لاسعافه (الشعب ٧٤/٤/٤). وفي عددها الصادر يوم ٤/١٠ ذكرت الشعب ان قاضي الصلح بالقدس قد قرر توقيف أحد محرري « الفجر » مدة خمسة عشر يوما اخرى بناء على طلب المستشار القانوني لرئيسة الحكومة الاسرائيلية . وفي نفس الوقت طالبت الشرطة بتمديد توقيف متهم اخر وهو ياسر الكركي لمدة ١٥ يوما اخرى . وكان هذا الشخص احد الذين اعترفوا بقضية الاختطاف . ونقلت « الشعب » على الصحف الاسرائيلية المزيد من تصريح مفتش الشرطة العام في مؤتمره الصحفي الذي عقده عندما حل ضيفا على رئيس بلدية حيفا يوسف الموجي . فقال المفتش : معلوم لدينا الان من هو الذي اختطف يوسف نصر ... لكننا لا نستطيع القاء التهمة على هذه العناصر او تلك . أما الصورة الان فهي على الاقل واضحة (الشعب ٧٤/٤/١٠). ونقلت الصحيفة عن معاريف الصادرة يوم ٤/١٥ ، ان لدى الشرطة قناعة بان الموقوفين في قضية يوسف نصر هم الذين اختطفوه ولكن ليست هنالك ادلة قاطعة على ذلك . وتضيف الصحيفة الاسرائيلية بان مصدرا في الشرطة صرح لمراسلها بأن الصعوبة الاساسية الان ، هي اكتشاف مكان يوسف ، وان أغلب المتهمين يرفضون الاعتراف باسهامهم في تنفيذ العملية (الشعب ٧٤/٤/١٦) .

الا ان الشرطة بعد توصلها الى هذه المعطيات عادت فامسكت عن ذكر أية تفاصيل حول حادث الخطف . ومن ناحية اخرى أصدرت محكمة الصلح بالقدس امرا بتمديد توقيف ثلاثة متهمين اخرين لمدة ١٥ يوما . وقال ممثل الشرطة في معرض طلبه هذا ان هؤلاء الاشخاص قاموا بعملية الاختطاف . (الشعب ٧٤/٤/١٧) .

وصرح شلومو هليل وزير الشرطة في لقاء مع الصحفيين يوم ٤/١٨ ، ان الشرطة امامها مهمة كبرى للكشف عن ملابسات هذه القضية . وردا على سؤال حول تمويه الشرطة لصلة الحادث باحدى الشخصيات المعروفة بالمناطق المحتلة ، قال هليل : ان الشرطة تعمل جهدها لكشف الحقائق ، ومن تثبت ضده التهمة سيقدم للمحاكمة مهما تكن شخصيته (الشعب ٧٤/٤/١٨) .

واذاع راديو اسرائيل يوم ٤/١٨ ان مجموعة من رجال الشرطة قامت بناء على معلومات لديها بحملة تفتيش عن صاحب الفجر في أحد الكهوف الواقعة بين قريتي قلندية والجديرة شمال القدس ، وان التفتيش لم يسفر عن نتيجة . وأفاد مساعد مدير الاطفائية الاسرائيلية في لقاء اذاعي بأنه حاول جهده لكن الكهف عميق وليس من السهولة تفتيشه

بسرعة ، وانه على استعداد لمعاودة البحث اذا ما رغبت الشرطة في ذلك (الشعب ٧٤/٤/١٩) .

وبعد خمسة وسبعين يوما من اختطاف يوسف نصر ظلت الشرطة تبيع القضية عن طريق تلميحها تارة بان يوسف قد نقل الى الاردن حيا وتارة بالتفتيش عليه ميتا ، وثالثا بان الشرطة لم تحصل على الادلة الكافية بعد لاعداد لائحة الاتهام... الخ وبعد خمس وسبعين يوما ما زالت المحاولات جارية لانقاذ الموقوفين على ذمة التحقيق بعد ان اعترف قسم منهم بالاشتراك والتخطيط لاختطاف صاحب الفجر ، وان الرؤوس المدبرة — كما ذكرت صحيفة الفجر — تحاول من جديد الضغط على بعض الموقوفين والمعترفين لسحب اعترافاتهم خشية ان تنكشف الحقيقة (الشعب ٧٤/٤/٢١) .

وقالت صحيفة القدس في عددها الصادر يوم ٤/٢٩ ان السلطات الاسرائيلية قامت بهدم ثلاثة منازل في قرية مقوعة تعود لثلاثة شبان من سكان القرية اعتقلوا قبل هذا التاريخ بشهرين ، وذلك بتهمة وضع مجموعة من القنابل في الشوارع الرئيسية ومحطة الباصات . وذكرت « الشعب » الصادرة في اليوم نفسه ذلك الخبر وقالت ان المنازل الثلاثة تعود الى محمد احمد وابنه عبدالله ، محمد ياسر وابنه المعتقل مصطفى ، وليد مصطفى سعيد المعتقل حاليا .

القادة النقابيون والعمال

شددت سلطات الاحتلال خلال الفترة الماضية من حملتها التعسفية ضد قادة الحركة العاملة الفلسطينية والمنظمات الجماهيرية . واتخذت هذه الحملة طابع الشمولية بحيث امتد نطاقها الى مختلف مدن الضفة الغربية ، مستهدفة بشكل محدد قادة الجبهة الوطنية الفلسطينية التي تخوض كفاحا سياسيا ضد مشاريع الاحتلال ومحاولات الالحاق والضم الاردنية .

وفيما يلي أسماء عدد من هؤلاء المناضلين الذين تم اعتقالهم على يد الاحتلال ، في أواسط شهر نيسان الماضي ، كما اوردتها صحيفة القدس ، مع نبذة عن حياة كل واحد منهم :

— خلدون عبد الحق ، وهو من قادة الجبهة الوطنية الفلسطينية ، انتسب لعصبة التحرر الوطني (الحزب الشيوعي الفلسطيني) قبل عام ١٩٤٨ ، ثم لرابطة المثقفين فرع نابلس عام ١٩٤٦ . واعتقله الجيش العراقي سنة ٤٩ اثر قيامه بتوزيع منشورات لعصبة التحرر الوطني ضد المؤامرة الصهيونية الرجعية على الشعب الفلسطيني .

— الدكتور فرحان ابو الليل ، عضو لجنة نقابة الاطباء في لواء نابلس . بدأ دراسته الجامعية في القاهرة لكنه طرد منها في حملات ١٩٥٩ فانتقل الى بغداد حيث تخرج منها عام ١٩٦٢ . وقد تعرض طوال سنوات الاحتلال الماضية الى الملاحقة والاستجواب .

— خليل حجازي ، امين صندوق نقابة المؤسسات العامة في نابلس وأحد القادة البارزين في اتحاد النقابات الفلسطيني في الضفة الغربية . وكان قد قضى في سجون الاردن قبل عام ١٩٦٧ مدة سبع سنوات ولم يطلق سراحه الا بعد شهر حيث غادر سجن الزرقاء الى نابلس .

— لبيب فخر الدين ، من أعضاء رابطة المثقفين في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ ، وقد عمل بعد اغتصاب فلسطين مدرسا في الكويت . وعندما عاد الى الضفة الغربية بعد وقوعها تحت الاحتلال ظل ملاحقا ومعرضا للاضطهاد . وفي حرب تشرين الاول اعتقلته سلطات الاحتلال خلال الحرب . وكان ابنه قد سجن لمدة عام في سجن نابلس لمقاومته الاحتلال .

— غسان حرب ، كاتب وصحفي فلسطيني حاصل على دبلوم في الاقتصاد السياسي من جامعة موسكو سنة ١٩٧٢ . كان نشيطا في الحركة الطلابية سنة ١٩٥٦ . وقضى في سجن النظام الاردني ثمان سنوات وكان عمره لدى دخوله السجن لا يزيد على ١٧ عاما . وقد قدم امتحانات الثانوية العامة عام ١٩٥٨ وهو في السجن .

— تيسير العاروري ، يحمل دبلوم في الفيزياء الحديثة من جامعة موسكو التي تخرج منها عام ١٩٧٣ . وعند عودته الى الضفة الغربية عمل مدرسا في كلية بير زيت .

— راغب البرغوثي ، مستخدم في مدرسة التدريب المهني التابعة للاتحاد اللوثري في قلنديا .

— عادل البرغوثي ، فلاح فلسطيني سجن ثمان سنوات في الجفر بالضفة الشرقية وسنة لدى الاحتلال في الضفة الغربية .

— محمود شقير ، كاتب واديب فلسطيني وأحد

قادة اتحاد المعلمين ، سجن في الضفة الغربية بين عامي ٦٨ — ١٩٦٩ . وهو سكرتير لجنة الدفاع عن الارض في سوامرة الواد .

— محمد أبو غربية ، قائد نقابي وجماهيري بارز في القدس وسكرتير نقابة عمال الاحذية في المدينة . سجن عدة مرات في عهد الحكم الاردني للضفة الغربية .

— يعقوب فراج ، سكرتير نقابة الخياطين في القدس ، وقد سجن عدة مرات بعد احتلال الضفة الغربية عام ١٩٦٧ .

— فاروق السلفيتي ، محام وتاجر ، وقد سبق أن سجن لمدة عامين في عهد الحكم الاردني .

— خالد الاشهب ، اعتقلته سلطات الاحتلال عام ١٩٦٩ بعد اشتراكه في مظاهرة ضد الاحتلال .

— محمد سعاده ، مدرس فلسطيني سبق له ان سجن لمدة ثمان سنوات في سجن الجفر الصحراوي بالاردن .

— المهندس حسني حداد ، سكرتير لجنة نقابة المهندسين في لوائي بيت لحم والخليل ، وسبق ان سجن في لبنان عام ١٩٤٩ لنشاطه الوطني وسجن في الاردن لمدة ثمان سنوات وفي ظل الاحتلال لوحق وسجن عدة مرات .

— عطاالله الرشماوي ، امين صندوق نقابة عمال البناء والمؤسسات العامة في بيت لحم ، وسبق ان سجن لمدة ثمان سنوات في عهد الحكم الاردني ولوحق وسجن عدة مرات في عهد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية .

— روبير حنا حنظل ، طالب فلسطيني .

— يوسف الهباب ، طالب فلسطيني .

— ايدي حزبون ، طالب فلسطيني جامعي .

كما اعتقلت سلطات الاحتلال الصحافي غسان طهبوب وزياد الحموري وماهر القدومي ورفعت عبده . وقالت القدس في عددها الصادر يوم ٤/٢٦ ، ان جنود الاحتلال قاموا بتفتيش العديد من المنازل في بعض قرى نابلس واعتقلت بعض الاشخاص بتهمة حيازة منشورات ممنوعة .

عيسى الشعيبي

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

الحركة الوطنية الفلسطينية

امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ — ١٩٤٨

بقلم

نـاجي علوش

٢٩٦ صفحة باربع ليرات لبنانية يضاف اليهم اجور البريد الجوي

٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١٠٠ ق.ل. في اوروبا ، ٢٥٠ ق.ل. في سائر الدول

اطلبه من مركز الابحاث — قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

(٤) اسرائيليات

اختيار رابين لتاليف الحكومة الجديدة

لا نكون مغالين او بعيدين عن الصحة ، اذا قلنا ان حرب تشرين كان لها فضل ، او بشكل أدق ، هي التي أتاحت الفرصة للجيل الجديد في حزب العمل للحلول محل القيادة التقليدية للحزب او ما يسمى هناك بجيل المؤسسين . فمنذ وقف اطلاق النار ، بدأت المطالبة باقالة المسؤولين والمتهمين بالتقصير . وقد تركزت المطالبة آنذاك — شابيرا وزير العدل السابق — على استقالة او اقالة وزير الدفاع موشي دايان . لكن وقوف جولدا مئير آنذاك الى جانب دايان بحزم ، حرصا على وحدة الحزب قبيل الانتخابات العامة ، وما ترتب عن ذلك من ربط مستقبلها السياسي بمستقبل دايان ، جعل جهاز الحزب الذي يتحكم فيه سابير يقف الى جانب رئيسة الوزراء ، في وجه الاصوات المعارضة داخل الحـزب ، التي طالبت آنذاك — قبيل الانتخابات — باعادة فتح لوائح المرشحين وباعادة توزيع الحقائب الوزارية بشكل آخر . وقد كان واضحا ان المفتاح بيد رئيسة الوزراء ، وان استقالتها فقط من شأنها ان تفتح الباب لمثل تلك التغييرات التي نادت بها الاصوات المعارضة في الحزب . وقد بدأ آنذاك ، لدى اقرار وثيقة البنود الاربعة عشر ان القيادة التقليدية قد ربحت الجولة الاولى . وجاءت نتائج الانتخابات للكنيست الثامنة ، فعززت المحاذير التي حالت دون جولدا والتضحية بدايان في سبيل الحفاظ على مركزها الشخصي والسياسي داخل الحزب وخارجه . لكن تفاعلات الاحداث اللاحقة — حركات الاحتجـاج الجماهيرية وازدياد نشاط مجموعات الاحتجاج داخل حزب العمل — « وسط التحدي » بزعامة رابين وياريف وبارليف ، وازدياد المطالبة باجراء انتخابات داخلية ، وبالغاء الكتل داخل الحزب ، بالاضافة الى ما توصلت اليه لجنـة اجرانات في تقريرها الاولي ، ذلك التقرير الذي اوصى الحكومة باقالة بعض كبار الضباط في الجيش وعلى رأسهم رئيس الاركان ، وما نتج عن ذلك من العودة الى المطالبة باقالة دايان ثانية بالحاح اكثر من خلال المطالبة بتطبيق مبدأ المسؤوليـة الشخصية — رغم ان التقرير برأه من ذلك — والمسؤولية الوزارية — المتمثلة فيما ذكر اعلاه جعلت جولدا مئير تخطو الخطوة الوحيدة الممكنة ، سيما وان دايان اصر على موقفه بوجوب رحيل الحكومة بأسرها ، فأعلنت استقالتها من رئاسة الوزارة . وقد عبرت مئير عن الوضع الذي آلت اليه الامور باختصار حيث قالت « بدايان لا توجد حكومة وبدون دايان لا توجد حكومة » (ز أ أ — ٧٤/٤/١٥ عدد ٥٠٣ ص ١١٠).

عزوف الورثة

باستقالة مئير ، طرحت مسألة الوراثة نفسها من جديد ، بشكل جدي وواقعي اكثر مما كانت عليه في أي وقت مضى ، حتى عندما كانت مئير تعبر عن رغبتها في ذلك ، كما حدث في اوائل السنة الماضية . لكن حرب الوراثة الخفية التي كانت تتمحور منذ سنين حول سابير ودايان وألون كأكثر ثلاثة مرشحين محتملين ، دخل في دائرتها كنتيجة للمعطيات الجديدة، أسماء اخرى لم تكن في السابق مطروحة ، او بالاحرى لم يكن لهـا حظ كبير في النجاح ، أمثال : رابين ، الموجي ، تسادوك ، بيرس وابا ايبن ، حيث كان بعضها (امثال رابين وبيرس) يعتبر من رجالات الصف الثاني في زعامة حزب العمل ، والبعض الاخر يرهن ترشيحه لنفسه بعزوف سابير ومباركته ، لانه كان معلوما للجميع ان رئاسة الوزارة غدا كونها من نصيب المباي كأكبر كتلة في حزب العمـل ، فان المرشح لهذا المنصب يجب ان يحظى بتأييد هذه الكتلة وبالذات بتأييد كتلة تل ابيب وجهاز الحزب الذي يسيطر عليه سابير .

سابير يرفض ترشيح نفسه

على اثر استقالة جولدا ، كان هناك داخل حزب العمل وجهتا نظر : واحدة تدعو الى استمرار الحكومة الحالية كحكومة انتقالية الى حين اجراء انتخابات جديدة في الخريف المقبل ، وثانية دعت الى ضرورة تشكيل حكومة جديدة . وكان سابير ، استمزاجا منه لرغبة جولدا مئير في البقاء في الحكم، حتى اجراء الانتخابات ، مؤيدا لاستمرار الحكومة السابقة كحكومة انتقالية ، لكنه ازاء لمسه للضغوط الداعية الى وجوب تشكيل حكومة جديدة داخل اللجنة المركزية للحزب، وبالذات في اوساط مجموعة

المباي ، اضطر للتجاوب مع رغبة مؤيديه في اللجنة المركزية . وبقي سابير لاذا بالصمت ورافضا ترشيح نفسه ، رغم كافة الجهود التي بذلها العديد من الاعضاء في كتلة تل ابيب لحثه على تغيير موقفه . لكنه قبل موعد أجراء الانتخابات بثلاثة ايام ، أعلن رسميا انه يدعو الى تأييد رابين بعد ان اقتصرت المنافسة على المنصب بين رابين وشمعون بيرس . وقد ادى موقف سابير المتردد في البداية الى احداث بلبلة في صفوف مجموعة المباي ، واحدوت هعفودا ، نتيجة لموقفه هذا أحجم ورفض بعض اعضاء المباي واحدوت هعفودا امثال تسادوك وابا ايبن وألون ترشيح أنفسهم ، على امل ان يستجيب سابير في آخر لحظة لطلبهم بترشيح نفسه . ومن ناحية اخرى فقد ساهم موقفه هذا في الانقسام الذي تجلى في مجموعة المباي اثناء التصويت ، حيث رفض البعض السير وراءه بعد أن أعلن عن تأييده ليتسحاق رابين .

وكان موقف سابير مثارا للتكهنات والتحليلات ، فبينما اعتبره هو مسألة تعنيه شخصيا ومعبرا عن رفضه القديم والمستمر لاشغال هذا المنصب (يديعوت احرونوت ٧٤/٥/٣) حاول البعض الاخر ايجاد اسباب وعلل له . وقد عزت احدى الشخصيات المركزية في كتلة تل ابيب موقف سابير هذا ، الى ان جولدا مئير هي المسؤولة عنه : « يعتقد الرفاق ان جولدا لم تعامل سابير بشكل لائق . وليس هناك اساس لاقوالها بأنها لا تريد له مصيرا شبيها بما فعلوه معها . لقد اظهرت روحا غير رفاقية ازاء سابير . فبينما تصرف معها « كجنتلمان » حتى النهاية واحيانا قام بأعمال خلافا لرغبته ، لا لشيء ، الا لكونها تريد ذلك ، فانها لم تمد له حتى أصبعا صغيرا للمساعدة » . (يديعوت احرونوت ٧٤/٥/٣) .

ويمكن تلخيص موقف سابير الرافض بنقطتين اثنتين :

أ — فمن ناحية ، فان اخلاصه ووفاءه لجولدا ، جعله يرى انه من غير اللائق الاسراع بترشيح نفسه لخلافتها ، طالما لم تطلب منه ذلك (رغم تأكيده على انه لم يكن ليستجيب لها حتى لو فعلت ذلك) ، نظرا للشكل والاسلوب الذي اضطرت به للاستقالة .

ب — انسجام سابير مع نفسه في مطالبته باجراء انتخابات جديدة ، واستمرار الحكومة السابقة في الحكم كحكومة انتقالية ، وشعوره بأن هذا هو ما ترغب به جولدا مئير .

أما احد انصاره فقد علل امتناعه بقوله : « لا اعلم تماما ولكن باستطاعتي ان اتكهن بالسبب . فالمسؤولية ثقيلة جدا . ويحتمل ان هذا هو السبب الاساسي لرفضه ترشيح نفسه لهذا المنصب » . (ر أ أ — ٧٤/٤/١٩ ، عدد ٥١٣ ص ٤١٠) .

اما دايان وألون ، المرشحان الاوفر حظا قبل الحرب لخلافة جولدا ، فقد عزف كلاهما عن ترشيح نفسيهما . فالاول حرقته الحرب ، ولم يعد بمقدوره حتى الاحتفاظ بوزارة الدفاع ، فكيف التطلع الى رئاسة الوزارة . والثاني ، رغم طموحه الشديد لهذا المنصب فقد آثر عدم ترشيح نفسه طالما لم يلمح له سابير بذلك . لكنه في نفس الوقت عزا موقفه هذا الى المطلب الذي تبنته أحدوت هعفودا في حزب العمل ، ذلك المطلب الداعي الى اجراء انتخابات جديدة : « ان ما تطلبه المرحلة والجماهير منا اليوم ، هو خطوة حاسمة ، اي الانتخابات العامة فقط . فلن تفيد الخطوات البديلة ، والمفتاح والمخرج الحقيقي للازمة هو فقط في الرجوع الى الشعب » (ر أ أ — ٧٤/٤/٢١ عدد ٥١٥ ص ٤٦٨) .

وأعرب الون في مقابلة اذاعية اخرى أجريت معه عن عدم ارتياحه من الوضع الداخلي الذي يسود الحزب، ولعدم الجرأة على استخلاص العبر السليمة والصحيحة بشأن الحاجة لاجراء انتخابات جديدة عامة للكنيست في أشهر الخريف المقبل . وقال معبرا عن معارضته لتشكيل حكومة جديدة : « ... ولكني اريد ان استبعد قيام حكومة ترى ان من واجبها الاستقالة بعد مدة قصيرة . وعندها نتأسف مرة اخرى لاننا لم نفعل الامر الصحيح في الوقت الصحيح » (ر.أ.أ. — ٧٤/٤/٢٠ ، عدد ٥١٥ ، ص ٤٥٣) .

وهكذا بقي في الساحة عمليا يتسحاق رابين عن المباي ومدعوما من قبل أحدوت هعفودا ، وشمعون بيرس مدعوما بشكل اساسي من كتلة « رافي » . وقد فاز رابين في الانتخابات التي جرت في اللجنة المركزية في ٧٤/٤/٢٢ على شمعون بيرس

بأغلبية ٢٩٨ : ٢٥٤ من أصل ٥٥٨ صوتا شاركوا في الاقتراع ، وضع ستة منهم اوراقا بيضاء (عدد أعضاء اللجنة المركزية ٦٠١ عضو) .

مغزى انتخاب رابين

يتفق معظم المراقبين والمختصين بالشؤون الحزبية الاسرائيلية على ان جلسة اللجنة المركزية لحزب العمل التي انتخب فيها رابين مرشحا عن الحزب لتشكيل الحكومة الجديدة ، تمثل منعطفا مهما في حياة الحزب . وقد أشارت بعض الصحف (معاريف ٧٤/٤/٢١) الى ظاهرة التنافس على منصب رئاسة الوزارة فقالت : « ... وهذه المرة سيجري تنافس بين مرشحين (خلافا للسابق) . وهذا لا يدل ، بالذات على « غروب شمس الالهة » وعلى هبوط في مستوى الزعامة ، بل هذا دليل على نضوج أكبر في كل ما يتعلق بالاجراءات الديمقراطيـــة وتطبيقها على ارض الواقع » . وأضافت معاريف « ان حقيقة التنافس بين رابين وبيرس هو على المكانة في القيادة » .

وترى بعض الصحف ايضا انه بقدر ما يعود فضل انتخاب رابين لجهود سابير فان الاصوات التي حصل عليها شمعون بيرس ، والتي لم تكن متوقعة ، تعود ايضا لموقف سابير الذي أفقده سيطرته وتحكمه بأكبر كتلة في اللجنة المركزية لحزب العمل ، أي المباي . وقد عزت (معاريف ٧٤/٤/٢٢) أسباب تأييد سابير لرابين الى ما يلي :

أ ــ من الاسهل على الكتلة (كتلة تل ابيب) الاحتفاظ بالسلطة في حالة وجود رابين على رأسها، بينما العكس ، اذا كان بيرس .

ب ــ ان رابين يشكل قوة جذب انتخابية .

واضافت معاريف قولها : « ومنذ الان تقررت حقيقة جديدة : فسيكون هناك رئيسا للوزارة من جهة ، ورئيسا للحزب من جهة اخرى . وكرئيس للحزب يرى سابير نفسه مناسبا واكثر قدرة على حسم الامور حتى لو كان خارج الحكومة » .

أما دان بتير فكتب في صحيفة دافار ٧٤/٤/٢٤ يقول : « ان الخطوط المميزة للقرار الذي اتخذ في اللجنة المركزية لحزب العمل جديرة بالتنويه بها ، وليس هذا فقط للتجديد المحض بالنسبة لكل ما كان متبعا في الحزب حتى الان ، بل للابعاد الجذرية النابعة منها بالنسبة لاستمرار ونوعية طـريق الحزب » . وفي تحليله لمدلولات اختيـار رابين وللشكل والاسلوب الذي تم به يحدد بتير خمـس ظواهر :

* ان التنافس المفتوح الذي جرى للحصول على ترشيح الحزب لرئاسة الحكومة ، مكن العديد من الاراء والاعمار من الاشتراك فيه ، وفي نهاية الامر بقي اثنان من خيرة الجيل الجديد في صفوف القيادة ، وهم الاكثر شبابا ، حيث الاول لم يكمل بعد ثمانية أشهر من العمل السياسي (الحزبي) بعد سنين طويلة ، من اشغال مناصب رسمية ، عسكرية ودبلوماسية . أما الثاني فاكثر منه قدما في النشاط السياسي والحزبي .

* ان الظاهرة الاكثر بروزا كانت ظاهرة « الصوت العائم » الذي وجد تعبيرا عنه بالذات في أكبر الكتل التي يتألف منها حزب العمل ، في مجموعة المباي سابقا . وهذه الظاهرة هي التي جسدت بداية غروب شمس الحواجز الكتلوية وابعـدت أخطار الانشقاق . كما وتميزت هذه الظاهرة ، بين ما تميزت به ايضا بواسطة القرارات الرسمية لبعض القطاعات الحزبية ، مثل قطاع الشـباب وجيل الاستمرار واتحـاد « الكفوتســـوت والكيبوتسيم » ، المستوطنات وألوية حزب العمل الكبيرة مثل لواء حيفا وتل ابيب ، القاضية بعدم اتخاذ قرارات تأييد ملزمة سلفا ازاء أي واحد من المرشحين .

* وعلى الرغم من سرية التصويت ، تدل النتائج النهائية على انه ازاء تصويت كتلوي موحد تقريبا لمجموعتي « رافي » و « أحدوت هعفودا » فـان توزع الاصوات داخل مجموعة المباي بالتساوي تقريبا بين المرشحين ، يدل ، بين ما يدل عليه ، ليس على تصويت مضاد للجهاز الحزبي وربمـا مضاد للوصاية فقط ، بل هو تعبير عن رغبة في اعتبار القيادة المنتخبة الجديدة ممثلة لاتجاه فوق الكتل .

* واعتقد انه بالامكان ان نلاحظ في مجرد تفضيل المسار الملزم بمحاولة تشكيل حكومة جديدة ، حيث انه كان في غالبيته ثمرة تأييد من اوساط مجموعة المباي سابقا ، ارادة لتجسيد قوة حيوية حزب العمل كحزب حاكم باستطاعته نقل زمام الزعامة من عصر الى عصر ، بالذات في أكثر الاوقـات صعوبة .

* وظاهرة اخرى للاسف ـ لم تقدر حتى الان حق قدرها في حزب العمل ، وهي تتمثل في الاسلوب الجديد المنضبط والمحترم في العلاقة الشخصية بين المرشح وناخبيه وبين المرشحين انفسهم .

أما دان مرجليت (ملحق هآرتس ٧٤/٤/٢٦) فكتب حول الدلالة الاساسية لعملية الترشيح فقال : « لقد كان ترشيح رابين وبيرس اشارة الى تغيير معين ، الى وصول « المطبخ » الى نهاية الطريق . جولدا ستعتزل . دايان والون شاب شعرهما ، وهما يستعدان لمعركة على الوراثة لم تجر ابدا ، ومن المشكوك فيه ان تجري في يوم من الايام . وجيل كامل من رجال الاحزاب ينزل من على خشبة المسرح » (نشرة م.د.ف. السنة الرابعة ٧٤ ، العدد ٩) .

مشاكل وصعوبات

يواجه رابين مهمتين عاجلتين يتوجب عليه فيهما ان يتخطى المصاعب القائمة في طريقه فيهما او التي ستوضع في طريقه . المهمة الاولى هي مهمة تشكيل الحكومة الائتلافية الجديدة في أقرب وقت ممكن . والمهمة الثانية توطيد مركزه داخل الحزب من خلال تكتيل الحزب حوله واختيار كادر او طاقم من الوزراء يرضي كافة الكتل في الحزب . وقد أشار يوئيل ماركوس (هآرتس ٧٤/٤/٢٦) الى الصعاب التي يواجهها رابين في مهمتيه المذكورتين فقال : « اولا وقبل كل شيء ، يجب ان نذكر ان الفراغ المطلوب من رابين ملأه ليس مكان جولدا مئير التي لا تزال حيويتها وردود فعلها ورئاستها للحكومة بارزة جدا فقط ... [وانما ايضا] مكان الرعيل القديم الذي تم تحييده [في جلسة حزب العمل] ... » .

وتابع ماركوس متحدثا عن الصعوبة الثانية أمام رابين ، فقال انه يشغل الان منصب وزير في حكومة ترئسها جولدا مئير : « انه وريثها (دون مباركتها)، وفي الوقت نفسه ملزم بالولاء لها كواحد من وزرائها ـ وهذا وضع سيرغمه على السير على أطراف أصابعه حتى لا يستثير ... غضبها ... انه لا يستطيع مثلا ان يعقد مؤتمرات صحافية ويعبر عن آراء تناقض آراءها او تختلف عنها . وعليه ان يكون حذرا ايضا في المفاوضات الائتلافية كي لا يتنازل أكثر مما كانت جولدا مئير ستتنازل عنه . ومن الصعب معرفة كيف يمكن لرابين ان يتخلص من هذا الوضع ، الا ان الامكانات ليست كثيرة : أما تقصير الفترة المرحلية ، او ان تعتزل جولدا منصبها جزئيا وتخوله معظم صلاحياتها » .

والصعوبة الثالثة في رأي ماركوس ، ستكون علاقة رابين ببنحاس سابير الذي يصعب التصديق انه فقد قوته بترشيح رابين . وهناك من يعتقد ان كل ما حدث في اللجنة المركزية كان خطوة محكمة من سابير « لحرق » رابين ، كي يدعى الى انقاذ الوضع ، بعد فشل رابين في تشكيل الحكومة .

أما الصعوبة الرابعة ، في رأي ماركوس ، فهي شمعون بيرس ، الذي كان يكفي ان ينتخبه ٢٢ عضوا آخر ليتم اختياره مرشحا لتشكيل الحكومة . والرأي السائد هو ان رابين سيحول منافسه الى حليف مهم له ، ولكن « ماذا سيقول في ذلك مبام وأحدوت همعفودا ، وسابير ؟ وبالمقابل اذا استمع الى ما يقولونه ـ ماذا ستقول كتلة رافي ؟ » .

وانتقل ماركوس اخيرا الى الصعوبة المباشرة التي يواجهها رابين : تشكيل الحكومة ـ الائتلاف والمناصب : « فيما يتعلق بتشكيل الحكومة ، لا يستحق الامر عناء التنبؤ . هناك من يقول ان فرصه معدومة ، وهناك من يقول ان في جيبه ، منذ الان ، حكومة مستندة الى ٦١ صوتا ، وتستطيع الاعتماد على خوف المفدال من اجراء الانتخابات ... ولكن هذه مسألة ثانوية ، حيث ان في نية رابين الامتناع عن جرجرة الامور ، وتعيين موعد محدد لجهوده . اذا نجح ، حسنا ـ واذا فشل يختار الانتخابات (...) وربما كانت المسألة الاعقد هي في مجال الفريق الذي سيختاره من بين صفوف الحزب للعمل معه . ماذا سيحدث لابين ؟ لدايان ؟ هل سينضم ألون الى الحكومة؟..» والنتيجة التي يصل اليها ماركوس : ليس واضحا ما سيحدث . ويشاركه في هذا الرأي معظم المعلقين السياسيين ، وان كان ترجيحهم هو فشل رابين في تجاوز كل هذه الصعاب . (نشرة م.د.ف. السنة الرابعة ٧٤ ، العدد ٩) .

تعثر المفاوضات الائتلافية

جاءت استقالة حكومة جولدا مئير فرصة مناسبة للمفدال لتوحيد صفوفه من جديد ، بعد ان كادت

موافقة الحزب على المشاركة في الحكومة السابقة ان تودي بوحدته .. وهكذا فعودة المفدال الى طرح مطلبي اقامة حكومة طوارىء وطنية وتعديل قانون من هو اليهودي ، هي في جوهرها محاولة لتحقيق هدفين محددين :

١ ــ اصلاح الحال مع مجلس الحاخامين الاعلى الذي اوصى في حينه بعدم دخول الحزب الى الائتلاف الحكومي الا اذا تم التعهد بتعديل القانون.

٢ ــ اعادة الوحدة والتماسك الى صفوف الحزب ، وذلك بالاصرار على المطلبين المذكورين اعلاه .

وكان هذان المطلبان قد تقررا في اجتماع لادارة الحزب عقد في ٧٤/٤/١٨ ، بعد ان كانت كتلة الحزب في الكنيست قد اتخذت قرارا مماثلا . وبالنسبة للقرار المتعلق بالسعي لاقامة حكومة طوارىء وطنية ، فعلى ضوء موقف المفدال المعارض لاجراء انتخابات عامة ، فقد كان هذا القرار موضع خلاف في تفسيره بين كتل الحزب المختلفة . فبينما رأى وزير الاديان يتسحاق رافائيل ان القرار يحتم على المفدال المبادرة لتأليف حكومة طوارىء وطنية ، قال سكرتير هبوعيل همزراحي (أحد جناحي المفدال) انه اذا لم يستجب لطلب الحزب بتأليف حكومة طوارىء وطنية ، وتوجب الاختيار بين الانضمام الى حكومة مستقرة او اجراء انتخابات جديدة ، فينبغي الاخذ بالاختيار الاول . أما شباب المفدال الذين يطالبون باصرار بتأليف حكومة طوارىء وطنية فيعتقدون ان معنى القرار الذي اتخذ في ادارة الحزب هو ان باستطاعة ممثلي المفدال خلال مفاوضاتهم مع ممثلي المعراخ وسائر الكتل في الكنيست بحث موضوع واحد فقط وهو اقامة أو تشكيل حكومة طوارىء وطنية .

أما بالنسبة للمطلب الثاني ــ تعديل قانون من هو اليهودي ــ فقد برر وزير الاديان يتسحاق رافائيل عدم موافقة حزبه الدخول في الائتلاف الجديد على أساس الحل الذي تم التوصل اليه سابقا بقوله : « .. فعندما انضممنا الى الحكومة قبل شهرين ، كنا مقتنعين انها حكومة مستقرة ، وسوف تبقى في الحكم طيلة ولايتها ، أي لمدة اربعة أعوام . وان اللجنة الوزارية لحل قضية من هو اليهودي ، من شأنها ان تعمل بهدوء دون ضغوط انتخابية ودون غليان ، كما كنا مقتنعين ان جميع الاطراف ستعمل لايجاد حل لهذه القضية. ولكن الان ولكوننا نعتقد ان الحكومة التي ستؤلف هي في الواقع حكومة انتقالية جديدة ستمارس الحكم نصف عام او عاما واحدا على أبعد تقدير، لغاية الانتخابات الجديدة . ففي جو الحملة الانتخابية ، تضيع النوايا الحسنة المطلوبة ، لعمل لجنة وزارية كهذه ، ولحل مسألة جديدة ومعقدة كهذه ، لهذا لا ارى احتمالا لحل المشكلة داخل اللجنة ، ولهذا بالضبط ، نريد حل المشكلة قبل انضمامنا للحكومة » (ر.أ. ــ ٧٤/٤/٣٠ ، عدد ٥٢٢ ، ص ٥) .

ونظرا لموقف حزب العمل القاطع ــ رغم بعض الاستثناءات ــ الرافض لحكومة طوارىء وطنية ، فان المفاوضات الائتلافية تركزت عمليا حول مطلب تعديل القانون . وكان واضحا ان المفدال يسعى بذلك لتحقيق مكسب يسجله لصالحه ، لخوض معركة الانتخابات القادمة او على الاقل تكتيل الجمهور المتدين في اسرائيل حول هذا المطلب فيها.

وقد تقدمت لجنة المفاوضات التابعة للمعراخ بثلاثة اقتراحات للمفدال بهدف تذليل العقبة التي تحول دون انضمامه الى الحكومة :

١ ــ اختصار مدة عمل اللجنة الوزارية لشؤون التهويد الى ستة اشهر ــ بعد ان كانت المدة في الاصل سنة ــ وهذا يعني عمليا انجاز مهمتها خلال ثلاثة أشهر بعد ان مضى على اقامتها ثلاثة أشهر ..

٢ ــ تعيين الوزير يتسحاق رافائيل رئيسا للجنة الوزارية (في السابق كانت ترئس اللجنة رئيسة الوزارة جولدا مئير) .

٣ ــ ان يعلن رئيس الحكومة من على منصة الكنيست ، ان اللجنة لشؤون التهويد ستعمل من خلال هدف التوصل الى حل يتمشى مع العادات المتبعة منذ اجيال بعيدة . وقد أضيفت الى هذه الفقرة بناء على طلب المفدال فقرة تحدد ان اللجنة ستبحث عن حل يرضي جميع التيارات الدينية اليهودية .

وكان نصيب هذه المقترحات الفشل ، اذ ان ممثلي المفدال رفضوا قبولها مقدمين اقتراحا بديلا يقضي بتعديل قانون العودة بناء على الشريعة خلال

ستة أشهر ، ذلك الاقتراح الذي رفضه المعراخ بدوره .

وفي ٧٤/٥/٦ قررت ادارة المفدال ان الحزب لا يستطيع بناء على ما تم في المفاوضات الائتلافية، الانضمام الى حكومة جديدة على اساس الشروط التي اقترحتها المعراخ . وأعرب سكرتير المفدال ، على اثر صدور قرار الادارة ، عن رأيه بان القرار قد تأثر بما جرى داخل حزب العمل من تغيير في القيادة ، حيث قال : « نعم ، يجدر بي القول ان قضية الاشخاص ، قد لعبت دورا في قرارنا الليلة ، لاننا نعتقد — من ناحية الاخلاص لقضية الحدود التاريخية لاسرائيل — ان حكومة دون جولدا ودايان وجليلي واشخاص آخرين ، تجذبنا اقل بكثير من حكومة يشترك فيها هؤلاء الاشخاص . ولا اؤمن حاليا بأن حكومة مقلصة دون اشتراكنا فيها هي أفضل من الحكومة الائتلافية الحالية » (ر.ا.أ — ٧٤/٥/٦ ، عدد ٥٢٦ ، ص ١٣١) .

الاتجاه نحو حكومة مقلصة

وعلى اثر قرار ادارة المفدال برفض مقترحات المعراخ المتعلقة بايجاد حل لقضية « من هو اليهودي » ، تركزت الجهود في سبيل اقامة ائتلاف مقلص يعتمد على ٦١ صوتا (الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن) . ففي ٧٤/٥/١٠ قرر مكتب حزب العمل تأليف حكومة على اساس الخطوط الاساسية الحالية ، وعلى اساس قرارات اللجنة المركزية ، الا انه طبقا لاقتراح وزير المالية، لم يجر التصويت في مكتب الحزب على خياري حكومة تستند الى أغلبية ٦١ صوتا او حكومة أقلية من ٥٨ عضوا ، وتقرر ايضا بأغلبية ٣٢ صوتا ضد ٢٠ عدم تقديم اقتراحات جديدة للمفدال.

وقد نتجت خلافات شديدة في وجهات النظر على اثر طلب رئيسة الحكومة ان يطرح للتصويت اقتراحها ضد تأليف حكومة تقوم على ٦١ صوتا ، وذلك بسبب معارضتها المبدئية لضم حركة حقوق المواطن . وزعمت ان ضم حركة حقوق المواطن سيؤدي الى زعزعة خطوط الحكومة الاساسية، لكن الدافع الحقيقي لدى مئير هو موقفها الشخصي من رئيسة الحركة عضو الكنيست شوليت ألوني . وعلى اثر رفض طلبها، خرجت من الجلسة غاضبة. وكانت مئير في خطابها الذي سبق اتخاذ القرارات، قد أكدت بأنه اذا تألفت حكومة بدون المفدال وبالاشتراك مع حركة حقوق المواطن ، فانها ستطلب اجراء مناقشة سياسية في اللجنة المركزية للحزب ، قبل تأليف مثل هذه الحكومة . لكن مئير اشارت في خطابها ايضا الى انها ستصوت برضى تام الى جانب حكومة مؤلفة من ٥٨ عضوا ، شريطة ان يكون هناك ٥٨ مؤيدا بالفعل .

لم تقتصر الصعوبات التي تواجه رابين في مهمته لتشكيل حكومة مقلصة على مواقف بعض اعضاء حزبه ، فالمفاوضات مع الشريكين المحتملين (الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن) ، اصطدمت ايضا ببعض الصعاب . فمن جهة معارضة الاحرار المستقلين لاقامة حكومة اقلية ، ومن جهة ثانية مطالبة حركة حقوق المواطن بتعديل بعض خطوط الحكومة الاساسية ورفضها ابقاء حقائب شاغرة للمفدال . ذلك المطلب الذي لاقى تأييدا من الاحرار المستقلين . وقد شرح عضو حركة حقوق المواطن عضو الكنيست بوعز موآب الاقتراح المشترك بقوله: « سمعنا امس اقوال المرشح لرئاسة الحكومة يتسحاق رابين،وقررنا انه بالنسبة لخطوط الحكومة الاساسية ، نحن على استعداد للموافقة على خطوط الحكومة الاساسية السابقة ، وان يذكر رئيس الحكومة المقبل المواضيع المحددة التي طرحناها ، في خطابه أمام الكنيست لدى عرض الحكومة على الكنيست . ويبدو لنا انه لا يوجد مجال لتوقع حركة حقوق المواطن اتفاقا ائتلافيا مماثلا للاتفاق الذي وقع عليه المفدال . فلا بد من ادخال تعديلات معينة على هذا الاتفاق الائتلافي. مثلا ، الغاء البند الذي ذكر فيه اسم المفدال ، وكذلك تجميد الموضوع المتعلق بقضايا الدين لمدة ثلاثة اشهر ، واذا لم ينضم المفدال الى الحكومة خلال هذه الفترة ستكون احرارا لاعادة بحث موضوع الاتفاق الائتلافي » (ر.ا.أ — ٧٤/٥/١٤، عدد ٥٣٣ ، ص ٣١٨) .

وازاء هذا الوضع ، حيث كان رابين يتعرض لضغوط من الداخل ، ومن الشركاء المحتملين لم يستطع تشكيل الحكومة والتوصل الى اتفاق في المدة الاولى المحددة مما اضطره الى الطلب من رئيس الدولة امهاله اسبوعا آخر لاتمام عملية تشكيل الحكومة .

هاني عبدالله

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

كيسنجر بين حرب الاستنزاف ومباحثات فصل القوات في الجولان .

في الثلاثين من شهر نيسان وصل وزير الخارجية الاميركية الدكتور هنري كيسنجر الى القاهرة، ليبدأ جولته الخامسة في الشرق الاوسط . وبدأت مرحلة من المفاوضات المسلحة غير المباشرة . وكان العالم ينتظر ان تصمت المدافع على جبهة الجولان منذ ان يضع كيسنجر قدمه في المنطقة ، حتى يتم عمله الدبلوماسي في جو هادىء يساعد على الوصول الى اتفاق . ولكن السوريين آثروا التفاوض من قلب المعركة ، وقرروا متابعة حرب الاستنزاف ، التي بدأت في ١٢ اذار ، والبحث عن السلام بآن واحد. مطبقين بذلك اسلوب المفاوضات المسلحة الذي اشتهر باسم « الاسلوب الفيتنامي » ، مع ان الكوريين كانوا أول من طبقه بنجاح في مطلع الخمسينات ، خلال مباحثات بانمونجوم . ويمكن القول ان محادثات فصل القوات على الجبهة المصرية التي جرت في كانون الثاني من هذا العام، والمحادثات التي أجراها كيسنجر على طريقته ، خلال جولته الخامسة الحالية ، هي أول مرة في تاريخ الصراع العربي — الاسرائيلي يدخل العرب فيها المفاوضات وهم يحملون السلاح بأيديهم كوسيلة من وسائل الحوار، وأسلوب من أساليب الضغط، مع استعدادهم للعودة الى الحرب بشكليها المحدود او الشامل عند تعثر المفاوضات .

ويعتمد « الاسلوب الفيتنامي » الذي يطبقه السوريون خلال حرب الاستنزاف ، على التأثير المتبادل للحرب والسياسة . واذا نظرنا الى حرب الاستنزاف السورية « كاستمرار لحرب تشرين الاول » لوجدنا صورة حية لهذا التأثير المتبادل . فلقد أعدت السياسة والدبلوماسية العربيتين الظروف الملائمة لحرب تشرين . وخلقت حرب تشرين الحقائق المعروفة التي كان من عناصرها تحطيم الجمود السياسي واعطاء السياسة والدبلوماسية العربية حقل عمل اوسع ، مع تحديد حقل عمل السياسة والدبلوماسية المعاديتين . وعندما اصطدمت المناورة السياسية العربية بالرفض الاسرائيلي الناجم عن دخول سياسة تل ابيب في طريق مسدود ، تهيأ ظرف جديد لعمل عسكري محدود طويل الامد ، لا تود اسرائيل الاستمرار فيه ، ولا تقدر على تصعيده . على حين تسعى القيادة العسكرية السورية الى استخدامه لمتابعة تفتيت العدو سياسيا ، وانضاج ظروف « حرب اليهود » ، واعطاء السياسة العربية سلاحا ضاغطا خلال مباحثات السلام .

وبالاضافة الى هذا الغرض السياسي الهام فان لحرب الاستنزاف في الجولان اغراضا عسكرية بحتة، تعمل القوات المسلحة السورية على تحقيقها لتوظيفها في خدمة السياسة . ومن هذه الاغراض:

١ — الحاق الخسائر بقوات العدو يوميا وبشكل مستمر . واذا كانت الولايات المتحدة قادرة على تعويض خسائر اسرائيل بالمعدات ، فان الخسائر البشرية المتراكمة أمر يصعب تعويضه ، رغم دعم الولايات المتحدة البشري للدولة الصهيونية بواسطة الفنيين من يهود الولايات المتحدة المزدوجي الولاء . ولا يعني هذا القول أن الخسائر تقع في جانب واحد ، وان السوريين لا يخسرون رجالا او عتادا ، ولكنه يعني ان مفهوم الخسائر (المادية والبشرية) لدى الشعوب المعتدى عليها لا يتماثل مع المفهوم نفسه لدى الشعوب المعتدية ، كما أن تأثيرات الخسائر البشرية على شعب تعداده أقل من ثلاثة ملايين لا تعادل تأثيرات هذه الخسائر على شعب تعداده (٦،٧٧٥،٠٠٠) ملايين . واذا كان بوسع اسرائيل تعويض خسائرها المادية بفضل المساعدات الاميركية ومساعدات الصهيونية العالمية ، فان سورية تؤمن التعويض بفضل المساعدات العسكرية السوفييتية ، والمساعدات المالية التي تقدمها الدول العربية البترولية الغنية.

٢ — خلق حالة انعدام الامن بالنسبة لمستوطنات هضبة الجولان . ومن المعروف ان التصف السوري المستمر بالمدفعية بعيدة المدى يجبر سكان المستوطنات السبع عشرة على العيش فترة طويلة كل يوم في الملاجىء ، ويحرمهم من امكانية القيام بأعمالهم العادية ، ويثبت لهم أن وجودهم في هذه المنطقة يهدد حياتهم ويعرضهم لخطر دائم .

٣ — تثبيت عدم قبول سورية بأي استيطان في الجولان ، واصرارها على استعادة الارض العربية

المحتلة ولو دام القتال عشرات السنين . ومن المؤكد أن هذا الهدف نابع من تصميم السوريين على منع اسرائيل من خلق حقائق جديدة ، وفرضها على العالم كأمر واقع . خاصة وان تاريخ الصراع العربي — الاسرائيلي الطويل ، أثبت ان صمت العرب أمام الحقائق الجديدة التي تخلقها اسرائيل، يعطي هذه الحقائق مع الزمن شرعية واعترافا دوليين .

٤ — منع العدو من تحصين مواقعه وتحسين خطوطه القتالية ، وتدمير وحداته الهندسية التي تحاول انشاء التحصينات او اعداد الحواجز . الامر الذي يبقي القوات الاسرائيلية المحشورة داخل الجيب مكشوفة ومعرضة للضربات ، ويحرمها من فرصة بناء خط دفاعي قوي قادر على الصمود في حالة تحول حرب الاستنزاف الى حرب حركة .

٥ — اجبار اسرائيل على استنفار جيشها العامل بشكل مستمر ، وابقاء جزء من قواتها الاحتياطية تحت السلاح بغية تأمين التوازن الاستراتيجي في الجولان . نظرا لان الجيش العامل الاسرائيلي (قوات نظامية ومجندين في الخدمة) وتعداده ١١٥ الف رجل لم يعد كافيا لتأمين التوازن الاستراتيجي، خاصة وان اسرائيل مضطرة للاحتفاظ بجزء من قواتها في سيناء — رغم تطبيق اتفاق الفصل بين القوات على الجبهة المصرية — ومضطرة للاحتفاظ بقوات احتياط استراتيجي ، ومجموعة مخافر مقابل الجبهة الاردنية ، بالاضافة الى القوات اللازمة لتأمين التوازن مع القوات السورية المحتشدة على طول خطوط وقف القتال ، والتي أخذت وضعا قابلا للتحول بسرعة من الدفاع الى الهجوم .

٦ — العمل للسيطرة على قمم جبل الشيخ لتحسين الوضع الاستراتيجي للترتيب الدفاعي السوري . وتنبع صعوبة هذا العمل القتالي من وعورة الجبل الذي تجري المعارك على سفوحه وقممه ، وقسوة الطقس ، الامر الذي يجعل الاعتماد على المقاتل أهم من الاعتماد على المعدات الحربية . ولقد وصف المعلق العسكري الاسرائيلي زئيف شيف هذا القتال بقوله : « لم يضطر الجيش الاسرائيلي في السابق الى القتال في ظروف ارضية صعبة كتلك التي في جبل الشيخ » ، ولقد اضطرت هذه الظروف القاسية اسرائيل من قبل الى الانسحاب من قمة جبل الشيخ بعد حرب ١٩٦٧ ، لان امداد جنودها وتموينهم بالوسائط العادية صعب جدا ، ولان شدة الرياح تمنع الامداد والتموين بطائرات الهليكوبتر التي كانت تلقي الامدادات من الجو ، فتسقط في معظم الاحيان بعيدة عن المواقع .

وتأتي اهمية جبل الشيخ الاستراتيجية والتكتيكية من أنه يضمن للمسيطر عليه مراقبة مسرح العمليات في الجولان ، ومراقبة الحشود الاسرائيلية في سهل الحولة ، والحشود السورية شرقي خطوط القتال. كما يسمح بالرصد الجوي الى مسافات بعيدة . ويحاول السوريون شق الطريق الى القمم ، ولم يبق من هذا الطريق سوى ٨٠٠ متر . وتستطيع القوات السورية ، اذا ما سيطرت على القمم بشكل كامل ، وشقت الطريق من مواقعها الى هذه القمم ، وضع الرادارات التي تغطي اجواء مسارح العمليات ، وتكشف الطائرات بزاوية ٣٦٠ درجة ، وتحرم الاسرائيليين من امكانية التسلل بحرية عبر الاجواء اللبنانية . كما أن السيطرة على القمم وايصال الطريق اليها يعني امكانية نقل المواقع والدبابات والصواريخ ، ووضعها في مواقع مشرفة على ميسرة القوات الاسرائيلية .

وتأخذ حرب الاستنزاف في الجولان وجبل الشيخ اكثر من شكل ، وهي في جوهرها مبارزة بالوسائط النارية تتخللها عمليات دوريات تكتيكية عبر خطوط وقف القتال . وتشترك في المبارزة المدفعية والصواريخ والدبابات ، ويستخدم السوريون خلالها بشكل كثيف القذائف الصاروخية من طراز « كاتيوشا » المحمولة على عربات « زيل » . ولقد دخل الطيران ميدان هذه المبارزة النارية . ويذكر المراقبون انه أصبح من المألوف ان يبدأ السوريون فتح نيران الوسائط البرية ، فيرد العدو برمايات معاكس البطاريات ، وتتحرك الدبابات لاخذ مواقع رمي متقدمة معدة مسبقا وتفتح النار على العدو، ويتدخل الطيران الاسرائيلي لقصف مواقع السوريين ومرابض مدفعيتهم ، فتتصدى له وسائط الدفاع الارضية من مختلف الانواع ، كما تحلق الطائرات السورية المعترضة من طراز « ميغ — ٢١ » أحيانا للتصدي لطائرات العدو ، ولا تمضي فترة قصيرة على اختفاء الطيران الاسرائيلي حتى تظهر الطائرات السورية « ميغ — ١٧ » ، و« سوخوي — ٧ » على ارتفاعات منخفضة ، وتبدأ مهاجمة المواقع

المعادية تحت حماية مظلة من طائرات « الميغ ـ ٢١ » . وتستخدم المدفعية السورية اسلوبي « رمي التدمير » ، و« رمي الازعاج » بحيث تفاجيء العدو في اوقات لا يتوقعها ، وتدمر قواته او تجبرها على الالتجاء الى الملاجيء ، وتحرمها من فرص الراحة .

ومن المظاهر الجديدة في حرب الاستنزاف الدائرة ، ١ ـ تزايد عدد الدوريات المكلفة بالاستطلاع او خطف الاسرى ، وتزايد العمق الذي تتوغل فيه وراء خطوط وقف القتال ، ٢ ـ تمركز الجيش اللبناني في قطاع العرقوب بحيث يكشف تسلل الاسرائيليين البري عبر الاراضي اللبنانية لتهديد جناح القوات السورية العاملة في الجولان، وقيام القوات اللبنانية المنتشرة بقصف دوريات العدو التي تجتاز الحدود في هذه المنطقة ، ٣ ـ تسليح وحدات من المشاة (مغاوير سوريين او فدائيين فلسطينيين) بصواريخ ارض ـ جو فردية من طراز « ستريلا » ، ودفعها الى السفح الغربي لجبل الشيخ بغية التصدي للطائرات الاسرائيلية التي تتسلل عبر الاجواء اللبنانية لقصف قوات السوريين في الجولان وجبل الشيخ .

في ظل هذا المناخ المتوتر والعمل العسكري المستمر بدأت جولة كيسنجر الخامسة في الشرق الاوسط . ولم يكن وزير الخارجية الاميركية يحس بتفاؤل كبير ، وكانت طموحاته منذ البداية محدودة بالتوصل الى تفاهم حول بعض النقاط ، وتقريب وجهات النظر المتباعدة استعدادا لجولة اخرى مقبلة . والتوصل قبل مغادرة الشرق الاوسط الى اتفاق حول وقف اطلاق النار على الاقل ، مع ترك الانطباع لدى العرب والسوفييت بأن الامور تتقدم نحو الانفراج بخطوات بطيئة ولكنها مؤكدة، لان اعلان فشله الكامل يعني بالنسبة اليه : ١ ـ اهتزاز موقفه وموقف الرئيس نيكسون داخل الولايات المتحدة ، ٢ ـ ضعف موقف الزعماء العرب الذين وثقوا به ، ووضعوا حل الامور بين يديه ، ٣ ـ تدعيم وجهة نظر الزعماء العرب المتشددين الذين يدعمهم الاتحاد السوفييتي ، ٤ ـ عودة النفوذ السوفييتي الى المنطقة بشكل اقوى، ٥ ـ اعادة طرح مسألة حظر النفط في حزيران بشكل يهدد باثارة أزمة الطاقة من جديد ، ٦ ـ احتمال اندلاع الحرب من جديد على نطاق واسع.

ولقد كان مع كيسنجر عند قدومه مجموعة من الاوراق الرابحة . فهو يعتمد على ثقة الحكومة المصرية ورغبتها في مساعدته على فصل القوات في الجولان ، ويستطيع استخدام المساعدات الاميركية الضخمة للضغط على اسرائيل ، كما يستطيع طمأنة اسرائيل حول نوايا مصر بواسطة شرح خلفيات المساعدة الاميركية المقدمة لمصر (٢٥٠ مليون دولار) في سبيل اعادة تعمير مدن القناة وتطويرها . وتفسير مغزى سعي القاهرة لتنويع مصادر السلاح، والحصول على السلاح الاميركي .

ومقابل هذه الاوراق الرابحة فقد كان امامه الكثير من الحواجز والصعوبات . فهو مضطر لان يتفاوض في اسرائيل مع حكومة مائير المستقيلة المثقلة بالتصريحات المتشددة السابقة حول عدم الانسحاب من الجولان ، والتي لا تريد ان تنهي حياتها السياسية بتقديم التنازلات . بدلا من التفاوض مع اسحاق رابين المكلف بتشكيل الحكومة الجديدة منذ يوم ٢٦ نيسان ، والذي اصطدم بأكثر من معضلة داخلية منعته من التوصل الى تشكيل حكومة قوية قادرة على اتخاذ قرارات مصيرية . وبالاضافة الى ذلك فان على وزير الخارجية الاميركي ان يصطدم بتصلب سورية المبدئي المدعوم بموقف السوفييت المصممين على مراقبة المفاوضات عن كثب ، والمشاركة الفعلية في ايجاد حل يضمن انسحاب اسرائيل الكامل من الاراضي العربية المحتلة وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه المشروعة .

ولقد سبق قدوم كيسنجر الى المنطقة انباء متعددة عن وجود مشروع اميركي لفصل القوات ، يتضمن انسحاب الاسرائيليين من بعض مناطق الجولان بما في ذلك القنيطرة . بيد أن وزير الخارجية الاميركي نفى هذه الانباء فور وصوله ، واعلن انه لم يأت لفرض الحلول او طرح المشروعات ، ولكنه جاء لسماع المقترحات المتبادلة، بغية ايجاد وسيلة يمكن بواسطتها تقريب وجهات النظر المتباينة . وانطلاقا من هذه النقطة بدأ كيسنجر « رحلاته المكوكية » بين مصر وسورية واسرائيل والمملكة العربية السعودية والاردن ، وكان يحاول في كل لقاء مع المسؤولين العرب او الاسرائيليين سماع وجهات النظر ، وطرح وجهة

النظر المقابلة ، وسماع الملاحظات ونقلها الى المعسكر الاخر . مطبقا خلال هذه الرحلات أسلوبه الخاص في معالجة الازمات . وكان يبدي في كل مرة وبعد كل لقاء مزيدا من التفاؤل بامكانية التقدم في حل الازمة ، دون ان يصل به التفاؤل الى التصريح بامكانية التوصل الى توقيع اتفاق فصل بين القوات . حتى ان موظفا كبيرا من مرافقي وزير الخارجية الاميركي ذكر في القاهرة ، في يوم ٥/٩ « ان المفاوضات التي يجريها الدكتور كيسنجر الان هي اكثر صعوبة ومشقة من المفاوضات التي أنهت حرب فيتنام » .

ولم يترك السوفييت كيسنجر وحده في المنطقة ، فلقد حضر وزير الخارجية السوفييتي اندريه غروميكو الى دمشق ، ومكث فيها يومي ٥ و ٦ ايار ، وأجرى مع الزعماء السوريين مباحثات مطولة ، صدر على أثرها بيان سوفييتي — سوري يؤكد في احدى فقراته « ان عملية الفصل بين القوات يجب ان تعتبر خطوة نحو تحقيق الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة ونحو التوصل الى الحل الشامل والعادل لمشكلة الشرق الاوسط » . وفي السابع من ايار اجتمع وزيرا خارجية الدولتين الاعظمين في قبرص ، وتباحثا في عدد من المسائل المتعلقة بالعلاقات السوفييتية — الاميركية ، كما تباحثا في فصل القوات على جبهة الجولان ، واحلال السلام في الشرق الاوسط . وصدر بعد اجتماعهما بيان مشترك يعتبر ان فك الالتحام في جبهة الجولان هو « جزء من القضية العامة لمسألة تحقيق تسوية في الشرق الاوسط » ، ثم غادر غروميكو قبرص عائدا الى بلاده . وكانت عودته دليلا على ان السوفييت أعادوا طرح تصوراتهم حول الخطوط الرئيسية لحل الازمة ، ثم اخذوا موقف المراقب الحذر المستعد للتدخل في كل لحظة ، وتركوا لوزير الخارجية الاميركي الفرصة ليحاول من جديد في سبيل التوصل الى مخرج يرضى به الطرفان .

ولقد كثرت الانباء حول الاقتراحات، والاقتراحات المعاكسة ، والتعديلات ونقاط اللقاء ونقاط الخلاف بين وجهتي النظر السورية والاسرائيلية . ومن الواضح ان السوريين أبدوا خلال المفاوضات حنكة ودراية سياسيتين ، وتمسكوا بموقفهم المبدئي المنسجم مع قرارات مجلس الامن ، على حين كان الاسرائيليون يفاوضون من موقع ضعيف بعد ان تكلس موقفهم السياسي بحكم اوضاعهم الداخلية والوضع العالمي ، وفقدوا حرية المناورة السياسية ، وأصبحت سياستهم التوسعية المبنية على العدوان والضم مرفوضة في العالم كله ، وعاملا يهدد بتصادم المصالح الاميركية والاسرائيلية. وكانت الدلائل تشير الى ان كيسنجر استطاع التوصل الى نقاط لقاء حول الافكار العامة المتعلقة بانسحاب اسرائيل الى ما وراء الخط البنفسجي ، وخلق منطقة عازلة تفصل بين الطرفين ، وتحتلها قوات دولية (يعتبرها السوريون مراقبين دوليين على حين يعتبرها الاسرائيليون قوات طوارىء دولية) ، وتخفيض حجم القوات على جانبي المنطقة العازلة ، وعودة سكان المناطق التي يتم الانسحاب منها الى اراضيهم . وتمسك السوريون بضرورة اعتبار الانسحاب الاولي لفصل القوات مرحلة من مراحل الانسحاب الكامل ، على حين اعتبر الاسرائيليون ان هذا الانسحاب هو التنازل الاخير الذي يستطيعون تقديمه دون ان يعرضوا أمنهم للخطر .

ثم ظهرت المشكلة الرئيسية عندما انتقلت المباحثات من الافكار العامة الى التطبيق العملي على الارض . وكان الخلاف يدور حول تحديد خط الفصل . فلقد رأى الاسرائيليون ان الحفاظ على وضع استراتيجي سليم ، وضمان امن مستوطناتهم في الجولان لا يتحقق الا اذا احتفظوا بالتلال الثلاثة المحيطة بمدينة القنيطرة ، على حين اعتبر السوريون ان استرجاع القنيطرة دون العودة الى المرتفعات سيجعل خط الفصل متعرجا ، ويجعل القنيطرة المحررة جيبا صغيرا تسيطر عليه المرتفعات من ثلاث جهات (الشمال والجنوب والغرب) .

والحقيقة ان طبيعة الارض في هضبة الجولان تعطي المرتفعات الثلاثة اهمية بالغة ، ولا تؤمن لمن يسيطر عليها تفوقا تكتيكيا فحسب ، بل تمنحه تفوقا استراتيجيا حاسما . ذلك لان السطح المستوي لهضبة الجولان ينقطع فجأة عند هذه المرتفعات ويبدأ بعدها بالانحدار غربا باتجاه سهل الحولة . وتشكل مدينة القنيطرة والارض المحيطة بها امتدادا (على شكل لسان) لسطح الهضبة المنبسط . وهو لسان تحيط به ثلاثة مرتفعات يبدأ بعدها السفح المعاكس لهضبة الجولان . لذا فان وجود القوات الاسرائيلية على خط المرتفعات

المتعرج يعني سيطرتها على سطح الهضبة المنبسط، بما في ذلك لسان القنيطرة ، على حين ان وجود القوات السورية على خط المرتفعات او على خط فصل مستقيم غربي المرتفعات يعني سيطرتها على السطح المعاكس المنحدر غربا ، وعودتها الى الاشراف على سهل الحولة كله .

من هنا جاءت الاهمية الاستراتيجية للمرتفعات ، وعدم اهمية القنيطرة كموقع استراتيجي . ومن هنا جاء استعداد اسرائيل للتخلي عن القنيطرة وعدم استعدادها للتراجع وراء خط المرتفعات حتى ولو بقيت هذه المرتفعات بيد القوات الدولية ولم تعد القوات السورية اليها . لان سيطرة القوات الدولية على المرتفعات ، لا تحرم السوريين من الاشراف على السفح المعاكس وسهل الحولة فقط ، ولكنها تحرم اسرائيل في الوقت نفسه من ميزات استراتيجية هامة ، وتضعها على السفح المعاكس في موقع سيىء لا تستطيع منه الاشراف على سطح الهضبة المستوي ، ولا تستطيع فيه الصمود امام اي هجوم سوري في المستقبل .

وبناء على هذه المعطيات قدم الاسرائيليون مشروعهم الذي حمله كيسنجر الى دمشق في الثامن من شهر ايار. ويشمل هذا المشروع، على ما يبدو، النقاط التالية : ١ — ضم القطاع الشرقي من منطقة القنيطرة (بعد الانسحاب منها) الى المنطقة العازلة التي سترابط فيها قوات الامم المتحدة ، ٢ — عودة السكان الى المناطق التي سيتم الانسحاب منها غربي الخط البنفسجي ، ٣ — الانسحاب من الجيب وضم جزء منه الى المنطقة العازلة ، ٤ — تحتفظ اسرائيل بالتلال الاستراتيجية الثلاثة المحيطة بالقنيطرة، والمشرفة على مستعمرات ميروم هاغولان ، وال روم ، وعين زيوان ، ٥ — تستلم القوات الدولية جبل الشيخ وتحتفظ اسرائيل ببعض المواقع الهامة عليه ، ٦ — تنسحب اسرائيل عدة كيلومترات غربي الخط البنفسجي في القطاع الجنوبي مع الاحتفاظ بتل فرس، ٧ — تبادل الاسرى .

ومن الواضح ان هذا المشروع المبني على مبدأ « قطع أرض مقابل قطع سلام » ، قد اخذ بعين الاعتبار مسألة أمن اسرائيل ، والحفاظ على الوضع الطبوغرافي الجيد ، وحماية مستوطنات الجولان . ولكن كل هذه الميزات لم تجعله مقبولا داخل اسرائيل . ولقد وجهت اليه المعارضة عدة انتقادات أهمها : ١ — انه يتضمن تراجعا وراء الخط البنفسجي ، وهذا مخالف لكل تصريحات الحكومة وتعهداتها ، ٢ — انه يفتح الباب امام تراجعات جديدة ، ويشجع السوريين على المطالبة بمرحلة ثانية من الانسحاب اسوة بالمصريين الذين يطالبون الان بتنفيذ المرحلة الثانية والانسحاب من مناطق تشمل آبار النفط في سيناء ، ٣ — انه لا يحمي سكان مستوطنات الجولان التي ستبقى تحت رحمة المدفعية السورية بعيدة المدى ، ٤ — ان طرح فكرة تقسيم مدينة القنيطرة لا يتناسب مع معارضة اسرائيل المبدئية لفكرة الحدود الدوليسة التي تمر داخل اية مدينة . وهو عمل سيستخدم ضد اسرائيل عند النقاش حول مصير القدس .

وكان من المحتمل ان تصمد الحكومة الاسرائيلية امام المعارضة الداخلية لو ان السوريين قبلوا المشروع ، ولكن دمشق رفضته بشكل قاطع ، لان بنوده لا تتضمن عناصر يمكن ان تؤدي الى فصل حقيقي للقوات . كما اكدت ان عدم التوصل الى فصل حقيقي للقوات سيبقي الوضع كما هو عليه ، وستستمر حرب الاستنزاف التي يمكن ان تتحول في كل لحظة الى حرب محدودة في بعض نقاط الجولان او جبل الشيخ ، او تتفجر على شكل حرب شاملة لن تبقى فيها سورية لوحدها .

وأدى الرفض السوري الى تمديد مهمة كيسنجر الذي عاد الى رحلاته بين دمشق وتل ابيب . وفي يوم ١٤ وصلت المباحثات الى نقطة حرجة ، وحمل وزير الخارجية الاميركي الى اسرائيل وجهة النظر السورية النهائية حول الفصل ، وأكد أحد مرافقي كيسنجر انه سيعود في يوم ١٥ الى دمشق ، وان الساعات الست والثلاثين القادمة ستحدد ما اذا كان وزير الخارجية الاميركي سيتابع جولته في المنطقة ، ام انه سيعود الى الولايات المتحدة . ولكن اندلاع عملية « معلوت » أجلت سفره الى يوم ١٦ ايار .

ثم بدأ وزير الخارجية الاميركي منذ ذلك التاريخ يتحرك بين سورية واسرائيل ، محاولا التوصل الى نقاط لقاء محددة . وكان بقاؤه في المنطقة ، رغم مشاغله كوزير خارجية دولة عظمى ، دليلا على ان لديه بعض الامل بالوصول الى حل .

ولقد طرح كيسنجر خلال هذه الفترة ، ولاول

مرة منذ بداية جولته ، مشروعا اميركيا يتضمن — حسبما نقلته صحيفة نيويورك تايمز (٥/٢٠) — النقاط التالية :

— تنسحب اسرائيل من الاراضي السورية التي احتلتها اثناء حرب تشرين الاخيرة .

— في منطقة القنيطرة ، يتراجع الاسرائيليون الى ما وراء خط وقف اطلاق النار للعام ١٩٦٧ ، ويستعيد السوريون ادارتهم المدنية على مدينة القنيطرة وكذلك على رقعة ضيقة من الاراضي تقع الى الغرب من القنيطرة . وهذه الرقعة المعروفة بجنائنها يحتلها الان المستوطنون الاسرائيليون .

— تعتبر منطقة القنيطرة جزءا من المنطقة العازلة التي ينص اتفاق التسوية على انشائها . وستكون هذه المنطقة محرمة على دخول أي قوة سورية ، ولكن في استطاعة ٦٠ الف لاجىء سوري ان يعودوا الى منازلهم في منطقة القنيطرة الخالية من السكان حاليا .

— تقبل اسرائيل الانسحاب من قريتي الحميدية وبطنية ومدينة الرفيد الى الجنوب .

— تتخلى سوريا عن مطالبتها بالتلال الثلاث المشرفة على القنيطرة وكذلك عن احدى المستعمرات الاسرائيلية .

— تقبل اسرائيل التخلي عن اثنين من المواقع الاربعة التي تحتلها في جبل الشيخ لمصلحة الامم المتحدة .

ولقد اعتبرت الحكومتان السورية والاسرائيلية المشروع الاميركي مقبولا ويمكن ان يشكل منطلقا قابلا للمناقشة . ثم ترددت الانباء عن اتفاق الطرفين على خط فصل القوات ، وبهذا تم حل أعقد نقطة ظهرت منذ بداية المباحثات . وبقي على جدول أعمال الدكتور كيسنجر مجموعة من المسائل المعلقة وهي :

— حجم المنطقة العازلة التي سيتم انشاؤها بين القوات السورية والقوات الاسرائيلية .

— دور الامم المتحدة الخاص بمراقبة المنطقة العازلة .

— عدد القوات السورية والقوات الاسرائيلية في المناطق العازلة المتاخمة للمنطقة العازلة .

— الافراج عن أسرى الحرب .

وبالاضافة الى ذلك ، تأمل اسرائيل في الحصول على بعض الضمانات من الولايات المتحدة . وهكذا يعتقد الاسرائيليون انه على الاميركيين ان يقبلوا القيام برحلات استكشاف فوق المنطقة واستخدام حق « الفيتو » لمنع أية محاولة لالغاء وجود قوة الامم المتحدة في الجولان .

وحتى يوم ٥/٢٣ كان وزير الخارجية الاميركي يتابع جهوده لايجاد الوسيلة اللازمة لحل عدد من المصاعب القائمة بالنسبة الى بعض نواحي فصل القوات ، وذلك بعد ان أبلغه الرئيس نيكسون ضرورة البقاء في الشرق الاوسط ، ريثما يحقق مهمة فصل القوات في الجولان ، نظرا لتمتع هذه المهمة بالاولوية بالنسبة الى جميع مهمات وزارة الخارجية الاميركية . ويؤكد المراقبون الذين يستقون معلوماتهم من مرافقي الدكتور كيسنجر ، انه بالرغم من استمرار العمليات الحربية في الجولان وجبل الشيخ ، فان احتمال التوصل الى اتفاق لفصل القوات أمر قريب الوقوع ، الا اذا وقع خلال الاسبوع المقبل ما يوقف سير المباحثات ، ويعيد المنطقة الى نقطة البداية .

المقدم الهيثم الايوبي

ملحـــق القضية الفلسطينية عسكريا
تقرير حول سعي اسرائيل لاستخدام طائرة الهليكوبتـــر ((كوبرا))

يلعب التسليح دورا أساسيا في طبيعة التكتيك والاستراتيجية اللذين تتبعهما الجيوش . فالتسليح هو الذي يبلور الامكانات القتالية لاي جيش ، وهو الذي يفرض ، والى حد بعيد ، نوعية العمليات التي تستطيع الوحدات المقاتلة انجازها . فليس بالامكان شن حرب خاطفة دون توفر معدات تؤمن سرعة الحشد ، وقوة نارية كبيرة قادرة على توجيه ضربة قوية وسريعة . كما ان اختيار نوع معين من السلاح تفرضه رؤية واضحـة لاحتياجات الدولة الدفاعية او الهجومية . وليست هذه الرؤية في حقيقة الامر سوى احد حلول المشاكل العسكرية المطروحة .

وتتفاوت أهمية السلاح وامكانية الاستفادة منه حسب طريقة وضعه في الاستخدام ، التي تتأثر الى حد بعيد بفهم دور هذا السلاح وفاعليته ، وينعكس كل ذلك على طريقة توزيع الاسلحة على الوحدات وحشد هذه الوحدات . فاستخدام الالمان لحشود من الدبابات في فرق وفيالق مدرعة حقق نتائج افضل بكثير مما حققه الفرنسيون عندما وزعوا الدبابات على قطعات المشاة ، او ما حققه السوفيات في استخدام الدبابات ضمن كتائب مدرعة ، في بداية الحرب العالمية الثانية . او في انسجامه مع باقي اسلحة الوحدة واخذ قدرات العدو بعين الاعتبار ، فقد نجحت الخطة الاسرائيلية في استخدام الدبابات « كسفن في البحر » حسب طريقة يسرائيل تال في حرب ١٩٦٧ ، ودون اي دعم من المشاة . وفشلت الخطة ذاتها في حرب ١٩٧٣ حين دخل عامل جديد ، هو الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات . او في استغلال كل قدرات وطاقـات السلاح بعمليات ملائمة ، فما كان باستطاعة اسرائيل القيام ببعض العمليات الخاصة ، مثل عمليـة اختطاف جهـاز الرادار المصري ابان حرب الاستنزاف ، لولا توفر طائرات الهليكوبتر الضخمة ، واستغلال هـذه الطائرات بشكل مناسب .

ومن جهة اخرى ، كان لحصول اسرائيل على طائرات الفانتوم الاثر الاكبر في تطوير استراتيجيتها بشكل عام . فمن تهديد المواقع التكتيكية القريبة من الحدود ، في الفترة التي سبقت حصولها على هذه الطائـرات ، انتقلت الى تهـديد اهداف استراتيجية في عمق الاراضي العربية . وبالمقابل تأثرت الاستراتيجية العربيـة بصواريخ سـام السوفياتية التي حصلت عليها القوات العربية . فقد قللت هذه الصواريخ مـن سيطرة الطائرات الاسرائيلية على الاجواء العربية ، ومنحت القوات العربية قدرة اكبر على التحرك، والمبادرة بالهجوم، في المناطق التي تقع ضمـن مجال عمل هـذه الصواريخ . من هنا يمكن القول ان كل سلاح يحتل له مكانا في المنظومة العسكرية لاي بلد ، وقد يبقى هذا المكان ثانويا ، او يصبح رئيسيا . وبروز هذا المكان او عدمه نابع بشكل رئيسي من اهمية الاسلحة الاخرى ، ودرجة اعتماد الخطة العسكرية على هذا السلاح او ذاك .

ومع تطور القوات العربية المسلحة ، سواء من ناحية العدد ، او المعدات التـي تستخدمها ، والاساليب التي تتبعها ، سعت القيادة الاسرائيلية الى تطوير معداتها واساليبها ، واعتمدت على هذين العاملين نظرا لصعوبة زيادة اعداد القوات المجندة لديها ، حيث وصلت التعبئة بين صفوف سكان اسرائيل خلال حرب تشرين الاول الى حدها الاقصى الذي لا تستطيع تجاوزه بسهولة . ولا يمكن تجاوزه الا عن طريق جلب مهاجرين شبان من يهود العالم ذوي الولاء المزدوج . وقد اعتمدت عملية تطوير الاساليب القتالية على تطوير المعدات التي تستخدمها القوات الاسرائيلية وزيادة عددها ، وراعت في عمليتها هذه ان تتماشـى الاساليب الجديدة مع ميكانيكية الردع ، والمبادىء العسكرية الاسرائيلية الاساسية في الحرب قصيرة الامد .

وفي اطار هذه الخطة ، قام موشي ديان ، قبيل الحرب الاخيرة وبعدها ، بعدة رحلات الى الولايات المتحدة ، للحصول على طائرات هليكوبتر مقاتلة من طراز « كوبرا » ، وصواريخ ارض ـ ارض تكتيكية من طراز « لانس » . وقويت مطالبة اسرائيل بطائرات « كوبرا » بعد الحرب . وذكرت بعض الصحف ان اسرائيل قد حصلت فعلا على طائرات من هذا الطراز . (نشرة رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٤/٥/١) .

ولهذه الحقيقة دلالات خاصة . فطائرة « كوبرا » ليست مجرد سلاح تقليدي يضاف الى الترسانة الحربية الاسرائيلية ، مثل شحنة جديدة من طائرات فانتوم ، او دبابات سنتوريون . بل هو سلاح يشكل الحصول عليه انعطافا مهما في تطور التكتيك العسكري بشكل عام . وهو ثمرة اتجاه بدأ يظهر بعد حرب كوريا ، وتبلور بشكل واضح في اواسط الستينات ، وتجلى في تسليح طائرات الهليكوبتر العادية بالرشاشات والقذائف الصاروخية ، والصواريخ المضادة للدبابات ، بالاضافة الى تسليح بعض هذه الطائرات بمعدات محاربة السفن . ولم تكن هذه الطائرات ملائمة تماما للقيام بهذه المهمة ، فهي لم تبن في الاصل لانجاز مهمات مشابهة . ولذلك فهي لم تأخذ في الحسبان عدة عوامل مثل الاقتصاد في اعداد طواقم تشغيلها ، فتسليح طائرة هليكوبتر عادية بمدفع رشاش من عيار ٢٠ ملم يتطلب اضافة رجل او رجلين الى الطاقم ، لكون الطائرة غير مجهزة بشكل يسمح للطيار او مساعده باطلاق النار . كما ان زيادة حمولة الطائرة البشرية كان يأتي على حساب حمولتها بشكل عسام ، لا بسبب وزن الرجلين فحسب ، بل بسبب الوزن الزائد في هيكل الطائرة الذي تفرضه المساحة الواجب توفرها لاستيعاب الرشاش وطاقمه أيضا . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت فاعلية اسلحة هذه الطائرة اقل من المطلوب ، نظرا لصعوبة التنسيق بين الطيار ورامي المدفع ، وعدم توفر اجهزة احكام الرمي . وبسبب محدودية مجال عمل طائرة الهليكوبتر العادية ، وعدم قدرتها على العمل في الاحوال الجوية السيئة او في الليل ، وعدم تجهيزها بمعدات ملاحة متطورة .

لذا طورت الولايات المتحدة طائرة الهليكوبتر المقاتلة وبنت طائرة هليكوبتر تمتلك كل مواصفات الهليكوبتر العادية ، من ناحية الاقلاع والهبوط العمودي ، والقدرة الكبيرة على المناورة . بالاضافة الى انها تتفوق عليها من ناحية السرعة والاداء بشكل عام وتتفوق كذلك في قدرتها على الطيران في جميع الاحوال الجوية ، وفي الليل والنهار ، وفي اجهزة الملاحة المتطورة التي زودت بها . ولها في الوقت نفسه كل مواصفات الطائرة المقاتلة وقوتها النارية .

فطائرة هوى كوبرا بيل ٢٠٩ تحمل مدفعا رشاشا ذا ثلاث سبطانات ، ولها اربع نقاط تعليق خارجية لحمل حاضنات قذائف صاروخية من عيار ٧٠ ملم ، او لحمل حاضنتي صواريخ مضادة للدبابات من طراز « تاو » تحمل كل حاضنة ٣ صواريخ . او لحمل قاذفي قنابل من عيار ٤٠ ملم مع ٣٠٠ قذيفة لكل قاذف . او حمل حاضنتين تحمل كل واحدة رشاشا من عيار ٧٫٦٢ ملم مع ٤٠٠٠ طلقة لكل رشاش . ويقود هذه الطائرة طاقم من رجلين ، طيار في المقعد الخلفي ، الذي يرتفع قليلا عن المقعد الامامي حيث يجلس ملاح آخر .

ولقد زودت المناطق الحساسة في الطائرة بصفائح اضافية لحمايتها من نيران الاسلحة الصغيرة . وزودت بصفائح من الاسبست تخفي مصدر الحرارة فيها ، وضبط اتجاه عادمها (الاكزوست) الى أعلى لتضليل الصواريخ ارض — جو الصغيرة التي تطلق من الكتف وتوجه بتتبع مصادر الحرارة ، وتشكل خطرا كبيرا على الطائرات غير السريعة مثل طائرات النقل والهليكوبتر .

ويرجع سبب الحاح الاسرائيليين في الحصول على هذه الطائرة الى قدراتها التكتيكية ، والميدانية ، والى احتياجات القوات الاسرائيلية في قتالها ضد القوات العربية بشكل عام . سواء لاستخدامها في محاربة الفدائيين الذين يستخدمون تكتيك العصابات ، او لمحاربة القوات العربية النظامية بمختلف اسلحتها . فهي تحمل لمحاربة المشاة الميكانيكية او المشاة الراجلة ، المدافع الرشاشة والرشاشات والقذائف الصاروخية ، وتحمل لمحاربة القوات المدرعة الصواريخ المضادة للدبابات . ويمكن استخدام الطائرة بفاعلية في العمليات الخاصة ، وهي العمليات التي كانت القوات الاسرائيلية تركز عليها قبل حرب تشرين الاول كوسيلة نفسية تثبت بها تفوقها ، والتي قد تستخدمها في المستقبل لارباك القوات العربية ، وضرب نقاط استنادها ، وتموينها ، وخطوط مواصلاتها ، ومراكزها الحيوية . وتعتبر الكوبرا من طائرات الدعم التكتيكي القريب ، لان تسليحها يمكنها من ضرب مواقع مدفعية الخصم ومرابض رشاشاته وتجمع آلياته ودباباته . وهي لا تحتاج الى مدارج واستعدادات خاصة لاقلاعها وهبوطها ، ويمكن تزويدها بالذخيرة والوقود من مراكز ميدانية ،

وهذه ميزات اساسية يجب توفرها في طائرات الدعم التكتيكي القريب .

وبمقدور الكوبرا العمل كطائرة استطلاع ومراقبة ميدانية او طائرة استطلاع مسلح . وباختصار يمكن القول ان سبب لهفة الاسرائيليين في الحصول عليها راجع الى ان اوجه استخدامها تزيد من اوجه استخدام اية طائرة مقاتلة اخرى ، وكذلك تزيد فاعليتها فيمجالات عديدة مـــن فاعلية اية طائرة اخرى .

وتكاد هذه الطائرة ان تكون افضـــل الحلول المتوفرة لمشاكل اسرائيل الدفاعية التي نجمت بعد حرب تشرين الاول ، والمتمثلة اولا فـــي وحدات الصواريخ أرض — جو التـــي حرمت الطـــيران الاسرائيلي من تفوقه ، وتسببت بما اصاب اسرائيل في الحرب الاخيرة . وهذه الطائرة مهمة لانها قادرة على دعم الوحدات الاسرائيلية المحمولة جوا ، والتي قد توكل اليها مهمة ضرب هذه القواعد . وقد تقوم بالمهمة اسراب الهليكوبتر نفسها ، فهي افضل في هذا المجال مـــن الطائرات المقاتلـــة النفاثة . لان بامكانها التحليق على ارتفاعـــات منخفضة جدا ، ولها قدرة على المناورة تبطل فاعلية الصواريخ الكبيرة . ورغم قدرة المدافع المضادة ، التي تحمي هذه القواعد ، على التصدي لهـــذه الطائرة ، فان تحليقها على ارتفاعات منخفضة يجعل من الصعب كشفها بواسطة اجهزة الرادار ، وهذا ما يؤمن لها المفاجأة الضرورية التي تسهل مهمتها . اما المشكلة الاسرائيليـــة الثانية التي تحلها الكوبرا فتتمثل في وحـــدات المشاة المزودة بقواذف ر.ب.جي — ٧ وصواريخ ساغر المضادة للدروع . ودور طائرة كوبرا في حل هذه المشكلة لا يتمثل في قدرتها الافضل علـــى محاربة وحدات المشاة ، او في القيام باستطلاع مسلح ومهاجمة هذه القوات فحسب ، بل وفي مهاجمة وحـــدات المدرعات المعادية او التصدي لها ومنعها مـــن التقدم ايضا ويمكن اعتبارها في هذا المجال بمثابة قاعدة طائرة للصواريخ المضادة للدبابات .

وليس هناك اية معلومات حـــول الكمية التي تطلبها اسرائيل من هذه الطائرة . ولكن يبدو انها تحشد بأعداد كبيرة في الجيوش التي أوصت عليها . فقد طلبت ايران شراء ٢٠٢ طائرة من طراز كوبرا الذي ذكرناه . وقبول الولايات المتحدة تزويدها بهذا العدد الضخم يدل ، الى حد ما ، على طريقة استخدامها . والاحتمالات المطروحة هي : ان تكون في الوحدات المحمولة جوا بمثابة الدبابة في وحدات المشاة الآليين . أو أن تكون سلاحا رئيسيا لاسناد وحدات المشاة وترتبط بها عضويا ، الامر الذي سيخفف من حاجة هذه الوحدات الى سلاح الطيران وسيقلل الى حد كبير مـــن مصاعب التنسيق بين اسلحة الجيش المختلفة . وليس من المستبعد ان تستخدم طائرة كوبرا في تشكيلات مثل الطائـــرات المقاتلة ذات الاجنحة لضرب اهداف معادية .

لقد كان الاتجاه نحو بناء طائرة هليكوبتر مقاتلة هو احد الحلول الامريكية لمواجهة قوات الفيتكونغ في فيتنام . وهو اتجاه يصعب القـــول بأنه تبلور بشكل تام . فلـــم ينشب اي صراع حقيقي بين وحدات تتسلح بهذه الطائرات . وقد استخدمت طائرات الهليكوبتر العادية — التي لم تبن كطائرة مقاتلة — المجهزة بصواريخ مضادة للدبابات من طراز س س — ١١ من قبل الاسرائيليين في حرب ١٩٧٣ . وحققت بعض النجاح في حربهـــا ضـــد الدبابات العربية . ويعود سبب نجاحها الى عدم استعداد القوات العربية الى مواجهة حرب كهذه . وليس الى قدرات هذه الطائـــرات الاستثنائية . والحقيقة ان القوات العربية تمتلك فـــي الوقت الحاضر وسائل عدة لمواجهة طائرات كوبرا . كما ان بامكانها تطوير وسائل اخرى فعالة ، وأحد أهم هذه الوسائل هي المدافع الرشاشة ذاتية الحركة المضادة للطائرات من طراز زد . س . يو — ٢٣—٤ الفعالة جدا ضد الطائـــرات التـــي تحلق على ارتفاعات منخفضـــة والرشاشات الثقيلة بشكـــل عام ، وصواريخ سام — ٧ التي تطلق من الكتف ، والتي تقلل من فاعليتها الاجراءات التي اتخذت لحماية الطائرة منها ولكنها لا تلغي هذه الفاعلية رغم ما تتمتع به طائرة كوبرا من قدرة على المراوغة والمناورة .

هشام عبدالله

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٤/١٦ — ١٩٧٤/٥/١٤

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	٤/١٥	١٩٤٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير باص تابع لشركة ايجد	—	—	—	رقم ٧٤/٧٩	٤/١٦
٢	٤/١٣	—	رام الله	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير المقسم الرئيسي في بريد رام الله المركزي	—	—	—	رقم ٧٤/٨٠	٤/١٦
٣	٤/١٥	٩٤٣٠	القدس	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في كاراج سوسيتا واحراق سيارات وجرافات وتراكتورات في الكاراج	—	—	—	رقم ٧٤/٨١	٤/١٨
٤	٤/١٧	١٦٤٠٠	القدس	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في محتويات سينما تسيون(١)	—	—	—	رقم ٧٤/٨٢	٤/١٨
٥	٤/١٣	—	الفارعة/نابلس	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		حرق واعطاب باص تابع لشركة ايجد	—	—	—	رقم ٧٤/٨٣	٤/١٨
٦	٤/١٨	٦٤٣٠	بني براك/ تل ابيب	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اصابة عدد من افراد العدو	—	—	—	رقم ٧٤/٨٤	٤/١٨
٧	٤/١٦	١٧٤٠٠	بين ديرحنا وشيفر	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير باص لشركة ايجد	—	—	—	رقم ٧٤/٨٥	٤/٢٠
٨	٣/١٧	—	المجدل	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في خزانات بترول حليقات	—	—	—	رقم ٧٤/٨٦	٤/٢١
٩	٥/ ١	—	نابلس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية واصابة من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/٨٧	٥/١
١٠	٤/٢٣	—	نحال توت/بيسان	تفجير	لغم مسيطر الكترونيا	٨اصابات		تدمير شاحنة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٨٨	٤/٢٥
١١	٣/٢٥	—	بين مستعمرة النمر والريبة	تفجير	لغم	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٨٩	٥/٥

١٢ — ٤/١٠	—	المعقدة/وادي عربة	تفجير	لغم	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٨٩	٥/٥
١٣ — ٤/١٩	—	طريق القصاص/ سبح السورة	تفجير	لغم	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٨٩	٥/٥
١٤ — ٤/٢٥	—	ماعوز هاتيكار	قصف	مدفعية الهاون	غيرمحدد	اصابة بعض المنشآت	—	—	—	رقم ٧٤/٩٠	٥/٥
١٥ — ٥/ ٥	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير واشعال النيران في محل رهيتيم للاثاث	—	—	—	رقم ٧٤/٩١	٥/٥
١٦ — ٤/٢٨	٢١٤٣٠	جبل الشيخ (المرصد)	كمين	قذائف صاروخية	غيرمحدد	تدمير آلية للعدو	—	—	—	رقم ٧٤/٩٢	٥/٣
١٧ — ٤/٣٠	١٥٤٠٠	جبل الشيخ (معسكر فشكول)	كمين	قذائف صاروخية	غيرمحدد	تدمير آليتين نصف مجنزرتين	—	٢	—	رقم ٧٤/٩٢	٥/٣
١٨ — ٥/ ٢	١٤٠٠	جبل الشيخ (المرصد)	هجوم	أسلحةمختلفة	١٠اصابات	تدمير بلدوزرين ودبابة	—	—	—	رقم ٧٤/٩٢	٥/٣
١٩ — ٥/ ٢	—	جبل الشيخ	هجوم	أسلحةمختلفة	٨ اصابات	تدمير بلدوزر واعطاب ثلاث آليات نصف مجنزرة	—	١	—	رقم ٧٤/٩٢	٥/٣
٢٠ — ٥/ ٧	—	القدس	تفجير	عبوات حارقة	— —	تدمير سيارة أحد ضباط المخابرات	—	—	—	رقم ٧٤/٩٣	٥/٨
٢١ — ٥/ ٨	٥٤٠٠	بات يام/يافا	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	تدمير بوابة مبنى منزل ابراهام تيساك الذي يعمل مع المخابرات الصهيونية واصابة المبنى بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٩٤	٥/٨
٢٢ — ٥/ ٣	١٧٤٠٠	جنوب لبنان وجبل الشيخ	اشتباك وقصف	أسلحة مختلفة	— —	—	٥	١٦	—	رقم ٧٤/٩٥	٥/٨
٢٣ — ٥/ ٨	١٥٤٣٠	بتاح تكفا/تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير سيارة واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٩٦	٥/٨

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة جرحى	اسرى	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٢٤	٥/١١	١٦،٠٠	جنوب لبنان	غارة على قواعدنا من قبل طائرات العدو	—	—	—	—	١	—	رقم ٧٤/٩٧ ورقم ٧٤/٩٨	٥/١١
٢٥	٥/١٠	—	طولكرم	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد	اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٩٩	٥/١٣
٢٦	٥/١٢	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد	—	—	—	—	رقم ٧٤/١٠٠	٥/١٣

ملاحظة : ١ — تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

٢ — قامت سلطات العدو باعتقال عدد من المواطنين خلال هذه الفترة ، وبعد العمليات العسكرية ، كما يبين الجدول المرفق من مكتب الارض المحتلة :

البلـــد	عدد المعتقلين
١ — نابلس	٥١
٢ — كفر الديك	١٠
٣ — الخليل	٣
٤ — حيفا	٢
٥ — جنين	٣
٦ — القدس	٢٦٠
٧ — غـــزة	٣٠
المجموع	٣٥٩

١ — اعترف العدو بالحادث ، راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥١٢ ، ص ٣٩٢ بتاريخ ١٩٧٤/٤/١٨ .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٤/١٦ — ١٩٧٤/٥/١٤

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	٤/١٤	—	ناتانيا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اصابة الحديقة العامة باضرار	—	—	—	ن٠ عدد٥١١ ص٣٦٠	٤/١٧
٢	٤/١٨	٦٤٣٠	بني براك	تفجير	عبوة ناسفة	—	١٢	—	—	—	—	ن٠ عدد ٥١٢ ص٣٩٧	٤/١٨
٣	٤/١٧	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	تدمير سيارة نقل وقتل صاحبها تسيون ابراجيل	—	—	—	ن٠ عدد٥١٢ ص٣٩٩	٤/١٨
٤	٤/٢٣	—	ناحال جتيت	تفجير	لغم	٤	٣	اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	ن٠ عدد٥١٨ ص٥٤٧	٤/٢٦
٥	٥/ ١	—	نابلس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	—	—	—	—	ن٠ عدد٥٢٢ ص٣٥	٥/٢
٦	٥/ ٨	—	بتاح تكفا	تفجير	عبوات ناسفة	—	٥	تدمير شاحنة عسكرية	—	—	—	ن٠ عدد٥٢٨ ص٢٠٠	٥/٩
٧	٥/١٠	—	زرعيت	قصف	قذائف البازوكا	—	—	—	—	—	—	ن٠ عدد٥٣٠ ص٢٦٢	٥/١١

ن٠ نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

صدر المجلد السنوي السابع من

السياسة الدولية

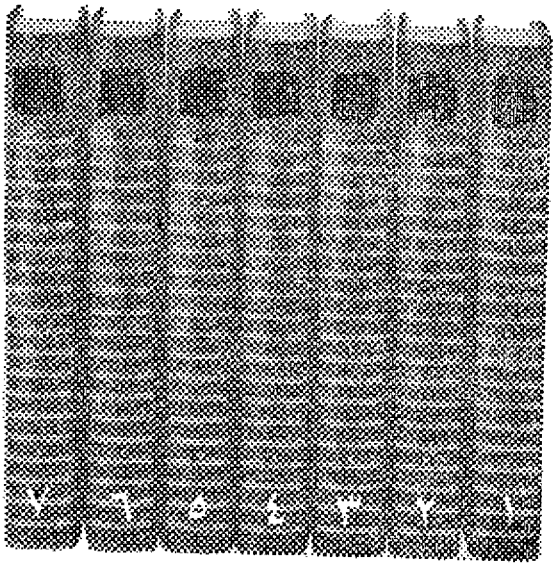

- مرجع عالمي للعاملين في الحقل السياسي والدبلوماسي والإعلامي .
- المجلد مزود بفهرس تحليلي وفهرس للمعاهدات والاتفاقات الدولية .
- ١٠٠٠ صفحة ... الثمن ١٠٠ قرش
- يطلب من قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام ومكتبة الأهرام بشارع محمد فريد والمكتبات الكبرى في الوطن العربي
- يضم الأعداد ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ الصادرة خلال عام ١٩٧١

رئيس التحرير
د. بطرس بطرس غالي

مدير التحرير
د. عبد الملك عودة

إستيراد وتصدير
لجميع أنواع الورق والكرتون
للمجلات والكتب

محمد خليل الداعوق

شارع المعرض — بيروت — لبنان
مكتب تلفون : ٢٣٤٦٤٥ ٢٢٨٠٤٢
مستودع تلفون : ٢٩٣٩٣٢

شركة الالبان اللبنانية
"فورموست"

ش.م.ل.
صندوق البريد ١١ - ٦٣٧٢ - بيروت، لبنان - تلفون ٤٣١٨٣٣ - ٤٣١٩٣٠
بحل تجاري جبل لبنان ٢٠٦٣ - العنوان البرقي: فورموست - بيروت

Lebanese Foremost Dairies
S.A.L.

KFARCHIMA

في العالم أجمع
هذه الأعمدة هي رمز بعلبك

في العالم أجمع
رمز جودة السجاير

مارلبورو

Soft Pack or Flip Top Box

A quality product from PHILIP MORRIS Inc., Richmond, Va., U.S.A.

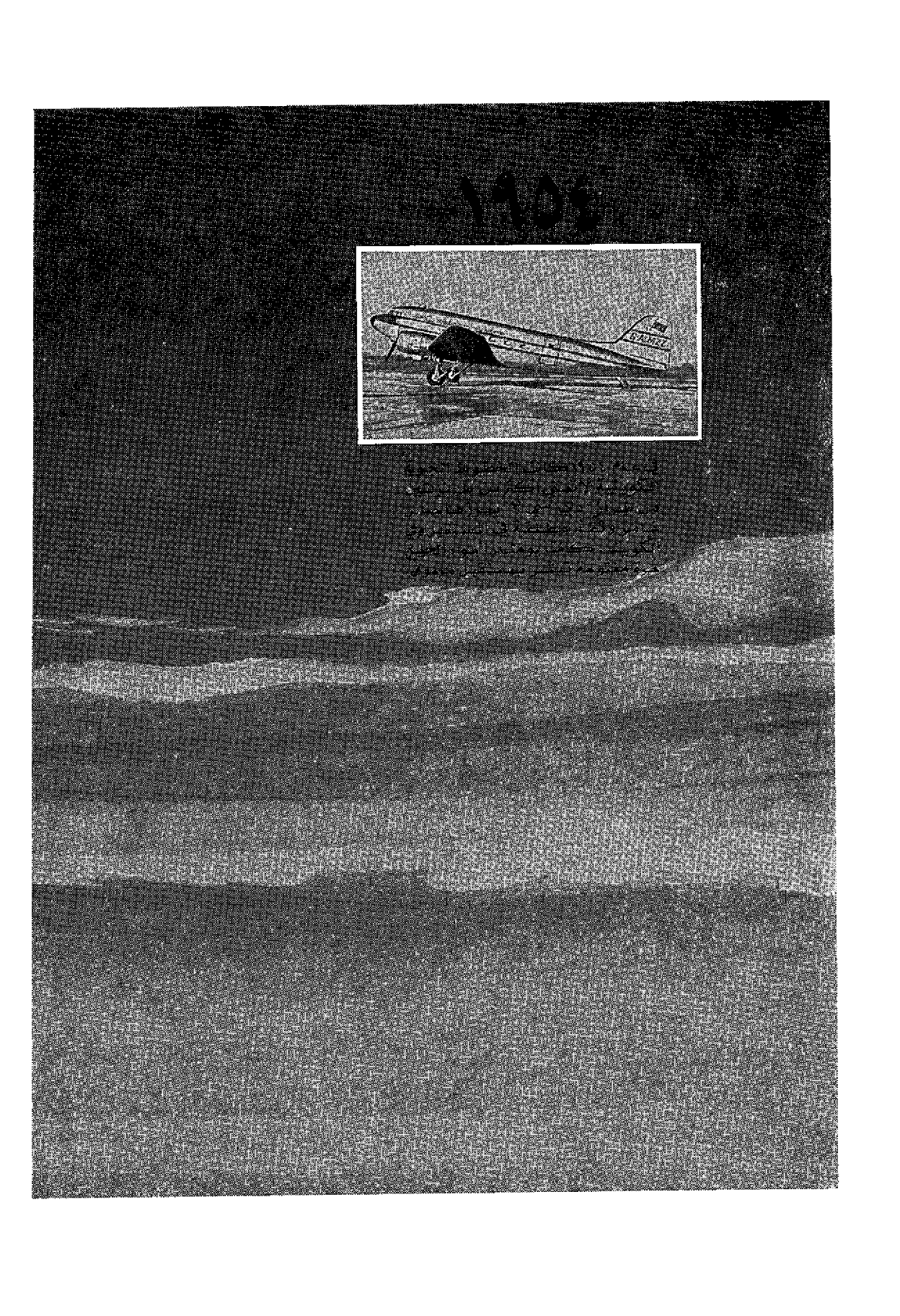
١٩٥٤

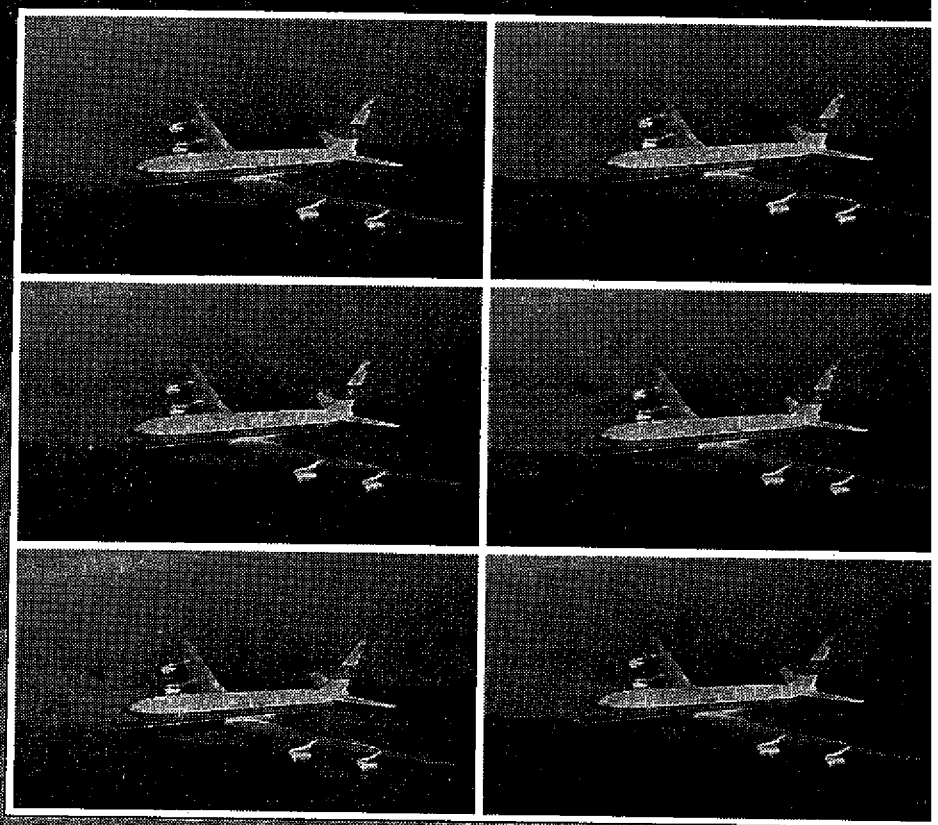

وفي عام ١٩٧٤ بعد مرور ٢٠ عاماً على تأسيس شركة الخطوط الجوية
الكويتية بأي وصف يمكن التعبير عن
الخطوط الجوية الكويتية بأي وصف يمكن التعبير عن
الخطوط الجوية الكويتية

الكويتية
٢٠
عاماً

الخطوط الجوية الكويتية

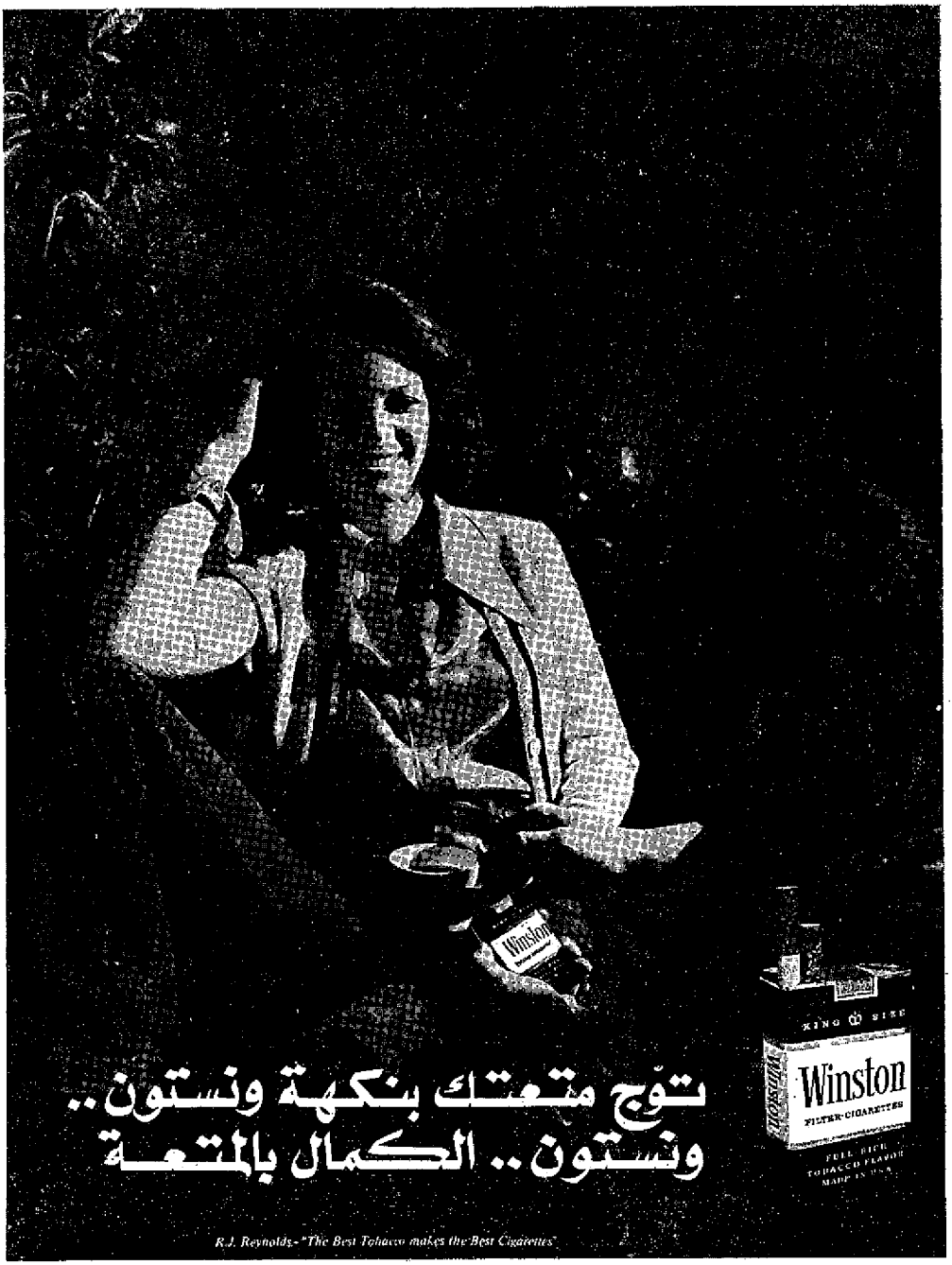
تتوّج متعتك بنكهة ونستون..
ونستون.. الكمال بالمتعة
Winston
KING SIZE
Winston
FILTER-CIGARETTES
R.J. Reynolds-"The Best Tobacco makes the Best Cigarettes"